اسد الاشقر

# الخطوط الكبرى في
# تاريخ سورية
## ونشوء العالم العربي

الجزء الأول
القسم الثاني

الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط

# الخطوط الكبرى
# في
# تاريخ سورية
## ونشوء العالم العربي

منشورات مجلة فكر

حقوق النشر والطبع محفوظة

الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٠

# المجمع الحضاري الرسولي الأول والوحيد حتى اليوم في العالم

اسد الاشقر

# الخطوط الكبرى
# في
# تاريخ سورية
## ونشوء العالم العربي

الجزء الاول

القسم الثاني

الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط

# فهرس


تمهيد ١٣

مدخل

النهضة الفينيقية ونشوء قرطاضة ٢١


## الفصل الاول

### عناصر الصراع


● قرطاضة

- ميلاد قرطاضة ٣٥
- نشوء قرطاضة ٣٩
- سلطان قرطاضة يتوطد ٤١
- الحرب القرطاضية الاولى ٤٣

● الظاهرة الرومانية القومية ٤٤


### بدء الحرب الفينيقية الاولى


● صقلية للرومان

- الرومان ينقضون المعاهدة ٥٣
- الهجوم القرطاضي المعاكس ٥٧

● مستقبلنا على المياه

- تجربة الرومان البحريه الحربية الاولى ٦٢
- من صقلية الى افريقية ٦٥
- عودة الصراع الى صقلية ٧٠


### هميلقار برقة


● انسان جديد تألبت عليه المثالب

- هملقار وحكومة قرطاضة ٩٧
- هميلقار في صقلية ١٠٠
- هميلقار يعود الى قرطاضة ١٠٦
- هميلقار ينقذ قرطاضة من ثورة المرتزقة ١٠٩
- قرطاضة تخسر سردينيا

● هميلقار يجسد فكره الجديد في اسبانيا ١١٢

● هسدر وبعل والمعاهدة المشؤومة مع الرومان ١١٧

هنيبعل برقة

● هنيبعل والعلة القرطاضية ١٢١
● هنيبعل ضد روما
- الثأر الحضاري ١٣١
- جيش هنيبعل ١٣٤
- هنيبعل يعبر جبال الالب ١٣٧
● معارك هنيبعل في ايطاليا ١٤٠
- المعارك الثلاثة الاولى ١٤١
- من ترازيمان الى كاني ١٤٩
- صليبية رومانية على هنيبعل ١٥٧
- معركة كاني ١٦٠
● سراب الانتصار الهارب
- هنيبعل لا يزحف على رومة ١٦٦
- رومة بعد كاني ١٦٧
- بين هنيبعل وقرطاضة بعد كاني ١٧٣
- مأزق هنيبعل في ايطاليا بعد كاني ١٨٧

## الفصل الثاني

سيبيون ضد الامبراطورية الفينيقية في غربي المتوسط

● سيبيون يطل على دنيا الحرب الواسعة ١٩٥
● سيبيون يصفي قاعدة هميلقار الكبير ١٩٩
● سيبيون ينتخب قنصلا ٢٠٨
● سيبيون يهيء حملته على افريقية ٢١٥
● سيبيون في افريقية ٢١٩

سيبيون على ابواب قرطاضة

● هنيبعل ينتظر النجدات ٢٢٩
● هنيبعل يغادر ايطاليا الى افريقية ٢٣٦
● معركة زاما ٢٣٩
● بعد زاما
- زاما في عبرها ونتائجها البعيدة ٢٤٥
- هنيبعل في قرطاضة ٢٤٧
- سيبيون امام اسوار قرطاضة ٢٤٨
- معاهدة الصلح ٢٤٩

محاولة هنيبعل الاخيرة


● هنيبعل يصارع نظام قرطاضة متأخراً ٢٥٣
● هنيبعل يغادر قرطاضة الى الشرق ٢٦٠
● الصراع في شمالي المتوسط ٢٦٤
● نهاية هنيبعل ٢٦٨


انتفاضة قرطاضة الاخيرة


● قرطاضة في سنواتها الاخيرة ٢٨٩
● "يجب تدمير قرطاضة" ٢٩٨
● قرطاضة تنتفض وتقاوم ٣٠٩
● دولة متحجرة وشعب يصارع حتى النهاية ٣١٥
● المعركة الاخيرة ٣٢٢

□ اثار كنعانية على الشاطىء السوري ٧٩
□ الخرائط ١٩١
□ اثار كنعانية في غربي المتوسط ٢٧١
الاشارات ٣٢٧
المراجع ٣٣٠

# تمهيد

يتضح للقارىء ، في سياق هذه الدراسة التاريخية الموضوعية ، ان المنطقة الجغرافية التي نسميها « الهلال الخصيب » أو « سورية الطبيعية » تكون بيئة طبيعية واحدة . وهي ، بالحضارة التي تبلورت فيها ، تعبر عن وحدتها الطبيعية تعبيرا عفويا صادقا كما تعبر ايضا جميع الموجات العربية والاقوام غير العربية التي استوطنت هذه البيئة ، سواء في الشرق في وادي الرافدين ، أم في الغرب على شواطىء المتوسط ، أم في الشمال جنوبي جبال طوروس ، أم في الجنوب من البادية صعدا نحو دمشق ، والتي تصادمت وتفاعلت وانتجت ايجابيا الامة السورية العربية ، ونبذت الشعب اليهودي المتحجر الذي عصى جميع نواميس التفاعل والانصهار في بيئة طبيعية واحدة .

وتتضح من هذه الدراسة ظاهرات رئيسية تعلن :

١ ــ ان الجزيرة العربية وسورية الطبيعية تكونان منطقة متوسطية في نزوعها واتجاهها ونفسيتها حملت حضارتها الى الغرب المتوسطي لا الى الشرق .

٢ ــ ان الهلال الخصيب ، أو سورية الطبيعية ، كانت القاعدة الحضارية والبوتقة الصاهرة جميع الموجات الصاعدة من الجزيرة العربية المتفاعلة ايجابيا مع جميع الذين سبقوها في التحضر ، والحاضنة الصاهرة جميع الاقوام التي تسربت الى بيئتها بعد ان كانت لها الغلبة والسيطرة الثقافية والسياسية ، منذ سرجون الاول الاكادي القديم .

٣ ــ ان معالجة المؤرخين لهذه البيئة الواحدة بتجزئتها الى بيئتين ، « ما بين النهرين » و « سورية الغربية » ، كانت نتيجة وقوع هذه البيئة تحت سيطرات غريبة من مصرية وفارسية ومقدونية ورومانية ومغولية وغربية

حديثة ، فخضعت حقيقتها الجغرافية والقومية للمفاهيم الاجنبية المختلفة ، وللارادات المغرضة ، وللكيفيات الغبية ، وللاجتياحات البربرية من الشرق ، وللاغراض الاستعمارية والعرقية والدينية من الغرب ، فكانت تتقاذف حقيقتها جميع هذه العوامل حتى انتهت الينا مشوهة تشويها محزنا .

أما وقد بدأ الانسان والفيلسوف والعالم المولع بالحقيقة في الغرب يتخلص من قيوده العرقية والطائفية ومن الاحكام المسبقة الاعتباطية ، فان علماء الغرب ومؤرخيه كانوا في مقدمة المتحررين .

وكما تحرر هؤلاء العلماء والمؤرخون من العرقية والطائفية واطلاق الاحكام الاعتباطية ، كذلك تحرروا من تأثيرات المؤرخين والجغرافيين المغرضين القدماء الذين كانوا يفكرون ويكتبون تحت تأثير دولهم وعصبياتهم القومية . وقد نوه مؤرخون عديدون في هذا العصر بذلك اذ اكتشفوا واكدوا ان تاريخ سورية — ومنه تاريخ قرطاضة — قد كتبه أعداء السوريين بأهواء عدائية ، وعنهم نقل مؤرخون لم يكلفوا انفسهم عناء التحقق .

ولنا مثل صارخ على تحيز المؤرخين والمفكرين الغربيين القدماء وعلى عدالة بعض المؤرخين والمفكرين الحديثين : في تحامل القدماء على العرب المسلمين وتصويرهم من فجر نهضتهم حتى اخر الحروب الصليبية كأنهم برابرة زاحفون لتهديم الحضارة الغربية ، بينما المؤرخون الحديثون قد نقضوا كل ما كتبه القدماء المغرضون المتحيزون وبينوا ان الدولة العربية — السورية في دمشق وبغداد هي التي حفظت التراث الحضاري العالمي في القرون الوسطى، وان بذور النهضة الغربية (La Renaissance) التي تعتبر مفخرة أوروبا الحديثة هي وليدة بذور ايطالية وعربية وصلت الى الغرب عبر اسبانيا .

كذلك بدأ المؤرخون والمفكرون الغربيون الحديثون يقدمون لنا في دراساتهم العديدة جميع المعطيات الاثرية والتاريخية التي تساعدنا على بناء تاريخنا بناء صحيحا . واذا كانوا لم يتمكنوا من وضع هذا التاريخ متسلسلا من فجره حتى اليوم ، فانهم اعطونا ، بدراساتهم وتنقيباتهم وتفكيرهم السليم العادل ، كل المعلومات الصحيحة لنتولى نحن كتابة هذا التاريخ ، تاريخنا الطويل .

ان ما قدمه علماء الاثار والمؤرخون والمفكرون لاحياء حقيقتنا الحضارية يكاد يعوض عما خربه الاستعمار الغربي في بلادنا . ولولا ما كتبوه وما أخرجوه لنا من بطون الارض وقدموه لفكرنا وللعالم باخلاص العلم المجرد ، لما كان بين أيدينا الان الا القليل من المادة التاريخية الصالحة والثابتة .

ولو ان رجال العلم والثقافة في بلادنا أعطوا العالم العربي بعضا يسيرا مما أعطاه هؤلاء العلماء والمفكرون الغرباء من دراسات علمية كاشفة للحقيقة، كأن يتناول المثقفون عندنا هذه الدراسات الضخمة ليستخلصوا منها تاريخا صحيحا لبلادهم ، لما كنا حيث نحن اليوم بعيدين عن حقائق حياتنا ، الكبرى ،

المتدة منذ آلاف السنين ، وغائبين عن هذه الحقائق الحياتية ونواميسها .

لم تقدر الجزيرة العربية ، بالنسبة الى طبيعة أرضها القاحلة بالدرجة الاولى ، والى موقعها الجغرافي المتنحي بالدرجة الثانية ، أن تلعب دورا حضاريا قبل النهضة العربية الاسلامية . فحضارتها ، حتى في جنوبها ، كانت ثانوية بالنسبة لما حدث في سورية ومصر مهدي الحضارة الاولى . ولعل أهم مهماتها التاريخية قبل الاسلام كانت في تقديمها العنصر البشري الصالح لسورية ، وفي مدها باستمرار بهذا العنصر الاساسي الغالي لتمكنها من التغلب على جميع العناصر الغريبة التي يجب صهرها في البوتقة العربية ـ السورية . قبل الاسلام ، كانت محاولة تدمر العظيمة لطرد الرومان من سورية ومن شرقي المتوسط جميعه . ولم يكن دور الانباط على مدى الف سنة ، ودور اللخميين على مدى أبعد ، الا تمهيدا لمجيء العرب المسلمين لانقاذ سورية من أيدي الدخلاء المغتصبين الذين دام تسلطهم نحو اثني عشر قرنا ( من ٥٣٩ ق.م حتى ٦٣٦ ب.م. ) .

بالرغم من غياب الجزيرة العربية عن المسرح السياسي العالمي قبل الاسلام ، فان دورها في سورية منذ أقدم العصور كان من أعظم الادوار التي بقيت حتى الان بدون تفسير وايضاح . وهذا التقصير في كشف الحقيقة الانسانية القائمة بين سورية والجزيرة العربية يعود الى تلك الاوضاع المعقدة والمتبدلة التي توالت على سورية منذ آلاف السنين ، والى المرحلة الحضارية القبلية التي لم تتمكن الجزيرة من الخروج منها نظرا لمواردها المحدودة . وقد كان لسيطرة البرابرة من سلجوقيين ومماليك وتتر وعثمانيين على سورية والجزيرة العربية والعالم العربي وتخريبهم جميع خطوط الفكر الحضاري أثر كبير في طمس جميع الحقائق العربية ، اذ أوقف النشاط الفكري في جميع حقوله وعطل فعل العقل حتى لم يبق من مطلب للانسان في هذا العالم العربي الا أن لا يسلب حياته .

لقد تدنى التفكير السياسي والفلسفي والتاريخي في جميع شعوب العالم العربي الى مستوى البدائية الاولى ، وانحط الوضع الاجتماعي الى حالة الاقوام المفسخة دوائر قبيلية وقروية صغيرة ومقزمة . وضلت هذه الفئات المتخلفة عن كل قيمها ومثلها العليا ومفاهيمها ومقاييسها الصحيحة ، وعادت أدراج القرون الى بدائيتها الاولى .

والحقيقة ، ان قرون البربرية الجديدة ، السلجوقية والمماليكية والتترية والعثملية ، التي قاست جميع الشعوب العربية من أساليبها اللاانسانية ، قد سحقت نفسية هذه الشعوب . ولا طاقة لاي شعب في العالم ، مهما كان راقيا ، الا أن يعود ، تحت ذلك الضغط الوحشي ، الى حالة مجردة من حضارته التي انبثقت من تفاعله القومي الاجتماعي وعن حياة طويلة تمارس فيها جميع القيم والفضائل والمفاهيم الراقية .

قبل البدء بهذه الدراسة التاريخية ، علينا ان نوضح الامور الآتية لتكرار ورودها ولاهميتها بالنسبة الى فهم المداليل التاريخية والحضارية التي نريد الكشف عنها وايضاحها :

١ ــ (L'Asie antérieure) وقد ترجمناها « آسية الامامية » ويعني بها الغربيون « سورية الطبيعية » و « آسية الصغرى » و « الجزيرة العربية » اي الاقطار التي يعتبرونها متوسطية أكثر منها شرقية، اذ يعتبرون الشرق الفعلي ابتداء من ايران امتدادا نحو الشرق البعيد . وهم يعنون بهذا التعبير « » حسبما يفهم المطالع من كتاباتهم الكثيرة « سورية الطبيعية » بصورة أخص ، لان سورية الطبيعية هي التي لعبت الدور الاكبر عبر التاريخ .

٢ ــ الشرق القديم (L'Orient ancien) وهم يعنون بهذا التعبير « الهلال الخصيب » اي سورية الطبيعية بصورة خاصة ، وتدخل مصر ايضا في هذا التعبير . وليست الاقطار الاخرى ، مثل آسية الصغرى وايران الا ثانوية . لانهم عندما يقولون مثلا « وقد انتقلت المبادىء الحضارية من الشرق القديم الى اليونان » يعنون من سومر وبابل وأشور وفينيقيا ومصر ، لانهم بتعبيرهم هذا يعنون الشعوب « الخلاقة » . فآسية الصغرى مثلا لم تكن خلاقة بل منفعلة بالحضارة السورية بالدرجة الاولى وبالحضارة المصرية بالدرجة الثانية . وكذلك ايران .

٣ ــ وادي الرافدين ، وسورية ، وفينيقيا ، وفلسطين :

لقد ضلل العلماء والمؤرخون الغربيون الدارس من حيث لا يقصدون . فهم يستعملون حينا « الهلال الخصيب » ليشمل هذه المناطق جميعها ، ويستعملون حينا اخر وادي الرافدين وسورية ليعنوا الشق الشرقي والشق الغربي من الهلال الخصيب ، لان انقسام سورية القديمة بين البابليين ــ الاشوريين وبين الكنعانيين ، وانقسام سورية الخاضعة للنفوذ الاجنبي بين الفرس والبيزنطيين ، واستمرار فينيقيا الى اخر عهودها مدبرة عن الداخلية ومتوغلة في البحر ، وعدم نهوض سورية في القرن التاسع عشر للم شعتها وتكوين وحدتها كما فعلت اليونان (١٨٢٩) وكما فعلت ايطاليا (١٨٦٠) وكما فعلت أمم البلقان وأمم عديدة في العالم ، ثم انهزام العثمانيين وتقسيم سورية بين دول استعمارية واقامة عرشين ملكيين وجمهوريات متعددة في آن واحد .. كل ذلك في الحقبة التي كانت تتم فيها اكتشافات علماء الآثار والمؤرخين . فلم يتمكن هؤلاء العلماء والمؤرخون من أن يكتبوا عن الهلال الخصيب كوحدة قومية وسياسية قائمة ، خاصة عندما يكون اصحابها قد عجزوا عن اقامتها ..

لذلك ظلت ابحاثهم منفصلة بعضها عن بعض لا تكون مندمجا قوميا واجتماعيا وحضاريا واحدا ، ولكنها تقدم للدارس المتعمق في درسه كل العناصر ليكون ذلك المندمج . فكل دراسة قام بها أولئك العلماء والمؤرخون

نراها تقدم العناصر التي يمكن ان يبنى منها صرح واحد . فهي كالحجارة المنحوتة ، المجموعة أو المبعثرة ، والجاهزة ليرفع بها المهندسون والبناؤون بناء ضخما عاليا متماسكا . أو هي كقطع سيارة كاملة في جميع مقوماتها تنتظر الميكانيكي البارع والمعني بها ليجمعها ويكون منها سيارة كاملة .

٤ ــ يتبين من سياق هذه الدراسة التاريخية الموضوعية البعيدة كل البعد عن الآراء الشخصية ، ان المؤرخين والعلماء الغربيين قد تحدوا الآراء الراسخة في حضارتهم وأعادوا أساس كل شيء حضاري الى « الشرق القديم » أي سورية ومصر . واذا بدت بعض الآراء كأنها شخصية ، فلأن حقائق تاريخنا قد طمست خلال مئات السنين حتى أمست تبدو لنا مستغربة. ولذلك يطلب من القارىء أن لا يبدي رأيه قبل الانتهاء من هذه الدراسة حتى يتمكن من تكوين فكرة صحيحة عن تطور أمة هي اغنى أمة في العالم بالاحداث الضخمة التي طرأت عليها ، وبتبدل أوضاعها السياسية والاجتماعية وأسماء مناطقها ، وتغير اتجاه حضارتها بقصد من ارادات وغايات دخيلة عليها ومغتصبة القيادة فيها ، كما حدث في العصور الفارسية والمقدونية والرومانية والبيزنطية والسلجوقية ــ العثمانية والانغلو ــ فرنسية الاخيرة .

لا يمكن الوصول الى حقائقنا التاريخية ، الا اذا قدرنا أن نعود الى البداية التاريخية الصحيحة ، الى الزمن الذي تبلورت فيه شخصية مجتمعنا السوري ــ العربي بلورة واضحة بجميع معانيها القومية والاجتماعية والانسانية .

فمنذ ان سيطرت الاقوام الاولى الصاعدة من الجزيرة العربية الى الهلال الخصيب ، واطلت شخصية سرجون الاول الكبير ( حوالي ٢٣٠٠ ق.م. ) وشخصية حمورابي الاموري العظيم ( حوالي ١٧٨٦ ق.م. ) ، ومنذ تمركز الكنعانيون على الشاطىء السوري وتوغلوا في ارض الجنوب ( كنعان ) ثم حولوا بحرهم الى جزء من القارة الحضارية التي خلقوها ... ، منذ ذلك الزمن ، حدثت في الهلال الخصيب ، أو في سورية الطبيعية ، ظاهرات تاريخية ثلاث كان لها أثرها البعيد في تاريخ سورية وتاريخ الانسان : الاولى هي البابلية ــ السورية في وادي الرافدين ، والثانية هي الكنعانية ــ السورية الشاطئية المدبرة عن اليابسة والمندفعة في أبعاد المتوسط ، والثالثة هي الآرامية السريانية السورية التي جمعت بين الشاطىء وما بين النهرين وخلقت المندمج (Synthèse) بين قطبي الحضارة السورية المشرقي والمغربي.

وهذه الظاهرات الثلاث هي المثلث الذي يرتكز عليه كل تاريخنا من خمسة الاف سنة حتى اليوم ، بعد اقصاء الظاهرة العبرانية الشاذة التي كان يفترض فيها أن تنسجم مع الظاهرات الثلاث بعد التصادم والتفاعل اللذين حدثا ، ولكنها شذت وتحجرت وأمعنت في شذوذها وتحجرها حتى اليوم لاسباب سنأتي على تفصيلها في فصل خاص من هذه الدراسة .

لم تكن الظاهرة الحضارية البابلية ـــ الاشورية الكبرى ظاهرة عابرة قصيرة الحياة حتى لا يسترعي انهيار بنائها انتباه العالم والتاريخ ، وانتباه السوريين بصورة خاصة . ان التحضر البابلي مع حمورابي ، الشخصية العالمية الاولى في تاريخ الانسان ، هو حجر الزاوية في بناء التمدن الانساني . لذلك أصبح من الضروري درس حياة هذه الظاهرة الانسانية وكيفية توزع مفاعيلها وتأثيراتها في حياتنا وفي حياة الانسانية . فمن اطلالة سرجون الاول على دنيا الهلال الخصيب ( حوالي ٢٣٠٠ ق.م. ) الى سقوط الدولة النيوبابلية ( ٥٣٨ ق.م. ) تمر ثمانية عشر قرنا كانت الدولة القارية البابلية ـــ الاشورية تسيطر خلالها على وادي الرافدين سيطرة تامة وعلى سورية الغربية في فترات متقطعة قصيرة ، اما في المراحل الاشورية الاخيرة وفي عهد الدولة النيوبابلية فان السيطرة كانت غالبا شاملة .

وقد يبدو ، في الشكل والظاهر ، ان انهيار الدولة الاشورية العسكرية، ثم انهيار وريثتها الدولة النيوبابلية ، يشبهان ، بفجائيتهما ، تفكك الامبراطورية المركبة (Empire composite) ، وهي الممتدة الى خارج مجتمعها وحدودها الطبيعية ، المكونة من عناصر مختلفة تلك التي لا يمكن الاستمرار في جمعها تحت حكم مركزي واحد نظرا لتنافر عناصرها البشرية ولتصادم اهدافها وقضاياها المصيرية ، وهي تنتظر دائما سانحة ضعف يبدو على مركز الامبراطورية لتنتفض عليه . الا ان ذلك لا ينطبق على الدولة الاشورية ومن بعدها الدولة النيوبابلية ، فهي لم تكن مكونة من أوطان عدة ومن أمم مختلفة ذات شخصيات قومية متميزة لها تاريخها القومي وأرضها القومية ، كما كان شأن الامبراطوريتين المقدونية والرومانية قديما والامبراطوريات العثمانية والنمساوية والبريطانية حديثا . ان الدولة الاشورية ـــ البابلية كانت قائمة في وطن واحد وجامعة عناصر شقيقة تخضع للتفاعل السلبي والايجابي في دورة حياة متكاملة على امتداد الوطن الواحد . فتفككها وانهيارها خضعا لعوامل داخلية وخارجية مختلفة كليا عن عوامل تفكك وانهيار الامبراطوريات المركبة (Empire composite) وخصائصها .

كما ان الظاهرة الكنعانية لم تكن أيضا عابرة ، خفيفة الاثر ، ولم يكن اندفاعها في البحر نوعا من التلاشي والانتحار . انها طبعت حوض البحر المتوسط بطابعها وأعطته بذور الحضارة ، فكان بينها وبين الاغريق الاول تفاعل حضاري ادى الى انتقال بذور الحضارة السورية ، البابلية ـــ الكنعانية ، الى الغرب . وكان ، بعد تبلور الابجدية الفينيقية واكتشاف الاطلنطيك ، أن عمت الحضارة الكنعانية السورية غربي البحر المتوسط في قرطاضة ومستعمراتها .

أما الظاهرة الثالثة ، فهي ظهور الآراميين ومرافقتهم ، منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، تطور الحياة السياسية والقومية والاجتماعية والثقافية

والاقتصادية في وادي الرافدين وفي غربي سورية مرافقة دائمة ، ودورهم الكبير الفاعل فيها ، مما آل الى انتصارهم قوميا واجتماعيا وثقافيا بالرغم من انكسارهم السياسي والعسكري . حتى يمكننا أن نؤكد ان الوحدة القومية ، التي عجزت عن تحقيقها امبراطوريات أشور وبابل الجديدة وصور وقرطاضة ، قد حققتها الثقافة الآرامية . وان هذه الثقافة القومية ابقى وأفعل من جميع معطيات العبقريات البابلية — الاشورية والكنعانية . فقد تمكن الاراميون من فرض لغتهم وتعميمها على جميع مناطق الامة السورية من مشرقها الى مغربها . وقد كان لهذا العامل — وحدة اللغة — دور كبير في حفظ التراث السوري وجمعه وتأمين تفاعله وارتقائه ، واستمرار فعله القومي حتى مجيء العرب المسلمين اذ كان لنشاطه التفاعلي السوري — العربي في البادية السورية — العربية تأثير حضاري كبير ادى الى تسهيل صعود العرب المسلمين الى القاعدة السورية كما سنرى في الاجزاء اللاحقة من هذه الدراسة .

# مدخل

## النهضة الفينيقية ونشوء قرطاجة

« اما بالنسبة لسورية ، المحوقة بالغزوات والحروب طيلة خمسين سنة، فانها ستنبعث من جديد غنية ومزدهرة اكثر من أي وقت مضى . فالمرافىء الفينيقية القديمة صمدت تجاه المحنة . وبعد ان تخلصت من المزاحمة البحرية الاشية والكارية والقبرصية ، ستمارس ، بلا منازع ، هيمنة بحرية وتجارية حتى القرن الثامن . صور وصيدا وبيروت وبيبلوس وارواد ، الطالعة من وطأة الحماية ، تصبح مدنا حرة ومستقلة ، وتغدو ، اكثر فاكثر ، سيدة على البحر . فلم تعد هناك اي قوة عسكرية قادرة على تهديدها . الحثيون انتهوا . مصر ، رغما عن الاصلاح الرائع الذي يقوم به رعمسيس الثالث ، تسترسل في مرحلة من الانحطاط مما سيسمح لفلسطين نفسها بالحصول على تنظيم ذاتي مستقل . اشور تمنى ، هي أيضا ، بعاقبة الاجتياحات وتتعرض لفترة طويلة من الكسوف. العالم الشرقي يدخل في مرحلة جديدة من تاريخه . فمنذ بدء القرن السادس عشر ، عاش هذا العالم تحت الهيمنة المصرية اولا ، والتفاهم المصري ــ الحثي تاليا ، في الوقت الذي كانت فيه أشور تثبت نفسها القوة العظمى في وادي الرافدين . وبعد موجة شعوب البحر ، زالت القوى العظمى . مصر وحدها ما زالت ، ولكن لم يلزمها اكثر من قرن واحد لتتفكك تحت نظام اقطاعي عاجز . وبعد العصر الامبريالي ستشهد المنطقة ثلاثة قرون من التجزئة السياسية تأخذ خلالها الحضارة الشرقية منحى جديدا » (١)

هكذا كان الوضع في سورية حوالي ١٢٥٠ ق.م. بعد انحسار موجة شعوب البحر . والعلاقات بين مصر والمدن الفينيقية في هذا الوقت كانت عادية، من الند للند ، لا وصاية ولا حماية . وقد اعتمد المؤرخون في معلوماتهم عن هذه العلاقات المصرية ــ السورية على « رحلة اونمون » المصري الذي ركب سفينة كبيرة وجاء الى الساحل الفينيقي ليشتري بضائع سورية .. وتبدأ قصته هكذا :

« يغادر أونمون تيبة ، يزوده هاريتور بالذهب والفضة ليدفع ثمن مشترياته . وعندما يصل الى تانيس يتوجه الى ولاة المدينة فيجدون له سفينة وربانا يمكنانه من النزول الى « بحر سورية الكبير » فيصل الى مدينة « دوره » حيث يحكم الملك بدر ، الخ ... » (٢) .

وكانت العلاقات بين آسيا الصغرى وسورية الشمالية منقطعة تقريبا، فجميع الشعوب وراء طوروس ترمم حياتها الاجتماعية والسياسية ، بعد ان انهكها الحكم الحثي مئات السنين ، وبعد أن اختتمت تلك القرون بموجة أكثر تدميرا هي موجة شعوب البحر . وليست هناك قوة كبيرة يمكنها أن تذر قرنا استعماريا يجرؤ على عبور جبال الفضة ، أي جبال طوروس . أما بقايا الحثيين فهي مدن مبعثرة في الشمال السوري تحافظ على نمط حياتها الحثي ، ولا قدرة لها على محاولة ترميم حياتها السياسية المنهارة .

يشغل الميدان السوري في القرن الثاني عشر قوات سورية ثلاث :

١ ــ امارات الاراميين الممتدة من الخليج حتى فلسطين ، موزعة تدريجيا على الهلال الخصيب كله (٣) .

٢ ــ المدن الفينيقية الموزعة من جديد على الشاطىء السوري الاوسط.

٣ ــ مملكة اشور ، التي ، بالرغم من هزة شعوب البحر ، كانت بعيدة عن متناول هذه الموجة البربرية ، منكمشة على نفسها ، بقيت محافظة على مواقعها الجبلية العاصية وعلى قوتها الذاتية القادرة ان تستأنف هجومها لتوحيد سورية عندما تجد الفرصة مؤاتية .

تبين حتى الان ، من الناحية الموقعية الجغرافية ، ان سورية هي العقدة الجغرافية الجامعة قارات ثلاث ، والقابضة على خطوط المواصلات الاقتصادية العالمية ، والمعرضة ، بطبيعة موقعها وغناها الطبيعي وثروتها العمرانية ، للغزوات البربرية من البطاح الشرقية ، وللتوسعية الاستعمارية من المغامرين الغربيين البدائيين . وان الشرق الايراني هو المعبر الاول الذي سهل غزوات البرابرة ، وكانت آسية الصغرى دائما خالية من دولة قومية كبرى لها جذورها الاصيلة وتراثها العريق .

لقد كانت سورية آنذاك ميدانا ، متعدد المناطق ، لاختبارات الاقوام البربرية الاتية من الشمال والشرق والغرب . أما مصر فقد كانت الدولة العريقة في وحدتها القومية وتراثها الحضاري المتسلسل وموقفها في وجه الغزوات المتنوعة . وقد ساعدها موقعها الجغرافي لتدافع عن هذه الوحدة القومية الثابتة والمحافظة على حضارتها في الازمات التاريخية الكبرى . فصحراء سيناء والخط الساحلي السوري ، وأحيانا الخط الساحلي الداخلي الذي كانت مصر تسعى للاحتفاظ به ولدفعه شمالا بقدر امكانها ، كانت تعتبره الجدار الخارجي الواقي لوحدتها وسيادتها . فهي كانت تنهك العدو الزاحف لاجتياحها في هذا الخط الخارجي قبل أن يصل الى حدودها .

وقد رأينا بوضوح ان الامم الحضارية العظيمة ، العميقة الجذور في تراثها الحضاري ، المكتملة العناصر الثقافية والقومية والدينية ، الغنية بالعبقريات الانسانية الخلاقة ، تتمكن دائما من اجتياز الازمات الطويلة الصعبة التي تتعرض فيها لاحداث جامحة ، ولغزوات بربرية مدمرة ، ولتفكك داخلي عابر ، خصوصا اذا ما عجزت تلك الازمات عن اجتثاث جذورها الحضارية العميقة . فالاقوام الدخيلة ، الطفيلية ، مهما يعمر زخمها ، وتقوى شوكتها الحربية ، ويتسع ميدان نشاطها وسيطرتها ، لا بد من ان تجرفها احداث جديدة طارئة ، تقتلعها بسهولة لسطحية جذورها وافتقارها الى المقومات الحياتية الثابتة ، والى العبقريات الخلاقة المجابهة .

ومن تابع انصباب تلك القوى المخربة على سورية : من الغوتيين (٢١٩٠ ق.م.) الى « شعوب البحر » (١٢٤٠ ق.م.) الى الفرس والمقدونيين والرومان والبيزنطين ، لا يمكنه أن يتصور كيف قدرت هذه الحضارة السورية التي دمرتها مرات عديدة بربرية الغزاة ، أو تبعثرت على شفار سيوفهم ودروب خيالتهم ، ان تجدد وجودها وتستأنف تأدية رسالتها . ولكن سوف نرى في الصفحات الاتية ان الينابيع الحضارية الانسانية المتدفقة هي كالينابيع المتفجرة من قلب الارض ، لا تنضب أو تغيض الا اذا تغيرت النواميس فأمست الجبال أودية وسفوحا ، والسهول الخصبة صحاري ، والشواطىء الجميلة ادغالا قصية ، لا يسمع فيها الا فحيح الافاعي وخمخمة الخنازير البرية . فالانسان الحضاري ، والسوري — العربي يأتي الاول في هذا الميدان الرفيع ، اذا لم تجف في نفسه ينابيع الحيوية والعزم للصراع في سبيل بقائه وتفوقه ، امتص جميع البربريات ، واستهلك شدتها وبأسها ، وحولها الى عناصر حضارية لمصلحته ولمصلحتها . وقد كان من حظ سورية، وهي معرضة من الشرق والشمال ، لارهب الموجات البربرية ، ولاقوى الحملات العسكرية ، كالمقدونية والرومانية ، أن تكون الجزيرة العربية منبعا دائما للحيوية البكر ، والزخم العارم ، والمعدن البشري الغني بانسانيته ، تندفع اليها بموجات دورية كبيرة ، وبتسربات صغيرة متواصلة . هذا المنبع الدائم الذي لم ينضب ، وان تباطأ احيانا ، كان القوة المعادلة لتلك القوى المدمرة ، والمعوضة عن حملاتها المخربة . وأكبر دفقة خيرة أعطاها ذلك الينبوع السخي هي النهضة العربية الاسلامية . فهي الانطلاقة التي لم تأت مثل الانطلاقات الماضية ، مادة بشرية بدائية ، تعطي حيويتها وزخمها فقط ، بل اندفعت مختمرة بتفاعل مئات السنين مع الثقافة الارامية السورية من جهة ، وحاملة رسالة القيم والمثل والفضائل الانسانية الرفيعة من جهة أخرى ، فكانت « القضاء والقدر » على تلك الاوضاع المزورة التي تكلم عنها الفيلسوف شبنغلر ، والتي أمعنت في تزويرها ، وادمنت في طغيانها ، وكادت تقنع التاريخ ، وهي دخيلة وطفيلية ومغامرة ، انها أصيلة في هذا المجتمع

وعلى هذه الارض المقدسة .

كان تبدد موجة « شعوب البحر »، وظهور سورية الشاطئية والشمالية الغربية خالية منها وممن سبقها من القوى الدخيلة المتصارعة على أرضها ، رجوعا الى الحياة الطبيعية النامية بعد ذلك السيل من الاقوام التي اقتلعت نفسها من مناشئها وهامت مغامرة في الابعاد ، ووجدت مراتع جوعها ونهمها في المناطق السورية الخصبة .

عاد السوري في كل مكان ، ولا سيما في المنطقة الساحلية والوسطى ، يفتش عن معالم أرضه ، ومساقط رؤوس أجداده ، بعد ان شغرت المناطق من المغتصب ، وظهرت في سورية نقطتا جاذبية : الاولى في الشرق هي أشور، والثانية في الغرب الساحلي هي فينيقيا . وكانت المدن الفينيقية ــ الكنعانية التي اجتاحتها « شعوب البحر » ودمرتها ، أسرع الى النهوض والتجدد . فبحر أمورو (المتوسط) يعود مجددا البحر الكنعاني أو الفينيقي أو السوري ، خاليا من الغرباء والمزاحمين . فنشاط الكريتيين والآشيين وسواحل آسية الصغرى الغربية قد حطمته ، الى حين طويل ، موجة « شعوب البحر » ، والنشاط المصري قد تبدد بالرغم من الدفعة العزوم التي أبدتها مصر لصد الغزاة عن أرضها ، ثم تصدعت وحدتها بعدها ، فانكفأت على نفسها تصارع في سبيل ترميمها . الميدان الداخلي البري ، والميدان الخارجي البحري فسيحان للنشاط الاشوري ــ الفينيقي في مرحلة بناءة جديدة ، يشترك فيها معهم برا الاراميون .

أغرب ما يلفت نظر الدارس في هذه المرحلة الجديدة هو ان المدن الفينيقية ، بعد خمسة قرون أخيرة من النكبات والمحن ، عادت الى مفاهيمها السياسية العتيقة ، تعيد بناء مدنها ، وتقيم مجددا أنظمتها السياسية القديمة، مدنا ــ دولا ، كل واحدة منها مستقلة عن الاخرى . لم تتعظ بالنكبات ، ولم تعلمها المحن ، ولا أفادت من تعدي الدول الكبرى عليها : المصرية والحثية والميتانية ــ الحورية . لا اتحدت فيما بينها لتواجه أحداث المستقبل ، ولا تطلعت الى ما وراءها لتتعاون مع الدول السورية في بيئتها الطبيعية ، كدولة أشور النامية ، بل عادت الى فرديتها المدينية ، مدمنة تجمدها ، مستسلمة الى مكاسب البحر السريعة . وهذه المرحلة الفينيقية بالذات ، توضح أكثر من كل مرحلة ، ان القضية الفينيقية لم تكن ، طوال تاريخها ، من زمن بناء صور (٢٧٥٠ ق.م.) الى سقوطها (٣٣٢ ق.م.) تحت حصار الاسكندر ، وسقوط قرطاضة (١٤٦ ق.م. ) تحت حصار الفرق الرومانية بقيادة سيبيون اميليانوس ، لم تكن هذه القضية مرة من المرات كلها ، قضية مجتمع فينيقي قومي موحد ، مدافع عن وحدته ومفاهيمه في الحياة ، بل كانت دائما وأبدا مفهوما سياسيا مدينيا ، تحجر في نظام المدينة المغلق ، وفني في قالبه . وليست فينيقية الضحية الوحيدة لهذا المفهوم السياسي ، ولهذه « الدولة » المصغرة ، العاجزة عن الدفاع عن كيانها في معترك تنازع البقاء ، بل ان

اليونان كانت الضحية الثانية بالرغم من جميع مدارسها الفلسفية التي عالجت المفاهيم السياسية على أوسع وجه . والاوهام القائلة بأن جبال لبنان الغربية والشرقية كانت العائق الكبير لاتجاه فينيقيا نحو الداخل ، أو لتمكن الدولة البرية الاكادية ــ البابلية ــ الاشورية من اعادة فينيقيا الى الصواب القومي ، هي أوهام باطلة ، تبددها الحقائق التاريخية في المنطقة . فالجبال اللبنانية لم تمنع مصر البعيدة من أن تجعل سورية الغربية جميعها ، ومن ضمنها فينيقيا الساحلية ، ولاية مصرية تمتد الى الفرات . فلا يعقل أن تمنع فينيقيا المتحدة والمتراصة من أن تدرك معاني ارتكازها الى بر قوي غني ، يقيها ، ويصد عنها ، الطموح المصري الذي جعل منها جدارا واقيا لوحدة مصر ، والحملات البربرية أو العسكرية النازلة عليها من الشمال .

ان القضية الفينيقية ، التي يجب أن تفهم ، ولو فهما متأخرا ، والتي سنوضح في هذه الدراسة ، هي قضية غريبة عن جميع التعليلات التي عللت بها ، سواء من قبل بعض المؤرخين الذين لم يتعمقوا بدرس جميع حيثيات تاريخنا ، أو من قبل بعض اللبنانيين الذين قدموا العاطفة الاقليمية والطائفية المريضة على العلم والتاريخ . فلبنان الحالي ، كدولة ، هو منبثق من الاوضاع الاقطاعية والاكليريكية والتيوقراطية التي قامت في سورية في أواخر عصر البيزنطيين وفي العصور التيوقراطية العثمانية التي امتدت خلال مئات السنين. ولا علاقة له بالمفاهيم السياسية الفينيقية التي أقامت نظام المدينة ــ الدولة القديم على الشاطىء السوري حتى منطقة جبال الامانوس ، وماتت مختنقة في ذلك النظام . ان ذلك النظام المديني المقزم قد انتهى مع هجوم الاسكندر الذي قذف بنظام المدينة ــ الدولة الى العدم ، ثم جاءت الدولة الرومانية فقضت عليه بمخطط قومي جديد أنهى جميع المدن اليونانية في ايطاليا ، اذ ضمتها الى الوحدة القومية الرومانية الايطالية ، ثم دمرت ذلك النظام نهائيا عندما دمرت قرطاضة (١٤٦ ق.م.) وقضت على جميع المدن الكنعانية في شمالي افريقيا ، بعد انهيار قرطاضة .

في هذا الجو من التقديس الديني لنظام المدن الفينيقية ، كانت تتكون حضارة الانسان على شواطىء المتوسط الشرقية . وهي حضارة اصيلة ، انبثقت من عقل الانسان ووجدانه . هكذا كان على الشواطىء الفينيقية ، وهكذا كان عند الاكاديين في وادي الرافدين . تلك خاصة السوريين ــ العرب الاولى : الدين ، القوة العليا المشرفة على حياة الانسان الزمنية . وقد عبروا عنها في أشكال ومظاهر متنوعة ، أعطوها لحوض المتوسط . وفي اخر مطافهم الديني اكتشفوا الله الواحد ، والله الصمد ، وأعطوه أيضا للعالم .

أما اليهود وقد سرقوا الدين عن الديانيين والكنعانيين والبابليين ، وشوهوا ما سرقوه حسب نفسية الهيم يهوه ، شاذين عن النفسية السورية المتطورة الخلاقة المعطاء ، فقد كان لهم دين وكان له اله . ولكن دينهم كان لهم وحدهم ، دينا قبليا بدائياً ، وقد أبت نفسيتهم المريضة ان تعطيه الامم

الاخرى . وكان لهم اله ، ولكنه اله يخصهم وحدهم ، يقودهم الى الفتح والتدمير والمذابح وافناء مضيفيهم الكنعانيين والاموريين ، ولم يكن الها للانسان اينما وجد كاله المسيحيين والمسلمين .

الدين كان خاصة السوريين والعرب الاولى . واللغة ، اي الكلمة المعبرة عما يختلج في نفس هذا الشعب الخلاق ، كانت الخاصة الثانية .

ويقول العالم ج. كونتينو في هذا الموضوع : « من الزمن الذي كانت فيه الحضارة السومرية مزدهرة ، وقبل الازمنة التاريخية التي يعينونها الان حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، كان شعب آخر في وادي الرافدين من الساميين الذين يسمون اكاديين نسبة الى بلاد اكاد في شمالي وادي الرافدين حيث استقر معظمهم بعد مجيئهم من سورية العليا على ما يبدو . اختلط هذا الشعب بالسومريين ، برضاهم او قهرا عنهم ، ثم تبنى حضارتهم التي كانت متفوقة على حضارته . اخذ فنهم وعلمهم ومؤسساتهم وكتاباتهم ، وجعل مما أخذه من سباقيه ومما كان يملكه هو ، مثلا موضوع الدين ، كلا واحدا . ولكن هؤلاء الساميين كانوا يتكلمون لغة اكثر كمالا واتقانا من لغة السومريين ، واكثر قدرة على التعبير عن جميع الافكار ، واكثر دقة . في بادىء الامر احتلت الاكادية محل السومرية في الاستعمال الدارج ، ثم في المعاملات التجارية ، وتدريجيا حاولت حتى ان تحدد الافكار الدينية بدون ان يهمل الاكاديون اللغة السومرية، التي بقيت لغة مقدسة ، لغة العبادة والعلماء ، كما حدث عندنا بالنسبة للفرنسية واللاتينية في القرون الوسطى » (٤) .

في هذا القول الهام عن تفوق الدين واللغة عند السوريين ــ العرب القدماء ، يفيدنا هذا العالم الفرنسي الكبير ان هؤلاء العرب ، جاؤوا من سورية العليا الى أكاد وليس من الصحراء مثلا . وهذا له مغزى كبير سنحلله فيما بعد . ثم يقول العالم نفسه في مؤلفه « الحضارة الفينيقية » :

« ... نحن نعلم انه ، في بداية القرن السادس والعشرين قبل الميلاد ، نزحت جماعة سامية كبيرة من شمالي سورية التي عرفها البابليون القدماء باسم بلاد امورو ( بلاد الغرب ) . وهؤلاء الساميون ، الذين اسسوا سلالة اكاد مع الملكين سرجون ونارام سن ، كانوا من عظماء الفاتحين » (٥) .

هذا الكلام يعني ان انتقال الاقوام السورية العربية ، ضمن الهلال الخصيب ، لم يكن دائما في خط واحد : من الشرق الى الغرب ، بدون رجوع الى الوراء كما يتبادر الى الذهن ، بل كانت التنقلات في جميع الاتجاهات . خصوصا في ما يختص بالاراميين من بعد القرن الرابع عشر . هذه الهجرة المعنية هنا هي هجرة آرامية من شمال سورية الى وادي الرافدين الاوسط. وهي تتوافق مع التحركات الشعبية التي تمت في تلك الحقبة ، اي عندما دخلت الهلال الخصيب الموجة العربية الثالثة وهي الموجة العمورية ــ الكنعانية .

وهي على الارجح موجة واحدة اتخذت في الهلال الخصيب اسمين مختلفين . فالعموريون استقرت قبائل عديدة منهم في وادي الرافدين فسماهم السومريون « عموريين » لانهم استقروا في شمالي غربي سومر . وقد تابعت قبائل منهم سيرها نحو الغرب فاستقرت في شمالي سورية وفي أواسطها على مشارف لبنان . أما الكنعانيون فقد أطلق عليهم هذا الاسم لانهم سكنوا أولا سهول فلسطين ووادي الاردن ( أي أرض كنعان ، ومعناها الارض المنخفضة ) .

من انتشار العرب القدماء ، بعد الموجة الثالثة العمورية ــ الكنعانية ، في جميع أنحاء الهلال الخصيب ، ومن تغلب الموجات العربية في هذه المنطقة بعد ظهور امبراطورية سرجون الاول الاكادي ، يظهر بوضوح ان هذه الموجات العربية قد هيمنت على جميع أنحاء الهلال الخصيب سياسيا ودينيا ولغويا . ومع ما اقتبسوه من عناصر الحضارة السومرية ، اصبحت سيطرتهم تامة في جميع ميادين الحضارة . اذ ذاك كان بدء جدي تاريخي في سورية الطبيعية لنشوء حضارة تكاملت قرنا بعد قرن ، وعصرا بعد عصر ، حتى أصبحت منبع الحضارة العالمية عبر الفينيقيين ــ القرطاضيين ، وعبر الهلينيين والرومان ، وعبر العالم العربي في القرون الوسطى . أما الشعوب البارزة التي أسهمت في بناء هذا الصرح الحضاري السوري « العالمي » فقد كانت عربية ما عدا السومريين ، الذين ساهموا في المرحلة الاولى ، كما يتبين مما سيأتي :

١ ــ السومريون ــ الاكاديون الذين تزعمهم سرجون الاول ، حوالي ٢٣٠٠ ق.م. وانشأ أول امبراطورية في سورية الطبيعية ضمت الهلال الخصيب كله بجميع أقوامه التي شجعها سرجون على التفاعل والانصهار في البيئة الطبيعية السورية .

٢ ــ العموريون ــ الكنعانيون ، وهم موجة عربية واحدة تشعبت فرعين . « ولذلك فان الاختلاف العرقي بينهم معدوم ... واما الاختلاف اللغوي فكان اختلافا في اللهجة فقط باعتبار ان اللغتين كانتا من الفرع السامي العربي الذي يضم العبرية » (٦) .

والسومريون هم الذين أطلقوا على هذا الشعب اسم « العموريين » الذي يعني « الغربيين » . وهي تسمية تنطبق على العموريين بالنسبة الى السومريين الذين كانوا يقطنون الشرق ــ الجنوبي من الهلال الخصيب . والعاصمة العمورية « ماري » ، الواقعة جنوبي الخابور ( وهذه أيضا كلمة سومرية ) ، هي ، من جهة الاشتقاق ، شبيهة باسم البلاد « أمورو » و « مارتو » أي بلاد الغرب . وكان هذا اسم الههم القديم وهو اله الحرب والصيد . ووسع البابليون فيما بعد مدلول الاسم فصار يشمل سورية الغربية ، وسموا البحر المتوسط « بحر أمورو العظيم » .

وأخذ العموريون يظهرون بالتدريج في سورية الوسطى ولبنان وحتى في فلسطين ، في الجنوب . ويقال أن « لبنان » و « صيدون » و « عسقلان »

عمورية في نهاية اسمائها .

أما الكنعانيون فتوزعوا على السواحل السورية : من خليج ايسوس ( اسكندرون فيما بعد ) حتى غزة جنوبا . « وقد اطلق اسم كنعان في اول الامر على الساحل وغربي فلسطين ، ثم اصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية ( اي سورية الحالية ) ، وفي وثائق العهد القديم الاول أطلق اسم كنعان بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد بدون اي مدلول عرقي » (٧) .

« في الزمن الذي كان فيه الساميون على أبواب وادي الرافدين ، حيث بدأت عملية تطورهم البطيء ليصلوا الى انشاء امبراطوريات كبرى ، رأينا تاريخها وحضارتها ، كان اخوان لهم في الجنس يظهرون على سواحل المتوسط » (٨) .

اما بالنسبة لسكان الشاطىء السوري فان « الفينيقيين اعتادوا ان يسموا انفسهم كنعانيين . وحتى مستعمراتهم ، قرطاضة مثلا ، كانت تعرف عن نفسها بهذا الاسم حتى عصر القديس اغسطينوس (٩) ، بعد زوال قرطاضة بنحو ستة قرون . أما الكنعانيون الذين حاولوا صد العبرانيين عن أرضهم ، كنعان ، فهم غير الفينيقيين الشاطئيين الذين اهملوا أرض كنعان ، وتركوا العبرانيين يتغلغلون فيها بينما كانوا قادرين ، في حملة واحدة ، ان يدمروا الموجة العبرانية ويريحوا وطنهم منها الى الابد . وقد تصرف الفينيقيون بالنسبة الى أرض كنعان الجنوبية كما تصرف القرطاضيون بالنسبة الى المدن الفينيقية الافريقية ، فلم يدركوا اهمية الترابط القومي ، وتلك كانت علتهم الميتة . فكأن أقليميتهم الانانية قد رافقتهم الى ابعادهم ، فعاشت معهم وسبت دمارهم .

كان النظام السياسي الذي ساد المدن الفينيقية هو نفسه الذي ساد المدن السومرية الاولى على ضفاف الخليج ، والمدن الاكادية شمالي سومر ، في المنطقة الوسطى الجنوبية ، اي نظام المدينة ــ الدويلة . والفرق بين المنطقتين ان المدينة ــ الدويلة الفينيقية البحرية كان البحر مدى لها ، تتوغل في ابعاده المائية كما تريد ، وتدافع عن نفسها وعن اقليميتها بقوتين : قوة بحرية عاصية على القوى البرية ، وقوة برية تتساوى مع قوى المدن الاخرى. أما المدن ــ الدول الاخرى الممتدة من الخليج حتى الشمال الغربي والوسط الغربي من الهلال الخصيب فكانت ذات قوة دفاعية واحدة هي السلاح البري . وكانت في تصادمها وتفاعلها مع جيرانها معرضة اكثر من المدن البحرية للهزيمة والزوال أو الخضوع لمدن أقوى منها . ثم ان وجود هذه المدن الفينيقية على الشواطىء ، في أقصى حدود الهلال الخصيب ، بجوار دولة قومية كبيرة كمصر ، كاملة التكوين ، في منأى عن مجاري الاحداث الخطرة ، واعية موقعها الجغرافي الممتاز قبل أية أمة في الشرق الاوسط ، مستعدة ان تجعل من فينيقيا وأرض كنعان الجنوبية الغربية ، متراسا واسعا

وطويلا يرد عنها هجمات المغامرين ، ان وجود المدن الفينيقية في هذا الوضع، بالاضافة الى روحها الفردية الاقليمية التي كانت طبيعية في البدء ، قد شجع دائما هذه المدن على التهرب من الوحدة الطبيعية التي عملت في سبيلها ، عن وعي أو عن ميل طبيعي ، جميع الدول الكبرى التي أنشئت في الهلال الخصيب من عهد سرجون الاول حوالي ٢٣٠٠ ق.م. الى حمورابي الكبير حوالي ١٧٢٨ ق.م. الى امبراطوريات أشور وبابل الجديدة ، الى الامويين والعباسيين . وقد وصف المؤرخ الايطالي موسكاتي الساحل الفينيقي بقوله :

« هذه الرقعة من الارض حيث تلتقي خطوط المواصلات بين قارات ثلاث ، فرض عليه أن يقاسي تعاقب الهجرات والغزوات بدون أن يمكن سكانه من انشاء دول قوية التنظيم وثابتة . هناك تبارت الامبراطوريات الكبرى في اختبار قدرتها على التوسع في صراعها الواحدة ضد الاخرى . لقد انصبت على هذه المنطقة الشعوب النازحة في موجات متتابعة ، اذ رات فيها أرضا خصبة ، وتمهد ، في الوقت نفسه ، الطريق نحو مصر ووادي الرافدين وآسيا الصغرى ، وفوق ذلك فانها تقدم منافذ بحرية بمرافئها الطبيعية المشجعة على الملاحة والتجارة » (١٠) .

النقطة الهامة والغريبة في حياة المدن الفينيقية كانت ، قبل أي شيء اخر ، بقاءها منعزلة الواحدة عن الاخرى ، واهمالها أرض كنعان الجنوبية . فهي لم تتصادم فيما بينها ، ولم تتحد ، مع ان مدنا بينها مثل ارواد وأوغاريت وصيدون وصور قد تفوقت معنويا وماديا وعسكريا كل بدورها . فيبدو ان رابطة الاخوة التي منعتها من التصادم لم تشجع على الوحدة . ويتضح بالتالي ان الثغور البحرية كانت منافس لاستهلاك زخمها وحيويتها ومواطن قوة لها لا ضعفا . هذه المهارب البحرية من التوحد ، فيما بينها على الاقل، قد جعل منها نقطة ضعف رئيسية في جميع المحاولات الوحدوية في الهلال الخصيب . فهي بانعزالها المستمر الواحدة عن الاخرى حتى النهاية ، قد جعلت بلادها ممرا للبرابرة والمغامرين الفاتحين ، كالذين انحدروا من الشمال : من الحثيين حتى الاسكندر . كما جعلت منها جدارا واقيا للدولة المصرية القومية الواعية ، تحوله مصر عند اللزوم الى ميدان صراع تستهلك على أديمه حدة الفاتحين . وقد كانت فينيقيا ، حتى محاولة نبوخذنصر الاخيرة، الثغور البحرية والبرية الخطرة التي جعلت من السهل الساحلي السوري ومرافئه منطقة مشاعا للغزوات البربرية وللفاتحين المخططين .

ولكن هناك حقيقة سورية وحضارية كبرى يجب ايضاحها بالنسبة الى الفينيقيين . وهي انهم بالرغم من هذا الموقف السياسي السلبي بالنسبة الى محيطهم ، فانهم من الناحية الاجتماعية والثقافية والحضارية كانوا ايجابيين مع داخلية وطنهم . انهم لم يدفعوا الى موقفهم السياسي السلبي بعلة نفسية عنصرية بغيضة ، كما فعل العبرانيون مثلا ، بل كان التفاعل الاقتصادي والديني والفكري قائما باستمرار بينهم وبين الداخلية حتى أقاصي الشمال

الشرقي وأقاصي الشرق الجنوبي . فمن ناحية أولى لم يكن عندهم أي ادعاءات عنصرية أو دينية مقفلة ، مثل العبرانيين قديما ، تمنعهم من الانصهار والتفاعل . ولا شك أن أشور ، بأساليبها القاسية اللاقومية لتحقيق الوحدة ، قد أساءت الى نفسها والى جميع الشعوب والاقوام السورية التي خربت أوضاعها السياسية وضمتها الى الامبراطورية بدون ان تنجح في خلق جو قومي ترتاح فيه تلك الشعوب والاقوام ، وفي انشاء أوضاع اجتماعية اقتصادية سياسية تري تلك الجماعات الخائفة افضليات الوحدة من جميع نواحي الامن والاقتصاد والحرية الشخصية . ان بابل كانت أجدر بخلق هذا الجو وهذا الوضع المفيد ، لان أساليب سرجون الاول وحمورابي ، كما تبين في غير هذا المكان ، كانت أساليب جديرة بأن تري جميع الشعوب العربية وغير العربية المستوطنة في الهلال الخصيب ، افضليات الخضوع لدولة مركزية كبيرة تؤمن لهم جميع أسباب الحياة الراقية الآمنة في ذلك الحين . ان عمل حمورابي كان ظاهرة قومية انسانية تقدم للمجتمع الواحد الجديد جميع الانظمة والقوانين التي انتشرت في العالم القديم كله ، وبقيت معمولا بها حتى جاءت الشريعة الرومانية السورية ، في عهد جامعة بيروت، بديلا عن شريعة حمورابي .

والغريب ان مؤرخنا الكبير الدكتور حتي ، وقد دخل هنا في فلسفة التاريخ ، يبرر للفينيقيين خسارة مدنهم في الشمال والجنوب لان الجدران الجبلية ليست كافية لحماية هذه المدن من الداخل . كأن كل دولة يجب أن تكون مطوقة بالجبال أو البحار من جميع جهاتها لتستطيع الدفاع عن نفسها . ثم يقول هذا المؤرخ السوري عن هذه المدن انها كانت : « تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة التي تكفي نفسها بنفسها » ، ويمر مرور الكرام بهذا الوضع الفينيقي الشاذ الذي كان مسؤولا رئيسيا ، على الساحل الفينيقي وفي صور وفي قرطاضة ، عن مصير الحضارة السورية بأجمعها . وهو المؤرخ نفسه الذي يتنبه بعدئذ في تاريخه فيقول : « كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضي الداخلية التي تقع في ما وراء سورية » . ثم يقول في مكان اخر : « ولم تكن القرون الاربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية ، كما ان أربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافية لجعل سورية تركية . ولم يتأثر السكان الوطنيون الا قليلا بالفكر المصري واللغة المصرية ...

« دامت فترة السيطرة المصرية السياسية على سورية مدة أطول من فترة سيطرة بلاد الرافدين ، غير ان تأثير بلاد الرافدين الحضاري كان أعظم بكثير من تأثير مصر . وكان السوريون أقرب الى الاشوريين والبابليين منهم الى المصريين من وجهة عرقية ولغوية وجغرافية » (١١) .

## الاشارات

١ ــ جاك بيران ، تاريخ الحضارة المصرية القديمة ــ الجزء الثاني ، ص ٤٧٤ــ٤٧٥ .
٢ ــ جاك بيران ، تاريخ الحضارة المصرية القديمة ــ الجزء الثاني ، ص ٥٠٢ .
٣ ــ دوبون سومير ، الاراميون ، خريطة الامارات الارامية .
٤ ــ ج. كونتينو ، الطوفان البابلي ، ص ٧ــ٨ . وهنا تجدر الاشارة الى ان السامية هي التسمية التوراتية لشعوب الجزيرة العربية والهلال السوري الخصيب . والمؤرخون الغربيون ، تحت التأثير التوراتي ، يطلقون هذه التسمية على هذه الشعوب .
٥ ــ ج. كونتينو ، الحضارة الفينيقية ، ص ٣٤ .
٦ ــ د. فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ص ٨٥ .
٧ ــ د. فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ص ٨٧ .
٨ ــ ساباتينو موسكاتي ، تاريخ وحضارة الشعوب السامية ، ص ٩٨ .
٩ ــ ساباتينو موسكاتي ، تاريخ وحضارة الشعوب السامية ، ص ٩٨ .
١٠ ــ ساباتينو موسكاتي ، تاريخ وحضارة الشعوب السامية ، ص ١٠٥ .
١١ ــ د. فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ص ٨٨ــ٨٩ و ١٤٨ــ١٤٩ .

# الفصل الاول

# عناصر الصراع

## قرطاضة

### ميلاد قرطاضة

على الشواطىء الشمالية من افريقيا ، أو الجنوبية من البحر المتوسط ، أو في حوض البحر السوري ، كما سماه بطليموس سنة ١٥٠ ق.م. والجغرافيون في القرون الوسيطة ، على شواطىء افريقيا الشمالية وصولا الى الاطلسي وشواطىء اسبانيا الجنوبية ، والى جزر المتوسط الغربي ، كانت مدن كنعانية عديدة ، منها صيدونية بدأ بنيانها مع بدء التوسع الصيدوني في اوائل القرن الحادي عشر ، ومنها صورية بدأ بنيانها عندما تسلمت صور الميدان الصيدوني وتابعت تعمير تلك الشواطىء في أوائل القرن العاشر ، حتى جاء عصر قرطاضة اليسار العظيمة ، في اواخر القرن التاسع ( ٨١٤ ق.م ) ، فأخذت سيادة التعمير والحضارة تترسخ بولع تعميري انساني لا يعرف الطغيان والتعسف ، يستهدف معرفة المجهول ليكون معلوما من أسياد الحضارة ، ونقل الانسان البدائي الى مرحلة حضارية بتلقينه وسائل الحياة الحضارية الجديدة ، وسائل الحياة السورية .

في سنة ١١١٦ ق.م. اعتلى تغلت فلاصر الاول عرش اشور ، وبعد ان قام بحملات متواصلة على الاراميين ، وصل الى بحر امورو ( البحر الغربي ) أو المتوسط وغسل سلاحه في مياهه ، فسارعت المدن الفينيقية ، بيبلوس ، صيدون ، ارواد وغيرها ، تسترضي القائد الكبير بالهدايا الثمينة والجزية الكبيرة، حتى تركها حرة في تصرفاتها التجارية والبحرية ، ولكنها تسلم معنويا برقابة أشور على البيئة .

ومنذ ذلك الزمان لم تنقطع اطلالات اشور عن شواطىء بحر امورو .

في سنة ٨٧٥ ق.م. هاجم الملك الاشوري حدد — نيراري الشاطىء السوري كله دون ان يلقى كبير مقاومة . ودفعت صور الجزية ، كسائر المدن الفينيقية ، لتنقذ نفسها من السلطة الاشورية المباشرة ، ولئلا تمسي ولاية اشورية . ومنذ ذلك الحين لم تغب اشور عن الشاطىء ، بل بات يشكل جزءا من مخططها القومي البيئي . فدولة اشور هي وريثة دولة اكاد السرجونية ودولة بابل الحمورابية . واباطرة اشور هم خلفاء سرجون وحمورابي الشرعيون . اذن ستمتد اشور من البحر الادنى ( الخليج العربي — الفارسي ) الى البحر الاعلى ( البحر السوري او المتوسط ) وتشمل المناطق الاربع المكونة الوطن السومري — الاكادي — البابلي بموجب التقاليد المقدسة التي تركتها الآلهة في سومر ، ثم انتقلت الى اكاد ، ثم ورثها حمورابي ومهرها بالشريعة التي تسلمها من الاله « شمش » حسب التقاليد الدينية والتي جمعها من سومر واكاد وجميع المناطق السورية وزاد عليها من عبقريته حتى اكتملت وكانت عطاء الحضارة السورية بمفاهيمها الحضارية العقلانية .

بعد سنة ٨٧٥ ق.م وضح لصور ، سيدة الشاطئين السوري الشرقي والافريقي الشمالي ، ان مخطط اشور يسير في مجرى التنفيذ المحتم ، وانها ستكون تابعة لنينوى فتخسر امبراطوريتها البحرية والعالم الحضاري الذي كونته في شمالي افريقيا ، خصوصا وان اشور دولة برية قارية لم تكن لها اية تقاليد او اختبارات بحرية . لذلك بدأت تفكر بنقل معظم ثروتها المالية وطاقاتها التقنية الى وسط امبراطوريتها البحرية . لهذه الاسباب الاساسية ، وبعد ستين سنة من التفكير المصيري ، دفعت صور اميرتها اليسار او ديدون ( الهاربة ) لاعداد حملة بحرية كبرى الى العالم الصيدوني — الصوري في غربي المتوسط لمباشرة بناء عاصمة كنعانية جديدة . كان ذلك في سنة ٨١٤ ق.م. وتلك العاصمة الجديدة هي قرطاضة « قرت حدشت » (١) اي المدينة الجديدة .

بنيت قرطاجة في ذلك المكان بالذات ، لان دراسات سابقة كان قد وضعها مصممون كنعانيون عرفوا كل ناحية من نواحي الامبراطورية . ولاسباب بقيت مجهولة ، حيكت حول ذلك الحدث التاريخي الكبير قصة اسطورية تفترض نزاعا نشب بين الاميرة اليسار وشقيقها الحاكم الملك بيغماليون أدى الى اغتيال بعلها زيكار بعل ( اشرباس ) طمعا بثروته ، فاوغر ذلك قلب اليسار حقدا على أخيها وغما على زوجها ، وكان هربها من صور بتلك الطريقة الاسطورية التي تشبه اساطير الآلهة .

ان منطق الاحداث يدلنا على ان ذلك الزمان لم يكن بالنسبة الى صور زمان توسع ، فالفاتح على الابواب ، يدقها ساعة يشاء . ولم يكن في مقدور اي

مدينة فينيقية ، حتى صور العظيمة ، ان تقف في وجه دولة اشور اذا ما قررت ان تخضعها لسلطانها .

من الاكيد ان صور لم تكن بحاجة الى بناء مدينة جديدة لكي توسع تجارتها وتمارس ولعها باكتشاف المجهول ونقل حضارتها الى مناطق بدائية من عالم المتوسط . فخلال القرنين السالفين كانت تجارتها قد وصلت في مداها الحضاري ، الى حدود بعيدة ، فشملت اسبانيا والساحل الاطلسي . والتوسع لا يكون خلال ازمة مصيرية كالازمة التي تتناول الشاطىء الكنعاني منذ ستين سنة .

في حالة كهذه كانت صور ، وهي في ذلك الحين اقوى واغنى مدينة في العالم ، بحاجة الى المحافظة على ثروتها . فقد أوصلت نظام المدينة ــ الدولة الى أقصى حدود القوة والثروة التي يمكنه ان يصلها ، فتجارتها ومشاريعها المعدنية انشأت شبكة عالمية ، جعلت من صور في القرنين العاشر والتاسع محور الحركة الاقتصادية العالمية . منتوجات ومحاصيل العالم القديم كانت تصل اليها ، كما ان مصنوعاتها ومصدراتها كانت تصل الى أقاصي العالم المعروف .

ان ما يتفق مع منطق الاحداث في ذلك الحين هو ان صور قد وقعت ، بعد وصول الاشوريين الى الشاطىء ، وفرضهم الجزية على المدن الكنعانية جميعها ، في أزمة سياسية داخلية مصيرية . ومن الطبيعي ، بعد ان دفع الصوريون الجزية وأرضوا اشور موقتا ، ان يكونوا بحثوا شأن مصيرهم بالنسبة الى مطامع الاشوريين التي قد تزداد يوما بعد يوم ، فلا يكتفون بالجزية والحماية المعنوية فيما بعد ، بل يتطلبون ضم المدن الفينيقية جميعها الى الوحدة القومية البيئية التي ينشئون ، والتي ازالوا الممالك الآرامية والميتانية ــ الحورية والحثية في سبيل تحقيقها .

من الطبيعي ان تكون الآراء قد تضاربت حول السياسة الصورية التي يجب اتباعها لمواجهة الطوارىء ، وان يكون قد تغلب رأي كبير يريد انشاء مدينة جديدة في شمالي افريقيا ، تحول قسما كبيرا من الثروة الصورية والتجارة الصورية العالمية اليها . ويبدو أن الاميرة اليسار قد تزعمت ذلك الرأي وقررت ان تكون هي على رأس تلك الحملة التاريخية العظيمة .

ولا شك أن اسبابا متوسطية ساعدت السبب الاشوري في دفع الصوريين الى بناء قرطاجة . فقد تميز القرن العاشر بتحركات واسعة وخطيرة في المناطق الغربية ، حيث تنتشر مستعمرات صور ومراكزها التجارية الحيوية . ففي اسبانيا وغاليا ( فرنسا اليوم ) زحف القلتيون من داخل اوروبا غربا بجنوب ، فعرقلوا ، الى حد ما ، حركة التجارة الصورية ، خصوصا على شواطىء المحيط الاطلسي . وفي الوقت نفسه نشطت المدن اليونانية ، وراحت تنافس الكنعانيين ،

ابتداء من القرن الثامن ق.م. فادركت صور ان سيطرتها على المضائق الغربية ، اي مضيق مسينة ، بين صقلية وايطاليا ، ومضيق سردينية وكورسكة ، ومضيق عمودي ملقرت ( جبل طارق ) امست مهددة ، اذ وصل نشاط اليونانيين والاتروسكيين الى جنوب غاليا واسبانيا ، فاصبح الصراع على المضائق حتميا .

ورات صور انها بعيدة عن حلبة هذا الصراع المصيري ، اذ كانت الرحلة البحرية من الشاطىء الكنعاني الى الجانب الغربي من حوض المتوسط ، تستغرق احيانا اشهرا ، فبادرت الى معالجة هذه المشكلة بانشاء قاعدة لها قوية على مقربة من المضائق . هذا هو السبب الاستراتيجي الآخر الذي جعل الاميرة اليسار تحزم أمرها ، وتقرر بناء قرطاضة .

ان السرعة،التي نمت بها « المدينة الجديدة » ، ( قرت حدشت ) ، لا تدل على ان فئة قليلة قد هاجرت خلسة الى تلك المنطقة الافريقية المفضلة ، بل يستدل من النمو السريع الذي رافق نشوء المدينة ، على ان ثروات ضخمة ، وطاقات بشرية متفوقة وكبيرة قد نقلت الى هناك لتشيد بسرعة مدهشة تلك العاصمة التي اصبحت ، بعد مئة سنة فقط ، اعظم مدينة في غربي المتوسط .

واهم عامل في تلك السرعة ، الى جانب العوامل المتوسطية المكنة ، هو ، ولا ريب ، الضغط الاشوري المتواصل وتخوف الفينيقيين من تصاعده وتطوره في المستقبل مما دفعهم الى تحويل المحور الاقتصادي الفينيقي من صور والشاطىء الفينيقي الى غربي المتوسط بسبب سيطرة النفوذ الاشوري على الشاطىء السوري كله وعلى قبرص ، فلم يكن صعبا على الصوريين ان ينقلوا محور نشاطهم الى قبرص لو ان الجزيرة بقيت حرة من قبضة الاشوريين ، فهي كانت فينيقية في ذلك الحين . واذا لم تكن فينيقية بجميع سكانها ، فقد كانت باكثريتهم وبسيطرتهم الاقتصادية .

ان تحول المحور الفينيقي الاقتصادي والعمراني الى غربي المتوسط يتضمن معاني بعيدة في دنيا المتوسط : كان الصوريون يعتبرون ان المتوسط هو بحيرة كنعانية بجميع رؤوسه وخلجانه وشطآنه ، لا ينازعهم فيه منازع ، ولا يغسل انسان يديه في مياهه الا اذا سمحوا له بذلك . هذا من ناحية السيطرة البحرية والاقتصادية .اما من ناحية نظرتهم الكونية الى العالم ، فليس غريبا ان يكون نهجهم العالمي هذا قد اوحى فيما بعد لمواطنهم زينون بن كيتيوم فلسفته الرواقية الكونية ، القائمة على روح انسانية مطلقة ، وفضيلة اجتماعية كونية مطلقة ايضا ، حاولت ان تخرج فلاسفة اليونان من دوائرهم الضيقة الى الرحاب الانسانية ، ومن اجواء اسبارته شبه البربرية التي يعتبرها توينبي في عداد الحضارات المتجمدة ، الى عالم جديد من القيم والفضائل الانسانية المنفتحة على العالم كله .

## نشوء قرطاضة

كان نشوء قرطاجة ، في القرن الثامن من قبل الميلاد ، حدثا عالميا حضاريا كبيرا ، بل اهم حدث عالمي في عصره ، كانت له نتائج وانعكاسات انسانية حضارية من جهة ، واستراتيجية متوسطية من جهة ثانية .

الا انه كان من الناحية القومية عامة ، ومن الناحية الفينيقية خاصة ، منعطفا تاريخيا دقيقا : فقد كان ، من جهة الفينيقيين ، تهربا من المشروع القومي الاشوري الذي صمم في النهاية على الاضطلاع بدور اكاد وبابل والآراميين معا ، وهو تحويل الدولة الاشورية من دولة برية جبلية الى دولة سورية قومية ، برية ـ بحرية ، قائمة بين الشرق البربري الذي يغير بصورة دورية على حضارة الهلال الخصيب فيدمرها ، وبين المتوسط الحضاري ، فترتكز على بحرها دون ان تتنازل عن دورها البري الواقف في وجه الموجات البربرية .

فالنسر الاشوري ، الذي عاش في اوكاره الجبلية العالية ، بل العاصية على الفاتحين من الداخل والخارج خلال احد عشر قرنا ( ٢٠٠٠ـ٩٠٠ ق.م ) ، صمم ان يغسل جناحيه بمياه المتوسط ، وان يصبح الشاطىء السوري ، الذي تقاسمه الحثيون والمصريون بسبب اقليمية الكنعانيين ، محطا لطيرانه .

فالكنعانيون ، بعد ان ادبروا عن اليابسة ، منذ انتقالهم من الخليج الى المتوسط ، واهمالهم قاعدتهم البرية خلال عشرين قرنا ، على ما يعني ذلك من تنازل عن دورهم في بيئتهم الطبيعية ومداها الحيوي الواسع وفي مسرحها الصاخب بالاحداث والتفاعلات الانسانية الغنية ، وفي مصيرها المهدد بالغزوات البربرية المتلاحقة الزاحفة من البطاح الشرقية وراء زغروس ،

هؤلاء الكنعانيون كان همهم ان يتهربوا من تحديات الداخل لا ان يردوا عليها الرد القومي الصحيح ولا ان يتفاعلوا معها او ان يصمموا على التغلب عليها وحسمها . لم يكن شأن الداخل يرد في سلم اوليات اهتماماتهم ، الا حين كان يتهددهم مباشرة فيسارعون الى محاولة ابعاده وتسكينه والتهرب منه بشتى الوسائل والاساليب .

من هنا موقفهم السلبي من السلطان البري الاشوري وامتداده من الحدود السورية الشرقية ( جبال زغروس ) الى شاطىء المتوسط . ومن هنا اعتبارهم كل مشروع قومي يشدهم الى اليابسة ويقوي ارتباطهم بها ، من شأنه ان يكبلهم ويعطل حياتهم البحرية او يشل حركتهم فيها .

لقد تذوقوا حضارة البحر الطليقة ، والرود في ابعاده اللامحدودة ، والفوا المخاطر تنقلهم الى العوالم الجديدة وتأتيهم بالثروات الطائلة ، ثم اولعوا بالمعرفة والبحث عن المجهول في عالمهم ، وبالقيام بمغامرات عالمية فيها مجد توزيع

الحضارة ولذة تحقيق المشاريع الكبرى من اقتصادية وغـير اقتصادية ، حتى خيل اليهم انهم يستطيعون الاستغناء عن الاهتمام ببيئتهم وبوطنهم على امتداد رقعته ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك فاعتقدوا ان هذا الاهتمام قد يتناقض مع حياتهم البحرية العالمية وطموحاتها .

ومن هنا كان ردهم على المشروع القومي الاشوري مزيدا من التوجه نحو البحر والعالم الخارجي . بهذا المعنى كان ردهم عالميا لا قوميا .

مع انه قد تبين عمليا فيما بعد ان العالمية الحقيقية لا يمكن ان تنطلق ، وتكون ثابتة في توسعها وانتصارها ، الا اذا انطلقت من مجتمع قومي مكتمل النشوء والتكوين ، اي من القومية الانسانية .

وقد كانت قرطاضة ، في حقيقتها السورية الحضارية ، حلقة كبرى من حلقات الحضارة الكنعانية السورية ، ولكنها لم تكن حلقة خلاقة في فكرها السياسي ، لتكون قاعدة امامية للدولة الاشورية السورية المتكونة في البيئة الطبيعية . لقد صبت قرطاضة في قالب صوري اصلي ، لم يتبدل عبر القرون ، حتى تغافلت عن اقامة وحدة كنعانية تضم المدن الكنعانية الاثنين والسبعين ، المنتشرة من خليج القيروان حتى شواطىء الاطلسي وشواطىء اسبانيا .

وقد اخطأ المؤرخون عندما قالوا : « ان قرطاضة تكبر رومة بخمسين سنة » . ان قرطاضة قد صبت في قالب صوري ، وصور تأسست حوالي ٢٧٥٠ ق.م. فرومة كانت تحمل في نشوئها معاني الطفولة النامية المتطورة ، اما قرطاضة فكانت عند نشوئها بنت الفي سنة ، وكانت على عراقتها الحضارية، تحمل في طياتها معاني التحجر في الفكر السياسي والقومي .

صحيح انها قويت وازدهرت ، وحاربت وانتصرت ، وتغلبت على المدن اليونانية التي عاصرتها في حوض المتوسط ، ولكن انتصاراتها ونمو المدن الكنعانية في ذلك الحوض لم يفجر في فكرها صيغة قومية جديدة ، بينما رومة ، البدائية في مستواها الثقافي والحضاري وفي اساليب حياتها الزراعية ، كانت تنمو وتتطور وتقتبس وتكتشف نواميس الحياة القومية ، وتسير نحـو وحدتها الاجتماعية والقومية . كان انتصار قرطاضة على المدن اليونانية انتصار المعلمة على تلميذاتها التي لم تكتشف صيغة سياسية جديدة تفوق صيغة معلمتها . اما بالنسبة لرومة فقد كانت قرطاضة المسيطرة الهرمة ضد قوة فتية نامية خلاقة : كانت مدينة هرمة ضد مجتمع قومي فتي ناشيء .

على الساحل الافريقي ، وفي غربي المتوسط عامـة ، كانت قرطاضة منفلشة دون ان تكون لها قاعدة قومية في الوطن ـــ الام ، او قاعدة محلية افريقية تشد الكنعانيين في وحدة تجعلهم اقوى قوة في غربي المتوسط . فكما اهملت صور امكانية توحيد جميع المدن الكنعانية على الشاطىء السوري كله ، من خليج اسكندرون الى حدود مصر ، واهملت البر الداخلي في وطنها ، ولم

تتجاوب مع الوحدات القومية التي كانت تنشأ في وطنها ، كذلك تعامت قرطاضة عما توفر لها من عناصر كنعانية نامية وقوية في جيرتها . كانت امبراطورية قرطاضة تمتد فعليا ، على طول اربعة آلاف وخمسماية كيلومتر ، عدا عن اسبانيا والجزر الوسطى : صقلية ، سردينية ، كورسيكا ، مالطة ... وقد ارتكبت عبر القرون السبعة من حياتها هذين الخطأين الاساسيين ، اللذين اوديا بحياتها :

١ ــ لم تعرف ان توحد طاقاتها الكنعانية في دولة واحدة لتواجه جميع الطوارىء ، ولتصبح اقوى دولة في العالم .

٢ ــ لم تؤمن لنفسها المدى الحيوي البري الداخلي لتحمي نفسها من جميع المؤامرات المحتملة ، يحوكها البرابرة المحليون مع رومة او غيرها .

والحضارة الكنعانية السورية الاصيلة على الشاطىء السوري قد وقعت هي أيضا في خطأين كانا مصدر الخطأ القرطاضي :

فلا فينيقيا سعت الى ان تتحد في دولة واحدة لتحمي نفسها وتغزو بر وطنها لتوحده مع الشاطىء ، وتنطلق منه لتحضير العالم ، ولا الموجات البربرية والغزوات الغربية حفزتها لتدافع عن نفسها وعن مواطنيها في الداخل السوري . وكم كان سهلا على صور وحدها ان تسحق الموجة العبرانية البربرية بقيادة موسى ويشوع بن نون ، وتحسم تلك المعضلة التي ما زالت تستشري حتى اليوم خطرا مصيريا على سورية الطبيعية جميعها في القرن العشرين .

## سلطان قرطاضة يتوطد

في اوائل القرن السابع قبل الميلاد كانت قرطاضة قد اصبحت قوة مهيمنة في غربي المتوسط . ويبدو ان سرعة نموها كانت ناتجة عن تدفق المهاجرين الفينيقيين اليها من الوطن ــ الام . فالمدن الفينيقية جميعها كانت قد شعرت بالضغط الاشوري المتزايد . ومع تدفق هؤلاء المهاجرين تدفقت ثروات مادية ضخمة وثروات بشرية هي مجموعات من الصناعيين والزراعيين والخبراء والفنيين ورجال العلم والثقافة .

وقد رافق نمو قرطاضة نمو مدن يونانية كانت ناشئة في جنوبي ايطاليا وفي صقلية وسردينية وكورسكا ، والشاطىء الافريقي الشرقي الممتد من خليج سيرانية نحو مصر . وما لبثت « المدينة الجديدة » ، قرطاضة ، ان وجدت نفسها بين خطرين : خطر غزوات البرابرة المحيطين بها ، وخطر التوسع اليوناني الذي ملأ غربي المتوسط بنشاطه . ومنذ بزوغ فجرها حتى المغيب من حياتها التي دامت سبعة قرون ، كانت في حروب دائمة . لم تكن فترات الهدوء الموقت في حياتها الا لترميم ما انتابها من خراب ولاعداد نفسها لمعارك جديدة . واذا كانت « المدينة الجديدة » قد اضطرت للدفاع عن نفسها وعن

مصالحها بحد سيفها خلال جميع مراحل تاريخها ، الا انها خلال جميع مراحلها أيضا لم تنس ولم تتنازل عن دورها الحضاري واساليبها الحضارية في التعامل والمسلك . فقد حملت « المدينة الجديدة » ، زيادة على التوسع والتعمير والمصالح الاقتصادية ، روح اليسار المثالية الجديدة ، الا وهي روح الشعور بالمحافظة على عظمة الحضارة الكنعانية السورية ومهمة نشرها في العالم . فهي وريثة التراث الذي ملأ المتوسط والعالم القديم بمآثره الحضارية .

ولم ينشأ عند قرطاجة ، في اي مرحلة من مراحل قوتها وسطوتها وسيطرتها شبه الكاملة ، اي ولع بالحرب لاجل الحرب كما كان الوضع عند الاسبارتيين وعند المقدونيين وعند الرومان من بعدهم .

فبالرغم من ان قرطاضة الناشئة والنامية كانت مرغمة على صد تحديين :

- البداوة المحلية المحيطة بها .
- الحضارة اليونانية العنصرية .

وبالرغم من ان هذين التحديين وضعاها في وضع دقيق ومحرج خاصة وانها تقوم باعباء اكتشاف المجاهيل الشاسعة التي لم يكتشفها احد قبلها ، فقد حافظت على مبدأ كنعاني انساني تقليدي ، وهو اتخاذ موقف الدفاع وتجنب العدوان . حتى البرابرة المحيطون بها ، المشكلون خطرا دائما عليها ، لم تشأ قرطاضة ان تدمرهم او تبعدهم بالحرب عن جوارها ، بل اعتبرت ان الارض ارضهم واستمرت تدفع ايجار الارض التي قامت عليها الى القبيلة المالكة حتى سنة ٥٢٠ ق.م. حين جاءت القبيلة تطلب تعويضا كبيرا ، كتسوية نهائية عن ايجار الارض التي مر نحو ثلاثة قرون على استئجارها .

لم يكن اليونانيون من هذا المبدأ ، وتوسعهم في غربي المتوسط لم يكن لغير التجارة والاستعمار . . منذ اواسط القرن الثامن ق.م. اخذوا يقتحمون غربي المتوسط في جميع زواياه . وبعد قرن واحد كانت لهم عشرات المدن . على الحدود القرطاضية الشرقية ، وعلى الطرف الشمالي من خليج سيرتا الكبير انشأوا مدينتهم الكبيرة سيرانية ( ٦٤٠ ق.م ) . ولم يمض وقت طويل على تمركزهم على الحدود القرطاضية حتى بدأ الدفع اليوناني نحو الغرب مهاجما الفينيقيين . وحوالي سنة ٥٨٠ ق.م. انشأ اليونانيون مدينة ليليبايوم في اقصى نقطة من جنوبي ـ غربي صقلية ، « لتكون منذ البداية تهديدا دائما متجها نحو قرطاضة » (٢) .

قبل تأسيس قرطاضة كانت المؤسسات التجارية الفينيقية منتشرة في اكثر مدن غربي المتوسط ، وكان على قرطاضة ان تحمي هذه المؤسسات من التوسع اليوناني الذي كان يمارس ، بالنسبة الى الفينيقيين ، اساليب عدوانية . فالحرب كانت مفروضة على قرطاضة اذا كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن الميراث الصيدوني والصوري ، والكنعاني عامة ، في غربي المتوسط .

منذ اوائل القرن السادس بدأت حرب قرطاضية اولى على الارض الافريقية. فلم تكتف سيرانية اليونانية بالتوسع نحو الشرق والجنوب ، بل اتجهت نحو الغرب ، مجتاحة المناطق التي تعتبرها قرطاضة من امبراطوريتها ، والتي يسكنها فينيقيون . ولكن قرطاضة اوقفت ذلك الزحف واعادت الحدود الى اصلها . وقد طالت هذه الحرب وكبدت الجهتين خسائر كبيرة ، حتى خاف الطرفان اخيرا من الوقوع فريسة فاتح جديد اذا استمر القتال على ذلك النحو العنيف ، فكانت هدنة وصلح بين الاثنين ، واعيد كل شيء الى اصله . وما كادت هذه الحرب تنتهي حتى اشتعلت حرب ثانية بين الفريقين . يبدو ان ما فعلته سيرانية في افريقيا ، كانت تفعله كل مدينة يونانية في صقلية وسردينية . فاليونانيون كانوا يفكرون بالاستيلاء على جزر غربي المتوسط لجعلها موطنا يونانيا لهم . وليس غريبا ان يكون الفينيقيون في هذه الجزر قد استنجدوا بقرطاضة بعد ان انقطعت عنهم حماية الاساطيل الصورية . فقد اضطرت قرطاضة بالرغم من انشغالها بالدفاع عن وطنها الجديد ضد السكان الاصليين المتابعين اغارتهم عليها ، ان تباشر نوعا جديدا من الحرب خارج ارضها ، فقامت بحملة عسكرية كبيرة على صقلية لنجدة مواطنيها ومؤسساتهم التجارية .

في هذه الحملة حقق الجيش القرطاضي بقيادة ملكوس انتصارات كبيرة في صقلية ، فاستولى على جميع المدن التي تشكل خطرا على الفينيقيين ، واقام فيها حاميات دائمة ، واضعا حدا للخطر اليوناني ، ومنشئا وضعا عسكريا قادرا ان يرد على أية تعديات جديدة .

ثم انتقل ملكوس الى سردينية لينشىء الحالة الدفاعية نفسها التي انشأها في صقلية ، ولكنه كان اقل حظا هناك . فقد مني في سردينية بهزيمة كبرى كانت الاولى في تاريخ قرطاضة الحربي ( ٥٥٠ ق.م. ) وخسر قسما كبيرا من جيشه . وقد اتخذت الحكومة القرطاضية تدبيرا قاسيا بحقه ، فانذرته بأن ينفي نفسه مع جيشه قصاصا له على هزيمته . كان ذلك النوع من القصاص من تقاليد الدولة تجاه المنهزمين من قادتها .

من سنة ٥٥٠ ق.م. الى سنة ٢٦٤ ق.م. لم تهدأ الحرب بين قرطاضة والمدن اليونانية في غربي المتوسط الا في فترات قصيرة . وقد تغلبت قرطاضة وحدها على جميع المدن — الدول ، فحولتها ، كما يقول المؤرخ جيرار فالتر ان « غبار من الدول » ، ولم يبق منها حتى سنة ٢٦٤ الا سرقسطة ، على الطرف الشرقي من صقلية ، قادرة ان تدافع عن نفسها .

في تلك السنة التاريخية ( ٢٦٤ ق.م. ) ، أخذت رومه عبء الحرب عن المدن اليونانية المستضعفة . فرومة كانت قد اخضعت المدن اليونانية في ايطاليا الجنوبية لوحدتها القومية ، فارضة عليها صيغا متنوعة من الخضوع لمشيئتها القومية . والمدن اليونانية في الجزر وفي افريقيا ، شرقي امبراطورية قرطاضة ، كانت ، ما عدا سرقسطه ، خاضعة للنفوذ القرطاضي .

في تلك السنة التاريخية بدأ تحول في غربي المتوسط . تحول لم يتبلور ولم تعرف حقيقته المصيرية الا بعد ثلاث وعشرين سنة . لقد بدأت الحرب الفينيقية الاولى ( ٢٦٤ ــ ٢٤١ ق.م. )، ودلت نتائجها على تفتق ظاهرة اجتماعية سياسية جديدة في غربي المتوسط ، تلك كانت ظاهرة «الدولة القومية »، التي احتلت في ايطاليا بيئة جغرافية طبيعية كاملة وقضت على مفاهيم الدولة المدينية الكنعانية واليونانية التي كانت تسيطر في رومة قبل ان تطورت رومة وتجسدت في وحدة ايطاليا القومية .

لم تكن الحروب بين قرطاضة ، المدينة ــ الدولة ، وبين المدن اليونانية ، التي تنافسها في ميادين الحضارة والاستعمار ، الا تمهيدا لهذه الحروب الفينيقية المصيرية التي اشتعلت في سنة ٢٦٤ ق.م. فبينما كان الفينيقيون واليونانيون يستنزفون حيويتهم وطاقاتهم ، وهم مجمدون في قوالبهم السياسية العتيقة ، قوالب المدينة اللاقومية ، المؤسسة على مفاهيم عتيقة بالية ، استهلكت معطياتها الحضارية في سومر عندما ازالها سرجون الاكادي ( ٢٣٠٠ ق.م. ) ، وحمورابي العموري ، ( ١٧٢٨ــ١٦٨٥ ق.م. ) ، كما افلست في فينيقيا بعد بدء التوسع الاشوري القومي ( ١٢٤٥ــ٦١٢ ق.م. ) ، وبعد التوسع البابلي الجديد ( ٦١٢ــ٥٣٩ ق.م. ) .

لقد احرزت قرطاضة انتصاراتها الكبيرة على اليونانيين لانها ،وهي متفوقة بشخصيتها الجديدة ، كانت تواجه نظاما سياسيا مماثلا لنظامها ، مفتقرا الى تنظيمها وحيويتها وطاقاتها الاقتصادية والمالية . ولم يحاربها اليونانيون مجتمعين بل حاربتها كل مدينة منهم بمفردها . فلو انهم تكتلوا عليها في جبهة قومية متراصة لكانوا انتصروا عليها . فهي قد تغلبت عليهم جميعا مدينة بعد مدينة ، لان قرطاضة ، بالرغم من نظامها المديني العتيق ، كانت تشكل امبراطورية تسيطر على مساحات شاسعة من الارض ، كما كانت مزودة بحفز نفسي دائم

يدفعها الى الاستماتة في سبيل البقاء بعد ان غلبت على امرها في صور ـــ الام ، كما كانت مزودة بامكانات صناعية هي الاولى في العالم .

اما الان فان قرطاضة ستواجه عدوا جديدا مزودا بقوة تفوق كثيرا الحفز النفسي الذي كان سلاح قرطاضة الاقوى ضد اليونانيين .

في غفلة من الفكر الكنعاني المتجمد في قرطاضة في مفاهيم المدينة ـــ الدولة العتيقة ، كانت تتم في رومة من سنة ٥١٠ ق.م. الى سنة ٢٦٤ ظاهرة اجتماعية سياسية جديدة ، هي الوحدة القومية البيئية ، المنحوتة بحد السيف ، وبالدهاء السياسي العبقري . وكانت تنشأ قوة اجتماعية ، شعبية ، حربية وسياسية جديدة ، ترتكز على وعي شعبي جديد ، ونظام سياسي جديد ، واع حقيقته الجديدة ومصيره الكبير . تلك كانت قوة شعبية تمرست في داخل وطنها على الحروب القومية التوحيدية ، وتذوقت الانتصـــارات ، حتى اولعت بالحرب والانتصار .

لقد خاضت رومة على أرض وطنها الايطالي حروبا قومية وداخلية طويلة ، وحققت انتصارات متواصلة على مدى قرنين ونيف ( ٥١٠ـــ٢٦٤ ق.م. ) :

ـــ صدت البرابرة الجلالقة مرات عديدة عن ارضها حتى يئسوا من الهجوم منكفئين الى داخل حدودهم .

ـــ دمرت الكيان الاتروسكي ، حليف القرطاضيين ، وكان اقوى واقدم دويلة في ايطاليا .

ـــ تغلبت على جميع المدن اليونانية داخل ايطاليا فاصبحت ، بصيغ مختلفة، اجزاء من الوحدة القومية الايطالية الجديدة .

ـــ واخيرا ارغمت بيروس الملك والفاتح والقائد اليوناني الكبير ، الملقب بالاسكندر الثاني ، على مغادرة ايطاليا مدحورا شر اندحار ، خاسرا خمسين الفا من جيشه في ايطاليا وصقلية .

نتج عن هذه الانتصارات الحربية الداخلية ، وعن هذه القيادات البطولية والحكيمة تحقيق وحدة قومية ايطالية فريدة من نوعها في ذلك التاريخ : في وعيها وتنظيمها ، وشعورها بتفوقها على جميع القوى في غربي المتوسط ، وادركت رومه ، وهي التي تنهيب قرطاضة وسطوة قوتها البحرية ، انها اصبحت قادرة ان تخوض حربا فاصلة مع الفينيقيين في صقلية وسردينية وكورسكا ، وهي تعتبر هذه الجزر اجزاء من الوطن الايطالي عائمة على المياه .

كانت قرطاضة تراقب نمو القوة الرومانية وتقوي نفسهـــا في صقلية استعدادا لاي طارىء ، وكانت رومة وقرطاضة ترتبطان بمعاهدة حسن جوار ، حتى ودفاع مشترك ، منذ سنة ٣٤٨ ق.م. ولم يكن عقد المعاهدة بدافع تخوف من قبل القرطاضيين ، بل قد يكون التخوف من قبل الرومان ، ونص المعاهدة يدل على ذلك . اذ لم يكن يخطر ببال القرطاضيين ان رومة تتجرأ على التحرش بهم ، خصوصا بعد ان قضوا على القوى السياسية والحربية اليونانية . ان

شيئا واحدا قد غفل عنه القرطاضيون ، وهو اهم حدث في غربي المتوسط ، ذلك هو تحول رومة ، بتخطيط وبحكمة وبطولة رومانية مدهشة ، من مدينة ــ دولة الى امة ــ دولة . فقد امتصت رومة المدينة ، خلال قرنين وربع قرن ، جميع الاقوام الايطالية ، اللاتينية منها والغربية ، حتى اصبحت امة ايطالية في قالب مدينة ، وانضوى الوطن الايطالي تحت لواء رومة ، حتى اصبحت اسوار رومة تشمل معنويا وعمليا شبه الجزيرة كلها ، واصبحت حدودها الشمالية تشرف على جبال الالب . هذه الظاهرة الجديدة والمعقدة والغامضة في ظاهرها ، كانت تعيها رومة ، وتخفى عن الادراك القرطاضي المجمد في مفاهيم المدينة ــ الدولة .

في سنة ٢٦٤ ق.م. ، بعد ان تم تحقيق الوحدة القومية الايطالية بقيادة رومة وحروبها ، نظر الحزب العسكري الروماني الى صنع بطولاته فرآه حسنا ، وشعر انه بحاجة الى ميدان جديد . ايطاليا اصبحت في قبضة رومة ، فيها من الموارد الزراعية والقوى البشرية ما يشجع على خوض كل حرب . ولم يكن امام التخطيط الحربي الروماني العسكري الا اجزاء ايطاليا العائمة على المياه . ولا يمكن ان يكون هدفها الاول الا صقلية . فهي مفصولة عن شبه الجزيرة بمضيق لا يزيد اتساعه في بعض نواحيه عن ثلاثة آلاف متر ، بل ان وجود القرطاضيين على هذا القرب من ايطاليا كان في نظر العسكريين خطرا دائما ، محدقا بالوضع القومي الجديد . فايطاليا شبه جزيرة ، والاساطيل الفينيقية تجعل من جميع البحار ميدانا لتفوقها ، والمدن اليونانية التي ارغمت على الانضمام الى الوحدة الايطالية الجديدة ما تزال تتطلع الى منقذ لها من هذا الروماني الفظ المتخلف عن مستواها الحضاري مئات السنين والمتعالي عليها كأنه سيد يعامل عبيدا .

ولكن رومة مقيدة بمعاهدة واضحة تمنعها عن العدوان على صقلية ، ونص المعاهدة يحدد حقوق كل من الطرفين ، ففي المعاهدة بند واضح كل الوضوح ، يقول بصراحة : « صقلية للقرطاضيين وايطاليا للرومان (٣) » .

لا شك ان رومة سعت لعقد هذه المعاهدة مع قرطاضة ، فهي كانت في ذلك الحين ( ٣٤٨ ق.م. ) في مرحلة توسع نحو الجنوب لتضم المدن اليونانية الى وحدتها القومية الناشئة . والمدن اليونانية ، عدا عن ثروتها الضخمة تشكل طاقة صناعية كانت رومة مفتقرة اليها . وخوفا من ان تتدخل قرطاضة لحماية المدن اليونانية من التوسع الروماني ، وتداركا لهذا الاحتمال ، سعت رومة لعقد هذه المعاهدة الاولى مع قرطاضة . وقد كان مسعى رومة غاية في الدهاء السياسي الذي لم يلاحظه القرطاضيون .

عقدت المعاهدة لعشرين سنة ، ثم تجددت حوالي سنة ٣٢٥ ق.م. وقد اضيفت اليها في المرة الثانية بنود جديدة لمصلحة الرومان ، تختص بشبه الجزيرة الايطالية ، وسكانها حتى ولو كانوا غير خاضعين لرومة . ويبدو ان المعاهدة نفسها قد تجددت مرة ثالثة سنة ٣٠٦ . ولكن المؤرخ بوليبيوس ،

وهو متحيز مع الرومان ضد القرطاضيين ، ينكر هذا التجديد لكي يغطي خرق الرومان لهذه المعاهدة وحنثهم بيمينهم عندما اجتازوا مضيق مسينة ودخلوا صقلية سنة ٦٢٤ ق.م. وقد اكد المؤرخ الصقلي فيلينوس الاغريجنتي تجديد هذه المعاهدة للمرة الثالثة وفضح تحيز بوليبيوس وسوء نية الرومان بينما كانوا دائما يتهمون القرطاضيين ، والفينيقيين بصورة عامة ، بسوء النية .

ويؤكد فيلينوس الاغريجنتي ان المعاهدة الثالثة كانت تتضمن بندا جديدا فيه كل التشديد على كل من الطرفين : « توصد ابواب ايطاليا في وجه القرطاضيين ، كما توصد ابواب صقلية في وجه الرومان » .

ثم يضيف فيلينوس : « ان الرومان قد خرقوا المعاهدة وحنثوا بيمينهم عندما دخلوا ارض صقلية » .

ويقول المؤرخ جيرار فالتر بصدد هذه النقطة الجوهرية :

« ان هذا النكران من قبل بوليبيوس يشكل بصراحة برهانا لا يدحض على مسؤولية الرومان في اشعال الحرب الفينيقية الاولى سنة ٢٦٤ ق.م. ونص هذه المعاهدة الثالثة ، كجميع النصوص السابقة كان محفورا على لوح من البرونز ، ومحفوظا بين وثائق حكام رومه في معبد جوبيتر بالكابيتول ، ولكنه سحب من هذه الوثائق واتلف لانه يحكم على اخلاق الرومان حكما رهيبا .

« هذه المعاهدة قد تجددت مرة رابعة ، عندما غزا الملك اليوناني بيروس ايطاليا حوالي ٢٨٠ ق.م. وقد اضيفت اليها مادة جديدة غايتها تجديدها كلما كان التجديد يخدم مصلحة رومة . ومن نص المادة الجديدة المضافة يفهم بوضوح ان الرومان طلبوا اضافتها ، وهذا هو نصها :

« الدولتان تتناجدان اذا هوجمت احداهما على ارضها . وكلما كانت احدى الدولتين بحاجة الى النجدة ، فان قرطاضة تقدم السفن سواء للنقل او للمعارك . ولكن كلا منهما تدفع اجور جيوشها . والقرطاضيون ينجدون الرومان حتى في البحر عند الضرورة . ولكن البحارة غير ملزمين بالقتال على اليابسة اذا هم رفضوا ذلك » .

بناء على نص هذه المادة الصريح ، وتداركا لخطر بيروس الذي ، اذا تغلب على الرومان ، سيجتاح صقلية ، اسرعت قرطاضة بارسال اسطول من مئة وثلاثين قطعة كبيرة لنجدة رومة . وقد رسا الاسطول بقيادة الاميرال القرطاجي ماغون في اوستي ، مرفأ رومة على نهر التيبر . وقابل الاميرال السلطات الرومانية معلنا استعداده للقيام بالواجب الذي تقتضيه معاهدة « الدفاع المشترك » القائمة بين الدولتين . ولقد وقع الاميرال في دهشة غريبة عندما استقبله مجلس الشيوخ الروماني ، فشكره على اهتمام قرطاضة بالامر ، ولكنه اوضح له ان رومة لا تخوض حربا تكون عاجزة فيها عن الدفاع عن نفسها بقواتها الخاصة . فهي اذن بغير حاجة الى مساعدة ، وما عليه الا ان يعود من حيث أتى . فلم يجد ماغون بدا من الانسحاب امام هذا الرفض المقنع بلطف جاف ،

مجرد من اللياقة والصداقة .

ويقف المؤرخون المنصفون في حيرة امام التصرف الروماني المستهجن وغير المنتظر . ومع ذلك فان المؤرخين المتحيزين والمغرضين يجدون مجالا لخلق اعذار لعدم اللياقة الرومانية . فالمؤرخ يوستينوس يقول :

« لقد قصد القرطاضيون بارسال نجدتهم السريعة الى الرومان ان يجمدوا بيروس في ايطاليا ، وان يطيلوا الحرب مع رومه فيمنعوه من الوصول الى صقلية » .

لا شك ان كلاما من هذا النوع لا يستحق التحليل لسخافته وللتحيز الواضح في مضمونه . فالقرطاضيون كانوا ، بدون شك ، يقصدون الدفاع عن انفسهم عندما يساعدون رومة على الانتصار على قائد كانت ترهبه الدول كما رهبت الاسكندر . « ولكن ذلك لا يقلل من حقيقة ان معاونة القرطاضيين البحرية كانت ساعدت الى حد بعيد على انتصار رومة . وذلك لم يكن ليطيل الحرب بل ليقصرها اذ يسرع في هزيمة بيروس .

« يتضح من ذلك ، على كل حال ، ان الرومـــان ، بالرغم من جميع المعاهدات المعقودة مع القرطاضيين ، كانوا يحذرونهم ويريدونهم بعيدين عن مشاكلهم . وقد نجد الشعور نفسه عند القرطاضيين تجاه الرومان » (٤) .

كان الحذر ، اذن ، بين الدولتين متبادلا . ولم تكن المعاهدة المتجددة مرات اربعا لتغير شيئا مما في الفكر والقلب . فالتنافس كان طبيعيا بين الدولتين بعد ان ازال القرطاضيون قوة المدن اليونانية ، واصبحوا في مرفأ مسينة ، لا تفصلهم عن شبه الجزيرة الايطالية الا ثلاثة آلاف متر من الماء ، وبعد ان دمر الرومان قوة بيروس واخرجوه من ايطاليا ، ووصلوا في زحفهم الجنوبي الى ريجيوم المرفأ الايطالي المقابل لمسينة .

كان القرطاضيون يعتقدون ان رومة لا تتجرأ على خرق المعاهدة التي تقول « ايطاليا للرومان وصقلية للقرطاضيين » . فالرومان انفسهم قد طلبوا ذلك ، وارتضوا ان يأمنوا امكانية تدخل قرطاضة في بعض المناطق من شبه الجزيرة التي لم تخضع بعد لرومة . وقرطاضة قبلت ايضا ان تكون حرة في صقلية ، تنهي كل نفوذ لليونانيين ، وتصبح سيدة الجزيرة المطلقة ، وتفيد من الطاقات الصناعية اليونانية التي تصبح خاضعة نهائيا لسيادة قرطاضة .

ولكن رومة حوالي سنة ٢٧٠ ق.م. كان يحفزها الانتصار الذي احرزته على اعظم قائد في العالم ، كما كان يدفعها الى الامام غليان القوى التي ضمتها الى مركزيتها القومية الجديدة . اما قرطاضة فان قوتها قد وصلت الى أقصى حدودها الممكنة كمدينة ــ دولة ، وهي الآن وجه لوجه مع رومة ، زالت من بينهما جميع القوى الفاصلة . رومة فتية ، نامية ، متطورة ، دينمية وثابة ، مقتبسة وخلاقة ، واعية طاقاتها واهدافها القومية ، تحفزها مركزيتها القومية الواعية ، وقرطاضة عجوز حكيمة ، عاقلة ، غنية وقادرة ، ولكنها جامدة ،

متصلبة ، تقدس نفسها وتقاليدها وجميع مفاهيمها السياسية التي استهلكت عبر القرون . حتى نفسية اليسار المتوثبة قد رقدت عبر القرون ، والحفز الذي ولّده التحدي الاشوري قد زال مع الزمن ، والتحدي الروماني الجديد لم يولد ردا عنيفا ، على مستواه المصيري ، مع انه أخطر من التحدي الاشوري .

تسود في قرطاضة منذ قرون طبقة اوليغارشية اريستوقراطية مغلقة ، جعلتها الانتصارات على المدن اليونانية تغتر بنفسها ، وتحسب قوتها العسكرية اكثر مما هي بكثير . تتوهم ان الدنيا جامدة مع مفاهيمها ، لا يتفتق من جوهر فكرها السياسي القومي وانسانيتها شيء جديد . لا تتغير هذه الدنيا ولا تتبدل ، بل تنظر باعجاب الى عظمة قوتها البحرية والاقتصادية التي عبرت قرونها الخمسة الاولى محطمة كل ما يعترضها من عقبات . ولكنها الآن على ضفاف مسينة ، على حدود مداها الحيوي ، ستواجه قوة من معيار جديد ، ومفاهيم جديدة ، وقيم اجتماعية وقومية وصراعية جديدة ، حولتها رومة كلها الى طاقة قومية دينامية قادرة . فالجمهورية الرومانية الجديدة ليست دستورا طقسيا صنميا ، جعلته طبقة معينة مغلقة شيئا شبه ديني مقدس ، يمارس اشكاله دون ان يتحرك جوهره ، كما هي الحال في قرطاضة ، بل هي جمهورية دينامية فاعلة ، يتزعمها قادة فكر وحرب نحتوا زعامتهم بعبقريتهم وبطولتهم ، وحققوا من الانتصارات السياسية والحربية ، ما حملهم على الولع بالسياسة والحرب فاعتبروهما وسيلتهم المثلى لتحقيق اهدافهم القومية ومداهم الحيوي في حوض المتوسط . لذلك ، عندما رأوا القرطاضيين على اطراف شبه جزيرتهم وفي جزر هي جزء طبيعي من وطنهم، استهتروا بالمعاهدات التي تحد من طموحهم وحقوقهم، ولم يبق لهم من هدف الا ان يقفزوا ، في ظروف مؤاتية ، من ضفة الى ضفة ، حتى يخلقوا ميدانا جديدا لطاقتهم الحربية المتفوقة . لقد قرروا في مجلس الشيوخ الروماني غزو صقلية عندما يجدون للغزو مبررا لا يظهرهم كمعتدين ، بل كمدافعين عن وجودهم ، ودافعين الخطر عن تخومهم .

ان الوحدة القومية الرومانية الايطالية كانت ما تزال طرية ، حديثة ، تتخللها عناصر يونانية ضمت مدنها منذ وقت قصير ، وهي ما تزال مستعدة للانتفاض والانفصال اذا ما سنحت لها فرصة مناسبة ، لذلك كان صعبا على رومة ان تتحمل وجود القرطاضيين على بعد رمية حجر من هذه المدن اليونانية الجنوبية .

والوحدة الرومانية الايطالية المكتملة حوالي سنة ٢٦٤ ق.م. هي غير الوحدة اليونانية التي حققها سنة ٣٣٨ ق.م. سيف فيليب المقدوني بدون اي اعداد فكري اجتماعي قومي عقائدي عند الشعب اليوناني في مختلف دوله المدينية المستقلة الواحدة عن الاخرى ، كما كانت الحال على الشاطىء الكنعاني وعلى الشاطىء الافريقي القرطاضي . تلك وحدة من صنع فاتح عسكري ، لم تتأسس على أرض صلبة ولا سعى أصحابها لترسيخها وتعميقها . لذلك

ما أن ابتعد الاسكندر في الشرق وصار رجوعه صعبا حتى انتفضت أثينا على هذه الوحدة ، بقيادة ديموستينوس الذي كان يمثل الانغلاق الانعزالي المتجمد مع نظام المدينة ـــ الدولة كالقرطاضيين .

لم يحقق اليونانيون تلك الوحدة ، ولم يعوا اهميتها بالنسبة لحياتهم ومصيرهم ، فتفككت بعد موت الاسكندر كأنها لم تكن ، بينما الوحدة الرومانية ـــ الايطالية كانت تترسخ من جيل الى جيل لتسيطر على العالم القديم كله بعد أن دمرت قرطاضة وممالك خلفاء الاسكندر في سورية ومصر واسيا الصغرى واليونان نفسها .

الوحدة الرومانية نحتت كما ينحت تمثال عملاق ، تعاون على نحته فنانون عديدون عباقرة ، وقد كلفت مئات الالوف من الضحايا ، عدا عن التضحيات المادية التي ارهقت الشعب الروماني . فرومة غير مستعدة أن تفرط بقيمتها الكبرى ، وأن تتوانى في المحافظة عليها ، ودرء كل خطر يقترب منها مهما غلا الثمن . لذلك كان لا بد من ابعاد شبح القرطاضيين عن المضيق الايطالي ، بل عن شبه الجزيرة كلها .

أضمرت رومة بعزم أن تبدأ حربا جديدة ضد قرطاضة التي كانت سطوتها ورهبتها وهيبتها تملأ البحار . فليس سهلا على رومة ان تخترق مجالات السيطرة القرطاضية والنفوذ المعنوي والمادي ، الذي تتمع به قرطاضة بين شعوب غربي المتوسط . فقوة قرطاضة البحرية والصناعية والمالية والحربية هي الاولى في العالم ، وهي تضاهي أضعاف ما تقدر أن تقدمه رومة للحرب . واذا كانت رومة متفوقة بمعنوياتها ومفاهيمها القومية وشخصيتها القومية الجديدة ، واستعدادها للتضحية ، فان قرطاضة تفوقها في جميع الطاقات المادية والحربية . فانتاجها الصناعي ، ونقدها ، واساطيلها التجارية التي تجوب جميع انحاء العالم المعروف ، كل ذلك يجعل الشعوب مرتاحة الى سيطرتها . فهي ليست دولة حروب للمغانم والاسلاب وقهر الشعوب بفرض الضرائب والجزية على المغلوبين ، بل ان الحروب عندها هي لافتتاح الامصار البدائية واكتشاف مواردها الطبيعية لخير تلك الشعوب البدائية ، وفرض اساليب حضارتها الراقية . وتاريخها الاستعماري يشهد لها بذلك ..

كان بامكان القرطاضيين ، منذ القرن الخامس ق.م. ان يحترفوا الحرب والفتح والسيطرة ،كما فعل الفرس والمقدونيون ، وكما سيفعل الرومان بعد حين ، ولكن نفسية الكنعانيين السوريين ، منذ البداية ، منذ أيام الاكاديين والبابليين تأبى أن تحترف العدوان والتسلط وارهاق الشعوب الضعيفة بالضرائب والغرامات الحربية .

لم يكن السوريون ، حتى في أوج قوتهم العسكرية أيام الاكاديين والحمورابيين البابليين ، غزاة مجتاحين ، مدمرين متسلطين ، بل كانوا روادا

يقتحمون الامصار المجهولة ويزرعون في أرجائها الحضارة واساليب الحياة الجديدة الراقية . وهذه النفسية المتطرفة في نزعتها الانسانية ، قد أساءت بتطرفها هذا ، الى الكنعانيين انفسهم حين تعالوا على ما اعتبروه غرورا قوميا فمطلوا ، بذلك ، امكانية اقامة دولة قومية عسكرية ضخمة .

أعتقد ان الرؤيا قد أصبحت واضحة عن كل من المعسكرين اللذين سيخوضان حروبا ثلاثا ، تبدأ في سنة ٢٦٤ ق.م. وتنتهي في سنة ١٦٤ ق.م. ليدمر أحدهما الاخر تدميرا كاملا . وهذه الحروب الثلاث تعتبر أعظم حروب التاريخ القديم . فحروب الفرس وحروب الاسكندر لم تكن نتائجها انتقال قيادة الحضارة من عالم الى عالم ، وقد كانت تلك النتائج عابرة وان يكن عبورها طويلا . لقد دمر الاسكندر امبراطورية الفرس وحاول تدمير الحضارة السورية ـ الام ، ولكن الحضارة السورية كانت اعمق بكثير من محاولات مغامر .

وأهم معنى لهذه الحروب الكبرى الثلاث هو انها كانت حروب مفاهيم جديدة ضد مفاهيم عتيقة ، وحروب مؤسسات دينامية مقتبسة وخلاقة ، ضد مؤسسات جمدتها طبقة أعطت هذه المؤسسات صفات مقدسة حتى سخرتها لمصالحها الطبقية ، فجمدتها حتى الموت في قوالبها .

وسوف نرى كيف ان الطاقات المادية المملاقة ، اذا هي تجردت من الوعي القومي الصحيح ، ومن الوحدة القومية الكاملة المدركة ، وتخلت عن واجبها او حقها القومي والانساني في الحياة والمصير ، تمسي قوة عملاقة شليلة ، بينما تتفوق وتنتصر الدولة القومية الواعية ، والقادرة ان تنظم جميع امكاناتها وتدفعها بقيادة عبقرية الى ميادين الصراع .

# بدء الحرب الفينيقية الأولى

## قضية كبرى بالنسبة لروما
## مجرّد جبهة بالنسبة لقرطاضة

صقلية للرومان

### الرومان ينقضون المعاهدة

ليس صعبا على من يريد الحرب أن يجد لها سببا ومبررا . فرومة كانت تريد الحرب ، وقد افتعلت لها أسبابا لم تكن على مستوى السمعة التي ابتدعها المؤرخون اليونانيون المأجورون لها من نسيج خيالهم . فقد كان همّ هؤلاء المؤرخين ، أمثال بوليبيوس ويوسيفوس ، أن يحلوا الخلق الروماني بجميع المناقب التي يصورها فلاسفتهم ، وأن يلصقوا بالقرطاضيين جميع المثالب والرذائل . ولم يعد ذلك خافيا على المؤرخين الحديثين ، بل أمست أقوال أكثر المؤرخين القدماء الذين كتبوا تاريخ الحروب الفينيقية ــ الرومانية موضوع شك وحذر وتحقيق . ولكن بالرغم من ذلك الشك والحذر كانت ثقافتهم التي أخذت جذورها في اليونان ورومة تجعلهم يصدقون بعض تحامل هؤلاء المؤرخين القدماء على الفينيقيين بصورة عفوية لا واعية ، بعد أن يكونوا قد لمسوا مرات متكررة تشويه الحقائق التاريخية عند هؤلاء المؤرخين بصورة مفضوحة . مع انه يكفي دليل واحد على سوء نية المؤرخ ليصنف بين المؤرخين المشوهين .

لم يكن ما وصل اليه الرومان من الحس القومي المرهف ، والدهاء السياسي المتفوق ، والدينامية السياسية العبقرية ، يمنع أن يكونوا ما يزالون في بدائية مناقبية صارخة في ما يختص بشعورهم اللاانساني . فاليونان أنفسهم كانوا يعتبرونهم شعبا بربريا تفصله مئات السنين عن المستوى الحضاري الذي بلغه الفينيقيون واليونان .

وقد استهدف كتبة التاريخ الروماني من تشويه بعض الحقائق التاريخية، المناقبية بصورة خاصة ، ان يملأوا ذلك الفراغ الكبير الفاصل بين مستواهم

القومي والسياسي والديمقراطي الرفيع وبين الحضيض الثقافي والمناقبي الذي يرسبون فيه . ولقد أباحت لهم غرضيتهم أن يشوهوا التاريخ ويشوهوا سمعة شعب حضاري كالشعب الفينيقي ليملأوا ذلك الفراغ . والغريب ان بعض المؤرخين الحديثين يصعب عليهم أيضا أن يكونوا قد أخذوا حضارتهم الجديدة من معين تشوبه شائبات كثيرة ، فكانوا ميالين الى تصديق أكثر ما كتبه أولئك المؤرخون المزورون .

وقد خفي أيضا على الدارسين المحققين في التاريخ انه كان لليونانيين ثأر على الفينيقيين . ففينيقيا كانت معلمتهم ، وهم ، بعد أن بلغوا أشدهم، رفضوا تلك التلمذة . والقرطاضيون ، كما يقول الاديب المؤرخ بيكر « قد حولوا اليونانيين في صقلية خلال قرنين الى غبار من الدول » (٥) .

أما اليونانيون ، كشعب ينتشر في غربي المتوسط ، فقد بقي يحيا تحت سيادة الدولة القرطاضية مكرما محترما . والدليل على ذلك أن هيرون ، طاغية سرقسطة ، عندما رأى الرومان يحتلون مسينة في صقلية ، عند بدء الحرب الفينيقية الاولى (٢٦٤ ق.م) اسرع فأرسل وفدا الى هنيبعل قائد الحملة القرطاضية للدفاع عن صقلية (غير هنيبعل الكبير) يعرض عليه محالفته ومساعدته العسكرية في هذه الحرب . وقد دهش القائد القرطاضي من تلك المفاجأة ولم يدرك مراميها البعيدة .

اما هيرون ، الذي كان يمثل في سرقسطة الحضارة اليونانية ، والذي كان يعتبر زعيم المدن اليونانية في غربي المتوسط لان مدينتـــه كـــانت المدينة اليونانية المستقلة الوحيدة الباقية ، فانه فعل ذلك عن وعي وتأمل عميق في مصير الحضارة اليونانية في غربي المتوسط . كان هيرون يعلم ما حل بالمدن اليونانية في ايطاليا ، فقد أخضعت بعنف وقساوة لمشيئة رومة ، وتحكم شعب بدائي بشعب متحضر ، ناهيك بالخسائر المادية التي حلت بتلك المدن .

« ولكن هناك شيئا اخر ، وفي هذا المجال كان هيرون يعبر عن شعور مواطنيه العام . فالسرقسطيون كانوا بأكثريتهم متحدرين من اليونانيين ، وهم ما يزالون يعتبرون انفسهم يونانيين . واذا كانوا يختلفون عرقا وخلقا عن القرطاضيين ، فانهم لا يقدرون ان ينكروا ان الفينيقيين كانوا شعبا متمدنا. اما الرومان فكان اليونانيون لا يرون فيهم الا برابرة كواسر ، لا يختلفون في شيء عن « المامرتانيين » الاشقياء ، اخوانهم في العرق والاصل ، وحلفائهم في السياسة والحرب » (٦) .

و « المامرتانيين » الذين ينوه عنهم هيرون هم فئة من « الكامبانيين » الايطاليين الجبليين ، الذين كانوا يحاربون مع اغاتوكليس ، طاغية سرقسطة السابق ، في حملته الافريقية على قرطاضة . ولما هزمه القرطاضيون وعاد هاربا الى صقلية اقطع هؤلاء الجنود المرتزقة منطقة زراعية ليعيشوا فيها . ولكن هؤلاء البرابرة ، الذين زادتهم الحروب قساوة ، غادروا منطقتهم وتحولوا

الى عصابات تهاجم المدن اليونانية الآمنة وتنهبها . وقد وصلوا في حملتهم اخيرا الى مسينة فسيطروا عليها وذبحوا رجالها واستولوا على النساء والاطفال واقاموا في المدينة شبه دولة مستقلة . وقد كان لعملهم البربري موجة رعب واستنكار عبر مضيق مسينة ، فدب الخوف في اهل « ريجيوم » فأسرعوا حالا وطلبوا الحماية من رومة . بالرغم من أن رومة كانت منشغلة في حربها ضد بيروس الذي اجتاح أرضها ، فانها تلقت طلب اهل ريجيوم باهتمام وارسلت فرقة من جيشها لتحمي المدينة المستنجدة . وقد شاءت الصدف أن تكون الفرقة التي أرسلها الرومان لحماية ريجيوم ، من الكامبانيين الجبليين أيضا ، فاتصلت بها عصابات مسينة الكامبانية واغرتها فأنجرفت الفرقة في تيارها ، وقامت في ريجيوم بما قام به مواطنوها في مسينة : ذبحت الرجال واستولت على النساء والاطفال والمدينة بكاملها واقامت وضعا مشابها لوضع مسينة .

من الطبيعي أن تكون رومة قد اقتصت من هؤلاء الجنود العصاة المتحولين الى عصابات مجرمة . فما كادت ترتاح من حرب بيروس حتى ارسلت فرقة مزودة بتعليمات قاسية لابادتهم عن بكرة ابيهم . وقد ابيدوا بالفعل ، ولم يقع منهم في الاسر الا ثلاثمائة جندي اخذوا الى رومة فجلدوا في الساحات العامة ثم اعدموا .

ولكن الغريب في موقف الرومان هو قبولهم بمحالفة مجرمي مسينة ، عندما طلب هؤلاء المجرمون حمايتهم ، مع أن مسينة تقع في صقلية والمعاهدة القائمة بين رومة وقرطاضة تمنع تدخل أحد الطرفين في بلاد الاخر . خصوصا وأن طلب المحالفة والحماية يأتي من مجرمين روعوا صقلية بأعمالهم الوحشية. ومن جهة ثانية كانت قرطاضة قد احتلت المدينة واقامت فيها حامية وأوقفت أعمال الاجرام والتعدي . لقد قبلت رومة طلب المجرمين واتخذت من ذلك الطلب ذريعة مشينة لاشعال الحرب بينها وبين القرطاضيين . وبين عشية وضحاها كان القنصل الجديد آبيوس كلوديوس قادما الى ريجيوم على رأس جيش روماني كبير ، في طريقه الى مسينة .

كان أبيوس كلوديوس من حزب الحربيين المتطرفين ، ومنذ بداية عهده أرسل الى ريجيوم أحد أنسبائه الضابط س. كلوديوس كقائد للحامية المرابطة في ريجيوم ، مع تعليمات سرية باجتياز المضيق الى مسينة مع مفرزة صغيرة لاشعال الثورة في المدينة ضد القرطاضيين . وبعد أن تشتعل الثورة يطلب المسينيون من الفئة التي تميل الى الرومان حماية رومة ونجدتها . اذ ذاك يصبح هو أبيوس كلوديوس مسؤولا عن نتيجة المسرحية الحربية .

كان س. كلوديوس ضابطا جريئا وذكيا ، فقام بمهمته السرية أفضل قيام ، وأوصل الحالة الى ما يريده القنصل الروماني ، الممثل لحزب الحربيين المتطرفين في مجلس الشورى وفي مجلس الشعب .

كان الاسطول الحربي القرطاضي يحرس المضيق الفاصل بين ريجيوم ومسينة ، ولكن بخدعة حربية تمكن القنصل كلوديوس من عبور مضيق مسينة مع ستة الاف مقاتل . وها هو وجها لوجه ، أمام سيدة البحار في غربي المتوسط . هو يجسد رومة وعنفوانها ومطامعها وولعها بالحرب والانتصار والسيطرة . يعي مهماته وعيا كاملا . رومة تريد صقلية لتصبح جزءا من وحدتها القومية ، ولا مجال لتسوية سلمية ، او لاي نوع من انواع الصلح قبل ان تصبح صقلية في قبضة رومة .

وامامه هنيبعل ( غير البرقي الكبير) قائد الحملة التي ستقف في وجه الغزو الروماني ، وشتان بين معيار الشخصيتين المتجابهتين . الاول هو راس الدولة الرومانية ، يمثل ارادتها وتصميمها على الحرب الفاصلة بين قوتين اصبح من المستحيل أن تكون مهادنة بينهما ، وهو يتصرف مدعوما بهذه الارادة وهذا التصميم ليسير الى النهاية . الاول يمثل أمة جديدة ضاق اطارها عليها ، فهي تريد المدى الابعد . والثاني هو قائد حملة ، تلقى تعليمات معينة محدودة لتنفيذها . واذا جاز له ان يمثل الدولة القرطاضية فهو يمثل « مدينة عملاقة » تمكنت من التغلب على عشرات المدن اليونانية ، وهي تعتقد الان انها تجابه مدينة ايضا . قد تكون هذه الاخيرة اقوى من الذين كسرتهم قرطاضة عبر ثلاثة قرون « وحولتهم الى غبار » ، ولكنها مهما تكن قوية لن تقف طويلا أمام دولة تعودت الحروب بنفس طويل ، تسود البحار بدون منازع ، وقد جعلتها حروبها الطويلة قوة برية برهنت حتى الان على انها هي كذلك الاولى في غربي المتوسط .

الشيء الذي جهلته قرطاضة هذه المرة ، وقد جهلته الى النهاية ، هو انها لا تنازل رومة المدينة في هذه الحرب ، بل ايطاليا كلها ، بملايينها الخمسة على الاقل ، وان النفس الطويل الذي تحارب به سيواجهه نفس أطول ، وان الروماني يحترف الحرب ويهواها في آن واحد ، وعنده رؤيا واضحة عن رغبته ومصيره ، بالرغم من بدائيته الحضارية ، ليست عند شعب من شعوب التاريخ الكبيرة . ولو كانت قرطاضة علمت ذلك لكانت بدون شك فتشت عن وسائل اخرى للقتال ، مهما كانت تحافظ على اساليبها وتقدسها .

وهناك شيء اخر كان لمصلحة رومة في هذه الحرب : لقد خاضتها رومة وهي تعتبرها قضية كبرى في حياتها ومصيرها ، سواء من الناحية المعنوية او المادية ، ووضعت كل اهتمامها في هذه الجبهة ، أما قرطاضة فلم تر فيها الا جبهة من الجبهات التي طالما خاضت غمارها وانتصرت .

منذ البداية ارتكبت قرطاضة خطأ عسكريا فادحا . اعطى ابيوس كلوديوس ، وهو المناور البارع ، مفتاح الجزيرة . ومفتاح الجزيرة بالنسبة الى كلوديوس هو هيرون سيد سرقسطة .

كيف قدر كلوديوس ان يعبر المضيق ، والاسطول القرطاضي يجول فيه

ويحرسه حراسة دقيقة ؟ واذا كان كلوديوس عبره بحيلة جديدة مبتكرة ، فكيف عبره من بعده فاليريوس واوتاسيليوس القنصلان التاليان ؟ ولماذا يتراجع القرطاضيون امام الزحف الروماني ، ويخلون المدن التي وضعت نفسها تحت حمايتهم ، ولا يقفون الا ضمن اسوار اغريجنتي العاصمة الثانية في الجزيرة ؟ هل هناك خطة مدروسة للسماح بعبور المضيق ولهذا التراجع ؟

اذا كانت هناك خطة ثورة كان يجب اطلاع هيرون عليها . وهيرون كانت محالفته غالية جدا ، لانه بزعامته اليونانية يوصد ابواب المدن اليونانية في وجه غالية جدا ، لانه بزعامته اليونانية يوصد ابواب المدن اليونانية في وجه الرومان . لقد حالف هيرون القرطاضيين أعداءه وأعداء شعبه التقليديين لسببين اساسيين : الاول اعتباره الرومان برابرة يجب أن يقاوم سيطرتهم على الجزيرة ، والفينيقيين شعبا متمدنا يمكنه التفاهم معهم في أسوأ الظروف. والثاني ثقته بانتصار القرطاضيين الاكيد على رومة .

ولكنه أمام عبور الرومان المضيق الذي يملأه الاسطول القرطاضي ، ثم أمام هذا التلكؤ عن مجابهة الرومان والتهرب من الاشتباك معهم ، وقع فريسة الشك والحذر ، وظن انه قد يذهب ضحية تواطؤ بين القرطاضيين والرومان على مدينته . لذلك انسحب من الجبهة وأرسل وفدا يفاوض فاليريوس بصلح منفرد ، وقد تم الصلح بسرعة خاطفة . وبين عشية وضحاها أصبح هيرون حليف الرومان بالرغم من انه يضمر لهم كل حقد واحتقار .

هذا الحدث قلب ميزان المعنويات في الجزيرة كلها . فالمدن اليونانية ، وهي القوى الفعالة في الجزيرة ، أرعبها الزحف الروماني المتواصل والانسحاب القرطاضي الدائم ، وكان هيرون قدوة لها بانقلابه على القرطاضيين ، ففتحت أبوابها للرومان وأرسلت الوفود تنبئهم بأنها مستعدة لاستقبالهم . لقد أمسى القرطاضيون وحيدين في صراعهم ، وانقلب سكان الجزيرة عليهم . وها هم يجلون عن اغريجنتي نفسها ، وسكان المدينة المخلصون لهم يرتاعون من جلائهم وينقلبون بحقد عليهم فيبيدون جميع الجنود في مؤخرتهم .

وعندما دخل الرومان المدينة في صباح ذلك اليوم جمعوا سكانها الباقين، وكانوا خمسة وعشرين ألفا ، وباعوهم في أسواق النخاسة ، لكي يلقنوا المدن الاخرى درسا رادعا .

## الهجوم القرطاضي المعاكس

هل القرطاضيون كانوا واعين الخطر الروماني أكثر مما نحن نتصور ؟ قد يكون ذلك . ولا يمكننا ان نستقرىء ذلك الاحتمال البعيد الا من المخطط الحربي الذي وضعته القيادة القرطاضية لمجابهة الرومان .

لا شك ان العسكريين القرطاضيين في القرن الثالث كانوا من كبار

المخططين العالميين ، خصوصا في الحروب الطويلة النفس ، الواسعة والمتعددة الجبهات والميادين . فأن تغلبهم ، في صراعهم الطويل ، على جميع المدن اليونانية ، يبرهن عمليا عن ذلك . فأنهم بعبقريتهم الحربية قد جعلوا من الجيوش المرتزقة عنصر قوة وتفوق في حروبهم ، عوضا عن أن يكون نقطة ضعف ، وسببا من أسباب انهيارهم كما يتوهم المؤرخون . من الغريب أن كبار المؤرخين الغربيين لم يكتشفوا بعد السر الاساسي لانهيار قرطاضة .

لم تكن قرطاضة قادرة أن تتغلب ، بالنسبة الى نظامها المديني ، الا اذا كانت تأمن الجيوش المرتزقة ، وقد بلغت هذه الغاية بابتكار نظام عسكري للمرتزقة يفوق النظام الذي اتبعته الامبراطورية الرومانية فيما بعد : لقد كانت ملاكات الجيش القرطاضي فينيقية صافية . ينتسب أكثر أفرادها الى عائلات عريقة في الفنون الحربية ، وفي القيادة السياسية والعسكرية . ولم تسمح للمرتزقة بأن يؤلفوا فرقا عرقية أو اقليمية ، لها قياداتها الخاصة من زعماء قبائلها ، كما حدث في الامبراطورية الرومانية . وهكذا كانت القيادة ، من صغار الضباط الى القيادة العليا ، فينيقية . الى جانب هذا الجيش الذي تشد بعضه الى بعضه الاخر عناصر فينيقية قومية متجانسة ، واعية ، جريئة ، انشأ القرطاضيون مؤسسة « الفرق المقدسة » ، وهي فرق فينيقية صرف ، منتقاة من القرطاضيين المولعين بالحرب ، المشهود لهم ، منذ تدريبهم ، بالقوة الجسدية والمناقب العالية والشجاعة الظاهرة ، عدا عن انهم ينتمون الى عائلات فينيقية معروفة بوطنيتها واستعدادها للصراع في سبيل مجد قرطاضة وعظمتها .

بكل جيش قرطاضي يسير الى جبهة القتال ، كانت تلحق فرقة من هذه الفرق ، يتناسب عددها مع عدد الجيش المتأهب للمسير . ونسبة عددها الى ذلك الجيش كانت غالبا نحو عشرة بالمئة .

هذه الفرقة كانت بمثابة قوة احتياطية ، او « حرس قومي » يراقب تصرفات الجيش المرتزق كما يراقب سير المعارك ، وهي على استعداد دائم لتلبية اوامر القيادة العليا في الساعات الحرجة الفاصلة . ولم تكن هذه الفرق تؤمر بخوض غمار القتال الا اذا وقفت المعركة مدة طويلة تترجح بين الانتصار والانكسار ، وخافت القيادة من الهزيمة . اذ ذاك يسمع نداء القيادة بالنزول الى المعركة ، فتنقض « الفرقة المقدسة » كالصواعق ، أو كقوة من القضاء والقدر ، وخلال هنيهات معدودة تنتهي المعركة ، اما بانتصار ساحق ، واما بفناء اخر جندي من جنودها ، بل اخر ضابط من ضباطها . ولا شك ان نابليون قد أخذ فكرة نداء « الحرس الامبراطوري » في معركة واترلو عن الفن الحربي القرطاضي .

وكانت هذه الفرق لا تخالط الجيش المرتزق ، بل تعيش في الجبهة قريبة منه لخوض المعارك ، وفي منأى عنه في حياتها الخاصة . ترتدي ملابس

الاشراف الارجوانية ، وتأكل في صحون من ذهب وفضة ، وتسكن خياما من اقمشة ممتازة . والغريب فيها انها ، بالرغم من هذا الترف في حياتها ، كانت تؤلف ، بالفعل ، فرقا من الفدائيين المغاوير الذين لم يضاهم اي جيش في التاريخ كله .

هذا الجهاز العسكري المتفوق ، الذي اتقنته قرطاضة ، كان يفوق في تنظيمه وامكاناته في القتال أي جيش اخر معاصر . وهو يفوق الجيش الروماني بصورة أكيدة . فهو جيش محترف ، يتلقى تدريبا خاصا وطويلا ، ويخوض معارك متواصلة تكسبه تمرسا في القتال ، لا يمكن لاي جيش قومي كالجيش الروماني ، هو نتاج الخدمة العسكرية الاجبارية ، أن يضاهيه في الخبرة والتمرس والاستعداد الدائم لخوض المعارك . وقد برهن هنيبعل في معاركه التاريخية في ايطاليا على ان القيادة العبقرية مع جيش محترف ، تفوق الجيوش القومية الرومانية المجندة بداعي الدفاع عن الامة والوطن .

ان خطة التراجع امام الجيش الروماني ، ليورط نفسه في جميع انحاء الجزيرة ، لا تدل على ان قرطاضة كانت جاهلة أهداف الرومان ومطامعهم في هذه الحرب . بل قد يكون انها قدرتهم اكثر من اللازم ، وخططت لاستنزاف الحيوية الصراعية الرومانية في حرب واحدة ، حتى ترتاح من غرورها وغطرستها الى الابد ، كما ارتاحت من غرور اليونانيين . ولكن هل يجوز تشبيه الرومان ، في وضعهم الحاضر ، باليونان ؟ هنا السر الذي سيكشف بعد حين .

هوذا هميلقار ( غير هميلقار والد هنيبعل ) القائد العام الجديد يصل الى ليليبايوم ، الحصن القرطاضي الذي لا يؤخذ . وهي المدينة التي صمدت لبيروس فك حصاره عنها بعد ستة أشهر قائلا : « هذه مدينة لا تؤخذ » ، وتراجع عن المناطق التي احتلها وغادر صقلية بعد أن أنهكت قواه في زحف متواصل من شرق الجزيرة الى غربها (٢٧٨ ــ ٢٧٧) ومن غربها الى شرقها دون أن يتمكن من الالتحام بالجيش القرطاضي ، الذي كان ينهكه لينقض عليه في النهاية . وقد اكتشف بيروس « اللعبة العسكرية » التي كان مستهدفا لها ، فقفل راجعا الى ايطاليا ، متعثرا بأذيال الخيبة ، ومتنازلا عن احلامه المنتفخة في اقامة دولة يونانية كبرى ، تثب في النهاية من صقلية على قرطاضة وتبيدها . فليس الرومان أول من استهدف قرطاضة في مطامعه وأحلامه . فمبيز كان أول من راوده هذا الحلم ، فخيب أمله الصوريون الذين أبوا أن يسيروا أساطيلهم لمحاربة « أبنائهم » القرطاضيين . والاسكندر فكر بذلك ، ولكن فوهة الشرق ابتلعته بأشداقها الواسعة وحولت امبراطوريته العابرة الى ممالك مقدونية يفتك بعضها ببعضها الاخر ، وانهار الصرح الاساسي الذي كان أهم ما فعله وهو « الوحدة اليونانية القومية » .

والمدن اليونانية أيضا ، بزعامة سرقسطة ، حاولت في عهد الطاغية

اغاتوكليس (٣١٠ ق.م) أن تقضي على قرطاضة لتصبح المدن اليونانية سيدة غربي المتوسط . كل الطامحين الطامعين باءت احلامهم بالفشل . من قمبيز الفارسي (٥٢٩ ــ ٥٢١) الى اغاتوكليس اليوناني (٣١٨ ــ ٢٨٩) ، كانت لكبار الفاتحين والطامعين شهوة كاسرة للاستيلاء على قرطاضة ومحو سيطرتها من غربي المتوسط . ولكنهم جميعا ماتوا في حسراتهم ، وتابعت قرطاضة سيرها عبر التاريخ تنقذها الظروف وقوتها من المطامع الجامحة والمغامرات العابرة .

وها هي قرطاضة الان هدف لمحاولة جديدة ، تبدأ بصقلية ولا يعلم أين تكون نهايتها . وسنرى ما هو نوع القوة الجديدة التي تدفعها المطامع في مغامرة عسكرية هي أعظم مغامرة في التاريخ القديم .

قد يتبادر الى ذهن القارىء ان يسأل : « وما مركز مغامرة الاسكندر بالنسبة الى هذه الحرب الرومانية ــ الفينيقية ؟ » والجواب عن هذا السؤال هو في الفصل الذي سيأتي عن هنيبعل . فهناك تجوز المقارنة بين الحملتين . أما الحروب الرومانية ــ الفينيقية البادئة في سنة ٢٦٤ ق.م والمنتهية في ١٤٦ ق.م ، فهي من نوع اخر لم تعرفه الانسانية الا في الحربين العالميتين الاخيرتين (١٩١٤ ــ ١٩١٨) و (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) . هذا هو معيار الحروب التي سماها المؤرخون : « الحروب الفينيقية » .

بعد ان نزل القائد القرطاضي الجديد ، هميلقار ، في ليليبايوم ، وأعطى جيشه أياما قليلة من الراحة ، بدأ هجومه المضاد نحو شرقي الجزيرة . وقبل ان يحرر المدن الغربية المحاصرة والمحتلة ، اتجه توا نحو الجيش الروماني في الوسط الشمالي من الجزيرة . لقد حان الوقت في نظره ليعلم الرومان ان الحرب في صقلية لن تبقى كما كانت حتى الان نزهة جميلة . وقد التقى الجيشان في « هيميرة » ، فانقض هميلقار رأسا على العدو وأنزل فيه هزيمة قاسية . سقط من الرومان ستة الاف قتيل ووقع في أيدي القرطاضيين عدد كبير من الاسرى .

« يبدو ان الرومان بعد هذه الهزيمة فقدوا كل قدرة على المقاومة ، وانتشرت الجيوش القرطاضية المنتصرة في جميع الجبهات ، متوغلة في قلب الجزيرة . فك الحصار عن مستراتوم ، والحاميات الرومانية التي تحتل أهم النقاط الاستراتيجية فقدت معنوياتها وتنازلت للعدو عن الامكنة التي أوكل اليها امر الدفاع عنها . وقد تابع هميلقار زحفه في الجبهة الجنوبية ــ الشرقية ، كأنه يستهدف سرقسطة ، محاولا أن يفصل هيرون عن العراك ، وهو الذي عرف ان يقدم افضل المساعدات للرومان في حملتهم الماضية . ولكن بعد ان صار هميلقار على بعد سبعين كيلومترا من سرقسطة قام بحركة مفاجئة تشبه حركة الاميركيين في سنة ١٩٤٤ ، فاتجه نحو الجنوب منقضا توا على كمرينة ، فاصلا الجيش الروماني المقاتل في قطاع اغريجنتي عن

قواعده . وهكذا بعد أيام قليلة وقعت « انة » بين يديه كما يقول ديودروس . سقطت بخيانة ، هكذا يؤكد المؤرخ نفسه . لا بأس ، المهم ان هميلقار هو هناك . وانة ، بموقعها المركزي في قلب الجزيرة ، تجعله سيد جميع المواصلات التي تربط جميع مناطق صقلية . ومنذ الان تبددت الجبهة الرومانيـــة وكل الانتصارات التي حققت أمست في خطر » (٧) .

هكذا كانت الحالة في جبهة صقلية في أواخر ٢٦١ ق.م . بعد أربع سنوات من بداية الحرب ، خسر الرومان في معركة واحدة كـــل المعنويـــات التي ربحوها منذ بداية الحرب ، وهم يتركون المواقع التي احتلوها ، جيوشهم منهوكة ، وخسائرهم كبيرة ، ومسؤولياتهم جسيمة بالنسبة الى توسعهم . أما القرطاضيون فأنهم قد احتفظوا بقواهم ، وهم يزحفون بعزم وشدة وكأنهم في البداية .

وقد حاول المؤرخ المفرض بوليبيوس أن يخفف من الم الجرح المخزي الذي أصيبت به الكرامة القومية الرومانية ، فوضع المسؤولية على حلفاء الرومان ، وجعل القتلى أربعة الاف . ولكن ديودروس يفضح امر بوليبيوس كما فضحه سابقا فيلينوس الاغريجنتي ، فيؤكد : « ان القتلى ستة الاف ، وانه لم يبق الا القليل على هميلقار حتى يدمر الجيش الروماني بكامله » (٨) .

## تجربة الرومان البحرية الحربية الأولى

روما القومية الفتية تشعر بقوتها وعزمها . فهي تريد الحرب بالرغم من بدائية شعبها الزراعي . تجمعت في الدولة الرومانية خصائص لم تلتق في دول ذلك العصر . خصائص فريدة في التقائها كلها في امة واحدة فهي في ذلك الزمان : الوحدة القومية الجديدة المنحوتة بحد السيف كما ينحت الفنان تمثاله ، والقيادة السياسية العبقرية المنبثقة من مؤسسات دينامية صاخبة ، والرجولة الخشنة الصلبة في شعبها ، الذي يجد في الحرب هواية رياضية يدفعه اليها نظامه المركزي الصارم ، وطبيعته الفظة ، وحبه للاسلاب والمغانم ، وفوق كل ذلك ولعه بالحرب والامجاد الحربية .

وقد أصبح الشعب الروماني ، بعد ان تحول الى أمة ايطالية ، أمة تحت السلاح تمرست بالقتال في مراحل تحقيق وحدتها ، فاولعت بالقتال . ولما افتقرت الى الميادين الحربية في داخل وطنها فتشت عن ميادين جديدة خارج هذا الوطن .

ولكن قرطاضة ليست مدينة عادية . هي مدينة امبراطورية . قوتها البحرية هي الاولى في العالم ، وطاقتها الاقتصادية والمالية هي أيضا لا تفوقها طاقة . وهي تسيطر الان على جميع الجزر الغربية في المتوسط ، كما تسيطر على جنوبي اسبانيا ، وعلى الشاطىء الافريقي لا ينافسها منافس .

بالرغم من كل ذلك تبقى قرطاضة في نظر الرومان مدينة . مدينة غريبة عن ارضها ، محاطة باقوام بدائية تحسدها على ثروتها وترفها وتضمر لها عداء مكبوتا في لا وعيها . مواردها البشرية محدودة ، فهي تستأجر الجيوش لتدافع عنها . وهي لن تقدر أن تقف في وجه رومة التي شدت جميع الاقوام الايطالية اليها في الحياة والمصير ، والتي قهرت بيروس أعظم فاتح في زمانه ، وردت الجلالقة عن أسوارها مدحورين مبددين . وبعد ، فليست صقلية الا تتمة الوطن الايطالي العائم في الماء . لقد أمسى من العار على رومة أن تكون حدود مدينة افريقية على مرمى حجر من الشواطىء الايطالية .

اذن فيجب أن تكون صقلية لرومة ، لا لاحد سواها . ولكن رومة لم تخض قبل اليوم حروبا طويلة . فهي قد استفردت الاقوام الايطالية واحدا بعد الاخر وكذلك المدن ، فأخضعتهم تدريجا بقوتها وسطوتها ، ولما صاروا تحت حكمها أدركوا أفضلية الوحدة القومية فارتضوها واخلصوا لها ، واصبحوا غيورين على نموها وبقائها . وكذلك حروبهم مع الجلالقة ومع بيروس كانت

وحيدة الجبهة وقصيرة ، ولم تكن طويلة مرهقة . فكما أن حروبهم مع القرطاضيين كانت شيئا جديدا عند هؤلاء ، كذلك كانت عندهم شيئا لم يألفوه من قبل .

وعندما وجدوا بعد معركة « هيميرة » ان انتصارات اربع سنوات قد تبخرت ، وان عليهم ان يعودوا من الاول ، وقفوا مفكرين ، متأملين ، مفتشين عن وسيلة جديدة للانتصار .

لم تكن للدولة الرومانية تقاليد ومفاهيم قديمة ، تجمدت عبر الاف السنين فاكتسبت معان شبه مقدسة ، بل هي في نمو الفتوة وتطورها السريع ، وتوقها الى الخلق والابداع ، وفي المجالين السياسي والحربي ، كانت مؤهلة أن تخلق وتبدع وتتفوق . لذلك عندما أقام هميلقار حاجزا بينها وبين الانتصار على الارض ، اتجهت الى البحر المحدق بها من جوانبها الثلاثة .

وقد كان من أغرب الامور في تاريخ رومة انها بقيت الى ذلك الزمان ، حتى بعد أن وحدت كل ايطاليا ، أمة برية ، أمة فلاحين ومزارعين ، تنظر الى البحر المداعب سواحلها كأنه ستار من حديد يحجبها عن العالم ، وكأن حيويتها مسمرة بالارض ومحجوبة عن البحر بارادة خفية مجهولة .

ولكن الحاجة هي دائما أم الاختراع . كانت رومة بحاجة الى الانتصار، وقد دلتها الحاجة على البحر . البحر يمنعها عن ايصال قواتها الى صقلية ، والبحر يساعد قرطاضة على تموين جبهتها بقوات وأعتدة لا حدود لها . هذا البحر الذي يعترضها هي ، ويخضع لاساطيل قرطاضة ومشيئتها ، أصبح يكون عنصر تحد لهذه القوة الطامحة .

لذلك قررت رومة في سنة ٢٦٠ ق.م . ان تكون قوة بحرية تجابه قرطاضة في جميع الميادين التي تريدها .

لم يكن صعبا على رومة أن تصبح قوة بحرية ، فالمدن اليونانية الخاضعة لها تتوفر فيها جميع العناصر التي تريدها لهذه الغاية . فمصانع السفن التجارية والحربية ، والصناع الحاذقون في بناء السفن على أنواعها ، والمهندسون القادرون أن يضعوا التصاميم ويشرفوا على العمل ، هم ولا شك كثيرون في جميع المدن اليونانية . وكذلك البحارة والربابنة لم تكن المدن الساحلية تفتقر اليهم . لم يكن على رومة الا أن تقرر ، وها هي الان قد قررت .

كان للرومان من اندفاعهم في المغامرة البحرية الجديدة هدفان : نقل قواتهم بسهولة الى صقلية بحماية اسطولهم الحربي ، ومنع قرطاضة من ايصال قواتها وأعتدتها الى صقلية . وبهذه الطريقة ينهون الحرب في صقلية بانتصار أكيد .

في الاشهر الاولى من سنة ٢٦٠ ق.م. بني الاسطول الروماني الاول : مئة قطعة من السفن ذات الصفوف الخمسة من الجذافين ، وعشرون سفينة

ذات الثلاثة صفوف . وقد جهزت هذه السفن الحربية بشيء جديد لم يعرف من قبل هو ما يمكن تسميته الجسر ــ المخلب . هو جسر متحرك، في اخره قبضة من أصابع حديدية تشبه براثن الكواسر ، يرمى على سفينة العدو فتغرز الاصابع فيها ، وتوصلها بالسفينة الرومانية ، فتقام بهذه الطريقة عبارة يمر عليها الجنود الرومان الى السفينة القرطاضية . بهذا الاختراع البسيط حول الرومان المعارك البحرية الى معارك برية . وبما انهم كانوا مستعدين لهذا النوع من القتال البري ، فقد سجلوا انتصارات بحرية منذ الجولة الاولى . لقد عطلوا فن القتال البحري بتجميد السفن وتحويلها الى ميدان قتال على اليابسة .

والغريب ان القرطاضيين أبوا أن يقتبسوا ذلك الاختراع من الرومان ، وظلوا يعتبرون انهم يقومون بمعارك بحرية ، بينما الحقيقة كانت خلاف ذلك.

هذه البدعة في العراك على المياه ، أعطت الرومان ثقة بأنفسهم ، فقاموا بغزوات فجائية موفقة على سردينية وكورسيكة . وما لبثوا ان اتسعت مطامحهم في الحرب البحرية ، فأخذوا يفكرون جديا بحملة كبرى على قرطاضة، جاعلين من الجبهة البرية في صقلية جبهة ثانوية . لم يقابل ذلك الاختراع الروماني ، الساذج في مظهره ، والفعال في نتائجه الحربية ، باختراع فينيقي مبدع ، يعطل سذاجته وبدائيته ، بل قوبل بالاستخفاف والمحافظة على القديم، كأنه منزل لا يتغير ولا يتبدل ، وكأنه من وضع الآلهة لا من انتاج البشر . لم تتحرك طاقة الخلق والابداع عند القرطاضيين ، بل اعتبروا كل ما يقوم به الرومان فورة عابرة ، لا بد أن تتعب وتكل ، يرهقها التلف المستمر الذي عرفته قرطاضة في المدن اليونانية ، فتتكفىء رومة الى قواعدها وتزول العاصفة . هكذا هدأت عواصف سرقسطة ، وهكذا عبرت عاصفة بيروس ، وهكذا سيتبدد زخم رومة في مناطق صقلية الواسعة ، وفي زوايا شواطىء الجزر ، وقد تكون نهايته على السواحل الافريقية التي بدأت منذ أربعة قرون (٦٤٠ ق.م) في سيرانية ، وتوقفت منذ نصف قرن بعد هزيمة أغاتوكليس (٣١٠ ق.م.) .

في سنة ٢٥٦ ق.م انتخب م. اتيليوس ريغولوس قنصلا ليقود الحملة الكبرى على قرطاضة نفسها . ومنذ سنتين كان بناء السفن الحربية في رومة وقرطاضة بالغا أقصى حدوده .

في الجبهة البرية الصقلية لم يجد شيء مهم . الا ان القيادة الرومانية اشتدت في أساليب التدمير والابادة ، حتى على المدنيين من سكان المدن التي لا تستسلم ثم تسقط بعد الحصار . والغريب في منطق الرومان الحربي البدائي ، اذا لم نقل البربري ، هو عدم أخذهم بعين الاعتبار أن هؤلاء المدنيين ليسوا أحرارا في التسليم أو عدمه ، فالقيادة العسكرية القرطاضية هي المسؤولة ، وعليها يجب ان يوجه غضبهم وقصاصهم . ولكن الروماني اتبع

منذ البداية خطة الارهاب والتدمير والغدر ، وقد ظهرت هذه المثالب فيه ورافقته حتى النهاية ، بالرغم من محاولة المؤرخين المغرضين تغطيـــة هذه الاساليب اللاانسانية بأعذار واهية .

كل ما حدث أن الرومان تعبوا من تجميد جبهتهم ، فحركها القنصل اتيليوس كلاتينوس « بعمليتين بربريتين » ، نـــال على أساسهما مكافأة « الانتصار المجيد » ، وهو حفلة تكريم خاصة كان يقيمها الرومان لابطالهم العائدين منتصرين انتصارات كبرى من ساحات القتال .

منذ وصل كلاتينوس الى الميدان الصقلي اتجه نحو « بانورمة » حيث يرابط هميلقار مع جيشه في فصل الشتاء . وقام بهجوم كبير على هذه القاعدة. ولكن هميلقار صده بعنف وكبده خسائر كبيرة كما فعل بزميله في « هيميرة » سنة ٢٦١ . تراجع كلاتينوس عن « بانورمة » غاضبا حاقدا ، فارتد على بعض المدن الضعيفة وانتقم منها انتقاما شنيعا . كان هدفه الاول حصار مستراتوم ، ولما سقطت بين يديه دفع جيشه ليبيد سكانها بحد السيف وينهب ما فيها ويدمرها . وكان هدفه الثاني « كمرينة » ، وبعد سقوطها بـــاع سكانها عبيدا في سوق النخاسة فأعطته تجارته بالبشر مبالغ طائلة ، ثم دفع جنوده الى النهب والحريق والتدمير .

اما « انة » التي استسلمت فقد أباد حاميتها وباع سكانها أيضا في سوق النخاسة ودمرها . ويعلق المؤرخ جيرار فالتر على أعمال هذا القنصل « المتمدن » بقوله : « وهكذا ، جولة بعد جولة ، تمكن هذا القنصل الشرس الذي لا يعرف قلبه الرحمة ، مع انه ينتمي الى عامة الشعب الروماني ، من أن يرمم وضعا كان في حالة يائسة . وعندما عاد كلاتينوس الى رومة أقيمت له حفلة « الانتصار المجيد » ، وهلل الرومان وعظموا بصورة جنونية جزار مستراتوم ونخاس كمرينة » (٩) .

## من صقلية الى افريقية

في أواسط سنة ٢٥٦ ق.م كانـــت المحاولـــة الرومانية الاولى لغزو قرطاضة . ولقد قررت رومة ، بعد ان تجمدت حملتها على صقلية منذ ثماني سنوات ، « الانتصار او الموت » . ولو كانت قرطاضة اتخذت القرار نفسه، ان لم يكن في مجلسها فعلى الاقل في قرارة نفسها ، لكانت تبدلت ميادين هذه الحرب . لم يكن بمقدور قرطاضة أن تبلغ بسرعة غاية الانتصار على أمة عسكرية من نوع رومة الجديدة ، ولكنها كانت تقدر ، على الاقل ، أن تعيد الرومان الى شبه جزيرتهم ، مؤجلة الحرب الفاصلة الى زمن اخر . وقد تكون خلال فترة المهادنة انتخبت رجالا خلاقين مبدعين ، يجددون حياتها على اسس قومية وسياسية جديدة ، توقف الشعوب البدائية كالشعب الروماني عند حدودها ، مهما بلغ وعيها القومي وقوتها العسكرية .

واقلع اتيليوس ريغولوس من مسينة نحو الجنوب ، على رأس اسطوله الحربي ، الناقل جيش الحملة العسكرية الموجهة على قرطاضة ، مشاطئا سواحل صقلية الشرقية . ولما اجتاز رأس باشينوس اتجه نحو الغرب وأرسى اسطوله في مرفأ النوموس .

علم هميلقار المرابط مع اسطوله في القلعة القرطاضية ليليبايوم بهدف ريغولوس ، فأسرع حالا مع اسطوله وطوق الاسطول الروماني قاصدا قطع الطريق على مخطط الغزو الروماني . وقد دارت بين الاسطولين معركة بحرية اعتبرها المؤرخون « من اعظم المعارك واشدها استقتالا في التاريخ القديم » . وقد كانت الخسائر فادحة عند العدوين ، واضطر الاسطول الروماني ان يعود الى مسينة لينزل الجرحى ويصلح ما أصابه من عطب . وقد رأى مجلس الشورى القرطاضي ان يغتنم هذه السانحة فيفرض الصلح على رومة . فأرسل وفدا مزودا بصلاحيات المفاوضة الى مسينة ، فلم يقبل الرومان بمبدأ البحث في هذا الموضوع ، وأمروا الوفد بأن يغادر المدينة عائدا من حيث اتى . فهل تدل بادرة القرطاضيين على جهل تصميم رومة على الحرب حتى النهاية ، أم هم أرادوا أن يسجلواعلى رومة حسن نيتهم وسوء نيتها ؟ من الصعب اعطاء جواب عن ذلك . كل ما يمكن تأكيده هو أن عرض الصلح من جهة ، ورفضه بخشونة وغطرسة من جهة اخرى ، قد دل على النفسيتين المتصارعتين ، وعلى عدم تصميم نهائي من جهة القرطاضيين . وقد فسره الرومان ضعفا وتخاذلا فاشتدوا في تصميمهم وعنفهم .

بعد أن أصلح الرومان العطب الذي اصيب به اسطولهم ، اقلعوا مرة ثانية متجهين توا نحو الشواطىء الافريقية . نزلت الحملة في المكان نفسه الذي نزل فيه اغاتوكليس قبل ستين سنة ، قرب مدينة « كلوبية » دون ان يعترضهم أحد . لم تقاوم المدينة الا مقاومة رمزية ، وعندما استسلمت نهبوها نهبا كاملا .

كانت الحملة قد تأخرت بسبب رجوعها الى مسينة ، وقد اقترب الان فصل الشتاء ولم يعد ممكنا القيام بأعمال حربية كبيرة . لذلك بعد ان اطلع مجلس الشورى الروماني على تقرير القيادة ، وعلم ان لا مقاومة من قبل القرطاضيين ، أعطى أوامره بأن يعود القنصل مانليوس فولسو الى ايطاليا مع نصف الجيش واكثرية الاسطول ، ناقلا معه العبيد والغنائم ، وأن يبقى القنصل الثاني اتيليوس ريغولوس مع خمسة عشر الف مقاتل واربعين سفينة ، فيحافظ على رقبة الجسر الى أن يأتي الربيع .

« في مطلع الربيع كان ريغولوس محافظا على أساليبه في الحرب . اطلق عصاباته للنهب والتخريب . على حد قول المؤرخ « اوتروب » : اربع وسبعون مدينة خضعت له قبل وصوله الى تونس ، اما المؤرخ « اوروز » فيرفع عدد المدن الى اثنتين وثمانين » (١٠) .

حاول الجيش القرطاضي ان يوقف هذا الزحف امام مدينة اديس على بعد عشرين كيلو مترا من تونس ، فعجز عن ذلك لان قادته كانوا قليلي الخبرة، ودخل ريغولوس مدينة تونس دون مقاومة تذكر . وهكذا اصبحت قرطاضة هدفه الاخير .

من شوائب الفينيقيين الرئيسية « تقديس » تقاليدهم وأساليبهم ومؤسساتهم الى درجة انهم أوحوا الى اجيالهم انها معطيات نهائية ، لا يجوز تغييرها أو تبديلها أو تطويرها ، كأنها من وحي الآلهة . وقد يكون تأخرهم في الرد على التحدي الى الفرصة الاخيرة التي تتاح لهم ، وانجراف عبقريتهم في القضايا الاقتصادية والعمرانية أكثر من القضايا الفكرية والفلسفية من أسباب انهيارهم . هذا ما يستخلص ، على الاقل ، من النتائج التي وصلوا اليها في صور وفي قرطاضة . وهم دائما يأخذون خطة الدفاع ، ولا يستيقظ شعورهم القومي الا في اللحظة الاخيرة ، لكأنهم يعتقدون ان الدنيا جامدة لا تخطو خطوة قبلهم ، ولا تتعدى ما وصلوا اليه من فكر سياسي أو حربي أو حضاري . ويبدو ان المؤسسة السياسية ، التي كانت من مظاهر رقيهم وديمقراطيتهم ، قد طغت على شخصية الفرد فجمدت روح المبادرة والخلق والابداع . وعجزت بهذه الطريقة عن ايجاد التوافق بين الفرد والمؤسسة ، وبين المجتمع والدولة . فالمؤسسة ابتلعت شخصية الفرد ، والدولة عطلت نشاط المجتمع السياسي والفكري الخلاق . ولذلك نرى التاريخ الفينيقي خاليا من الهزات الاجتماعية والسياسية العنيفة ، تسيطر عليه طبقة اوليغارشية واحدة من أول حياته الى اخرها . ولذلك أيضا نجد في هميلقار برقة وابنه هنيبعل ، كما سنرى ، ذلك الانفجار الهائل في الشخصية العبقرية، تلك التي تعدت وثبتها المؤسسة والدولة ، وربما ، في هنيبعل ، المجتمع الراهن ايضا ، فأصبح المجتمع والدولة صورة مثالية في وجدانها ، والعالم كله ميدانا لمحاولاتها واختباراتها الجديدة .

« كان اتيليوس ريغولوس ، الطاعن في السن ، رجلا طيبا ، محدودا ، مفترا بنفسه ، ولكنه نزيه وصاحب وجدان ، مثال الروماني المتوسط الكامل في ذلك الزمان (١١) .

عندما احتل تونس توهم ان قرطاضة صارت بين يديه ، وأن وجوده هناك يعني انتهاء المعركة . وبما ان عهد ولايته كان قد قارب النهاية لم يشأ أن يترك المجال لخلفه لينهي المعركة ويعقد الصلح ، بل أراد هو أن يتم ذلك قبل أن يغادر مسؤوليته . لذلك نشأت عنده فكرة عرض الصلح على القرطاضيين ، فأرسل وفدا يعلمهم بذلك ، ويطلب منهم ارسال وفد للمفاوضة.

رحب القرطاضيون ، كعادتهم ، بفكرة الصلح ، معتقدين ان الرجل ذو نية حسنة ، ما دام هو صاحب المبادرة السلمية . فأرسلوا وفدا من ثلاث شخصيات تعتبر من أفضل رجال الدولة عندهم . وقد القى أحد الثلاثة

خطابا حث فيه ريغولوس على أن يكون معتدلا في شروطه حتى يتسنى لهم قبولها .

ولكن ريغولوس كان بعيدا عن هذا الجو الذي أراد أن يضعه فيه الخطيب القرطاضي ، فبدون أن يجيب بكلمة على ما قيل ، وبدون مقدمة توضح الاسباب التي دعته الى الاتصال بالسلطات القرطاضية لعقد هذا الاجتماع ، أعلن بغطرسة مدهشة شروطه التالية :

١ ــ تتخلى قرطاضة كليا عن صقلية وسردينية .

٢ ــ تعيد قرطاضة الاسرى الرومانيين كلهم بلا فدية ، وتستعيد الاسرى القرطاضيين بفدية .

٣ ــ تدفع قرطاضة الى رومة كل نفقات الحرب .

٤ ــ وتدفع فضلا عن ذلك جزية سنوية بمثابة تعويض .

٥ ــ لن تستطيع قرطاضة بعد اليوم صلحا أو حربا الا بموافقة الحكومة الرومانية .

٦ ــ تتخلى قرطاضة عن استعمال اسطولها الحربي ، ولا تحتفظ الا بسفينة حربية واحدة لحاجاتها الملحة .

٧ ــ تقدم قرطاضة الى رومة ، لدى أول طلب ، خمسين سفينة من ذوات صفوف المجاذيف الثلاثة (١٢) .

أمام هذه الوقاحة وهذا الانفلات من اللياقات الدبلوماسية العادية ، لم يتمالك حنون ، رئيس الوفد ، نفسه من الرد على هذا الموقف الشاذ بكلام لاذع ، فما كان من ريغولوس الا أن « انفجر بالتهديد والوعيد آمرا المتكلم بمغادرة المكان بسرعة مع رفيقيه ، مودعا اياهم بهذا الكلام الفظ : ان من يدعون الشجاعة عليهم ان ينتصروا او ان يخضعوا للمنتصرين » (١٣) .

بعد أن أطلع الوفد مجلس الشورى القرطاضي على ما كان ، قرر المجلس بالاجماع متابعة الحرب حتى النهاية .

وهكذا تبخرت تلك الحيلة التي تخيلها ذلك الريفي ، الماكر والساذج في آن واحد ، « المنتفخ بانتصاراته » كما يقول ديودورس .

وبما انه اصبح واضحا ان الاتفاقات الصغيرة الموقتة التي كانت تجريها قرطاضة مع يوناني صقلية اصبحت مستحيلة مع الرومان ، اخذ مجلس الشورى القرطاضي يستعد لمتابعة الحرب . وبعزم اليائس المستميت اخذوا يعدون أنفسهم . لقد اعتبروا عدد جيشهم القادر ان يخوض المعارك غير كاف ، فأتوا بقوافل جديدة من المجندين المرتزقة من أوروبة ، وعززوا انتاج العتاد الحربي وتدريب الفيلة . كما انهم شكلوا فرقا من الميليشيا القومية الفينيقية . وقد اعطتهم رداءة الطقس فرصة ثمينة ، اذ كان عليهم أن يفتنموا الفرصة قبل أن تصل الى افريقيا النجدات التي يأمر بتجنيدها القنصلان عندما يتسلمان مسؤوليتهما في سنة ٢٥٥ ق.م .

اثنا عشر الف راجل ، وأربعة الاف خيال ، ومائة من الفيلة المدربة ،

هذا كل الجيش القرطاجي الذي هاجم تونس مقر القنصل الروماني الذي كان اعتبر ان قرطاجة راكعة أمامه .

وقد اندفع ريغولوس الى المعركة اندفاع الواثق من الانتصار ، وقد كانت المعركة رهيبة بما أبداه القرطاجيون من الاستقتال بعد أن امتهنوا وجرحوا في صميم شعورهم القومي . لقد جر القرطاجيون الجيش الروماني الى سهل فسيح حيث تقدر فيلتهم ان تفعل فعلها الساحق ، وحيث يتسنى لخيالتهم الميديين التحرك بسهولة .

دفعت الفيلة الى قلب الجيش الروماني ، فداسته ودقته بأرجلها دقا ، بينما كان النشابة يمطرون المشاة والخيالة الرومان بأسهمهم الحادة . وقد لف الخيالة الميديون الجيش الروماني بطوق شمل مؤخرتهم ، فأمسوا مطوقين من كل جهة ، مدفوعين الى الفناء الكامل . لم يخلص من الطوق الا قائد الجناح الايسر من الخيالة الرومان ، فقد شق طريقه وانقذ نفسه من الموت المحتم . وقد حاولت فرقة الحرس القنصلي أن تتبعه ولكنها طوقت هي ايضا ووقعت في الاسر ، وكان بينها ريغولوس العجوز المتغطرس ، الذي كان يعتبر نفسه سيد الشاطىء الممتد من خليج سيرانية الى ضفاف الاطلسي .

كان عدد الجيش الروماني حسب تأكيد جيرار فالتر ( ٤٧٠٠٠ ) ، ويقول اونتروب ان ثلاثين الفا سقطوا قتلى في المعركة ، وخمسة عشر الفا وقعوا أسرى . ولم يتمكن من الهرب الا الفان فقط بلغوا اديس في حالة يرثى لها واحتموا وراء أسوارها .

وهكذا لم تتبدد فقط أحلام ريغولوس في عقد صلح يجعل قرطاجة عبدة رومة الطائعة ، بل تبددت الحملة الرومانية كلها ، وعادت الانظار تتجه الى جبهة صقلية المجمدة .

الغريب في أمر هؤلاء المؤرخين القدماء المغرضين أمثال بوليبيوس ، أنهم تعمدوا أن يجردوا القرطاجيين من الفضائل القومية البطولية والمواهب العبقرية التي تجلت في هذه الملحمة الحربية ، فنسبوا أسباب الانتصار الى حركة اصلاحية في الجيش القرطاجي قام بها أحد صغار الضباط السبارتيين المرتزقة . فكأن القيادة القرطاجية التي تجمد الجيوش الرومانية كلها منذ تسع سنوات في صقلية هي عاجزة كل العجز عن وضع مخطط للدفاع عن عاصمتها .

لا يجوز التأكيد ان كسانتيب ، الضابط السبارتي ، لم يكن له أي فضل في هذه المعركة ، ولكنه من السخف المفضوح أن تصور قرطاجة وكأنها منحلة من قواها الفكرية والعسكرية ، ومجردة من القادة ، تسير الى الانهيار ، لولا أن القدر أوجد ضابطا يونانيا صغيرا بين المرتزقة من جيشها.

عطلت نتائج معركة تونس المخطط الذي كان قد وضعه القنصلان الجديدان لسنة ٢٥٥ . فالحملة الكبرى التي كانت تعد للاجهاز على سيدة

غربي المتوسط وصلت الى كلوبية فأنقذت من الحصار من كان باقيا حيا من حملة ريغولوس وقفلت راجعة الى مسينة . وكانت الحملة مؤلفة من نحو ثلاثمائة وخمسين سفينة حربية ، وثلاثمائة للنقل . وما ان وصلت هذه العمارة الى عرض اكنوموس ، في طريق عودتها ، حتى هبت عليها عاصفة من عواصف شهر آب الهوجاء ، أغرقت منها ثلاثمائة وعشرين سفينة حربية ومائتي سفينة نقل ، ولم يسلم من هذه الاساطيل الا ثمانون قطعة فقط ، لجأت الى سرقسطة مع آلاف الغرقى الذين صارعوا الامواج ولجأوا الى السفن التي لم تغرق عراة جياعا ، على اخر رمق من حياتهم .

أمام هاتين النكبتين النازلتين برومة ، رأت قرطاضة ، كعادتها ، أن تعرض الصلح وتبادل الاسرى مع عدوتها ، ولكن بروح غير روح ريغولوس. فأرسلت وفدا الى رومة لهذه الغاية وأصحبته بريغولوس ، ليكون رسول سلام بين الدولتين . ولكن ريغولوس المتجبر أبى الا أن يثني الرومان عن القبول بالصلح بالرغم مما أصيب به ، مشددا عزائم مجلس الشورى والشعب على المضي في الصراع حتى النهاية . وقد عاد الى قرطاضة مع الوفد حسب كلام الشرف الذي قطعه للسلطات القرطاضية .

قبل مجلس الشورى الروماني باتفاقية تبادل الاسرى ورفض عرض الصلح .

رومة تريد أن تنتصر مهما تكن التضحيات كبيرة . كانت أولا تريد صقلية ، أما الان فتريد سردينية وكورسيكة والسيطرة على البحار . وقرطاضة تريد أن تعود الى الحالة التي كانت سنة ٢٦٤ . ولم تعلم بعد أن الحياة لا تعود الى الوراء ، وأن سنة ٢٦٤ ، وقت كانت تهيمن على صقلية ، لن تعود ابدا .

## عودة الصراع الى صقلية

يبدو ان قرطاضة تستمر في ارتكاب أخطاء من الصعب أن يسلم عقل الدارس المحلل بأن دولة كالدولة القرطاضية ، لها اختبارات خمسة قرون من الصراع المسلح ، يمكن أن تقع فيها . لقد عرضت قرطاضة الصلح على رومة مرات متواصلة ولم تقبل رومة حتى بمبدأ البحث بالموضوع . ومع ذلك فأن قرطاضة ، اقتناعا منها بأن الرومان لن يغامروا بعد اليوم في تجربة حظهم في صقلية ، بعد النكبات التي حلت بهم ، سحبت قسما كبيرا من قواتها من صقلية الى قرطاضة لتضمها الى القوات الجاهزة عندها وتدفعها ضد الثوار الميديين الذين حركهم ريغولوس على قرطاضة يوم كان محتلا قسما من الشاطىء ومتوغلا في داخلية البلاد .

ما أن تخلت رومة عن جبهة افريقية ، وأنهت قضية تبادل الاسرى مع قرطاضة ، حتى بدأت استعداداتها بحماسة فائقة الحد للانتقام في صقلية

مما اصابها في افريقية . وقد خطط الرومان هـذه المرة ان يكـون هدفهم القطـاع الغربي ـ الشمالي من الجزيرة الذي يشكل القاعدة القرطاضية التي لم تزحزح حتى الان . وهذا القطاع مكون من مثلث ليليبايوم ـ دريبانوم ـ بانورمة .

هذا التصميم يتطلب هجوما من البحر والبر . لم يبق عند رومة سوى ثمانين سفينة حربية بعد الكارثة الاخيرة ، فقررت بناء ٢٢٠ سفينة جديدة . وهكذا في ربيع سنة ٢٥٤ ق.م. كان اسطول روماني مؤلف من ثلاثمائة قطعة حربية يتجه نحو المثلث القرطاضي ويضرب الحصار البحري والبري على دريبانوم. ولكن القائد القرطاضي العام كرتالون فك الحصار بسهولة .

انتقلت الحملة الى بانورمة فحاصرتها برا وبحرا ايضا وفتحت لكرتالون جبهتين بريتين ارغمته على تفريق جيشه القليل علـى الجبهتين فسقطت بانورمة ، وكان لسقوطها صدى بعيد في مصلحة الرومان ، فخافت مـدن عديدة واخذت تعلن خضوعها للرومان خوفا من أساليبهم الثأرية الضارية . وسبب نجاح الرومان الجزئي كان سحب قرطاضة قسما من جيشها العامل في صقلية الى افريقية .

ولكن كارثة جديدة وقعت على الاسطول الروماني ، كأن آله البحر كان يحارب رومة في المياه : فبينما كان الاسطول الجديد يتجه من بانورمة الى رومة هبت عليه عاصفة قوية ، لعدم خبرة الرومان بتجنب أوقـات العواصف ، فأغرقت منه مئة وخمسين سفينة . وقد عيل صبر مجلس الشورى الروماني بعد هذه الكارثة فنسب هذه الكوارث لافتقار الرومان الى الخبرة بشؤون البحر ، وقرر اهمـال الحمـلات البحرية مـن الان فصاعدا والاحتفاظ بالحالة الراهنة في صقلية .

بالرغم من بعض الانتصارات التي أحرزتها رومة في هـذه الجولة (٢٥٤ ـ ٢٥٣ ق.م) فأن الكارثة البحرية قد أوقعت مجلس الشورى الروماني في حالة يأس من الوصول الى نتائج حاسمة ، وحملته على اتخاذ قراره .

وقد عقب تلك الجولة هدوء نسبي خلال سنتين (٢٥٢ ـ ٢٥١) . لم تستفد قرطاضة من هذه الحالة المعنوية الرومانية الضعيفة التي اجتازتها عدوتها في هذه الفترة ، لانها كانت ما تزال في الوضع النفسي الذي بدأت به هذه الحرب ، تجر جرا الى خوض المعارك ، كأنها مسخرة لاقتحامها .

لم تدرك قرطاضة بعد ان مصيرها يترجح في كفتي القدر ، وان السطوة العالمية التي فرضتها خمسة قرون من الصراع الدامي أخذت تتقلص عن شواطىء المتوسط الغربي ، وان هذا البحر الذي جعله الفينيقيون بحيرة كنعانية تنتقل السيادة فيه تدريجا الى المزارعين والفلاحين والجبليين الرومان.

لم تكن فترة اليأس والجمود في رومة الا وقتية عابرة ، وفي انتخابات سنة ٢٥٠ ق.م. عاد حزب الحربيين الى احراز انتصار ساحق .

انشئت مائتا سفينة حربية بالرغم من قرار مجلس الشورى السابق، وتقرر ان تهاجم ليليبايوم القاعدة العسكرية القرطاضية الاولى في صقلية . وكان ذلك يعني ، ضمنا ، القيام بجولة عنيفة لتحطيم المقاومة القرطاضية في غربي الجزيرة وانهاء الحرب .

كانت قرطاضة مطلعة على ما يجري ، فسيرت نجدات جديدة الى صقلية تقدر بثلاثين الفا على راسها قائد عام جديد هو هسدروبعل . ومما يجدر ذكره ان مئة وخمسين فيلا ، من دبابات ذلك الزمان الثقيلة ، كانت ترافق الحملة ، وهي كانت ترعب الرومان منذ اندحارهم في معركة تونس .

اتجه هسدروبعل الى بانورمة بعد نزوله الى اليابسة ، مستبقا الهجوم الروماني الذي يعد ، محاولا انتزاعها من قبضة الرومان . فهي زاوية من المثلث القرطاضي الذي لا يجوز التنازل عن اية زاوية من زواياه .

لم يوفق هسدروبعل في هجومه ، اذ ان الفيلة ، أمام الخنادق الواسعة التي حفرها لها القائد الروماني ميتلوس ، وتحت وابل من سهام النشابة المخصصين لمقاومتها ، ارتدت على الجيش القرطاضي الزاحف فبددته وانزلت به خسائر فادحة ، فاضطر هسدروبعل أن ينسحب ويعود الى قرطاضة .

وهكذا عاد الرومان الى تنفيذ مخططهم : الاستيلاء على ليليبايوم فتنهار المقاومة القرطاضية وتنتهي الحرب .

مائتان واربعون سفينة حربية حاصرت ليليبايوم من البحر ، ومائة الف مقاتل من البر . ولم تكن حاميتها تعد اكثر من سبعة الاف راجل وسبعمائة خيال ، على راسهم القائد شيميلكون الذي كانت مسؤوليته اصعب مسؤولية تحملها قائد في هذه الحرب . ان سقوط ليليبايوم يعني خسارة صقلية ، وانهزام قرطاضة ، وبدء تغير وجه التاريخ .

لم تمض أيام على الحصار المضروب على ليليبايوم برا وبحرا بتلك القوات الهائلة حتى أمست في حالة تعسة . سبعة الاف رجل يقاومون مائة الف من البر واسطولا كبيرا من البحر . الثغرات تفتح في الاسوار من الخارج فتسد من الداخل بالسرعة المطلوبة . الفدائيون يقومون بغارات على المهاجمين ليعرقلوا اعمالهم ، وليضرموا النار في معداتهم . وارهب من كل هذا ، أن الجنود المرتزقة الذين لم تدفع أجورهم حسب الاتفاق أخذوا يتآمرون ليسلموا المدينة الى الرومان . احد المرتزقة الامناء اطلع شيميلكون على ذلك فأسرع واقنعهم بالبقاء على ولائهم مقسما لهم بأن أجورهم ستدفع مع مكافآت خاصة بعد الانتهاء من هذه المعركة .

في هذه الحالة الصعبة وصلت الى عرض البحر نجدة من قرطاضة مؤلفة من الفي مقاتل يقودها ضابط جريء يدعى هنيبعل . ولكن كيف الوصول الى المدينة وهي مطوقة بذلك الاسطول الكثيف ، واليابسة مزروعة بالجنود الرومان من كل جهة ؟

بوليبيوس يصف لنا ملحمة هذا البطل الفينيقي الذي يؤلف مع ألفي رجل فرقة من الفدائيين المغاوير لم يكن لها مثيل في الحرب الفينيقية الاولى . وهذا بوليبيوس ، بالرغم من تغرضه المشهور مع الرومان ، يروي قصة اختراق القائد القرطاضي الحصار المضروب على القاعدة القرطاضية الكبرى، قال :

« أفاد هنيبعل ( غير البرقي الكبير ) من الرياح المؤاتية التي هبت عاصفة ، فنشر اشرعته كلها ، وبلغ مدخل الميناء ، وجنوده على سفنه متأهبون تأهبا تاما بكامل أسلحتهم ، ومستعدون لخوض القتال . ولما رآهم الرومان يظهرون فجأة ، استولت عليهم الدهشة ، وأذهلتهم تلك الجراة . وخشيت القيادة الرومانية أن تدفع الرياح سفنها الى داخل الميناء ، ان هي حاولت قطع الطريق على القرطاضيين ، فاضطرت الى ترك الطريق مفتوحة ،وجمدت قواتها على الشاطيء .

« أما الحامية القرطاضية المحاصرة ، فاحتشدت على الاسوار وانتابها تياران متناقضان من السرور والتخوف ، اذ رأت تلك النجدة غير المنتظرة ، فراحت تشجع القرطاضيين القادمين ، وتحثهم بالتصفيق الحاد والهتافات المدوية .

« ولم يتردد هنيبعل لحظة واحدة ، بل عبر بجراة بطولية مدخل الميناء، وانزل قواته من غير أن يزعجه أحد . ففرح سكان المدينة فرحا عظيما بوصول تلك النجدة ، وكان فرحهم أعظم برؤيتهم الرومان عاجزين عن اعتراض قوات قرطاضة » (١٤) .

أمام هذه البطولة الفائقة تحمست الفرقة اليونانية المرتزقة ، داخل الاسوار ، وطلبت من القائد شيميلكون أن تنقض انقضاضا مفاجئا على جميع آلات الحصار فتحرقها وتبيد بضربة واحدة كل امكانات العدو المخيفة ، فقدر القائد روحهم الفدائية وسمح لهم بالعمل . وفي يوم عاصف انقض هؤلاء الفدائيون بجراة مرعبة على آلات الحصار ، وما استفاق الرومان من البغتة التي استولت عليهم حتى كانت النيران تلتهم كل شيء منتقلة من آلة الى أخرى ، وتحولت جبهة الرومان المحاصرين الى محرقة يتصاعد منها دخان يعمي الابصار ، وتندلع منها السنة من اللهيب تعطل كل محاولة لاطفائها . وفي هذه الحالة من الرعب المسيطر على العدو أعمل الفدائيون سيوفهم في المحاصرين فأبادوا عددا كبيرا منهم .

بقي الرومان ضاربين حصارهم على المدينة ، ولكن بدون آلات حصار . وبعد قليل من الزمن دب فيهم وباء « فخسروا خلال أيام قليلة ، كما يقول ديودورس ، عشرة الاف رجل » (١٥) .

كان لهذه الاخبار المشؤومة في رومة تأثير كبير على الراي العام . فقد أحدثت شيئا من القنوط حتى في مجلس الشورى . ولم يتمالك أحد أعضائه

من التصريح عاليا في جلسة رسمية : « كان يجب أن نعقد الصلح مع قرطاضة » ، فأوقف حالا واعدم . وقد أحدثت هذه الموجة رد فعل في الحكومة فأعلنت بعزم وتصميم نهائي : « بالرغم من كل ما حدث ، ومهما كلف الامر ، الحرب حتى الانتصار الاخير » (١٦) . وقد انتخب كلوديوس بولشر ، من حزب الحربيين المتطرفين ، قنصلا .

وكان القنصل الجديد حاملا تصميما جديدا لتطوير حركة الجبهة : فهو يعتقد ان الجمود حول أسوار ليليبايوم لا يعطي نتيجة حاسمة ، بل يجب محاصرة دريبانوم ايضا ، وهي المدينة الثانية والاخيرة الباقية لقرطاضة . ومتى سقطت دريبانوم يصبح سقوط ليليبايوم مسألة وقت فقط . وهو يعطي الاهمية الاولى للمعارك البرية . وبعد أيام قليلة أطل أسطول كلوديوس عند الفجر على دريبانوم فكانت مفاجأة لقادر بعل أميرال الاسطول القرطاضي المحافظ على المدينة . كان الاميرال القرطاضي المجرب حاضر الذهن ، فأخرج أسطوله من المرفأ ليكون حر التحرك ، وصفه الى جهة مقابلة لمدخل المرفأ، تحميه من الوراء حرف من الصخور البحرية العالية ، واعده للقتال . وبعد أن تورط « الاميرال » الروماني ، الذي يجهل فن القتال البحري ، في مداخل المرفأ وأصبح قسم من اسطوله داخله ، « لاحظ ان القرطاضيين لا يتراجعون وليسوا مرتاعين من وصوله المفاجيء ، بل هم يستعدون للقتال . اذ ذاك أعطى أوامره بالرجوع الى الوراء . هذا التغيير الفجائي بالاوامر جعل السفن التي صارت داخل المرفأ تصطدم بالتي كانت تدخل ، فحصلت فوضى بين صفوف البحارة وتصادم بين السفن الخارجة والداخلة أدى الى تحطيم مجاذيف سفن كثيرة » (١٧) .

وأقبل قادر بعل من عرض البحر ، موجها مقدمات سفنه الى اسطول العدو الروماني ، وأصدر أمره الى السفن الآتية وراءه ، بأن تصطف خلفه وتقتدي بمناورته . وعملا بهذا التوجيه ، امتدت السفن القرطاضية على خط متصل الحلقات ، وسارت جدارا منيعا صوب الرومان المنتشرة سفنهم على مقربة من الشاطىء ، تنتظر البقية الخارجة تباعا من الميناء .

وكانت سفن كلوديوس ثقيلة ، يقودها نوتيون قليلو الخبرة ، فتعثرت ، وصعب عليها التحرك ، فيما كان القرطاضيون يحصرونها بشدة بينهم وبين الشاطىء . وكانت الفسحة التي حوصرت فيها ضيقة ، فتورط بعضها في الرمال ، وارتطم البعض الاخر بالصخور ..

ولما رأى كلوديوس اسطوله في هذه الحالة اليائسة ، ادرك ان لا نجاة له الا بالفرار ، فتسلل في محاذاة الشاطىء على رأس حوالي ثلاثين سفينة، واستولى القرطاضيون على البقية المؤلفة من ثلاث وتسعين سفينة بمن فيها من الجنود والملاحين والعتاد .

وعلق المؤرخ ديودورس على هذه المعركة قائلا : « لم يخض شعب

قبل ذلك التاريخ معركة بحرية دامية كهذه ، ولم يحرز قبلها انتصار باهر كهذا الانتصار .. والمدهش ان القرطاضيين خسروا عشر سفن ، ولم يخسروا مقاتلا واحدا » (١٨) .

أما المؤرخ دي سنكتيس ، فحاول ايجاد عذر للرومان ، فقال : « هذه أول هزيمة مني بها الرومان في حروبهم البحرية ضد قرطاضة » . ولكنه لم يستطع الا أن يضيف : « انها هزيمة بلا مجد . فجنود كلوديوس لم يسقطوا في الميدان ، ولم يدفع العدو ثمن حياتهم غاليا كجنود ريغولوس ، بل تركوا العدو يباغتهم من غير ان يقاتلوا » (١٩) .

وهكذا انتهت حملة كلوديوس ، « الارستقراطي الروماني المتكبر والمتعظم » بكارثة جديدة ، سيسجلها مجلس الشورى الروماني باستنكار جديد للحملات البحرية التي اذا لم تدمرها آلهة البحر دمرها القرطاضيون . والمدهش في هذه الانتصارات التي يحققها القرطاضيون ، انها كانت من فعل العبقرية والبطولة لا من نتاج التفوق بالعدد والعتاد . فقرطاضة كانت منشغلة في اخماد ثورة النوميديين التي اشعلها ريغولوس منذ سنة ٢٥٦ ، وفي توسيع ممتلكاتها الافريقية في الداخل ، حتى لا تتعرض مرة اخرى لثورة من هذا النوع قريبة من اسوارها . لقد ارهقت ماليتها حرب صقلية ، وارتفعت اصوات رجال المال والتجارة بالنقمة على حرب تستمر منذ خمسة عشر عاما دون ان تستشف نهايتها . وبما ان الماليين والتجار كانوا مسيطرين على الدولة ، لم يكن يسمع صوت العسكريين ورجال الدولة الحقيقيين الذين كانوا يقدرون الاهمية المعنوية التي ترافق هذه الحرب .

ومع ذلك فقد تحمست الحكومة القرطاضية عندما وصلتها السفن الاسيرة ، والاسرى والمغانم التي سيرها قادربعل الى قرطاضة ليوقظ شعورها القومي بهذه النتائج المجيدة ، فأرسلت اسطولا من سبعين سفينة لنجدة بطل دريبانوم .

كان قادربعل من القادة الذين يعرفون كيف يستغلون انتصاراتهم . فهو لا ينام على الانتصار ، قانعا بما حقق ، بل يحوله الى قوة دينامية جديدة تعطي انتصارات جديدة . وعقليته هذه كانت معاكسة للعقلية السائدة في قرطاضة منذ بداية هذه الحرب .

لقد سيرت الدولة هذه الحرب بعقلية مركنتيلية مشوهة . تجاهلت القيم المعنوية والحضارية والقومية الموضوعة في ميزان هذه الحرب ، ولم تأخذ بعين الاعتبار الا الناحية الاقتصادية التي تعطل الحروب أكثر حقول نشاطها .

ومنذ البداية كانت خطتها منبثقة من هذه العقلية المشوهة : ١ ــ تجنب الحرب بأساليب وصلت الى حدود الضعف والانهزامية ، خسرتها حليفها المتطوع هيرون الذي لولا وجوده الى جانب الرومان لكانوا أجلوا عن

صقلية منذ سنوات . ٢ ــ عرض الصلح مرات متكررة دون اقل جدوى ، مع ان رفض رومة مبدأ المفاوضة يدل منذ المرة الاولى على تصميم الرومان الواضح على اعتبار هذه الحرب فاصلة بين قوتهم وقوة قرطاضة ، بين تاريخهم وتاريخ قرطاضة ، بين مصيرهم ومصيرها . ٣ ــ اعتبار الانتصارات القرطاضية وسيلة فقط لتجميد العدو وابعاد خطره ، لا للقضاء عليه بتقديم مجهود اكبر ، حالا بعد الانتصار ، لاستغلال المعنويات المرتفعة وفرصة تضعضعه وقنوطه . ٤ ــ اعتقاد الحكومة القرطاضية ان جبهة صقلية هي جبهة عادية، مع انها مصيرية ، فاصلة .

هذا التفكير المشوه سيكون له تأثير كبير على سير هذه الحرب والحروب التي تليها . ولكن اذا كانت الدولة القرطاضية قد تجمدت في مؤسساتها الطبقية المغلقة ، فحجرت المفاهيم والتقاليد والاساليب ، فأن الشعب هو مؤسسة الحياة التي لا تتجمد ، ولا تتحجر ، ولا تنغلق على نفسها . وهو يتفاعل بصورة مستمرة ، ولو كانت تكبله المؤسسات الجامدة . وهو تلقائيا لا ينقطع عن انتاج العباقرة والابطال الذين تدفعهم حيويتهم وينير طريقهم تراثهم القومي الحافل بمعطيات العقل والبطولة ، فتجترح من جديد معجزات العقل والبطولة .

لم ينم قادربعل على أمجاد معركتي ليليبايوم ودريبانوم ، بل سير الاسطول الذي وصله من قرطاضة على الاسطول الروماني المحاصر ليليبايوم ليجره الى معركة مفاجئة . وفي مخططه هذا ايضا رافقه النصر . « فالتضعضع الذي احدثته تلك الضربة الجريئة المحكمة في معسكر الرومان ، كما يقول بوليبيوس ، أحدثت أسوأ العواقب : فبينما كانوا يلتمسون النجدة من سفنهم ، رأى شيميلكون المدافع عن ليليبايوم تضعضعهم ، فأطلق عليهم فرقة من المرتزقة . وعندما رأى الرومان أنفسهم مهاجمين من جميع الجهات وقعوا في فوضى لا تحتمل ، فرفعوا الحصار عن المدينة المطوقة منذ شهور » (٢٠) .

ولم يقف قادربعل عند هذا الحد . لقد وصله خبر بأن أسطولا كبيرا يقوده جونيوس يولوس ، القنصل الثاني ، يتجه نحو ليليبايوم لتقوية الحصار وتموين الجيوش البرية والاسطول هناك . فسير معاونه قرتلون لمجابهة هذه القافلة ، وهنا يشرح المؤرخ بوليبيوس تفاصيل هذه الموقعة البحرية فيقول :

« رأى جونيوس الاسطول الفينيقي من بعيد ، فأدرك مقدار قوته . وعلم انه اضعف من ان ينازله في معركة ، وان قربه منه لا يتيح له النجاة بالفرار ، فهرع الى مكان عالي الاجراف ، لا يمكن الدنو منه ، والقى فيه مراسيه .... حيال هذا الواقع ، رأى الاميرال القرطاضي ان خوض معركة في مثل هذا المكان هو مغامرة غير محمودة العواقب ، فتمركز على مقربة من

رأس يتيح له مراقبة الاسطول الروماني .

« وفي هذه الاثناء ، هبت عاصفة هوجاء . وكان القرطاضيون يعرفون هذه المنطقة ، ويجيدون مواجهة العواصف ، فأوعز الخبيرون منهم الى قرطلون بأن يحتمي من الرياح المجتاحة بالانتقال الى الجانب الاخر من رأس باشينوس باسرع ما يمكن . فعمل بهذه النصيحة فورا ، ولكن بصعوبة وجهد ، فوصلت سفنه الى مكان أمين .

« أما السفن الرومانية فدهمتها الانواء على شاطىء وعر ، فبادت عن آخرها ، ولم يبق منها غير حطام عديم الفائدة . وكانت الكارثة فوق كل ما يتصوره خيال .. فمن السفن الحربية المائة والعشرين ، وسفن النقل الثمانمائة التي عهد بقيادتها الى جونيوس ، لم يبق سوى سفينتين اثنتين .

« وقد حاول القنصل المنكوب ان يلجأ الى المنطقة الرومانية ، ففاجأته القوات القرطاضية على الطريق وأخذته أسيرا . وهو القنصل الروماني الثالث الذي يقع في قبضة القوات القرطاضية » (٢١) .

وماذا بعد هذه الفاجعة ؟

وابل من الاخبار المفجعة يقع على الرأي العام في رومة ، فيرهقه ، ويثيره الى أقصى الحدود . وقد أجمع الناس على عزو هذه المصائب الى عجز القادة ، وطالبوا بأن تنزل بهم أقصى العقوبات ، وقد انتحر جونيوس أميرال الاسطول البائد ، خوفا من مواجهة الغضب الاعظم في مجلس الشيوخ. وأجريت في رومة سلسلة محاكمات كان لها أسوأ صدى في الرأي العام الروماني . وانتهت جولة (٢٤٩ ــ ٢٤٨ ) بانتصارات ساحقة حققها القرطاضيون بالرغم من تراخي حكومتهم في شأن حرب صقلية ، وبموجة من اليأس والتضعضع سادت الرومانيين . ولكن جمودا من الطرفين عاد يخيم على الجبهة الصقلية .

حقق القادة القرطاضيون ضمن دائرة قطاعهم الغربي معجزات عسكرية اشتركت فيها عبقرية القيادة وبطولة التنفيذ . وبرهن قادربعل وشميلكون وقرتلون ان القيادة القرطاضية التقنية ، ما تزال على مستوى أرفع من « الهواية » الرومانية المفترة . وان تسعة الاف من الجنود المحترفين ، تقودهم ملاكات فينيقية محترفة ، ينتصرون على مائة الف روماني يحاصرون ليليبايوم من البر ، وان أسطولا قليل العدد مع بحارة مجربين تمكنه قيادة صحيحة من انزال الهزائم المتواصلة بأساطيل وافرة العدد .

ولكن هذا العدد القليل لا يقدر أن يجلي الرومان عن صقلية بعد أن احتلوا نحو تسعين بالمئة من مساحتها ، وسيطروا على مواقعها ، واستمالوا المدن اليونانية الى جهتهم بفضل الاخطاء السياسية والعسكرية التي ترتكبها الحكومة القرطاضية منذ خمسة عشر عاما .

ان اجلاء الرومان عن صقلية هو ممكن الان ، اذا وضعت الحكومة

القرطاضية مخططا واسع النطاق وزودته بجميع الوسائل اللازمة .

بعد النكبات التي حلت برومة خلال سنة ٢٤٩ بدا الانتصار ميالا بصورة نهائية الى القرطاضيين . فما كان عليهم الا أن يستغلوا الافضليات التي بين أيديهم ، ويغتنموا فرصة انحلال اسطول العدو لاسترجاع المساحات التي خسرت . فالظروف كانت تقدم أفضل الفرص لمحاصرة بانورمة ، ومهاجمة سرقسطة لارغامها على الانفكاك عن رومة ، والتفاهم مع « شارنتة » ، ولاحداث ثورة في ايطاليا الجنوبية فتنقطع المواصلات بين رومة وصقلية . لم تقم قرطاضة بشيء من ذلك كله . لماذا ؟ !

# آثار كنعانية على الشاطئ السوري

أوغاريت ؛ رأس امرأة من العاج والذهب
( ١٤٠٠ ق٠ م٠)
المتحف الوطني، دمشق٠

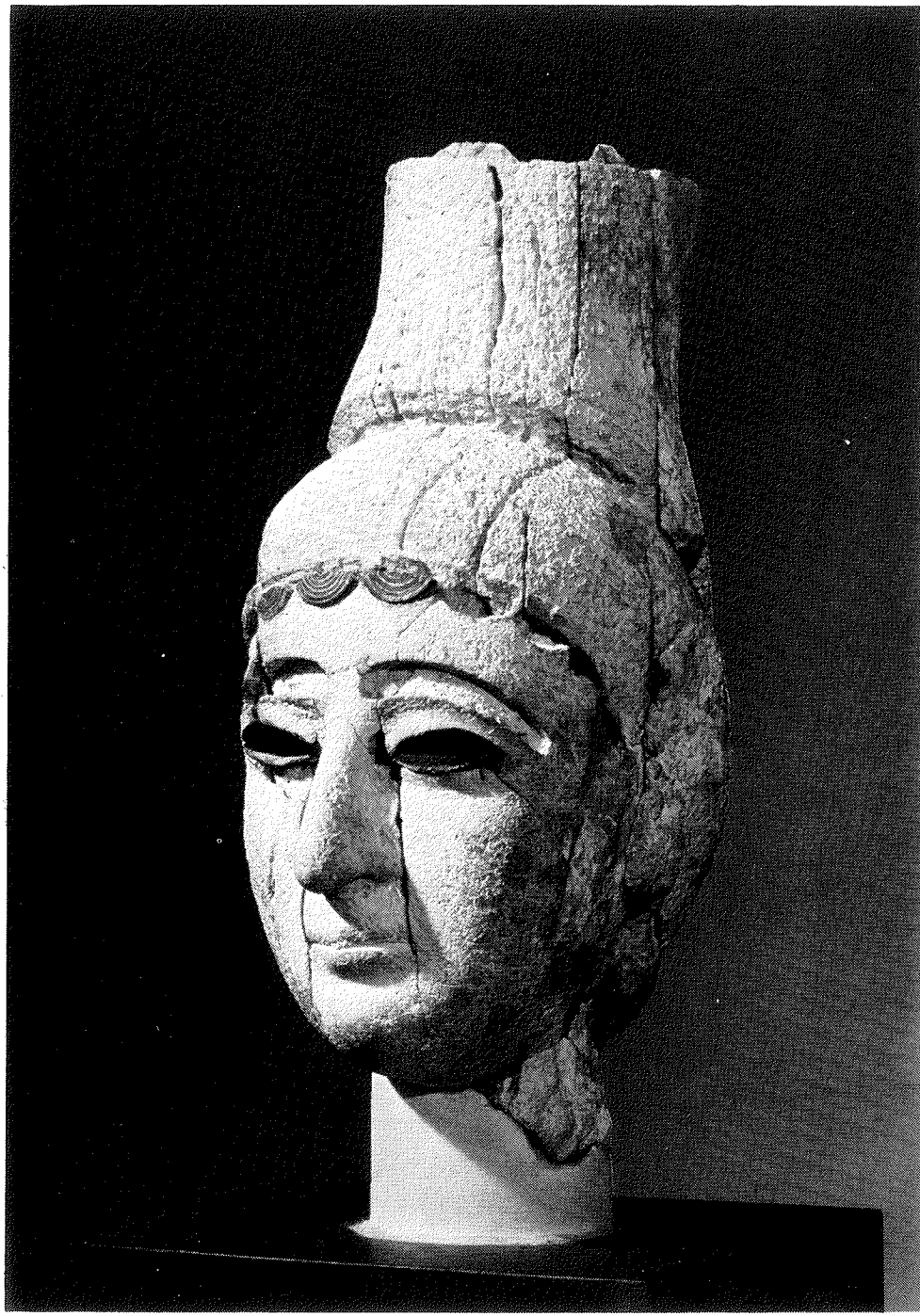

جبيل. خنجر من الذهب والعاج
( ١٩٠٠ - ١٨٠٠ ق. م.)
المتحف الوطني، بيروت.

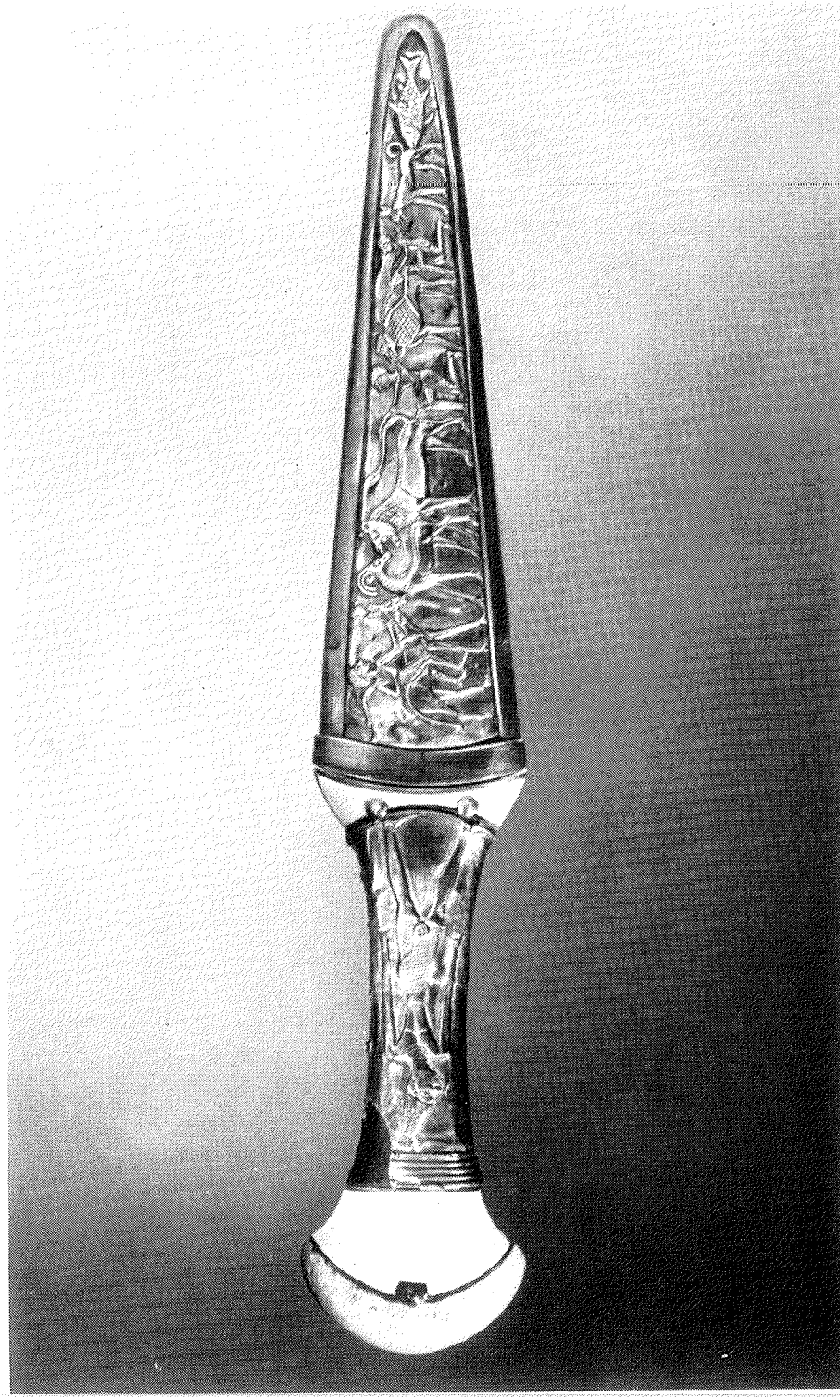

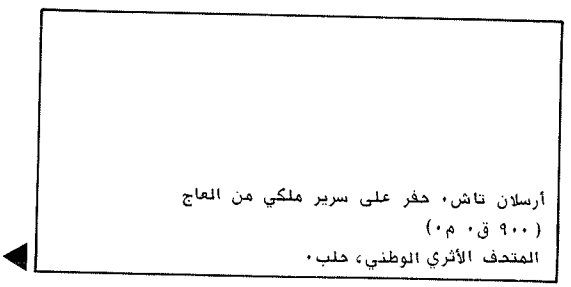

أرسلان تاش، حفر على سرير ملكي من العاج
(٩٠٠ ق. م.)
المتحف الأثري الوطني، حلب.

صيدون، معبد أشمون٠ عرش منذور لعشتار
( ٣٠٠ ق٠ م٠ )٠

أوغاريت. غطاء علبة مجوهرات
(١٤٠٠ ق.م.)

# هميلقار برقة

## انسان جديد في قرطاضة

انسان جديد تألبت عليه المثالب

### هميلقار وحكومة قرطاضة

لم تفعل قرطاضة شيئا مما كان ينتظر منها ان تفعل . كانت تصارع « قوة جديدة » ، « ظاهرة سياسية جديدة » ، بفكر سياسي عتيق ، وبمفاهيم بالية . كانت تحارب « أمة جديدة » متراصة ، تسيرها مؤسسات سياسية قومية دينامية خلاقة ، مقتحمة ، مغامرة ، بمؤسسات اوليغارشية مغلقة ، نضب فيها الفكر القومي ، وتجمدت فيها الطاقة الخلاقة ، وسيطرت فيها عقلية مركنتيلية جامدة تقيس الحياة ومطالبها العليا ، قيمها وفضائلها ومثلها وقوميتها وانسانيتها ، بالارقام الحسابية . الشعب حي طموح ، يحقق في قياداته العسكرية ، وفي « فرقه المقدسة » ، وفي جيوشه المرتزقة ، كل ما يطلب اليه من مآثر وبطولات . ولكن الدولة ، بجمودها ، وبمؤسساتها المشوهة ، تهدر تلك المآثر والمعجزات ، فتأتي النتائج تراجعا دائما أمام « القوة الجديدة » العدوة .

والان ، بعد أن وصلت أخبار الانتصارات المجيدة التي حققها القرطاضيون في صقلية بوسائلهم المحدودة ، استيقظ الحزب العسكري في مجلس الشورى يريد تقوية الجبهة الصقلية لاستغلال تلك الانتصارات وانهاء هذه الحرب التي طالت ، بانتصار نهائي فاصل ، فأنبرى له حزب رجال الاشغال ، رجال المال والتجارة ، يريدون اهمال تلك الجبهة أو تجميدها في حالتها الراهنة ، ومنهم من يفكر بعرض الصلح على الرومان ، مكتفين بأن تكون لقرطاضة رقبتا جسر هما ليليبايوم ودريبانوم ، على أن تنشأ حالة حسن جوار بين الدولتين في الجزيرة . مع أن منطق الاحداث يدل على أن الرومان يرفضون البحث بأمر الصلح ، وقد صرحوا مرات عديدة بأنهم يمضون بهذه الحرب حتى انتصارهم الاخير .

كان زعيم حزب العسكريين قائدا برز اسمه مؤخرا في المجلس

القرطاضي هو هميلقار برقة . وكان حنون زعيم رجال الاشغال ، وهو رجل اداري محنك لمع نجمه في الحملات التأديبية التي سيرتها قرطاضة على الثوار النوميديين . ومع انه ليس قائدا عسكريا موهوبا فأن الحملات التي كان على رأسها كانت موفقة ، وقد فتح آفاقا جديدة بعيدة المدى للتوسع القرطاضي البري ، وخلق أسواقا جديدة للصناعة القرطاضية وللمشاريع الزراعية الكبرى .

كانت المشادة بين الحزبين المتعاكسين عنيفة جدا ، ولكن حزب رجال الاشغال كان يؤلف أكثرية في المجلس وكانت له الكلمة الفصل .

اهملت الجبهة الصقلية واتجه نشاط الدولة نحو البر الافريقي . ليست فكرة التوسع في البر الافريقي في غير محلها ، بل عدم التوسع في الداخلية الافريقية ( الهنترلند الافريقي ) كان من اخطاء قرطاضة الكبرى التي سببت انهيارها . الا أن تنفيذ هذا المشروع في هذا الظرف الدقيق الذي يضع مصيرها على كف القدر ، يمكن تأجيله الى ان تنتهي الحرب مع روما . ولم يتمسك حزب رجال الاشغال بصقلية الا لانها تدر ارباحا طائلة على الصناعيين والتجار وتكلف مصارفات قليلة .

كما كانت قرطاضة تلعب بمصيرها بالاهمال والتخاذل والتهرب من مصاريف الحرب ، كان هيرون ، طاغية سرقسطة ، يلعب بمصيره ومصير اليونانيين في صقلية بتحمسه للرومان وانتصارهم . فهو كان يجهل أن مصير اليونانيين في صقلية سيكون كمصيرهم في جنوبي ايطاليا : الخضوع التام لشعب بدائي ، لا تتجانس حضارة اليونانيين المتقدمة مع حضارته . وها هو الان يجدد محالفته مع رومة ، وعوضا عن ان تكون لخمسة عشر عاما كما كانت في المرة الاولى ، فقد قبل هذه المرة أن تكون دائمة ، فوضع المدينة بهذه الطريقة تحت حماية رومة ، بل انه وضع جميع المدن اليونانية تحت تلك الحماية .

هذا الحدث كان له وقع سيىء لدى الحكومة القرطاضية . فهي كانت تفكر في أن تشغل الرومان عنها باثارة الحكام الصقليين المحليين عليهم . فمتى عقد هيرون محالفة من هذا النوع فأنه يقطع الطريق على كل من يفكر بالانتفاض على رومة ، ويقطع كل أمل عند القرطاضيين في امكانية تنفيذ خطتهم . أمام الحدث الجديد تحمس المجلس القرطاضي وسير اسطولا يحمل نجدة جديدة الى جبهة صقلية بقيادة هميلقار برقة . وقد كان للحكومة القرطاضية هدفان من هذه النجدة ، الاول ارضاء القيادة في صقلية التي كانت ترسل نداءاتها المتواصلة بطلب الجنود والمال والعتاد ، والثاني ابعاد هميلقار ، وهو في نظر رجال الاعمال قائد مشاغب يشغل الحكومة بمعارضته الدائمة وبتأليبه الراي العام عليها .

في سنة ٢٤٧ ذهب هميلقار الى صقلية . ان النتيجة التي وصل اليها

في سنة ٢٤١ تجعل الدارس المدقق يتساءل : ما الذي دفع هميلقار الى قبول المهمة في صقلية ، وهل من تفاهم قد تم بينه وبين الاكثرية المتخاذلة التي كانت تسيطر على الدولة ؟ وما هدفه من البقاء ست سنوات في صقلية دون أن يقوم بأعمال عسكرية فاصلة ، بل انه تحمل خجل ومسؤولية تقدم المنكسر من المنتصر بالتماس شروط الصلح ؟

ان المعجزات التي حققتها عبقرية هميلقار خلال ثمانية عشر عاما (٢٤٧ ــ ٢٢٩) هي من أهم ما يجب درسه في تاريخنا . فهو من اولئك البنائين العظماء الذين شق طريقهم سرجون الاول وحمورابي ، ثم تألقوا في اشور وآرام ــ دمشق وقرطاضة ، وما لبثوا أن استأنفوا خطهم بأبي بكر وعمر وخالد وعلي ومعاوية . ان امجادهم القومية كان لها اشعاع بعيد الآفاق على الحضارة العالمية ، فكانوا في حياتهم منطلقات جديدة لتوق الانسان العبقري البناء ، فيغادرون مجتمعاتهم وقد تركوا لها صروحا جديدة من خلق الانسان وتدفق فيض فكره وعطاء قلبه .

وجد هميلقار في مجتمع كانت له انطلاقات حضارية عالمية منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد . وكانت له معطيات اكسبها تفوقها العالمي ، عبر الازمنة ، نوعا من القدسية ، كانت سبب تجمدها والحد من حيوية الخلق في الشعب الذي خلقها وأعطاها . وما اشرق فكر هميلقار تلك الاشراقة العبقرية حتى رأى مجتمعه راسفا في قيود واغلال متكدسة على نفسه قرنا بعد قرن ، تقبض على حياته ومصيره طبقة مغلقة ، حولت معطيات مجتمعها الى « طقوس متحجرة » ، تدور على نفسها ، وتلتهم تراثها ، موصدة أمام الشعب كل سبل النهوض والتجدد والعطاء الجديد .

كانت المرحلة التي تجتازها قرطاضة (٢٥٢ ــ ٢٤٧ ) من ادق المراحل واخطرها في تاريخها الصراعي الطويل . جرها عدو جديد الى حرب مصيرية فاصلة ، يرفض فيها هذا العدو اي نوع من التسوية او المصالحة او المهادنة . وقد أصبح واضحا ، بعد خمسة عشر عاما من اشتعال تلك الحرب ان على قرطاضة ان تقدم أقصى جهودها العسكرية والمالية لتخرج منتصرة، محافظة على نفوذها وسطوتها في العالم ، والا فأن وجه التاريخ سيتبدل ، فتنتزع زعامة الحضارة من دولة هي أساس هذه الحضارة العالمية ، لتستقر في شعب بدائي ، لا يفهم من مبادىء الحضارة الا سياسة الحرب والانتصار بجميع الاساليب الارهابية ، بعد أن اكتشف وسيلة تحقيق وحدته القومية البيئية ، واستمر في اكتشاف مبادئه السياسية والعسكرية المتفوقة .

وقد حاول هميلقار بمعارضته الدستورية في مجلس الشورى أن ينتزع القيادة من التجار والرأسماليين المسيطرين منذ مئات السنين ، ولكن الاكثرية الدستورية كانت ضده . والقرطاضيون كانوا الفوا حياة الاثراء والترف ، حياتهم تدور في حلقات التجارة والصناعة والمشاريع الزراعية الكبرى ،

واستغلال المناجم في المستعمرات البعيدة . والفينيقيون كانوا دائما عمليين اختباريين في بناء دولتهم وحضارتهم . فالقضايا النظرية المجردة لم تستهوهم كثيرا . وقد ازدهرت حياتهم الاقتصادية وتوفر لهم استقرار دائم في حياتهم الجديدة في قرطاضة ، حتى انصرف فكرهم عن كل ما عرف عند الشعوب من ثورات وانقلابات وتغيير اوضاع فجائي . فتقاليدهم وعاداتهم واعرافهم ومؤسساتهم السياسية اصبحت جزءا كبيرا من معتقداتهم المقدسة .

« والقرطاضيون لم يكونوا قد عرفوا بعد المخاطر القصوى المداهمة ، فهم يرون بصعوبة كيف يجب التكيف مع المفاجآت . واقل من ذلك يعلمون كيف يجب أن يجابهوا الازمات الخطيرة ، تلك التي تحتم أما القيام بمعجزات واما الموت . لذلك كان ارستقراطيو قرطاضة يميلون بوضوح الى الاعتقاد ان الوسيلة هي أهم من الغاية . وبالنسبة الى ممارستهم بعض الطقوس ، كان يبدو لهم ان الغاية تنبثق من وسيلة معينة لا يجوز تبديلها . وهكذا فقدوا الحس للسعي وراء وسائل جديدة لبلوغ الغاية المنشودة . فليس الهدف المبتغى هو المقدس في اعينهم ، بل الطريقة المعينة التي توصلهم اليه » (٢٢) .

وبالرغم من ان هميلقار كان ميالا بطبعه الى اقتحام المخاطر مهما كانت رهيبة ، فأنه تهيب أن يفكر بأساليب لا دستورية توصله الى الحكم . فالاساليب التي كانت مألوفة في المدن اليونانية وهي دكتاتورية الطغاة ، كانت ممقوتة ومحتقرة عند الكنعانيين الذين اقتبسوا « نظام المدينة الديمقراطي » عن سومر ، وظلوا محافظين عليه حتى النهاية . ومع ان هميلقار كان يرى بوضوح ان ذلك النظام قد أمسى منغلقا يدور ضمن حلقة عائلات رأسمالية محدودة ، فأنه كان ، على ما يظهر ، محافظا على احترام الشرعية حتى ولو كانت مشوهة وعقيمة . وقد أوضح العالم الاجتماعي الكبير غوستاف ليبون هذه الحالة الدقيقة بقوله : « ان الامم العظيمة لا تحيا وتستمر الا بالمحافظة على مؤسساتها وتقاليدها وعاداتها ، ولا تتجدد وتبقى الا اذا عرفت كيف تتخلص من هذه المؤسسات والتقاليد والعادات عندما تمسي عديمة الفائدة . والتاريخ مليء بأنقاض الامم التي لم تعرف ان تمارس هذا الناموس في الوقت المناسب » (٢٣) .

## هميلقار في صقلية

قبل هميلقار مهمته كقائد عام للقوات المحاربة في صقلية ، وسار على رأس حملته ، أولا ليكون في جو القتال الملائم لمزاجه الصراعي ، وثانيا ليدرس عن كثب حالة هذه الجبهة الصقلية المفتوحة لقتال متواصل منذ سبعة عشر عاما . وهو يريد أخيرا ان يعرف هذا الروماني المغتر بنفسه ، والذي لا يقبل بأي صلح ، في ميادين القتال . كان أسطوله لا يتعدى المائة سفينة ،

وعدد جيشه نحو سبعة آلاف مقاتل . لم يتجه توا نحو القطاع القرطاضي في غربي الجزيرة ، كما كان منتظرا ان يفعل ، بل قام بحملة تأديبية ارهابية على سواحل كالابريا في ايطاليا الجنوبية ، فاجتاح مدنها الساحلية مخربا مدمرا ، ثم اتجه نحو الغرب حاملا الغنائم الكثيرة ، وهنا أيضا كان متحديا في المكان الذي اختاره للنزول والتمركز . فلم ينزل في ليليبايوم أو دريبانوم ، بل اقتحم القطاع الروماني قرب بانورمة ، فانتزع من الرومان جبل أريكس المتاخم للشاطىء ، واقام عليه معسكره ، ورسا اسطوله في مياه تكون سفحا للجبل . وهناك بعدد جيشه الذي لا يتعدى السبعة آلاف ، كان ينتظر رد الفعل الروماني على تحديه .

لم يبد الرومان أقل حماسة لفتح معركة مع هميلقار . لم يثأروا لاجتياحه شواطىء وطنهم ومدنه ، ولم يردوا على احتلاله جزءا من قطاعهم. مع أن معسكره لم يكن يبعد عن المعسكر الروماني أكثر من الف متر ، وكان اتصاله بالقاعدتين القرطاضيتيين مؤمنا .

ومرت سنوات اربع والرومان محافظون على سكينة تامة، والقرطاضيون بالرغم من رغبة هميلقار في القتال ، لم يكونوا في وضع يسمح لهم بأخذ المبادرة في فتح الجبهة . ولولا الشهرة القديمة بأن موقعيهم لا يمكن أخذهما الا بقوات متفوقة ، ولولا سطوة هميلقار التي أحرزها منذ وصوله ، لما كان الرومان حافظوا على هدوئهم ولازموا خطة الدفاع .

بدون أن يهاجم المعسكر الروماني ، كان هميلقار يقوم بغارات دائمة على مناطق الاحتلال الروماني وعلى الشواطىء الايطالية من منطقة كامبانيا ويعود بغنائم كبيرة ليغذي جيشه الذي كانت تهمله قرطاضة فلا تغذيه بالمؤن والذخائر ولا بالرجال .

في هذا الجو البعيد عن ضغط الحكومة القرطاضية وأساليبها العتيقة، كان هميلقار يكون عالما صغيرا هو سيده ومعلمه . لقد بدا بنفسه : فكان هو قائدا من نوع جديد ، يعطف على جيشه ، يؤاخيه ويحسن معاملته ، يوزع عليه المغانم ويسهر على حياته . لقد أخرج المرتزقة من عقلية الآلة التي تستعملها الدولة للحرب ، وأكسبهم عقلية جديدة جعلتهم يشعرون أن الحرب في صفوف الجيش القرطاضي هي حرب في سبيل دولة تحافظ على الحق والحضارة التي لمس الافريقي الاصلي منافعها خلال مئات من السنين . وقد تمكن بهذه الروح الجديدة من أن يحمل جيشه المرتزق على متابعة الحرب معه بولاء مطلق مدة ست سنوات بدون أن يقبض أجوره . وهو بهذه الروح الجديدة كان يعد نفسه وجيشه لاعمال كبيرة في المستقبل .

وبقربه من الرومان وتنسم أخبارهم ، ومراقبة تصرفاتهم ، ادرك كثيرا من أسرار قوتهم . فكما رآهم متحمسين مغامرين ، يقتحمون مخاطر البحر الذي لم يعرفوه من قبل ، وتنزل بهم الكوارث البحرية ولا ييأسون ، بل

يعيدون الكرة محاولين التغلب على أسياد البحر ، كذلك رآهم في السنوات الاخيرة صبورين ، مالكين أعصابهم ، يتلقون ضربات غاراته بارادة المصمم على انتظار ساعته المرتقبة . وقد احترمهم في مغامراتهم الجسورة ، كما احترمهم في تجلدهم وانتظارهم . وبعد سنوات خمس من مجاورتهم ودرس أوضاعهم الجديدة ، توضحت له الرؤيا ، فرأى فيهم اهم ما يجب أن يراه : رأى أمة متراصة ، تمتد بوحدتها وحيويتها الناشطة ، الناشئة ، على شبه الجزيرة كلها . واذا كانت بعض المدن اليونانية في الجنوب ما تزال ترتبط برومة بمعاهدات متنوعة ، تجعلها كلها تحت الحماية الرومانية ، فأن ذلك لا يقلل من قيمة هذه الوحدة . فاليونانيون ، سواء في ايطاليا أو في صقلية ، بقيت الروح الفردية الانانية ، والمنافسة التجارية تفتك بهم ، ولم تستيقظ فيهم روح قومية وحدوية ، وهم لا يشكلون خطرا على هذه الوحدة الرومانية المتكونة ، خصوصا بعد أن انجرت سرقسطة في تيار الرومان ، وأصبحت تغار على انتصارهم أكثر من غيرتهم على أنفسهم . أن موقف هيرون من الرومان قطع الطريق على اية يقظة يونانية ممكنة . رأى هميلقار ان قرطاضة، بقاعدتيها الباقيتين ، وبموقف الدولة القرطاضية المتخاذل من الحرب الجارية، لن تقدر أن تحارب الرومان واليونان معا . وأخذ يفكر جديا في ضرورة انهاء هذه الحرب بطريقة شريفة ، اذا ما أمكن ، قبل ان يصمم الرومان على شن هجوم عام جديد . فتحليله للوضع القائم كان يدله على أن استمرار هذه الحالة غير ممكن . لم يكن هميلقار خائفا من كارثة معيبة تحل به وبجيشه، فهو كان واثقا من ملاكات جيشه ومن جنوده ، وهو مستعد ، اذا لزم الامر ، أن يخوض معركة بطولية مع الرومان ويسقط مع جيشه في ساحات القتال ، ولكنه كان يعلم مقدما أن وسائله لا تسمح له باحراز انتصار كبير في جزيرة لم تعد تملك قرطاضة الا طرفا ضيقا من أطرافها .

كانت السنون تمر ، والحرب جامدة في نقطة ميتة . لقد وصلت الى مأزق لا أحد يعلم كيف الخروج منه .

« يذكرنا المتصارعان بطيرين من تلك الطيور الجوارح الباسلة ، يتصارعان بيأس وعناد ، وقد بلغا من الاعياء ان عجزا عن تحريك الجناحين . ولكن شجاعتهما الباقية تدفعهما بعد فترة من الراحة لينقضا من جديد الواحد على الاخر ولا يتوقفا عن تبادل الاثخان بالجراح حتى يقع أحدهما مغلوبا . هكذا كان الرومان والقرطاضيون ، أنهكهم قتال بدون هدنة ، واستنزفتهم نفقات طويلة ، وضرائب متواصلة ، فبدوا وكأنهم فقدوا حسهم بالضربات التي يتبادلونها » (٢٤) .

يبدو ان قرطاضة قد تنازلت نهائيا عن جبهة صقلية في سنة ٢٤٣ ، فقد أنذرت هميلقار بأنها غير قادرة أن تمده بأية مساعدة ، وانه حر بأن يتابع الحرب على مسؤوليته . وكان اعتقاد الحكومة القرطاضية أن رومة ،

بعد أن فني أسطولها لن تكون قادرة أن تفعل أكثر من المحافظة على الحالة الراهنة . وبناء على هذه الفكرة الخاطئة ، سحبت قرطاضة أسطولها من أمام موقعيها الباقيين ولم تبق الا قطعا قليلة تشكل قوة رمزية فقط .

في ذلك الوقت بالذات تحركت القيادة الرومانية وأرسلت نداء الى حكومتها تستحثها لتقديم مجهود أخير ، وتؤكد لها أن القيام بهجوم على القاعدتين القرطاضيتين قد أصبح ممكنا شرط أن يكون الهجوم من البر والبحر . ولذلك يجب بناء أسطول حربي من مائتي سفينة . تلكأت الحكومة الرومانية على تلبية النداء ، ولكن حمية المواطن الروماني كانت أوعى من الحكومة . تنادى المواطنون الاغنياء في رومة فعقدوا اجتماعا قرروا فيه أن يعدوا بأموالهم الخاصة أسطولا لحملة تضع حدا لهذه الحرب المجمدة . وفي أوائل سنة ٢٤٢ كان الاسطول حاضرا : ثلاثمائة سفينة حربية ، وسبعمائة سفينة نقل .

وفي الربيع من السنة نفسها كان القنصل لوتاسيوس كاتولوس يضرب حصارا بحريا محكما على القاعدتين معا . وليس هناك من قوة تدافع الا الحاميتان المرابطتان ضمن أسوار المدينتين . وهميلقار نفسه كان عاجزا بالقوات المحدودة التي لديه أن يضغط لفك الحصار من البحر والبر . ولم يعد أمام القاعدتين الا أسابيع لتستسلما معا .

حينذاك فقط أدركت قرطاضة خطأها ، فأسرعت باعادة الاسطول الذي سحبته من مياه صقلية . وأثقلت حمولته بالعتاد والمؤن والذخائر أكثر من محموله العادي . ولكن الاسطول وصل متأخرا ، وأصبح عاجزا عن الاقتراب من القطاع القرطاضي . وقد حاول الاسطول أن يقترب من موقع هميلقار لينقله مع جيشه لنجدة المدينتين المحاصرتين فتصدى له لوتاسيوس وجره بالقرب من جزر أغاتيس بالرغم من رداءة الطقس الى معركة أخيرة . كان الاسطول الروماني أكثر عددا وأخف أحمالا . وقد بذل الاسطول القرطاضي جهدا كبيرا لينزل أحماله قبل المعركة ، وليتسنى له التحرك بسهولة ، ولكن لوتاسيوس أدرك هذه النقطة الضعيفة في وضع القرطاضيين فأرغمهم على خوض المعركة التي خسروا فيها مائة وعشرين سفينة ، واضطر القسم الباقي ان يعود الى قرطاضة .

هذه المعركة وضعت حدا أخيرا للحرب القرطاضية الرومانية التي دامت ربع قرن . ويعلق بوليبيوس على هذه النهاية بقوله : « لم يكن القرطاضيون يتوقعون ذلك . فقد كانوا ما يزالون قادرين ان يتابعوا الحرب بحمية وشجاعة ، ولكن مواردهم كانت قد نضبت » .

ويرد عليه جيرار فالتر بقوله : « ان المؤرخ اليوناني يخطىء ويضلل قراءه . لو كان حكام قرطاضة على قدر كاف من الحمية والشجاعة لكانوا فعلوا كما فعل الرومان بعد كوارث سنة ٢٤٩ ، اذ استنجدوا بمبادرة

المواطنين الشخصية واستعانوا بمال مواطنيهم ليجددوا قوتهم البحرية ... فليس المال هو الذي كان ينقص القرطاضيين ، انما الشجاعة لانفاقه . لقد قدر حكام قرطاضة انه يكفي ما قدموه من تضحيات لهذه الحرب ، وقرروا ايقاف النفقات . واعلموا هميلقار بقرارهم موضحين له انه يقدر أن يتابع الحرب اذا كان ذلك يحلو له ، ولكنه لا يجب أن يعتمد على قرطاضة بأية مساعدة : لا بالرجال ولا بالمؤن ولا بالمال » (٢٥) .

هوذا هميلقار ، وجها لوجه أمام القدر . دولته تنازلت عن الصراع في سبيل القيم الحضارية الانسانية ، التي حملها شعبه ، وانجرّت في طريق التجارة والثروة والترف . وأهدافها المادية اصبحت تمثل القيم والفضائل والمثل التي صارعت أمته في سبيلها منذ آلاف السنين .

شعب من المزارعين والفلاحين يقدم أفراده مجهودا شخصيا لنصرة قضيته القومية ، اولئك هم الرومان . ودولة ، تتلكأ عن الدفاع عن ثروتها الحضارية والمادية ، وهي لو اراد حكامها وحدهم لاعدوا الجيوش والاساطيل من أموالهم الخاصة للدفاع عن كرامة شعبهم وعن تراثهم . تلكم هي قرطاضة .

ولكن هميلقار لا ترزح نفسه تحت هذه الصعاب التي تثقل أمة مكبلة ترمي مصيرها بين يديه ، وتضع مسؤولياتها على وجدانه . وكان هميلقار من معيار هذه المسؤولية العظمى : تجسيد امة في شخصية رجل فرد . « كان من اولئك الرجال الذين يظهرون عند الحاجة القصوى . واذا كانت قرطاضة تريد ان تحيا فهي بحاجة الى رجل جديد والى اساليب جديدة . وكانت قرطاضة قادرة ان تنتج الاثنين معا . فالفكر السامي الذي أبدع في أشور عظماء القادة المنتصرين ، لم يجهد نفسه في المتوسط الغربي ( أي في قرطاضة ) الا بصورة متقطعة وجزئية ، لدرس جدي للحرب وفن الدولة » (٢٦) .

وقال بيكر ايضا : « ان الفينيقيين خضعوا في أزمنة طويلة لتأثير الحياة التجارية ، بقدر لا يقل عن تأثر اليونانيين . ولكننا نجد عند هميلقار وهنيبعل استقلالا في الفكر لا يتشبث بالسوابق والتقاليد . وليس هناك ما يسمح لنا بأن نفترض انهما كانا وحيدين في هذا النوع من الاستقلال الفكري . فالفينيقيون كانوا يتمتعون بمواهب تمكنهم ، اذا ما تعرضوا للانهيار من أن يحولوها من التجارة الى السياسة والحرب » (٢٧) .

بعد خسارة معركة جزر اغاتس ادرك هميلقار انها النهاية . ولم يشأ أن يكابر ويخوض معارك يائسة . كما رأى انه قد يكون بامكانه عقد صلح ، قبل أن يمنى القرطاضيون بهزيمة شنعاء فيطردوا طردا من الجزيرة أو يبادوا على أرضها .

كان لوتاسيوس في أواخر عهد قنصليته . وكان هميلقار يعرف نقطة الضعف عند القناصل الرومان ، فهم يطمحون الى القيام بأعمال حاسمة قبل

انتهاء ولايتهم ، حتى ولو كان ذلك على حساب مصالح الدولة . فهم غالبا انانيون ، مولعون بالمجد والعظمة ، يأبون أن يعملوا وأن يستغل خلفاؤهم اعمالهم بل يريدون ان يعتصروا من اعمالهم كل المجد لذواتهم . لذلك أرسل هميلقار الى لوتاسيوس يطلب شروطه لعقد صلح بين رومة وقرطاضة .

رحب لوتاسيوس بطلب هميلقار ، وبعد أيام قليلة أرسل وفدا الى المعسكر القرطاضي يحمل شروط الصلح التي سيقترحها هو على الحكومة الرومانية .

اطـــرق هميلقار يصغي الى تلاوة الشروط بحضور جوسكون حاكم ليليبايوم العسكري :

١ ـــ يجلو القرطاضيون عن صقلية كلها .

٢ ـــ يتعهدون بأن لا يحاربوا هيرون ولا حلفاءه .

٣ ـــ يدفعون للرومان الفين ومائتي وزنة (٢٨) تقسط على عشرين سنة.

٤ ـــ يسلمون الاسرى الرومانيين بدون فدية .

٥ ـــ القوات القرطاضية المقاتلة في صقلية تسلم سلاحها كما تسلم الهاربين الرومانيين من الجندية .

٦ ـــ يعمل بهذا الاتفاق اذا حظي بموافقة الشعب الروماني .

لم يعترض هميلقار على الشروط الاربعة الاوائل ، ولكن الشرط الخامس أثار كرامته العسكرية فانتفض كأنه طعن بحربة ، وأمر الوفد بمغادرة المكان ، قائلا له : « الافضل أن يموت المرء في ساحة القتال من أن يفتدي حياته بشروط هكذا معيبة » .

لم يصر لوتاسيوس على شرطه الخامس ، بل قبل بالغائه ، وأرسل شروط الصلح الى رومة لتعرض على مجلسي الشعب والشورى .

رفض مجلس الشعب الروماني الموافقة ، مدعيا ان المجهود الحربي والتضحيات التي قدمتها رومة لاحراز النصر لا تتناسب مع هذه الغرامة . ولكن مجلس الشورى كان أكثر تساهلا ، فأرسل وفدا الى صقلية ليدرس الوضع عن كثب ويحاول انتزاع شروط افضل من القرطاضيين .

لقد طلب الوفد رفع الغرامة الى ٣٢٠٠ وزنة ، تدفع منها الف وزنة نقدا ويقسط الباقي على عشر سنوات فقبل هميلقار ، ووافق مجلس الشعب على الاتفاق .

كان ذلك في العاشر من اذار سنة ٢٤١ ق.م. ستة قرون من المجهود الفينيقي الحضاري في صقلية تركت معطياته للامة الايطالية الجديدة . والمدن اليونانية كلها أصبحت في قبضة الرومان . فهل يكون كل ذلك فاعلا لتطعيمهم بمبادىء الحضارة الحقيقية ، الحضارة الكنعانية السورية ؟

انقذ هميلقار شرف قرطاضة العسكري . كانت تنحدر الى هاوية الكارثة فأوقف تدهورها المخزي ، وجنبها نهاية معيبة . وما أن أوصل جيشه الى ليليبايوم وسلمه الى جوسكون حاكم المدينة العسكري وأوصاه بحسن معاملة الجيش الذي قاسى معه أهوال ست سنوات ، حتى سلمه استقالته أيضا طالبا اليه أن يرسلها الى الحكومة وأبحر الى قرطاضة . أوصل كل ما يريده الى حكومة قرطاضة كتابة لانه لم يكن راغبا في مقابلة الذين تخاذلوا في الدفاع عن كرامة الدولة القومية والعسكرية ، وعن سمعتها العريقة ، ولم يكن يرى أن عليه أن يقدم حسابا شفهيا الى أحد .

وفي قرطاضة لازم قصره ، بعيدا عن الجميع ، ينسق ما يجيش في نفسه من آمال ومطامح . وكان فكره يتجه نحو اسبانيا ، المستعمرة التي يحتل جنوبها الفينيقيون منذ نحو تسعة قرون . فهي بلاد واسعة وغنية ، وجديرة بأن يفرغ فيها كل عبقريته العارمة . فهو يريد أن يعوض عن خسارة صقلية بفتوحات أوسع منها ، وهو يريد أن يبتعد عن جو قرطاضة الموبؤ بالمطامع الفردية والانانيات الجشعة ، وهو يريد فوق كل شيء ان يجسد في اسبانيا « العالم » الذي يحمله في فكره الجديد ، وطموحه اللامحدود . ولكنه قبل أن يغادر قرطاضة يريد ان يتثبت من أن الحكومة قد دفعت كل الاجور المتوجبة لجيشه . لقد اعطاه كلام شرف ، وعليه أن يفي بجميع وعوده .

لكن حنون المتخاذل المراوغ لم يكتف بما أنزله بالدولة من نكبات ، فهو يريد الآن أن يلطخ سمعتها بين الشعوب التي تقدم لها الجنود . لقد اتخذ من ضعف خزينة الدولة حجة للتهرب من دفع اتعاب جنود خدموا قرطاضة أخلص خدمة ، وغامروا بحياتهم في سبيل شرفها وكرامتها ، وارتضوا ما قد لا يرتضيه جيش قومي يدافع عن أرضه وقومه : حاربوا ست سنوات دون ان يقبضوا اجورهم ، ذلك لثقتهم بهميلقار وبدولته .

اذا كانت خزائن الدولة فارغة فخزائن الذين يستغلون الدولة ليست فارغة . وليس صعبا على حنون أن يعقد قرضا مع مصارف قرطاضة وأغنيائها ويدفع للذين قدموا دماءهم ليدافعوا عن هذه المصارف وهؤلاء الاغنياء . وعوضا عن أن يستعمل حنون بلاغته الخطابية ليقنع الراسماليين بمساعدة الدولة أو باعطائها قرضا لتدفع ديونها المتأخرة ، راح يستعمل بلاغته مع أخلاط من الجنود البسطاء المنتظرين بفروغ صبر قبض أجورهم ليعودوا الى اوطانهم . فكانت نتيجة بلاغته ان استيقظت في قلوب الافريقيين أحقاد قديمة انتقلت عدواها الى الغرباء ، فوحدت المصيبة الجميع ،

واستيقظت في نفوسهم شهوة الثأر ممـــن يريدون أن يعبثـــوا بحقوقهم ، ويستخفون بفقرهم وتعاستهم ، ويستهينوا بكرامتهم .

لقد استعمل حنون كل ما عنده من حيل ، فقطع لهم الوعود بأن أجورهم ستدفع قريبا ، وذلك حتى اخرجهم من قرطاضة وسيرهم جنوبا الى سيكة في قلب الصحراء ، على بعد مائة وثمانين كيلو مترا من قرطاضة، حيث تكون المدينة في مأمن من شرهم ، وبعد ان استقروا وأمنت بعض المؤن لتخديرهم ، جمع حنون ضباطهم ، خوفا من المثول أمامهم جميعا وبلغهم : « ان حالة الدولة ، بعد كوارث صقلية ، أمست يرثى لها ، فقد ابتلعت تلك الحرب كل احتياطها ، وأرهقت السكان بالضرائب الباهظة فأمسوا يتخبطون في صعوبات مالية ، وأن عليهم ان يفكروا بتخفيض ما يترتب لهم لان الخزينة عاجزة كل العجز عن دفع كل المتأخر من أجورهم » ، ثم توارى راجعا الى قرطاضة .

أخذت المرتزقة الدهشة مما سمعوا . لاول مرة في تاريخها تقف الدولة القرطاضية هذا الموقف وتتصرف هذا التصرف . فأن سمعتها في دفع حقوق المرتزقة تملأ الآفاق ، ولذلك يتسابق الناس للانخراط في جيشها والقتال في سبيلها بولاء مطلق . أتكون قرطاضة حكومة وشعبا في هذا العسر المزعوم ؟ أمس كانوا ضمن أسوارها ، وتجولوا في اسواقها ، ورأوا مظاهر الثروة والحياة المرفهة بادية على الناس . نساؤها يرتدين أفخر الملابس وتتزين بأغنى الحلي . قصورها مترعة بأفخر الرياش . حركة التجارة ناشطة فيها برا وبحرا . الخيرات تتدفق عليها من جميع الجهات . فهل تعجز قرطاضة حقيقة عن دفع أجور هؤلاء التعساء الذين هجروا أوطانهم وأهلهم وأتوا يناضلون في سبيل عزها ومجدها منذ سنوات ؟ لقد أحس الجميع ان هناك مؤامرة تدبر ضدهم ، وأن السبب في استدراجهم الى هذا المنأى البعيد لم يكن الا حيلة لاقصائهم وحرمانهم حقوقهم . وقد اتهم الجيش ضباطه بأنهم متواطئون مع حنون عليهم ، وكادوا في ثورة غضبهم ، أن يرتدوا علـــى ضباطهم ويمزقوهم . وفي الحال عادوا على أعقابهم نحو قرطاضة لينتزعوا أجورهم بحد سيوفهم ، فقرطاضة في حالتها العسكرية الحاضرة هي أضعف من أن تقف أمام عشرين الف مقاتل مدربين على يد هميلقار برقة . لم يتوقفوا عن السير الا في تونس . لقد توقفوا هناك وأرسلوا انذارا الى الحكومة بدفع جميع الاجور المتأخرة مع التعويضات عن نفقات التغذية وعن الخيـــل التي قتلت في المعارك .

أمام هذا الخطر المتجدد والمحدق بقرطاضة ، والمنبثق عن سوء نية حنون وحزبه ، تابع حنون مكائده الحقيرة ولم يرعو .

لو كانت رومة نفسها تريد ان تجر قرطاضة الى هلاك أخير لما فكرت بأسوأ مما يفكر فيه حنون . ولو حاك الابالسة مؤامرة على قرطاضة لتودي

بها ، وتحطم سمعتها عند الناس ، لما توصلوا الى خطة أفعل من هذه الخطة. ولم يعد غريبا أن يتصرف حنون وحزبه هذا التصرف . فاذا كانوا حرموا الشعب القرطاضي الدفاع عن كرامته وتراثه وحضارته ، وتخاذلوا في حرب كانوا قادرين ان يربحوها منذ الجولة الاولى ، فأن تآمرهم على هؤلاء التعساء أصبح سهلا على ضميرهم المتحجر .

وقد استمر حنون وحزبه الحاكم في متابعة أساليب الكيد الحقير حتى أيقن المرتزقة من سوء نيتهم وتصميمهم على حرمانهم حقوقهم ، ويئسوا من الانتظار ، فقرروا بالاجماع ان يقوموا بثورة على الدولة القرطاضية . وانتخبوا ماتهو عن الافريقيين ، وساندبوس وأوتاريتوس عن الاوروبيين زعماء عليهم.

أرسل ماتهو نداء حارا الى جميع المناطق الافريقية يحثها على القيام بثورة استقلالية تحررية عامة تقوض دولة هؤلاء الفينيقيين الغرباء الذين يستغلون أرض افريقيا وشعبها منذ مئات السنين . وجسم لهم المظالم التي اقترفتها قرطاضة ، وحقر الافضليات الحضارية التي زودت بها البلاد الافريقية ، وأثار في الافريقيين العصبية القبلية والعنصرية ، فحرك غرائزهم البدائية ، وما لبث أن توافد اليه مائة الف من المتطوعين ، وتدفقت عليه التبرعات في المال والمؤن وأدوات الحرب ، حتى غصت خزائنه ومستودعاته، وأصبح في وضع يمكنه من سحق المدينة السيدة في فرصة قصيرة . وعلم حنون وحزبه بما يهيأ لهم فجربوا أن يصلحوا أخطاءهم ويتجنبوا الكارثة ، ولكنهم راوا الخطر متأخرين وفاتتهم جميع الفرص . تطورت الحالة عند المرتزقة تطورا أساسيا ، واتخذت وجها جديدا ، وروحا جديدا ، وانطلق تيار ثورة شعبية افريقية عارمة ، حركت افريقية من خليج سيرانية الى ضفاف بحر الظلمات . فثروات قرطاضة المكدسة ، وفخامة قصورها ومساكنها ، وجمال نسائها ، وكل ما يتألق ضمن أسوارها من غنى وجمال وعظمة كان يثير نهم القبائل ، ويدغدغ احلام زعمائها ، ويوقظ شهواتهم .

ان رومة لم تفكر يوما بما يراود هذه الاقوام البدائية من نهب وقتل واغتصاب ، وقضاء نهائي كامل على كل ما هو فينيقي في عالم هو أغنى وأفخم وأعظم عوالم ذلك الزمان .

ولم يكتف حنون بما اقترف من سيئات حتى ذلك الحين ، بل حدثته نفسه ، وجمح به غروره ليقود هو نفسه حربا ضد هذه الثورة الضاربة على الارض وفي النفوس ، المتجسدة في مائة وثلاثين الف مقاتل تدربوا في ملاكات قرطاضة . هيجان شامل يتناول جميع المدن الافريقية المنضوية تحت لواء الثورة ، وجميع المناطق البربرية تجمع المؤن وترسلها الى الثوار في تونس . واذا كان حنون قد تزعم حزبه ببلاغته الخطابية ومراوغته الثعلبية ، وانسجامه مع تكالب حزبه على المنافع المادية وتجاهل مصير الدولة والشعب « فان هذا القرطاضي الشهير والعريق النسب ، لم يكن صالحا الا للعرض

العسكري . فهو يجهل أول حرف من حروف الحروب الحقيقية ، تلك التي تستعمل فيها الاسلحة الصحيحة وتسيل فيها الدماء . لقد هزم بقسوة في « أوتيقة » ، وخسر جميع الفرص السانحة للانتصار . وبعد قليل من الزمن، دفعت الضرورات القاسية القرطاضيين نحو التعقل . ظهر هميلقار على المسرح . كانت الحاجة ماسة لظهوره . ومع ان الواجب الملح كان يقضي على هميلقار أن يدمر الآلة الخطرة التي ابدعها هو نفسه ، وأن يعيد الامن والنظام الى افريقيا ، فأن عودته من جديد على مسرح الاحداث كانت تحمل معنى أعمق وأبعد : انها كانت تكرس سياسته العامة . وبعد أن كان هميلقار ينسج حبالا لخصومه ليشنقوا بها أنفسهم ، فأنه الان يقطع تلك الحبال بمحبة » (٢٩) .

## هميلقار ينقذ قرطاضة من ثورة المرتزقة

لم يكن هميلقار قادرا ان يستعمل عاطفته نحو أولئك الذين دربهم على القتال وقاسموه شدائده في سني عزلته في صقلية . انهم قد تبدلوا . لقد خرب حنون نفسيتهم الجديدة التي انشأها هميلقار ، وحولتهم الاحقاد وحب الثأر الى كواسر ، وأيقظت فيهم عصبية قبلية وعنصرية تكفر بكل ما ادخله الفينيقيون الى بلادهم من وسائل حضارية في الزراعة والصناعة والثقافة وجميع أساليب الحياة الراقية . هذه بساتين الزيتون وكروم العنب والتين تمتد في مساحات شاسعة أنشأها الافريقيون باشراف الفينيقيين وأموالهم وعلمهم ، وهذه المياه تنفجر في الارض في جميع المناطق ، أخرجها الفينيقيون من مراقدها العميقة ، وهي تسقي الان بساتينهم وقراهم وصحاريهم . وهذه زراعة الخضار على أنواعها تخضر بها حدائقهم . وها هم صناعهم وعمالهم يشتغلون في مصانع الفينيقيين ويقتبسون فن الانتاج ، وهؤلاء هم فلاحوهم ومزارعوهم قد حولوا اراضيهم من الجدب الى الخصب والخير ، ومن الموت الى الحياة . كل ما يلبسون ويأكلون ويشربون هو من فضل الحضارة الفينيقية المزدهرة في ربوعهم . وكانوا يعيشون بخير وسلام مع الفينيقيين ولم يحرك عصبياتهم البدائية الا الرومان عندما احتلوا قسما من الشاطىء بقيادة ريغولوس ، وفي هذه الثورة التي حركت قبليتهم وهيجت شهواتهم .

أمام هذه الحالة العامة المتبدلة في أسسها ، وأمام هذا الاعصار البشري العاصف بقرطاضة من جميع جهاتها ، وفي جميع مناطقها ، والمقترب منها ليلفها ويرميها هيكلا محطما على الشاطىء الذي أعطته الحياة والحضارة ، لم يقدر هميلقار الا أن يكون شرسا وقاسيا .

ويبدو ان تلامذة افريقية وأوروبة لم يتفوقوا على معلمهم الكنعاني . كان على القرطاضيين هذه المرة ان يعتمدوا على بطولتهم القومية . فالمرتزقة

أمسوا أعداءهم . والمتطوعون منهم في صفوفهم كانوا قلة ضئيلة . ولكن تراث « الفرق المقدسة » لم ينقرض كليا في عهد حنون وحزبه . فالفينيقي كانت فيه خاصة التكيف مع الظروف الطارئة . وعندما يداهمه الخطر الاكبر كان ينقلب من تاجر متكالب على المرابح ، الى جندي مستميت في سبيل كرامته وتراثه ، شرط ان تتأمن له القيادة الصالحة .

بعشرة آلاف من فتيان قرطاضة المرفهين في قصورهم ، تمكن هميلقار خلال ثلاث سنوات من تدمير مائة وثلاثين الف مقاتل مدرب . كل ما فيه من عبقرية عسكرية ، وكل ما في الفينيقيين من بطولة قومية تضافر لانقاذ شعب وحضارة . وكان هميلقار حليما مع الاسرى ، يخيرهم بين أن يقسموا يمينا بعدم حمل السلاح بعد اليوم ضد قرطاضة ويسافروا الى أوطانهم ، وبين أن ينخرطوا في جيشه كما كان بعضهم من قبل . الاكثرية الساحقة منهم كانت تفضل القسم والسفر .

وهكذا مر الاعصار الجامح وعادت قرطاضة وافريقيا الى السلام الذي كان يخيم عليهما .

وانقذت قرطاضة من اللجة الفاغرة اشداقها البربرية لابتلاعها . واستقبل هميلقار على أبواب المدينة المجيدة التي تألبت عليها قوى الجحيم من الخارج والداخل . وها هي تنتفض من أغلال تقاليدها وتحجر حكامها تريد الخلاص ، تفتش عن عظماتها الغابرة لترتكز عليها في بناء عظمات جديدة ، وتألق عند الشعب نجم هميلقار . أما العصبة القابضة على الحكم فقد تململت بانزعاج أمام موجة التعظيم المتدفقة من وجدان الشعب على بطل الحرب الداخلية التي دامت ثلاث سنوات وأربعة أشهر .

## قرطاضة تخسر سردينيا

وبينما كانت قرطاضة في هذه الغمرة من فرح الانتصار وجدت نفسها تنجر أو تجرها رومة الى مشكلة جديدة في سردينية . لقد تضامن مرتزقة سردينية مع الثوار في قرطاضة وأبادوا قادتهم وجميع المواطنين القرطاضيين ونهبوا جميع ممتلكات قرطاضة .

ولما جاءت قرطاضة بعد انتهاء الثورة لتعيد الحق الى نصابه مرسلة حملة عسكرية جديدة لتحتل المدينة ، وتسترجع ممتلكاتها ونفوذها تصدت لها رومة وأعلنت عليها الحرب . وقد كان تعدي رومة واضحا وتحديها مفضوحا ومعيبا . فمعاهدة الصلح بين الدولتين لا تنص على شيء مما يختص بسردينية ، أي ان المعاهدة تعتبر ضمنا ان الجزيرة هي أرض قرطاضية لا نزاع بين رومة وقرطاضة عليها . وقد كانت رومة في اعلانها الحرب على قرطاضة بدون مبرر ، مع علمها بوضع قرطاضة الضعيف ، مجردة من روح الفروسية والانسانية ، ضارية فاغرة شدقيها الكاسرين لكل

ما يتسنى لها التهامه ، بدون أن تراعي أية حرمة للحق ، وأي التزام بالمناقب الدولية .

لم تكن قرطاضة قادرة ان تخوض الحرب ، ففرضت عليها رومة التخلي عن سردينية ، واضطرت قرطاضة أن تقبل لتتجنب الحرب .

لقد طفح الكيل من تعديات الرومان وغطرستهم ولا مناقبيتهم ، حتى حكومة قرطاضة المتخاذلة ثار ثائرها على هذا التحدي الوقح والعدوان الصفيق ، وبدأت ضمائر الواعين من الشعب تختلج بفكرة الثأر للكرامة القومية . وفكرة الثأر في نظر الفئة المتنبهة في الشعب وفي الحكومة ، كانت تبدأ في بسط نفوذ قرطاضة على الساحل وفي الداخل الغربي حتى آخر حدود موريتانية . ولم يفكروا بالامتداد نحو الشرق ، وراء خليج سيرانية خوفا من الاصطدام بالبطالسة وكانوا آنذاك في أوج قوتهم .

أما هميلقار ، وكانت الحكومة قد هادنته بعض الشيء عند انتصاره الساحق على المرتزقة ، وبعد خسارة سردينية ، كان من رأيه التوسع في اسبانيا . وهو انما عنى بذلك انه اذا كانت الحكومة تريد ان تستفيد منه فهو مستعد لخدمة وطنه ، ولكن بعيدا عن جو هذه الحكومة .

وافق حنون على ذلك ، كما وافق بالامس على ارساله الى صقلية ، فهو يعلم أن هميلقار يقدر أن يكون خير قائد قرطاضي ، ولكنه يريده بعيدا عنه ، اذ يشعر أن ظله ثقيل عليه ، وهو يحجبه عن الشعب . لقد اتفق الخصمان على شيء واحد وهو ان يبتعد الواحد عن الاخر .

وافق مجلس الشورى بأكثرية ساحقة على أن يتوجه هميلقار على رأس حملة عسكرية الى اسبانيا . لم يعرف عدد جيشه ولا عدد الاسطول الذي اقله وجيشه . ولكن المرجح انه لم يكن يقل عن العشرة آلاف مقاتل . وفي سنة ٢٣٧ ق.م. كان كل شيء جاهزا للسفر . وكان يرافق هميلقار صهره هسدرو بعل ، الارستقراطي القرطاضي المتمتع بنفوذ كبير في مجلس الشورى ، والذي انضم هو وحزبه الى البرقاويين فشكلوا اكثرية قبيل سفر هميلقار .

« وقبل ان يبحر هميلقار مغادرا قرطاضة ، توجه مع ابنه البكر هنيبعل ، وهو ابن تسع سنوات ، الى معبد اليسار ، أميرة البحر المقدسة ، وشفيعة قرطاضة ، ليؤمن حمايتها العطوف ، لنجاح عمله المقبل .

« يتقدم هميلقار حتى المذبح ، هنيبعل يتبعه . ثم تبدأ الحفلة : كاهنة في حالة الانتقال والذهول ، شعرها متناثر تستحضر القوى الالهية الخيرة الكئيبة . الجو يعبق بالصخب والضجيج . لهب يشتعل من نفسه ، ومنشدون متوارون يستهلون ترتيلة مقدسة . الارواح المقدسة تحوم في الفضاء ، يجذبها الغناء السحري ، ومن تقاطيع اليسار المرمرية يسيل العرق .

« والان أترك هنيبعل يتكلم ، عندما شاء يوما من أيام أواخر حياته ، في أرض المنفى ، أن يستعيد تلك الذكرى على مسمع آذان غريبة :

« كنت واقفا الى جانب ابي ، أمام المذبح ، عندما سكب الخمر وتمم جميع الطقوس . رجا الحاضرين أن يبتعدوا قليلا ، ثم قربني وسألني بمحبة وعطف هل أريد مرافقته مع الجيش الى اسبانيا ... قبلت بفرح عظيم ، بل تضرعت اليه بحمية ، أن يأخذني معه . أمسك اذ ذاك بيميني وقربني الى

الى المذبح ، وهناك طلب مني أن أقسم بأن لا أكون أبدا صديقا للرومان » .

ويعلق المؤرخ الاديب جيرار فالتر على هذه الحفلة الدينية بقوله :

« هذا المشهد الشهير بقسم هنيبعل ، وقد خلد قصته تيتليف وبوليبيوس، هو مدعو أبديا ان يحمل تحديه للقرون الغابرة والحاضرة والآتية ، محركا تلك العقول الخلاقة المتعطشة الى المجد ، تلك التي ما فتئت الانسانية تحملها في احشائها (٣٠) .

وصل هميلقار بجيشه واسطوله الى قادش ، المستعمرة الصورية القديمة ، المطلة على بحر الظلمات كأنها تدل على عالم بعيد لم يعرفه الفينيقيون حتى ذلك الزمان . وقد شعر عند نزوله من الاسطول انه سيد جديد في عالم جديد . تخلص من جو قرطاضة العجوز الرازحة تحت قرون المجد والعظمة . فلا هي تقوى على تجديد شبابها ، ولا هي تقدر أن ترمي أحمالها . تراث ثقيل ، تكدست فيه طبقات قرون الخلق والابداع والعطاء ، لا يحمله بقوة وعزم الا الشعب الذي اعطي حيوية التجدد المستمر ولا يعرف الهرم في فكره وفي نفسه ، بل يدفع اجياله جيلا بعد جيل ، حاملة الى العالم معطيات جديدة دائما .

هميلقار هو انسان جديد . كان دائما معارضا عنيفا لما يجري في بلاده . ولكن وجوده في صقلية ست سنوات بلور رؤياه لحقيقة بلاده وحقيقة عدوتها، فأخذ يتكون في خياله وطموحه عالم كنعاني جديد وكان يفتش عن مكان يجسد فيه مولود عبقريته . وقد زادته نكبات قرطاضة تعطشا الى الخلق . فهو يرى تراث أمته المجيد ، أعظم ما بين يدي الانسان حتى ذلك الحين ، معرضا ان يغرق في بدائية رومة العاتية او ان يبدد في اعصار بربري جامح يذروه على شواطىء افريقية أو على ضفاف صحرائها ، ويدفن في الارض أشلاء فارقتها الحياة .

لم يصر على اصلاح قرطاضة نفسها ، مجددا شبابها ، ومصححا اخطاءها القديمة ، بل كجميع عظماء صور من قبل ، بدأ يختمر فكره بخلق جديد ، يبدعه حسب مفاهيمه الجديدة ، ويبنيه على قواعد لم يعرفها شعبه من قبل ، وينشئه طبقا لمقاييسه ، منسجما مع طموحه وآفاق خياله ، مجسدا رؤياه العبقرية في الاجتماع والسياسة والقوة العسكرية . هكذا فعلت اليسار من قبله عندما يئست من اصلاح صور وكبح جماح شقيقتها ، والتخلص من شبح أشور .

وانشاء الاوطان والدول عند الفينيقيين كان من خصائص عبقريتهم . كانوا عالميين في نزوعهم الى البناء والعمران . لا يقتحمون العوالم المتحضرة ليبيدوا حضارتها ويتسلطوا عليها ، كما فعل المقدونيون والرومان ، بل يكتشفون الامصار البدائية ، فيدخلونها حاملين اليها حضارتهم . واذا أفادوا من تلك الامصار وأثروا ، ثم جعلوها أوطانا لهم ولمن سبقهم اليها ، فانما

يثرون مما تنتج حضارتهم في جميع ميادينها ، لا من السلب والنهب والضرائب المرهقة كما فعل الرومان في سورية ومصر واليونان . ان للاستعمار الفينيقي معانيه واساليبه واهدافه الخاصة ، عجزت الشعوب من بعده حتى عن تقليده ، اذ يبدو أن نفسية الفينيقيين كانت نفسية خيرة معطاء ، لم توجد لتسلب وتأخذ ، بل لتنتج وتعطي من وفرة انتاجها . القرطاضيون حملوا القبائل الافريقية الى جانبهم ، في جوارهم ، بين ظهرانيهم ، سبعة قرون طويلة . لم يبيدوهم ، لم يدفعوهم الى الجنوب ليبعدوهم عنهم ، لم يثيروهم بعضهم على بعض ليقتتلوا ويتذابحوا ، لم يأخذوهم عبيدا ، بل تركوا حضارتهم تفعل فيهم فعلها الطبيعي ، تعطيهم قدر ما هم مؤهلون ان يأخذوا، وتقربهم اليها حسب رغباتهم . يحكمون انفسهم بأنفسهم ما دام يطيب لهم ذلك ، ويقبلهم القرطاضيون عندما ينفلتون من دوائرهم القبلية المغلقة ويلجأون الى المدينة . ولا يعني ذلك ان الحضارة الفينيقية كانت تهمل جوارها . بقي الافريقيون يتكلمون الفينيقية حتى القرن الخامس الميلادي ، والقديس اوغسطينوس كان يعظهم بالفينيقية في القرن الخامس . وقد احتفظت قبائل بكتب فينيقية هربتها يوم بدأ الرومان يحرقون قرطاضة ، وبقيت محتفظة بها كذخائر ثمينة الى عصور متأخرة .

حمل الفينيقيون هذه الاقوام البدائية الف سنة ، أما رومة « المتمدنة » فلم تحمل قرطاضة البعيدة عنها ، ولم تتعلم الكثير من مبادئها الحضارية . كان الفينيقيون أسيادا أباة ، يعاملون الشعوب بالرحمة والانسانية . اذا استغلوا البلدان البدائية فعلوا ذلك بمحبة ورحمة . لم يعرف الغربيون ان يقلدوهم حتى في أميركا التي وجدوا فيها شعوبا بدائية ضعيفة ، عاجزة عن مقاومة استيطانهم . أما الرومان فكانوا أسيادا ــ طغاة ، يرهقون الشعوب المتمدنة المغلوبة على أمرها بالغرامة الحربية والضرائب الفادحة .

هوذا هميلقار على أرض اسبانيا . انسان جديد بفكره ومفاهيمه للدولة والقيادة العسكرية . فيه عبقرية القائد ، وعزم الجندي المصارع ، ورؤيا السياسي البناء ، وولع الفينيقي بالمجاهيل ليكتشفها ويحولها عوالم معروفة عند الناس . شبه جزيرة تحميها البحار من جهات ثلاث ، وتحميها الجبال من جهة رابعة . غنية بأرضها وأحشاء أرضها ، تسكنها قبائل متوحشة تفتك بعضها ببعض ، وتعيش بوسائل أولية : الرعي والزراعة البدائية . هي المنطقة المثالية التي تقدم لهميلقار ميادين فسيحة لانشاء الحياة الواحدة المتفاعلة ، ولبناء الدولة التي تحيا في خياله منذ كان على جبل اريكس ، وتكون من المعيار القادر ان يقف في وجه رومة الجامحة والمتطاولة على العالم القديم وحضاراته . هي ستكون قاعدة الحياة الجديدة ، ومنها ستنطلق الجيوش التي سترد الرومان الى وطنهم ، وتبدد مطامعهم ، وتحمي حضارة المتوسط التي أنشأها السوريون بمعاونة المصريين واليونان .

قادش ، مدينة أجداده ، ستكون قاعدته الاولى . منها ستمتد « ورشة » الفتح والبناء والعمران . في أواخر سنة ٢٣٧ ق.م. كان يحسن قاعدته بانشاءات جديدة لتكون صالحة لاعماله الكبرى .

عندما وصل هميلقار الى اسبانيا لم تكن قرطاضة تستولي هناك الا على بعض المدن في أقصى الجنوب : بين نهر الغواديانة في الغرب وجبال السيرانيفادا في الشرق . منطقة ورثتها قرطاضة عن صور ولم توسعها الا قليلا . كان على هميلقار اذن ، حتى يحقق طموحه ، أن يقوم بفتوحات عسكرية جديدة ، تشمل تسعين بالمائة من مساحة شبه الجزيرة الاسبانية . فعلى هذه الاقوام البدائية القاطنة هذه المساحات الشاسعة ، والمتمركزة في مناطق متنوعة الطبائع ، والضنينة بحريتها الوحشية واستقلالها عن الحضارة ، ان تتنازل عن عصبياتها القبلية والاقليمية وتخضع خضوعا مطلقا لمشيئة الفاتح المملاق . وقد قام هميلقار بمشروعه على طريقته الخاصة ، معطيا كل ما في نفسه لعمله : كل ارادته الصلبة ، وعطشه الى الثأر من رومة ، مستنفرا كل مواهبه وكفاءاته ، جراة ضد الجراة ، ومخاتلة ضد المخاتلة ، وقساوة ضد القساوة .

لم يتبن أساليب قرطاضة البطيئة في الفتح والتوسع ، تلك التي تمر عليها القرون قبل أن تحقق وحدة اجتماعية كاملة ، متفاعلة ، بل اقتبس عن الرومان أساليبهم في توحيد شبه جزيرتهم . وكانت عنده افضليات عديدة على الرومان : ليس عنده طبقة ارستقراطية ولا طبقة شعبية ، ولا سيد وعبد . كل من يخضع لهذه الوحدة المتكونة ينال حقوقه كاملة ، ويصبح مواطنا في الدولة الجديدة . ولكن الوحدة يجب أن تتم ، وكل مقاومة تقف في سبيلها تكبح بقسوة .

وقد اتبع هميلقار مبدأ التوحيد الذي نوه عنه المؤرخ الاديب بيكر في كتابه هنيبعل ، حيث قال :

« لم تكن الغريزة تدفع رجال ذلك الزمان ليتعانقوا ويتحدوا بمحبة ، بل كانت الوحدة تفرض أولا عليهم فرضا ، ثم يرتضونها من كل قلبهم عندما يختبرون نعمها وفضائلها . ولم يكتشف الانسان حتى اليوم طريقة افضل لتوحيد أمة من الامم . والدول الحديثة التي تؤمن بوحدتها المتجانسة ، المتينة ، قد أنشئت بهذه الطريقة ، اذ لا يوجد طريقة اخرى . حتى عندما تتحقق وحدة بلد من البلدان ، لا يمكن أن تدوم الا اذا اقتنع المواطنون بحسناتها ونعمها . هذا هو السر الذي اكتشفه هميلقار .

« وكل ما حققه الرومان تقريبا بالغريزة ، قرر هميلقار أن يحققه ، ولكن بعد تأملات طويلة وحكيمة » (٣١) .

ومنذ بدئه بعمله العظيم كان مصمما أن يكون سيدا في مشروعه . لن يكون لقرطاضة الا سيادة رمزية عليه ، تظهر لرومة أن ليس هناك انفصال

عن الدولة القرطاضية . أما فعليا فأن دولة هميلقار العسكرية الجديدة ستجر قرطاضة وراءها ، كما تجر القاطرة المحركة جميع القاطرات العاطلة وراءها .

وهنا في هذه النقطة تجسدت عبقرية هميلقار السياسية . ان قرطاضة لا تسمح مؤسساتها وتقاليدها وعاداتها ، التي اكتسبت في جمودها عبر الازمنة صفات « مقدسة » ، بالقيام بانقلاب عسكري أو ثورة ، فعمد هميلقار الى القيام بانقلاب مداور ، وثورة في بناء صرح سياسي جديد ، بعيد عن قبضة الحكومة القرطاضية ، فتجلت عبقريته الفذة ، الفريدة من نوعها في التاريخ في العمل العظيم الذي بداه في سنة ٢٣٧ ق.م.

ليس هناك تفاصيل عن حملات الفتوح التي قام بها هميلقار . يذكر ديودورس فقط أن هميلقار حارب الايباريين والترتيزيين والقوط . وقد ذكرت الحملة الاخيرة التي ذهب فيها هميلقار ضحية خيانة أوريسون زعيم الاوريتانيين (٢٢٩ ق.م) أي بعد صراع تسع سنوات لتحقيق مشروعه .

ان المعاهدة التي عقدها هسدروبعل ، صهر هميلقار وخليفته في سنة ٢٢٥ ق.م. مع الرومان تدل على عظمة الفتوحات التي حققها هميلقار في شبه الجزيرة . انها تعين نهر « الايبر » في أقصى الحدود الشمالية حدا للدولة الفينيقية الجديدة . وهذا الحد يشمل ثلاثة أرباع شبه الجزيرة تقريبا . ومع الفتوحات العظيمة كان هميلقار ينشىء جيشه الجديد ودولته الجديدة : « فلم يعد جيشه جيش مرتزقة ، كما كان من قبل ، بل أصبح جيشا ثابتا مستمرا، منضبطا ، جيش صدام . وقد انشئت في اسبانيا قيادة عليا ، تتحكم هي نفسها بماليتها ، فعوضا عن أن تخضع لقرطاضة ، وتعاني مراقبتها ، اصبحت ، بالعكس ، المورد الذي تستقي منه قرطاضة لتركز أوضاعها الاقتصادية . فهي كانت تمارس رقابتها على العاصمة » (٣٢) .

## هسدروبعل والمعاهدة المشؤومة مع الرومان

لم يقم هسدروبعل بحملات فتوح كبيرة . الحملة الكبرى الوحيدة التي قام بها كانت على الخائن أوريسون الذي أودى بحياة هميلقار فقد هاجمه هسدروبعل بخمسين الف مقاتل وستة الاف خيال ومائتي فيل . فأباد أوريسون وكل الذين تواطأوا معه على هميلقار . اما بعد ذلك فقد اتبع هسدروبعل الحنكة وحسن الادارة وسياسة السلم والتفاهم مع جميع الاقوام . بعد وفاة امرأته ابنة هميلقار تزوج من ابنة زعيم الايباريين ، فأصبح في نظر الاقوام والقبائل الاسبانية قائدا شبه قومي . وربح ثقتهم وولاءهم ، وقد ساعده ذلك على تنظيم الفتوحات التي حققها هميلقار ومكنه من الحصول على ولائها النهائي ، كما انه وسع الدائرة الفينيقية حتى وصل الى نهر الايبر .

كان اعظم أعماله العمرانية ، بعد تنظيمه الفتوحات ، بناء قرطجنة ( أي قرطاضة الجديدة ) فقد حولها من بلدة صغيرة الى مرفأ كبير ومدينة عظمى في اسبانيا . ولم يكن يغيب عن فكره انها يجب أن تكون صالحة لانطلاق الجيوش والاساطيل في يوم الثأر المقبل ، وقت ترتعد فرائص رومة تحت وطأة الجحافل الفينيقية ــ الاسبانية التي ستمثل آخر ابداع للفن العسكري ، ويقظة البطولة الفينيقية ، تلك التي ترفض بعناد وقوة ان تتنازل عن زعامة المتوسط . فالشعب الجديد الناشىء في اسبانيا سيكون مزيجا من الفكر الحضاري السوري والعزم الاسباني الفتي ، وسيعطي أفضل وأقوى مندمج انساني في حوض المتوسط .

هذا النشاط الذي أبداه هسدروبعل في التنظيم الاداري وفي العمران ، وفي بداية عهد جديد من التقارب والتفاهم بين السلطات الفينيقية العسكرية والقبائل والاقوام الاسبانية ، قد حول الحركة الاقتصادية في اسبانيا الى المراكز الصناعية والتجارية التي أنشأتها السلطات الجديدة وشجعتها . وما لبثت مرسيليا ، المدينة التجارية اليونانية ان شعرت بهذا التحول عن اسواقها، فأطلعت رومة التي ترتبط بها بمعاهدة صداقة ، على هذا الخطر المستفحل في شبه الجزيرة الايبارية . خطر اقتصادي وسياسي وعسكري . اهتمت رومة للامر بسرعة لانها كانت ، بناء على معلوماتها السرية ، تنتظر غزوة من جهة الجلالقة ، فخافت أن تمسي الغزوة مضاعفة ، وأن تضطر لمواجهة عدوين في آن واحد . كان لا بد من تجميد أحد العدوين وايقافه على الحياد . ورأت حكومة رومة انه من الاسهل تجميد القرطاضي ، اذ هو ما يزال في طور الانشاء والنمو . فأرسلت اليه وفدا يعرض عليه عقد معاهدة ، سميت

في التاريخ « معاهدة نهر الايبر » .

ليس لدينا نص هذه المعاهدة بكاملها . كل ما نعلم انها تضع حدا للنفوذ العسكري والسياسي الفينيقي على نهر الايبر . ولا يحق للسلطات الفينيقية في اسبانيا ان تتعدى هذا الحد . هناك امران حريان بالدرس والتدقيق في هذا الحدث السياسي : الاول : بأية صفة طلبت رومة عقد هذه المعاهدة ، وهي لم تكن في جوار هذا الحد الذي فرضته على هسدروبعل ؟ ، والثاني : عقدت هذه المعاهدة مع السلطات القرطاضية العسكرية في اسبانيا ، مع ان اسبانيا ، من الناحية القانونية الدولية ، كانت مستعمرة قرطاضية ، ليس لها حق التعاقد المباشر مع دولة اخرى ، خصوصا على هذا المستوى من التعاقد السياسي والعسكري . فقد تكون صلاحيات هسدروبعل تشمل عقد اتفاقات جزئية مع بعض الزعماء والامراء الاسبانيين ، اما التعاقد مع رومة فهو من صلاحيات الحكومة المركزية في قرطاضة .

لا شك ان هسدروبعل قد ارتكب خطأ سياسيا كان له نتائج مصيرية هائلة ، وقد نوه المؤرخ والاديب جيرار فالتـــر عن هـــذه المعاهدة بقوله : « الحقيقة ان معاهدة الايبر كانت انتصارا باهرا للدبلوماسية الرومانية . فهي بهذه الطريقة قد ربحت الحرب الفينيقية الثانية قبل وقوعها » (٣٣) .

ان هسدروبعل لم يسبر اغوار الدبلوماسية الرومانية في تهافتها على عقد هذه المعاهدة . وهو لم يكن على علم بهجوم الجلالقة المنتظر على رومة والفرصة التي ستسنح قريبا ، اذا لم يكن بالهجوم على رومة ، فعلى الاقل بعقد معاهدة افضل ، قد تكون ايصال الحدود الفينيقية الى جبال البيرينة ، وقد تكون ايضا اطلاق يد قرطاضة في افريقية في الجهتين الشرقية والغربية . وقد تكون ، وهو الافضل ، رفض التعاقد مع رومة كليا : فهي كانت في حالة لا تسمح لها بأي عدوان ، وهي لم تكن لها اية صفة تسمح لها بفرض هذه المعاهدة . ولم يكن من مصلحة « النظام الجديـــد » في اسبانيا أن يتحدى الحكومة المركزية القرطاضية . فبعد ان قمع هميلقار ثورة المرتزقة واعـــاد الامن الى افريقيا ، أصبحت للبرقاويين ، بمساعدة هسدروبعل نفسه ، اكثرية دائمة في مجلس الشورى . وقرطاضة كانت تسير وراءه تلقائيا . وقد وافق مجلس الشورى على انتخابه قائدا عاما وحاكما لاسبانيا بأكثرية ساحقة لا تنقص الا صوتا واحدا هو صوت حنون . ان تعاقده مباشرة مع رومة كان تحديا في غير محله ، وسابقا لاوانه ، وكاشفا امام الرومان نياته الانفصالية عن الحكومة المركزية . وقد اتاحت هذه المعاهدة فرصة ذهبية لرومة لتسحق الجلالقة سحقا نهائيا ، وتصبح بعدئذ مستعدة أن تواجه اي خطر يأتيها من جهة القرطاضيين .

بعد عقد المعاهدة بأشهر قليلة اغتيل هسدروبعل في خيمته . قتله أحد الجلالقة ، ولم تعرف أسباب القتل . وقد تضاربت التكهنات حول هذا الحادث .

ولكن الارجح ان أصابع رومة لم تكن غريبة عن اليد التي طعنته . ولم تخسر السلطات الفينيقية في اسبانيا بموته تلك الشخصية الفذة التي وضعت أسس التآخي بين الفينيقيين والاقوام الاسبانية فحسب ، بل خسرت زعيم كتلة سياسية في قرطاضة نفسها ، كانت تؤمن له تأييد الحكومة بأكثرية ساحقة، وتخرس صوت حنون وحزبه . بموته ذر حزب حنون قرونه ، وانهارت الاكثرية البرقاوية التي كانت تسيطر في قرطاضة منذ ٢٣٧ ق.م.

# هنيبعل برقة

## ظاهرة كنعانية سورية في التاريخ

### هنيبعل والعلة القرطاضية

عندما تسلم هنيبعل برقة ، في سنة ٢٢٤ ق.م. ، قيادة الجيش الفينيقي في اسبانيا البرقاوية ، بل زعامة العالم الكنعاني كله ، اطل على العالم المتوسطي انسان من معيار خاص في تاريخ الانسانية .

كان هنيبعل برقة ظاهرة فريدة من نوعها ، فهو من اولئك العباقرة الذين تفجرهم الاحداث الجامحة من صميم الشعوب العظيمة في المراحل القاسية من حياة هذه الشعوب .

جاء هنيبعل ليواجه امة رومانية ــ ايطالية تحمل في طموحها جنين امبراطورية متوسطية عالمية ، تنشأ على انقاض امبراطورية قرطاضة الكنعانية السورية وانقاض عالم خلفاء الاسكندر .

علة هنيبعل ، التي عطلت عبقريته العسكرية ودمرت عالمها ، هي انه ادرك نصف الواقع الذي عليه ان يواجه مصيريا : لقد ادرك الناحية السلبية من الخطر الروماني ، ناحية الحرب والعدوان على شعبه وامبراطوريته ، ناحية الثأر من الرومان الذين اذلوا القرطاضيين في الحرب الفينيقية الاولى ولم يقبلوا بأي تسوية للخلاف الناشيء بين الدولتين ، وناحية فظاظة الرومان وبدائية سويتهم الاخلاقية وتخلفهم الحضاري والانساني .

الظاهرة القومية الرومانية الجديدة ، التي جعلت من رومة ، الدولة ــ المدينة ، دولة قومية جديدة ، تشمل البيئة الايطالية جميعها مع المدن اليونانية القائمة في تلك البيئة الايطالية ، بقيت خافية عليه .

والاوضاع القرطاضية الرجعية الطبقية المتحجرة منذ مئات السنين ، والتي سببت خسارة الحرب الفينيقية الاولى وانسحاب والده من صقلية وخسارة جميع الجزر التابعة لقرطاضة في غربي المتوسط ، بقيت هي ايضا غير واضحة في فكره العبقري .

لذلك كله ، كانت حملته المستعجلة على رومة عبر جبال الالب ، وكانت انتصاراته العظيمة الاربعة على الارض الايطالية ـــ الرومانية دون ان تقدمه خطوة واحدة نحو النصر الاخير ، وكان وجوده الان كأنه أسير منفي ، وحيد ، يمثل دولة تجهل كل ما ومن يقدر ان يحقق لها قيادة صالحة وسيادة عالمية ، ويواجه عدوا يفهم القرطاضيين فهما واضحا ، ولذلك هو مصمم على مقاومتهم حتى آخر روماني يحمل سلاحا .

خلال ثماني سنوات من الانتصارات الحربية الخالدة في تاريخ الحروب علم هنيبعل بالاختبار العملي ، كما حدث لوالده هميلقار في صقلية ، ثلاث حقائق اساسية :

الاولى هي ان الدولة الرومانية قد اصبحت دولة قومية شعبية كاملة تسيرها مؤسسات فتية ، حية ، وعت واجباتها كاملة .

والثانية هي ان رومة ، قائدة هذه الدولة القومية الجديدة ، غير مستعدة لان تتأثر بانتصارات هنيبعل فتقبل بصلح او تسوية او مهادنة ، بل هي ماضية في الحرب حتى النهاية مهما كلفها ذلك من تضحيات .

والثالثة هي ان جيش هنيبعل غير كاف بعدده وعتاده وميزانيته ليضرب رومة الضربة الاخيرة ، فيقوضها وتنفك عنها الوحدة الايطالية . لذلك وجد نفسه ، مضطرا ، بعد اربعة عشر عاما من تسلمه مسؤوليات المصير الكبير ، ان يهتم بقاعدتيه ، قرطاضة واسبانيا ، ويستنجد بهما .

والحقيقة هي ان قرطاضة ، بطبقتها المغلقة الحاكمة ، كانت ترافق الحرب الفينيقية الرومانية الثانية ( ٢١٨ــ٢٠٢ ق.م. ) بالعقلية نفسها التي خاضت بها الحرب الفينيقية الرومانية الاولى ( ٢٦٤ــ٢٤١ ق.م. ) .

ويبدو ان قرطاضة ، حتى بعد نهاية حربها الاولى ضد رومة ، لم تدرك انها تواجه ظاهرة قومية سياسية عسكرية جديدة انتصرت في الحرب الفينيقية الاولى بمفاهيمها القومية والاجتماعية الجديدة ، لا بتفوقها المالي او الصناعي او العسكري . لذلك قال المفكر المؤرخ بيكر ان الحروب الفينيقية ـــ الرومانية الثلاث كانت حروب مفاهيم لا حروب حديد ونار . « وان تكون النتائج مفاجئة ، فهذا امر يظهر بوضوح عندما نقارن القوى المادية عند الدولتين . ففي هذا العصر ، كانت قرطاضة الدولة الاكبر والاغنى . اما روما فكانت افقر بكثير وابعد بكثير عن مراكز الحضارة الرئيسية » (٣٤) .

وها ان قرطاضة ، في حربها المصيرية الثانية ، تقع في الاخطاء المميتة نفسها . فالطبقة الحاكمة بقيت غارقة في وثنيتها السياسية ، تقدس ما اتت به من صور منذ ستماية سنة ، وتتعامى عن الظاهرة الرومانية التي هزمتها في الحرب الفينيقية الاولى . وها هي الان تضع مصير الحضارة الكنعانية السورية في أكف الاقدار .

لا شك ان موضوع هنيبعل في حملته على رومة قد نال ما يستحق من

الدرس والتدقيق والتعظيم في ناحيته العسكرية الصرف . فقد كتبت في هذا الموضوع مئات الدراسات واعتبر هنيبعل بين قادة قلائل ، لا يتعدون اصابع اليد الواحدة ، هم اعظم قادة التاريخ العسكريين ، اذا لم يكن هو اعظمهم جميعا ان في فكره الاستراتيجي او التكتيكي الخلاق وان في موضوع تحديد الطريق الجبلية التي سلكها في جبال الالب . لقد كتبت في هذا الموضوع ٥٥٠ دراسة ، ولا شك ان الدراسات حول الحروب الفينيقية الثلاث قد تعدت الآلاف .

اما الناحية السياسية والقومية فانها لم تدرس بعد دراسة موضوعية وافية . ذلك ان هذا النوع من الدراسات لا يهتم بها اهتماما جديا الا اصحابها الاصليون . وبما ان التاريخ السوري لم يكتب بعد ، حتى كوحدة حضارية وبالاكثر كوحدة قومية ، فان الخطوط السياسية والقومية في حملة هنيبعل ، وبصورة عامة في الحروب الفينيقية الثلاث ، بقيت على هامش ما كتب في هذا الموضوع . والاديب المؤرخ الوحيد الذي دخل في صلب هذا الموضوع دون ان يوفيه حقه هو بيكر ، مؤلف كتاب « هنيبعل » (٣٥) .

هناك نقطتان اساسيتان قد برزتا بصورة واضحة في الحروب الفينيقية الثلاث هما : المدينة التي تحارب امة ، والفرد العبقري الذي يحارب مؤسسة عريقة ، متفوقة في نهجها منذ ازمنة طويلة ، وهي التي نجحت في توحيد ايطاليا بزعامة مدينة رومة ، وحولت رومة من مدينة ـــ دولة الى مدينة ـــ مجتمع ودولة ذات نظام جديد يشد ايطاليا كلها في دورة اجتماعية سياسية قومية واحدة بالرغم مما كانت عليه من تنوع عرقي في المدن والارياف .

وكما برز هذا الحدث التاريخي في حرب هنيبعل ، كذلك كان قد برز هو نفسه في حملة الاسكندر على الفرس . وكما ضيع الاسكندر مقدونيا واليونان لانه جعل من نفسه دولة عسكرية نقالة تحيا بحياته وتموت بموته ، كذلك ضيع هنيبعل اسبانيا وقرطاضة ، بل قضى على آخر معقل للحضارة السورية المستوطنة غربي المتوسط التي كانت قادرة بمفاهيم قومية وحدوية ان تجعل من افريقيا الشمالية قاعدة حضارية جديدة لسورية الام في غربي المتوسط .

وليست هذه الظواهر العبقرية في حقيقتها الا انفلات العبقريات من نواميسها الاجتماعية والقومية ، او ظهورها سابقة نشوء امها ومأساتها ، او في ازمنة تكون الامة مجتازة مراحل ضعف وتفكك ، فلا تقوى على ضبط هذه العبقريات الفنية بطاقاتها الجامحة في توثبها ، التواقة الى الخلق والابداع والتفوق ، وان يكن على حساب اوطانها ومجتمعاتها .

ما ترى كان قد حدث لو انتصر هنيبعل على رومة ومات في معركة الانتصار الاخيرة ؟ او لو بقي حيا ، ولكنه منهمك ينشد العزلة والراحة ؟ ومن كان تسلم ثمار انتصاره ؟ من المؤكد ان قادته كانوا اقتسموا ذلك العالم الروماني القرطاضي كما فعل خلفاء الاسكندر ، فانشأوا دولا في ايطاليا ، واخرى على الساحل الافريقي واخرى في شبه الجزيرة الاسبانية ، ولكانت عادت الحرب من اولها :

صراعا بين القادة او اولادهم او احفادهم . هكذا فعل قادة الاسكندر ، وهكذا كان القرطاضيون وقادة هنيبعل فعلوا .

ذلك ان الاساس الذي انطلق منه هنيبعل كان اساسا فاسدا : لا مجتمعا كاملا ، ولا دولة صحيحة . ليس من يؤمن الاستمرار اذا انتصر ، ولا من يصارع ويجدد وينهض ويعوض اذا انهزم . فالحرب ، قبل ان تكـون انتصارات في ميادين القتال ، هي مفاهيم قومية وسياسية صحيحة وقواعد اجتماعية ثابتة تمركز في دولة قومية اجتماعية ، لها مؤسساتها القومية الواعية . ولا تمرد على النواميس الاجتماعية .

غاب هميلقار عن مجتمعه الجديد ودولته الجديدة وهما في عمر السنوات التسع ، وغاب عنهما هسدروبعل وهما في الخامسة عشرة ، ثم غادرهما هنيبعل في حملته وهما في التاسعة عشرة . مات هميلقار بحادث مفاجيء قبل ان يكمل بناء دولته ، وكذلك هسدروبعل ، وبقيت هذه الدولة الجديدة قائمة على قيادة عسكرية فقط .

وقرطاضة كانت ما تزال على حضيضها ، يفتش افرادها عن الثروات في اقاصي العالم ، كاللبنانيين اليوم ، مهملين الثروة الكبـرى : المجتمع والدولة والتراث الحضاري . كان على هنيبعل ان يكمل ما بداه والده وما عجز عن اتمامه صهره . وكان يجب ان تكون حملته على قرطاضة اولا ، ليدمر النظام المديني القرطاضي العتيق ، الذي استنفد مضامينه ، وليقيم نظاما قوميا جديدا يجمع جميع الفينيقيين في شمالي افريقيا ، فيصارع روميه بمفاهيم قومية جديدة وبمؤسسات جديدة وبقوة عسكرية متفوقة .

لقد اتقن هنيبعل كل اسرار القتال واضاف اليها فصولا جديدة ، ولكنه لم يعلم اسرار قوة الشعوب الكامنة وراء الجيوش المقاتلة . لقد ادرك سر اعداد الجيوش ولم يدرك سر نشوء الامم وتكوين نفسياتها . لقد علم ان قرطاضة قد انكسرت واهينت وديست كرامتها في الحرب الفينيقية الاولى ، وان عليه ان يثأر لها . لقد علم ، بشكل عام ، وآمن عن حق انه يمثل الحضارة ويدافع عنها ، وان عدوه الروماني يهدد هذه الحضارة ببربريته وبدائيته وفظاظته وتخلفه الحضاري والانساني ، وتدني مستواه الثقافي والاخلاقي . ولكنه لم يعلم السر الحقيقي للانتصار الروماني وللانكسار القرطاضي . كل ما تغير عند الفينيقيين بين الحرب الاولى وهذه الحرب هو ان عبقرية هنيبعل العسكرية متفوقة ، وانه يحارب باندفاع وحمية كما كان يحارب الرومان في الحرب الاولى ، وانه اخذ المبادرة واستبقاها بين يديه . هذا كله صحيح . ولكن هذا لم يكن سر الانتصار الروماني، فأخذ المبادرة او تركها للعدو هو قضية نسبية ، ظرفية ، لا قاعدة مطلقة .

سر الانتصار عند الرومان هو انهم ، قبل البدء بالحرب التوسعية ، كانوا قد نحتوا وحدة قومية اجتماعية في وطنهم ، وكانوا قد ازالوا خطر الجلالقة منزلين فيهم هزيمة رهيبة ، وكانوا قد اوجدوا العصبية الرومانية بين جميع

الاقوام الايطالية فتبدلت عصبيتها من عصبية القبيلة والمنطقة الى عصبية الامة والوطن ، وكانوا قد ايقظوا ونموا روح التفاهم والتضحية بين جميع المواطنين فجعلوا من خمسة ملايين ايطالي مجتمعا قوميا واحدا ، يتفاعل فيما بينه اقتصاديا وفكريا وقوميا ، ويعي افضلية الوحدة الاجتماعية والقوميـــة ودورة الحياة الاقتصادية في مجتمع متكامل .

وسر الانكسار عند القرطاضيين هو انهم ظلوا ستمائة سنة على ارض جديدة ، كما كان آباؤهم واجدادهم منذ الفي سنة ، منغلقين على انفسهم في « حياة المدينة الواحدة » المنغلقة ، يحرمون مواطنيهم في اثنتين وسبعين مدينة فينيقية من الحقوق السياسية القرطاضية ، بينمـــا الاثنتان وسبعون مدينة الافريقية الفينيقية تريد ان تندمج بهم وتعضدهم ، وتنسى عصبياتها اذا ما هم ساووها بأنفسهم في الحقوق والواجبات .

عدا عن هذا النقص الاجتماعي والسياســـي ارتكب القرطاضيون خطأ جغرافيا رهيبا هو انشاؤهم وطنا مشوها ، معرضا للاعتداء من جميع نواحيه ، كأنهم يعيشون وحدهم في عالم ، طوله اربعة آلاف وخمسمائة كيلومتر وعرضه يراوح بين العشرين والخمسين ، لا تربط بعضه ببعضه الآخر الا علاقات تجارية ولا تجمعه الا سطوة الدولة القرطاضية . فاذا ما داهم العدو اجزاء منه ، ورأت هذه الاجزاء الكفة مائلة معه ، عاضدته ، وقدمت له وسائل الانتصار التي في مكنتها . واذا رأت مركز الدولة العدوة في مرحلة ضعف وبلبلة ، تنكرت لها وحاربتها واعلنت تضامنها مع قرطاضة .

وسر الانكسار ، ايضا ، هو سيطرة طبقة معينة على ازمة الحكم ، جعلت من النظام الديمقراطي في اشكاله نظام دكتاتورية بعض العائلات المحتكرة كل مؤسسات الدولة ، فامسى النظام نظام دكتاتورية مركبة اشـــد واثبت من الدكتاتورية الفردية التي تزول بزوال صاحبها . فعبقرية الشعب السياسية جمدت في المعامل والمزارع وفي المشاريع البعيدة ، وتفرقت في المستعمرات تعمل لمصالحها الشخصية .

ماذا تبدل في هذه الحالة بين الحربين الاولى وهذه ؟ لا شيء . اذا كانت عبقرية هنيبعل العسكرية متفوقة ، فكذلك كانت عبقرية والده ، وفي الاخير اضطر ان يطلب الصلح .

عندما رأى هميلقار هذه العاهات فـــي المجتمع الفينيقي وفي الدولة القرطاضية ، وخطط لبناء مجتمع جديد ودولة جديدة في اسبانيا ، لم يكن يفكر بالهجوم على رومة بهذه السرعة ، تاركا مجتمعه ودولته ينهاران وراءه . واذا كانت استعجلت موته الاحداث قبل ان يوضح فكرته بكاملها ، فانه كان على خلفائه ان يروا ما كان يبني ويكملوا البناء .

وفي قرطاضة نفسها كان الشعب قد استيقظ وجدانه القومي المتألم ، وتحمس لما يحقق في اسبانيا . فان ما الحقه به الرومان من خزي وعار وهوان

قد وصل الى الصميم . عزته جريح ، وكرامته ثائرة ، وشرفه يتوق الى الثأر والتحديات الرومانية متواصلة لا تقف عند حد .

ان تحدي الرومان المتواصل لقرطاضة وعالمها كان شبيها بتحدي اسرائيل في العصر الحاضر لسورية والعالم العربي . وكما تلاقي اسرائيل ، كيفما وجهت انظارها ، تفرقة تضعف العالم العربي وتخلفا فيه يقويها عليه ، كذلك كانت تجد رومة امامها في العالم الفينيقي : في قرطاضة وجدت دولة عتيقة ، وضيعة عن مستوى الحدث الروماني ، القومي والسياسي ، رغم مستواها العالي الثقافي والحضاري . في اسبانيا وجدت فردا يستأثر بجميع السلطات ، ومن الطبيعي ان فردا ، مهما كان مستواه العقلي متفوقا ، لا يقدر ان يجابه مؤسسات سياسية تجمع في مجلس الشيوخ الروماني خلاصة الفكر المختبر المجرب ، وتجمع في مجلس الشعب العام تضامنا قوميا مثاليا يتتبع الاحداث ، ويطلع على كل شيء ، ويفرض ارادته القومية العليا في القضايا المصيرية ، ويحرك قوى المجتمع ، الكاملة ، ويصبها في الاتجاه القومي الكبير .

رومة تراقب وتتابع انماء طاقتها الحربية ، ومراقبتها تتناول العالم الفينيقي في الدرجة الاولى . فما ان لاحظت النمو الفينيقي الجديد في اسبانيا حتى اسرعت وغررت بهسدروبعل فربطته بمعاهدة حدت من نشاطه وتوسعه .

وما ان رات هنيبعل يتسلم القيادة ويتابع تركيز سيادته ونظامه العسكري الجديد ، حتى حركت عملاءها في « ساغونتي » المدينة الاسبانية القائمة في صميم المنطقة الفينيقية ، التي اعترفت بها رومة في تعاقدها مع هسدروبعل متعهدة بأن لا يكون لها اي تدخل او نشاط في هذه المنطقة . اثارت خلافات بين سكان ساغونتي فتحرش عملاؤها بالحزب المؤيد سياسة الفينيقيين وطلبوا حماية رومة. فما كان من رومة الا ان لبت الطلب وانجدت عملاءها هناك ، فحاكموا زعماء الحزب المتعصب للسياسة الفينيقية واعدموهم ، ثم طردوا كل افراد هذه الجماعة الى خارج ساغونتي .

كان هنيبعل واثقا من نفسه ومن تأييد جيشه والمدن والاقوام الاسبانية المنضمة الى الدولة الجديدة ، كما كان قد حصل على موافقة الحكومة القرطاضية على انتخابه قائدا عاما للجيش وحاكما عسكريا في اسبانيا .

كان هنيبعل في ضمير جيشه الامل المتجسد في كل قلب ، فقد رآه هذا الجيش ينمو الى جانب والده في المعارك ، وفي ايام الراحة والتدريب بين الضباط والجنود . امامهم كان يقتحم المخاطر ويتحدى المهالك ، فهو المحارب الذي يجسد الجندية والقيادة في شخصه . دربته معارك لا عديد لها ، وبلورت فكره العسكري تجارب من كل نوع ، وصقلت حنكته مآزق نادت كل ما في اعماقه من توثب وبطولة وبصيرة نافذة ، وهو استمرار لتلك الوثبة الثورية الجديدة التي تريد ان تنحت للفينيقيين بحد السيف ورؤيا المستقبل اوضاعا جديدة ، جديرة بأن تواجه جميع الاحتمالات الخطيرة .

والقرطاضيون رأوه من بعيد يتسلم القيادة ، وهو ابن سبع وعشرين سنة، بحمية الشباب ودراية الشيوخ ، يثبت الاوضاع القائمة من جهة ويبسط نفوذ الفينيقيين من جهة اخرى على مناطق جديـــدة . وهـــا هو ايضا ، كصهره هسدروبعل ، يتزوج من ابنة ملك كستولون الاسبانية ويصبح في نظر الاسبانيين زعيما قوميا . وقد رأوا حلمه وفروسيته في حصار « سلمنكة » . فبعد ان سقطت المدينة وطلب الى سكانها ان يغادروها مرتدين فقط ثيابهم تاركين كل اموالهم المنقولة مكانها ، فوجيء بمكيدة عسكرية كادت تضعضع جيشه . لقد خرجت النساء يخفين السيوف تحت ثيابهن ، وخـــارج المدينة سلمن الرجال السيوف ودارت معركة ضارية بين الجيش والسكان اشتركت فيها حتى النساء . وعندما انتصر الجيش على المفاجأة ، اعجب هنيبعل ببطولة النساء الاسبانيات ، فاعاد جميع السكان الى المدينة وترك لهم جميع ممتلكاتهم . هذا العمل الانساني النبيل أربح هنيبعل سمعة طيبة وشهرة واسعة في انحاء البلاد . وفي هذا الحدث التاريخي المحلي يظهر الفرق صارخا بين مناقبية هنيبعل الانسانية وعقليته الحضارية الرفيعة وروح الفروسية في تقاليده الحربية ، وبين مستوى الاسكندر وعقليته البدائية الفظة عندما صلب اربعين الف بطل صوري دافعوا عن مدينتهم وكرامتهم القومية حتى النهاية . لقد كافأ هنيبعل بطولة النساء الاسبانيات ، اما الاسكندر فقد صلب الابطال الصوريين .

بين عشية وضحاها اعلن ان « معاهدة صداقة » تربط ساغونتي برومة ، وتفرض على رومة حمايتها من اي اعتداء . ولم يكن ذلك في الحقيقة الا ان رومة نفسها قد طلبت من الساغونتيين ان يستنجدوا بها ، مكررة التكتيك الذي اتبعته في مسينة سنة ٢٦٤ ق.م. لتشعل الحرب الفينيقية الاولى .

امام هذه الوقاحة الرومانية ، التي تحنث بمعاهدة الصلح المعقودة في صقلية سنة ٢٤١ ق.م. وبمعاهدة الايبر المعقودة مع هسدروبعل منذ سنوات قليلة ( ٢٢٥ ق.م. ) ، لم ير هنيبعل بدا من الرد العنيف على هذه الدبلوماسية المجردة من المناقب ، ومن اي احترام للمعاهدات . فالسلطـــات العسكرية الفينيقية في اسبانيا ليست مستعدة ، وهي في اوج قوتها ومعنوياتها ، ان تتحمل ما تحملته قرطاضة من خزي وعار في قضية سردينية . ولو سكتت لطلبت رومة غرامة حربية جديدة ، كما فعلت في قضية سردينية تماما . لقد استلذ الرومان غرامات الحرب ونهب المدن .

قرر هنيبعل أن يضرب الحصار على المدينة المتحدية ، ردا عليها وعلى رومة حليفتها وحاميتها . ولكن بعد نظره لم يسمح له بأن يتحدى قرطاضة فأرسل تقريرا مفصلا عن الحادث وطلب تعليمات سريعة . كان هدف الرومان أن يستدرجوا هنيبعل الى التسرع . هم يريدون الحرب بدون شك . وهم نادمون على ما قبلوا به في معاهدة الصلح التي عقدها معهم هميلقار بتفويض من حكومته سنة ٢٤١ ق.م. ان فكرهم السياسي والحربي العدواني يتجه

دائما الى قرطاضة ، ولذلك اثاروا قضية سردينية ، ولم يكتفوا بانتزاعها ظلما وغدرا من أيدي قرطاضة مخالفين نص المعاهدة ومتعامين عن كل حق ، بل فرضوا غرامة جديدة من ألف ومائة وزنة تبتز من الخزينة القرطاضية كل ما توفره لدفع الغرامة القديمة . ولذلك أيضا غرروا بهسدروبعل وحملوه على عقد معاهدة جديدة توقف التوسع الفينيقي عند حد . ولذلك حركوا الان عملاءهم وجواسيسهم ليفتعلوا حادث ساغونتي كما افتعلوا بالامس حادث مسينة . أن رومة أمست تحترف الحرب وتعتبرها تجارة رابحة ، خصوصا مع الفينيقيين . فلماذا التجارة ولماذا الصناعة ، طالما الحرب ضد قرطاضة ، بعد المدن اليونانية ، تدر أرباحا أكثر من أي عمل اخر ؟

ولا شك أنهم ، بعد درس دقيق لاوضاع اسبانيا وقرطاضة ، قد قرروا ان يخربوا هذه القوة الفينيقية ــ الاسبانية الناشئة ، وأن يجهزوا على قرطاضة ما دامت راسية في أوضاعها الجامدة ، عاجزة عن الدفاع عن نفسها . وهم يريدون في الوقت ذاته أن يظهروا للعالم بمظهر المعتدى عليه .

ان ساغونتي في نظرهم هي مسينة الحرب الثانية .

هم يعلمون أي تربية تلقاها هنيبعل ، وأية حمية وثابة تغلي في قلبه ، واي توق الى الثأر يرافق وجدانه ليل نهار . فالثأر من رومة هو الوديعة التي تركها هميلقار في أساس الدولة الجديدة . ولكن الثأر عند هميلقار كان لـــه معان بعيدة الاغوار ، طويلة النفس ، تتناول ، الحياة الفينيقية في نهضة قومية شاملة ، ومفاهيم الدولة عند الفينيقيين في تبديل وتعديل أساسيين ، والمستقبل البعيد في تجديد السيادة السورية على حوض المتوسط وبســـط الحضارة وتثبيتها . لم يكن هدف هميلقار ان يتخذ من اسبانيا قاعدة تدريب عسكري فقط ، ومركز اعداد لجيش كبير والزحف على رومة قبل الاوان . بل كانت غاياته الكبرى تطمح الى انشاء مجتمع واقامة نظام قومي عسكري، يسيطر على موارد الشعب وامكاناته ، ويصفي الحساب مع اعداء الفينيقيين الدائمين قبل أن يتحول الى نظام ديمقراطي .

بعد فترة قصيرة وصل وفد روماني الى اسبانيا مزودا بأوامر مـــن مجلس الشيوخ ليطلب من هنيبعل ايقاف العدوان على ساغونتي حليفة رومة. وكان من الطبيعي ، اذا أذعن هنيبعل لطلبهم ، أن يفرضوا غرامة جديدة .

استمع هنيبعل للوفد بلياقة دبلوماسية ، وكلمه بشدة وحزم ، معلنا أن تدخل رومة ضمن المنطقة القرطاضية من اسبانيا هو تدخل غير مشروع يخرق المعاهدتين المعقودتين بين الدولتين ، ويعبث بكل احترام لمبدأ التعاقد . لقد عاب على الرومان استغلالهم الفتنة التي حدثـــت مؤخـــرا في ساغونتي فاتخذهم الساغونتيون حكما لكي ينزلوا عقاب الموت ببعض أعيان المواطنين . وأعلن انه لن يترك هذه الخيانة بدون عقاب ، اذ أن من تقاليد القرطاضيين الموروثة ان لا يتخلوا عن المظلومين .

غادر الوفد اسبانيا الى قرطاضة في اذار سنة ٢١٨ ق.م. ليطلب تسليم هنيبعل « المعتدي » على رومة ، و « المخترق » المعاهدات المعقودة ، والعامل بنشاط لاشعال حرب جديدة . وكانت تقارير هنيبعل قد سبقتهم وأوضحت الحالة كما هي تماما ، مع طلب تعليمات من الحكومة المركزية بشأن الحادث الطارىء .

وقف مجلس الشيوخ القرطاضي بجانب هنيبعل ولم يشذ الا حنون وحده ، زعيم سياسة الانهزام والهوان ودفع الغرامات الثقيلة لقراصنة رومة ومحترفي حرب العدوان . وقد اختتمت جلسة مجلس الشيوخ بحضور الوفد الروماني عندما وقف رئيس هذا الوفد وطوى طرف ردائه قائلا : « هاكم السلم والحرب ، ماذا تختارون ؟ » ، فأجابه الصافط ( رئيس الجمهورية ) : « حسب ارادتكم » فقال رئيس الوفد : « لكم اذن الحرب » ، فارتفعت الاصوات من كل جهة : « قبلناها » (٣٦) .

لم يعتقد زعماء مجلس الشيوخ الروماني ان هنيبعل كان مستعجلا لشن هجوم عسكري على رومة ، وكانت قيادتهم منشغلة في حربها لقمع ثورة ايليريا ، فتأخروا في استعداداتهم ريثما تنتهي الحرب في هذه الجبهة .

وبتشجيع من رومة ، ولكن بدون أية نجدة ، صمدت ساغونتي للحصار وأخيرا سقطت واستولى هنيبعل على جميع خيراتها . شحن التحف والرياش الى قرطاضة ، وابقى في يده الذهب والفضة وسائر المعادن ، ووزع على جيشه كثيرا من المغانم ، ثم باشر استعداداته لمواجهة الرومان . وهم ايضا باشروا الاستعداد للحرب .

خطط الرومان لهجوم مثنى على اسبانيا وقرطاضة في آن واحد . ولكنهم لم يستعجلوا أمورهم ، اذ لم يخطر في بالهم ما كان يخطط له هنيبعل . فقد اعتقدوا ان معاركهم مع هنيبعل ستكون في شمال اسبانيا أو في جنوبي فرنسا، في منطقة نهر الرون . مرسيليا كانت حليفتهم ومحرضتهم على الحرب ، اذ كانت تخشى ، وهي مدينة تجارية كبرى ، مزاحمة الفينيقيين وسيطرتهم في النهاية عليها .

أما هنيبعل فقد شجعه موقف الحكومة المركزية ، وتحمس الشعب في قرطاضة ، على المضي في اعداداته الكبرى . وكانت قرطجنة قاعدته . منها أرسل عملاءه السريين من فينيقيين واسبانيين وجلالقة لدرس الطرق المؤدية الى ايطاليا ، كما أرسل دعاته الى الزعماء والامراء الاسبانيين والجلالقة ، ينبههم الى أن رومة تستعد لمهاجمتهم ، ويستجلي ما تركته جولة الوفد الروماني على من اتصل به .

وهناك اجماع بين المؤرخين القدامى على ان هميلقار برقة كان قد باشر الاعداد لغزو ايطاليا ومنازلة الرومانيين في عقر دارهم ، فأرسل الجواسيس والعملاء ينشئون الجاليات الموالية سرا للفينيقيين ، والمستعدة لمساندتهم اذا

دعت الحاجة ، في المناطق الغالية ، ولا سيما وادي الرون ، وحتى في شبه الجزيرة الايطالية . وتابع تنفيذ هذه الخطة كل من هسدروبعل وهنيبعل . وتلك هي المرة الاولى في التاريخ العسكري لنشوء ما نسميه اليوم « الطابور الخامس » هذه القوة الرهيبة ، لانها مجهولة ، تضرب في الظلام فتدمر المعنويات والمنشآت الحيوية وتنشر الخوف والفوضى وتشل « الجبهة الخلفية » ، جبهة الشعب ، التي يعجز أعظم جيش بدون مساندتها عن متابعة القتال في الميادين .

وكان هنيبعل قويا بولاء جيشه له ولاء مطلقا . فضباطه محاربون محترفون ، وجنوده مقاتلون بسلاء يتوقون الى ساحات الوغى ويعتبرون الحرب عملهم الوحيد الذي لا غنى لهم عنه ، مما ساعده على احباط كل المكائد التي حاكها حنون ومحازبوه في قرطاضة لتعيين قائد سواه على رأس القوات الفينيقية في اسبانيا ، وهي مكائد بلغت من الحقارة دركها الاسفل .

## الثأر الحضاري

شاب في التاسعة والعشرين من عمره ، تضافرت في شخصه مواهب وقيم وفضائل قل ان تجمعت في شخصية انسان واحد في تاريخ الانسانية . فهو الزعيم الذي تحمست لزعامته اسبانيـــا وافريقيا ، وصادقـــه الجلالقة وعاونوه . وهو الاداري الذي ينظم جميع ولايات اسبانيا ليغادرها مرتـــاح الفكر . وهو القائد الفرد الذي يخطط للشروع بأعظم عمل عسكري في التاريخ قام به فرد ضد أمة ودولة . وقد وضح لجميع المؤرخين ان مشروع هنيبعل ضد رومة لم يكن له مثيل في تاريخ الحروب لا قبله ولا بعده . فلا الاسكندر وبيروس من قبله ، ولا سيبيون قاهره ، ولا يوليوس قيصر ، ولا نابليون ، اضطلعوا بمفردهم بالمسؤوليات التي اضطلع بها ، ولا واجهوا المصاعب التي واجهها .

هو الكنعاني الذي يرى سيادة امته السورية قد تقلصت منذ الفتـــح الفارسي والمقدوني ، وهو يرى بألم مرير ان سيادة الكنعانيين فـــي غربي المتوسط ـــ في قرطاضة ـــ قد تقلصت من الدولة ، وكبتت في وجدان الشعب، وجمدت في عقول النخبة الحاكمة ، وأصبحت متجمعة بكل ثقلها ومسؤولياتها الضخمة على وجدان البرقاويين منذ تطوع هميلقار في جبل اريكس ليجدد الحياة والسيادة في أمة كاملة .

وها هو العدو الرهيب يطارد الكنعانيين في كل مكان ، ويقف نشاطه على اهلاكهم . وهو عدو يتمتع بطاقة سياسية وحربية فريدة من نوعها في ذلك الزمان ، توفرت فيه العبقرية السياسية الواعية التي تضطلع بهـــا مؤسسات دينامية ناشطة ، وعزم شبه بربري في القتال العنيف ، والشهوة الى التدمير والاتلاف والنهب . وبهذه الطاقة المركبة الفريدة قد احترف الحرب ضد الشعوب المتمدنة الغنية بثروتها وخيراتها . هدفه منذ نصف قرن القضاء على الحضارة السورية في غربي المتوسط .

افتعل حادث سردينية فانتزعها من قرطاضة غدرا وعدوانا ، وتحرش بهسدروبعل في اسبانيا ففرض عليه معاهدة تقيده ضمن حدود معينة . والان يفتعل حادث ساغونتي بعد اعترافه الواضح الصريح بأن هذه المنطقة هـــي ميدان للنشاط الكنعاني . وكما استدرج قرطاضة الى الحرب الفينيقية الاولى بالتحرش والتحدي ، كذلك يرغم هنيبعل على منازلته دفاعا عن كرامة شعبه وحقه في الحياة .

لقد قرر هنيبعل ان يرد على التحدي بتحد عنيف رهيب . فلا صقلية تراوده قرونها الغابرة ، ولا سردينية يشفى استرجاعها غليله ، انه يريد رومة ، رومة ذاتها . رومة العاتية ، المفترة ، العابثة بالكرامات والعهود ، المحترفة الحرب كما يحترف القرصان قطع الطرق البحرية ، وكالكواسر والضواري لا تمارس الا التحدي . تطاول صولاتها الابعاد ، وترود مناطق المتوسط تفتش عن فريسة تنقض عليها . لا تفرق بين البدائي والمتمدن ، بين من تعاقدت معهم أو لم تتعاقد ، بين المسالم والمعتدي ، بين اقوام قد يساعدها الاستعمار على بناء نفسها ، وبين أمم حضارية كسورية واليونان يخربها الاستعمار كيفما تصرف ، حتى ولو حمل علماء اليونان وادباءها وفلاسفتها ليحاولوا تغيير مجاري حضارة هي ام حضارتهم . وهي ام لم تتعقم احشاؤها ، بل هي تعطيهم حتى في ديارهم . وما الرواقية الزينونية والمسيحية الا من عبقريتهم المناقبية الاجتماعية والكونية .

في هذا الصراع الهنيبعلي ــ الروماني الفاصل ، سيظهر بوضوح ضعف نظام المدينة الحضارية أمام الامة الموحدة ، حتى ولو كانت هذه الامة بدائية في حضارتها . كما ستظهر محدودية الفرد امام « المؤسسة الدائمة » ، مهما يكن هذا الفرد متفوقا ، وهي التي وجدت منذ ابداعها لتكون دماغا مركبا لا تفوقه عبقرية الفرد الا نادرا . وكان قد ظهر ذلك منذ قرن ونيف ، عندما غزت الوحدة المقدونية القومية البدائية المدن اليونانية الحضارية . ولكن هذه الحقائق الفلسفية الاجتماعية الوضعية ، التي وضحت الى حد بعيد لهميلقار، كانت على ما يبدو بعيدة عن مفهوم هنيبعل أو عن اقتناعه بصحتها .

قرر هنيبعل ان يسحق رأس التنين الروماني المتطاول بمخالبه وبراثنه على حوض المتوسط ، ولذلك خطط لهجوم على رومة . ولكن جميع مقومات نظريته الحربية كانت سلبية . كان مخططا لتفكيك الوحدة الايطالية التي كونتها رومة ، والتي كانت ما تزال في نظره طرية يعتريها كثير من التنافر وعدم الانسجام : فالمدن اليونانية كانت حليفة مرغمة للدولة الرومانية ، وبعض المدن التي ضمت الى الوحدة قسرا كانت تعيش على مضض منتظرة فرصة تسنح لها لتنفك عن الوحدة . فكان يصعب على اليوناني المتأنق في أساليب حياته الاجتماعية ، الرقيق بشعوره وفكره وفنه ، أن يخضع لشعب ما يزال فجا في أساليبه ، فظا في أطباعه وسلوكه ، أكسبته القوة العسكرية المنتصرة والدهاء السياسي الناجح غطرسة فيها كثير من البدائية والغرور . والقبائل الجلالقية ، التي هزمت في غزوتها الاخيرة منذ نحو ست سنوات ، لم تستسلم نهائيا ، بل هي تضمر الشر والغزوات حالما تؤاتيها الظروف . والوحدة القومية بصورة عامة ، تلك التي حققتها رومة في ايطاليا ، كانت جديدة على الاقوام الايطالية جميعها ، فذكريات الاستقلالات الاقليمية والحياة

القبلية الكيفية كانت ما تزال حية عند كثير من الناس ولن يكون من الصعب اثارتها لتنقض على رومة اذا ما رأت فاتحا منتصرا يعطيها أملا مجددا باستعادة حياتها الماضية .

هذه الحقائق الواقعية ، تضاف اليها مفاجأة عبور الالب وانتصارات عسكرية مدوية ، كانت تكون نظرية هنيبعل التي أراد تثبيت صحتها في حملته المقبلة . ولكنها في الحقيقة نظرية سلبية تقوم على تخريب ما صنع لتنتصر بوسائل كلاسيكية عتيقة . وهي لا تتضمن من الناحية الايجابية الا أملا بالابداع والتفوق في المعارك الحربية لكبح جماح دولة تستهدف التسلط على المتوسط بأساليب استبدادية . بينما النظريات ، التي تنتصر انسانيا بانتصاراتها العسكرية ، هي النظريات الايجابية البناءة ، تلك التي تبني أفضل مما بني لتنتصر عليه لا ان تخرب ما بني ليمسي ضعيفا مثلها .

لم يكن هنيبعل ينظر من هذه الزاوية . فهو يريد ان يرد بعنف وابداع على القوة الجديدة المتحرشة والمتحدية منذ ٢٦٤ ق.م. وهو يريد ان يثأر لشرف قرطاضة وكرامتها وعزتها التي أهينت بوقاحة وغطرسة ، ويستعيد لها سطوتها في عالمها وما حوله . وهو لا يرى العالم بعد ذلك الا كما رآه الاسكندر ، وهو جالس على عرشه في بابل ، شعوبا وأمما ومدنا ، بل عوالم شرقية وغربية يتوزع عليها التوجيه من مركز القيادة . افضلية هنيبعل على الاسكندر هي ان هجومه على رومة كان في جوهره وفلسفته دفاعا عن الحضارة الكنعانية السورية في غربي المتوسط ضد شعب ، وان يكن قد حقق وحدته القومية ، بقي بدائيا فظا بالنسبة الى الشعب الكنعاني السوري.

ان الحياة في نظر هنيبعل تخضع لعبقرية الافراد وفضائلهم وللقيم التي يطلقونها في المجتمعات البشرية . وقد فاته ، وهو الرجل الحضاري المتعقل ، الحامل تراث سرجون الاكادي ، وحمورابي ، وبابل وأشور وفينيقيا، والمسؤول عن مصير هذا التراث ، كما فات الاسكندر العبقري الهووس الذي لم يتخلص بعد تماما من قشرة البربرية المقدونية ، ان الامة ومؤسساتها الدائمة المتطورة مع القرون هي التي تحفظ عبقريات الافراد وتصونها وتطورها وتستلهمها في سيرها الحضاري الطويل . اما اذا لم تتجل هذه العبقريات في الامة ومؤسساتها فانها تتبدد في سهول بابل ، وعلى هضاب « زاما » ، وتندثر ، اما بين قادة جامحين يستغلونها لغاياتهم ، واما في مجتمع يرتاع المتسلطون عليه من معطيات العبقرية الجديدة الخلاقة .

وفي يوم مشمس من أيام الربيع في قرطجنة ودع هنيبعل زوجته الفتية ، وقبل طفله المولود في أيام حصار ساغونتي ، ثم امتطى صهوة جواده وباشر استعراض جيشه ، هذا الجيش المتأهب معه لمواجهة المغامرة العظمى .

أحس ، في تلك اللحظة ، انه أصبح غريبا عن بيته ، مأخوذا كله بتيار مهمته التاريخية التي أزفت ساعتها . وكان يحيط به أركان حربه من كبار الضباط الذين يحترمونه ، ويعرف كيف يفرض عليهم مشيئته . انهم رهط لامع يثير الاعجاب ، مهما اختلفت مظاهرهم وقياقاتهم . أكثرهم فتيان في فجر الشباب ، بدءا بشقيقيه هسدروبعل وماغون . الاول في حوالي الثالثة والعشرين ، الا انه سار على خطى شقيقه القائد ، فاكتسب خبرة واسعة في الادارة والشؤون العسكرية ، وأمسى جديرا بكل ثقة ، حتى ان هنيبعل عينه حاكما على كل الممتلكات الفينيقية في اسبانيا . اما الاخر ، ماغون ، فكان في الحادية والعشرين يزخر بالنشاط ، ويحتدم توقا الى خوض المعارك . وقد ولاه أخوه القائد العام قيادة الفوج القرطاضي ، فراح يختال في شوارع قرطجنة على مركبته الزاهية الالوان يجرها جوادان مطهمان .

وبين كبار الضباط تجدر الاشارة الى سيخع بن هميلقار من زوجته الاولى ، وماهر بعل الذي لمعت بطولته في حصار ساغونتي ، وابن الصوفط بولمقار ، وحنون المقاتل المغوار المقدام على مجابهة الاخطار بجراة لا تعرف التردد ، وهرتس الشيخ ، أحد أعوان هميلقار ، وحنون اخر يحب البرقاويين اضعاف ما يمقتهم حنون التاجر الاناني .

بدأ الاستعراض ، فسارت ثلاث فرق في عرض السهل . في طليعة الاولى فتيان قرطاضة يسيرون حفاة ، يرتدون قمصانا طويلة فضفاضة ، ارجوانية اللون ، ويحملون تروسا وسيوفا قصيرة . رئيسهم هو ماغون ، شبل هميلقار ، يتقدمهم واقفا في مركبته الحربية . ثم مجموعة من أفواج عوتيق واسبيس ، يقودها سيخع ، وفوج برينيس بقيادة هرتس ، وأفواج صبراته ، ولبتيس ، وايا ، وتنغيس ، وفاغا ، وهيبونة ، وروسبينة ، وزاما ، وتبسوس ، وكل المدن الفينيقية التي تعتبر قرطاضة امها جميعا . يقود هذه الافواج عملاق ، جسما وسلاحا ، هو انطه الجبار . هذه القوى كلها تؤلف الفرقة الاولى .

والفرقة الثانية تضم الافريقيين من رعايا قرطاضة وحلفائها ، وبينهم الاثيوبيون السمر ، والنوبيون ، الماهرون برمي الرماح السامة ، يعتمرون عمامة تلف جباههم ويشدون جذوعهم بزنار كتاني يحمي خواصرهم . ويأتي بعدهم الماسيون من سينيف ، وهم ملتحون مشعثو الشعر ، على اكتافهم جلود

نيوس ، يحملون نبالا صغيرة لها أسنة متعددة ، وهي مربوطة بزنار . ويليهم الادرماشيديون الآتون من أقاصي الجنوب المصري ، وهم ينتعلون حذاء فردا في الرجل اليسرى ، وتبقى اليمنى حافية ، ويحملون ترسا جلديا وسيفا أحدب. فالماسيليون من بدو موريتانيا ، على رأسهم باخوس ، وشعرهم مضفور جدائل طويلة ، فالجيتوليون من قبائل الصحراء الافريقية ، وهم الملقبون بـ « الارجل المجنحة » لسرعتهم المدهشة في العدو ، قائدهم اشيراس الدائم العبوس ، المقطب الجبين أبدا ، لا تعرف اساريره الابتسام ، فالمرمريديون المعروفون بتعاطي السحر ، يثيرون في سيرهم جلبة وضوضاء تصمان الآذان، فالبنيوريون الاشداء ، الفقراء بالحديد ، الحريصون على ارهاف أسنة رماحهم ، فالاتولوليون الخفاف كالغزلان ، السريعون كالبرق ، فاللوتوفاجيون ( اكلة التلوفر ) ، فالقرمنطيون ، فالنسمانيون الذين ينتزعون من الامواج بقايا السفن وقد دمرتها العواصف .

واخيرا ، ها هي الفرقة الثالثة مؤلفة من الاسبان . في طليعتها الكنتبريون الذين يقهرون الجوع والعطش ، والحر والقر ، والمتاعب والارهاق، فالاستوريون على خيولهم الصغيرة ، فالكليسيون الذين هجروا نساءهم وكل ما لا يمت الى الحرب بصلة ، فالسرتانيون سكان سردانية ، فالفسكونيون رافضو الاعتمار بالخوذة ، فالكونكانيون ، شاربو الدماء حارة من شرايين خيولهم ، ورجال الردا وتراكون ، وفتونية ، وقسطولون ، وهسبباليس ، ونبريسة . وبين هؤلاء جميعا تلمع التروس الفضية والاسلحة الماضية في فوج سيداتين ، وعلى رجال أوكسامة ، وعلى خوذهم رؤوس الضواري ، فاغرة أشداقها ، تستقطب الانظار وتبعث الدهشة والخوف . ويأتي بعد هؤلاء رجال الجزر ، سادة المهارة في القتال ، والرمي بالمقلاع ، يطلقون على العدو رصاصهم المجنح ، وعلى رأسهم رهط من القادة .

وفي مؤخرة الفرق الثلاث أربعون فيلا يختم بها العرض العظيم .

قدر بوليبيوس هذا الجيش بتسعين الف راجل ، واثني عشر الف فارس . وقال مؤرخون اخرون ان هذا العدد مبالغ فيه .

وزحف هنيبعل بجيشه فاخضع شمالي اسبانيا ، من نهر الايبر الى جبال البيرينه مصمما على شق طريقه الى ايطاليا . ولا شك ان المقاومة العنيفة التي لقيها في هذه المنطقة من اسبانيا كانت تغذيها وتشجعها رومة عن طريق مرسيليا . فالمعركة اذن بينه وبين الرومان قد بدأت . وكان قصد القيادة الرومانية ان تنهك جيش هنيبعل في حرب طويلة مع القبائل الاسبانية الشمالية قبل ان تصطدم به ، حسب تقديرها ، في جنوبي فرنسا ، في منطقة الرون .

تضاربت آراء المؤرخين القدماء والمحدثين حول عدد جيش هنيبعل الذي غادر قرطجنة في ربيع سنة ٢١٨ ق.م. . والمرجح ان بوليبيوس صادق هذه المرة . فليس من المعقول ان يقوم هنيبعل بحملة تستهدف رومة ، وستضطر

ان تقاتل على خطها الطويل أقواما كثيرة ، بأقل من هذا العدد . واذا جاز انزال هذا العدد فليس الى أقل من ثمانين الفا في مجموعه . ولقد خسر هنيبعل عشرة الاف مقاتل لاخضاع شمالي اسبانيا ، ثم ترك القائد حنون في اسبانيا الشمالية مع عشرة الاف مقاتل ، وأخذ آلاف الرهائن من المناطق المخضعة حديثا ، فأرسلها الى القيادة الباقية في قرطجنة .

وعندما اجتاز جبال البيرينه وأعلن لجيشه هدفه البعيد ، بما يرافقه من مخاطر وما يمنيه من آمال ومغانم ، وما يثيره من بطولات متحدية ، أعلن الجيش بحماسته استعداده للسير الى حيث يريد القائد الشاب الذي عرف كيف يخلق فيه « عصبية القطعة » المولعة بقائدها وبمطامحه البعيدة . ولكن جماعة من الكابيتانيين الذين يربو عددهم على ثلاثة الاف ، تحينوا فرصة وهربوا من الجيش . كما انه شعر بهمس بين أفراد يتذمرون من بعد الهدف وصعوبة الابتعاد عن أرضهم وأهلهم . فجمع جيشه وأعلن بوضوح الهدف البعيد الذي يسير اليه طالبا الى الذين يتهيبون مشقات هذه الحملة ان يعودوا الى ديارهم ، فخرج من الجيش سبعة الاف اخرين سهل لهم طريق العودة الى اسبانيا . وهكذا تخلص هنيبعل من هذه العناصر المثبطة للعزائم ، وتاكد من استعداد الباقين للمسير في المغامرة الصعبة .

تمكن من اقناع الجلالقة بأن ما حدث في اسبانيا من فتوحات هو أعمال عسكرية محلية لا علاقة لها ببلادهم ، وانه يعتبرهم حلفاء طبيعيين لاسبانيا الفينيقية ، وحلفاء له في هذه الحملة على رومة . فتحمسوا ووعدوه بتقديم جميع المساعدات لجيشه ليعبر جبال الالب ، وأعربوا عن استعدادهم لتقديم وحدات تساعده في الحرب . وقد أوضح هنيبعل ان حربه لا تستهدف المجد العسكري والمغانم لشعبه ، بل تحرير الشعوب الايطالية من الطغيان الروماني، وبالنتيجة الطبيعية سيبتعد خطر رومة عنهم ، وحرضهم على نشر هذه الحقائق بين قبائلهم وبين الشعوب الايطالية أيضا ، فطمأنه زعماء الجلالقة بأن الشعوب الايطالية ومن بينها جلالقة شمالي ايطاليا ، المتاخمون لجبال الالب سينتفضون على رومة الظالمة حالما يرون جيشه على أرض ايطاليا .

وهكذا بدأ هنيبعل زحفه تحدوه غايات ثلاث . الاولى عبور الالب ، والثانية تسجيل انتصارات سريعة ، والثالثة تحريك الاقوام والمدن الايطالية المقهورة لتنتفض وتنضم الى جيشه لمحاربة رومة .

عندما اجتاز جبال البيرينه تحرك الجيش الروماني . كانت خطة القيادة ان يرسل جيش روماني الى الجنوب الغربي من فرنسا ، منطقة مرسيليا ونهر الرون ، ليوقف زحف هنيبعل . ينتقل هذا الجيش بحرا من بيزا الى مرسيليا ، ومن هناك ، بمساعدة المرسيليين في المؤن والاتصال السياسي بقبائل الجلالقة ، اما أن يرد هنيبعل على أعقابه الى اسبانيا ، واما ان تدور المعارك الفاصلة بين الجيش الروماني وبينه على أرض فرنسا . وقائد هذا

الجيش هو كورنيليوس سيبيون .

وقد شملت الخطة ان تسير أيضا حملة بحرية جبارة ، من صقلية ، على قرطاضة بقيادة تيباريوس سيميرونيوس لونغوس . وهكذا تشغل الجبهتان ، الاسبانية والقرطاضية ، فلا تقدر احداها ان تنجد الاخرى . ومنذ نزول سيبيون في مرسيليا كان سباق بينه وبين هنيبعل . وعجز سيبيون عن ادراك القائد القرطاضي الزاحف بسرعة نحو سفوح جبال الالب . ولم يلبث سيبيون ، بعد مطاردة هنيبعل دون جدوى ، ان تنبه الى خطة عدوه ، وفهم ان المعارك لن تدور لا في فرنسا ولا في اسبانيا بل في ايطاليا نفسها .

وجه سيبيون جيشه نحو اسبانيا بقيادة شقيقه كايوس سيبيون ليفتح جبهة هناك وراء هنيبعل . فقد اعتقد ان من الافضل البدء بغزو بلاد هنيبعل طالما ان هذا قاصدا ايطاليا . وفي غيابه ستكون أسنح فرصة للرومان للقيام بهذا العمل ، فهناك سيلتقون بحلفائهم القدماء ، أهل ساغونتي ، الذين شردهم هنيبعل ونهب مدينتهم . وأبحر سيبيون هو وحده الى ايطاليا . كان عنده جيش يقاتل الجلالقة في المنطقة التي سيجتازها هنيبعل من شمالي ايطاليا اذا قدر له ان يعبر جبال الالب . أسرع الروماني ليتسلم قيادته وينتظر الحملة الفينيقية عندما تخرج من منحدرات الجبال . وكان يقدر ان هنيبعل ، اذا وصل ، سيصل منهوكا ، مشوها في وحدات جيشه ، يقود قوات محدودة العدد بعد الخسائر التي سيتكبدها في مغامرته الجنونية .

## هنيبعل يعبر جبال الألب

في العاشر من أيلول سنة ٢١٨ ق.م. كان هنيبعل في بدء طريق الجبال، طريق جبل سينيس ، تلك التي توصله الى منطقة حلفائه البويين ، أعداء الرومان الالداء .

حملة من خمسين الف مقاتل : مشاة وخيالة وفيلة ، اعتدة كاملة لهذه الحملة الكبرى من ثقيلة لحصار المدن ومتوسطة وخفيفة تنقلها الاف الخيل والبغال ، قطعان من البقر وسائر أنواع الماشية تمشي وراء الحملة ، مئات الادلاء من الجلالقة يرافقون الجيش ، وهم خبراء في الطرق الجبلية وخبراء في القبائل التي سيجتاز الجيش أرضها . كل هذا العالم من الاحياء يسير بمشيئة انسان ، انسان لا توقفه العقبات ولا تثنيه قوة عن عزمه . الجبال ستكون مطية لمطامحه ، ورومة على بعد الاف الاميال من وقع أقدام جنوده .

البرابرة ، على حافتي طريقه ، مندهشون مرتعدون ، يتهيبون لاول مرة في حياتهم مرأى هذا الخط من الجبابرة المتحدين أرضهم وجبالهم وسماءهم ، وقد اعتقدوها عاصية على غيرهم من البشر . لقد تململت حياتهم وثارت ضراوتهم وتحركت شهوتهم الى الانقضاض والقتل والنهب ، وهم يرون عالما

من المغانم يزحف متجبرا أمامهم . ولكن الزعماء والادلاء من أعراقهم سبقوا هنيبعل وهمسوا في آذانهم : ان هذا العملاق الزاحف على دنيا الرومان هو صديق لا عدو . هو الذي سيحطم القوة التي تقض عليهم هدوء حياتهم ، وهو الذي سيتيح لهم طريق الغزوات من جديد ، وهو لا يستهدف المغانم والاسلاب ، بل تحرير الاقوام المغلوبة من ظلامها وقاهريها . كل المغانم التي تقع على جانبي معاركه ستكون لكم ، وكل الارض التي سيجتاحها جيشه ستلقي بخيراتها بين ايديكم . اما اذا اثرتموه وعاديتموه ، فانه جبار مخيف ، ينقلب عليكم ويدمر معالم حياتكم ويحول أرضكم نارا وخرابا .

لم يشذ عن الاتفاق والتعليمات التي أعطاها الجلالقة لابناء جنسهم الا قبيلتان . ولقد تمكن هنيبعل ، بحذره من جهة وبدهائه الحربي من جهة ثانية، ان يتخلص بدون معارك كبيرة .

في العشرين من أيلول كان هنيبعل وجيشه على قمة جبل سينيس العليا، ينفسح تحت أقدامهم صرد واسع يتقبل أشعة شمس منيرة لا تحجبها غيوم، بل تنفتح السماء أمامهم وتمتد المرتفعات والاكام والسهول على مرمى انظارهم كأنها حدائق تلتف حول تلك الاعالي الشامخة تقدم لها الاعطار البكر لتوصلها الى السماء .

المتخلفون عن القافلة الكبرى يصلون تعبين مرهقين ، وهنيبعل يصوب ناظريه الى رومة المرتاعة في أبعادها ، والى ايطاليا المنتظرة احداث الغد الكبرى . أومأ القائد الى جيشه بالاقتراب منه ، وبالتقدم الى حافة الصرد . وهناك دل بيده على الافق وقال :

« أنظروا بعيدا بعيدا ، هناك رومة العاتية تنتظر القضاء والقدر . والقضاء والقدر هو أنتم . وهذه الاقوام والمدن الممتدة في هذه الابعاد تنتظركم لتستقبلكم ، وتنتظر الخلاص . والخلاص فيكم . ها أنتم متعبون ، مجشمون، تنامون في خيام رثة ، وتلتحفون أغطية عتيقة . وغدا تخضع هذه المدن بخيراتها لمتناول يدكم ، وتنفتح منازلها لقدومكم ، فتنسون هذه المتاعب ، وتنتقلون من الحرمان الى التمتع . ولن يكون ما تنالونه من راحة وهناء الا ليشدد عزائمكم ويوطد ارادتكم على سحق هذه المدينة التي تستعد لمقاومتكم : رومة .

« قد رأيتم الان ان لا جبال تصل الى السماء ، وان لا أرض ، مهما علت ، تعصى على وطء أقدام الانسان . ومن يذلل هذه الجبال الشاهقة لا قوة تقف في وجهه » (٣٧) .

« لم يكن هنيبعل قائدا بدائيا كغالبية كبار القادة في زمانه ، بدءا بوالده . لقد تلقى تعليما معينا . كان للفتى هنيبعل معلم يوناني لقنه ، دون شك ، كيفية استعمال لغته . ونحن نعرف كذلك ان سكرتيره كان رجل علم يوناني . وهو لم يكن يجهل قيمة الاعمال الفنية ويهتم بالمحافظة عليها من التدمير . في

حياته اليومية ، كان بسيطا ورزينا . لم يكن يتذوق اناقة الملبس ولم يكن هندامه يختلف عن هندام جنوده . انما حصانه كان دائما غني الزينة ، واسلحته كانت ذات قيمة لا تقدر . الرفاه وملذات المأكل لم تكن في حسابه ، والنساء لا يجذبنه الا قليلا جدا » (٣٨) .

وفي هذه الحملة التي ستستمر خمسة عشر عاما على أرض العدو ستظهر فضائل هنيبعل هذه بأجمل صورها . فهو القائد الحضاري الذي لا يزرع الدمار والخراب في المناطق التي يحتلها . وهو لا يستعمل أساليب التخريب الا عندما تضطره خطته الحربية لاستفزاز العدو وجره الى المعركة في مكان معين . وحتى في هذه الحالة هو يجور على المزارع والممتلكات أكثر مما يتناول السكان العزل . فالمفرضون من المؤرخين لم يتمكنوا من النيل منه في هذه الناحية .

وفي صباح ٢١ أيلول غادر هنيبعل قمة جبل سينيس انحدارا نحو الارض الايطالية . وقد كانت الطبيعة أعنف على جيشه من البشر ، وكانت خسائره في الارواح والاعتدة تضاهي خسائر مرحلة الصعود الى القمة .

في السادس والعشرين من الشهر نفسه خرجت الجحافل من مضائق الجبل ودخلت في وادي نوفاليز ، الارض الايطالية الاولى . وقد استغرق عبور الالب خمسة عشر يوما فقط صعودا ونزولا .

استعد هنيبعل . جيشه كان ستة وعشرين الفا فقط . أربعة وعشرون الفا هلكوا في صقيع الجبال وفي مهاويها المخيفة ، وابتلعتهم أشداق الابدية ، وكفنتهم بالثلوج أعماق وهاد سحيقة .

هنيبعل على الارض الايطالية . تفصل بينه وبين قواعده جبال الالب التي أهلكت نصف جيشه . من ورائها الجلالقة ، ومن امامها جلالقة ، هو بينهم الان ، يترجرجون في التردد والتقلب . ها هو في بلادهم منذ أيام ، يأخذ قسطا من الراحة ، ولم يسرعوا الى استقباله ، ولم يعلنوا انضمامهم الى قواته ، كما وعده بنو قومهم عبر الالب .

الاقوام البدائية هي دائما شكاكة ، ماكرة ، متحفظة ، غدارة ، لا تذعن الا للقوة ، ولا تبهرها الا مظاهر العظمة والضخامة والعدد الجرار . وهي لم تجد أمامها ما صور لها من عظمة هنيبعل وقواته الجرارة الساحقة . فهي ترى ستة وعشرين الفا من الجنود الرثة الجائعة ، ومن الخيالة العاديين في مظهرهم . ومنذ وصولهم بدأوا بالمصادرات ليأكلوا ويلبسوا وينامو ا . وهي تعلم ما هي امكانيات رومة في الحرب ، وما هو جلد الرومان وصبرهم على القتال ، وما هي شراستهم اذا ما انقلب عليهم قوم ثم وقعوا في أيديهم : فمصيرهم يكون الابادة والدمار . رومة تقدر ان تجند سبعمائة الف مقاتل بين مواطن وحليف . وموارد الارض الايطالية والشعوب الايطالية تحت تصرفها، تصادرها ساعة تشاء .

فهل يعقل ان يتغلب هؤلاء التعساء المحدودون بعددهم ووسائلهم على دولة تسيطر على هذه الامكانيات الضخمة ؟ خصوصا وهي دولة عسكرية ، تحترف الحرب وتعرف أسرارها وطرائقها ، تقصد عدوها الى بلاده ولو كان وراء البحار ، فكيف بها الان وقد رأت العدو على أرضها يهدد كيانها وحياتها ؟

هذا ما كان يخامر أفكار أولئك الناس البدائيين ، وهم على حق في ما يفكرون . وهذا ما قراه هنيبعل في أفكارهم وترددهم وتهربهم من مواجهته ، فلم ينضم اليه الا قبيلة واحدة هي قبيلة الانسوبريين .

ولكن هنيبعل هو هنا . رومة وامكاناتها المملاقة أمامه ، وجبال الالب من ورائه . لا مفر من المعارك ، ولا بد من انتصار ساحق مدو ، والا انهارت الحملة قبل ان تباشر أي عمل عسكري .

واذا كانت الارقام لا تشجعه ، وهو على رأس جيش صغير من ستة وعشرين الف مقاتل يتحدى بهم حجم روما ، القائم والممكن ، فهو ، في اعماق نفسه ، يحمل ايمانا كبيرا بدوره التاريخي في تحطيم قوة جديدة يعتبرها بدائية بالنسبة الى حضارة شعبه ومستواها الثقافي والاخلاقي ، وهي تشكل خطرا على تلك الحضارة وعلى مصالح شعبه العليا ، وعلى الحياة المتوسطية بكاملها . كان مؤمنا ان عبقريته العسكرية قادرة ان تنتصر بالقضية الكبرى

المقدسة التي يحمل ويمثل : قضية مصالح شعبه العليا ، ومصلحة الانسانية والحضارة عامة .

وأسرع هنيبعل بمغادرة المنطقة المترددة ، لينتقل الى منطقة عدوة صرف، مفتشا عن المعارك ولسان حاله يقول : « كل يعلن نفسه حالا صديقا للمنتصر، حتى الذين يبغضونه ، أما المنكسر فلا يجد اخلاصا وتفانيا عند أحد ، حتى عند من هم له » (٣٩) .

اذا كان هنيبعل خياليا جامحا في مخططه الكبير للتغلب على رومة وتدمير دولتها والسيطرة على ايطاليا بهذه الامكانات المحدودة ، فانه لم يكن خياليا في الخطط الحربية وفي تصاميم المعارك . فبقدر ما كان مغامرا في حملته ، كان حذرا واقعيا ، مقلبا الحالة من جميع وجوهها عندما أصبح في ايطاليا ، يرود تلك البلاد الجديدة عليه ، ساعيا لتسجيل انتصار كبير قبل ان يدب التردد والخوف في جيشه .

## المعارك الثلاثة الأولى

قام هنيبعل بأربع معارك كبرى في ايطاليا ضد الجيوش الرومانية المتجبرة : الاولى معركة « تيسان » والثانية معركة « تريبيا » ، والثالثة معركة بحيرة « ترازيمان » ، والرابعة ، وهي أعظمها واخلدها معركة « كاني » .

في هذه المعارك الاربع قذفت رومة بقادتها وأبطالها وطاقتها الحربية وعنادها وصبرها وايمانها بنفسها وقدرتها على تحمل الهزائم بدون ان تسحق نفسيتها .

في هذه المعارك تجلت عبقرية هنيبعل العسكرية ، فدمرت الاجهزة الحربية الرومانية تدميرا رهيبا لا يتحمله في ذلك الزمان الا من كان في وضع رومة الجديد .

في هذه المعارك الاربع حجب هنيبعل كل ما قبله من معارك ، حتى معركة ايسوس التي انتصر فيها الاسكندر على القوات الفارسية . اذ ان معركة ايسوس لم يكن فيها تكافؤ في الفن العسكري : فالفرس واجهوا بتنظيمهم العسكري العتيق جيشا كان أحدث جيش في العالم بتنظيمه وعبقرية قيادته . اما سنيبعل فقد واجه جيوشا تحترف الحرب ويطور قادتها فنونه بين معركة ومعركة ، وهم لم يكفوا عن الحرب والانتصار منذ نصف قرن ( ٢٦٤ — ٢١٦ ق.م. ) ، وان كان انتصارهم على فينيقيا واليونان هو انتصار البربري على الحضارة . كان هنيبعل ، لمن بعده ، ذلك القائد المعلم الذي طبقت تعاليمه الحربية حتى في معركة ستالينغراد الاخيرة . ولن تتناول هذه الدراسة ناحية الفن العسكري والعبقرية الاستراتيجية من معارك هنيبعل الاربع ، فليس ذلك من اختصاص هذه الدراسة ، ولكنها ستتناولها مع ما

سيتبعها من معارك حتى معركة زاما من جميع النواحي الاخرى .

كانت انتصارات هنيبعل في تلك المعارك كأنها موجة من الصواعق ، يقوى دويها من واحدة الى أخرى ، حتى جاءت « كاني » كأنها صاعقة القضاء والقدر . لو درس المؤرخون الغربيون ملحمة هنيبعل في حملته على رومة بنفس الاندفاع والحماسة والاهتمام التي درسوا بها حملة الاسكندر وحروب يوليوس قيصر ونابليون ، لكانوا اجمعوا كلهم على ان هنيبعل ، كفرد ضد دولة كالدولة الرومانية ، هو أعظم قائد عسكري في جميع العصور وجميع الامم .

ولو لم تكن ملحمة هنيبعل اقتضت أن تكون الحضارة السورية في غربي المتوسط ثمنا لعظمتها وأمجادها ، لحسبها السوريون ايضا أعظم المآثر السورية اطلاقا .

من الناحية السياسية كانت حملة هنيبعل محاولة جبارة اخيرة لانقاذ « نظام المدينة » العتيق الذي افلس في سومر في عهد سرجون الاول ( ٢٥٠٠ ق.م.) ، وافلس في فينيقيا في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد عندما اجتاحها الجيش الاشوري ، وافلس في اليونان عندما اجتاحها فيليب ، وافلس في قرطاضة في الحرب الفينيقية الاولى . فهو النظام السياسي الذي تخطاه الزمان وصرعته مفاهيم الامة الجديدة . وقد توضحت هذه المفاهيم في الدولة الرومانية الجديدة التي خاضت الحرب الفينيقية الاولى سنة ٢٦٤ ق.م. فمحاولة هنيبعل ، العبقرية في تخطيطها العسكري ، كانت رجعية في مفاهيمها السياسية والقومية ، كانت هدرا لعبقريته وقواته المسلحة وتبديدا للبناء الجديد الذي باشره والده في اسبانيا .

والذي ضلل هنيبعل هو ان رومة تبدلت في جوهرها دون ان تتبدل في اسمها . فقد اصبحت أمة ايطالية مترابطة ، متحالفة ، متعاونة ، مرغمة في بعض المناطق وبعض المدن ، ولكنها أصبحت أمة تنضوي تحت شعار مدينة .

لقد اعتبرها هنيبعل امبراطورية تشد اليها ، عنوة وقسرا ، شعوبا تتوق كلها الى التحرر . والحقيقة ان التذمر الذي كان باقيا عند هذه الشعوب من الوحدة التي فرضتها عليها رومة ، لم يكن الا شعورا من بقايا القبلية والفردية والاقليمية يتراخى سنة بعد سنة ، وينساق تدريجيا نحو فهم واقعه الجديد وارتضائه . ولم يكن مستعدا ان ينفك عن تلك الوحدة القومية الجديدة الا مرغما ، كما انضم اليها مرغما في البداية . فالجلالقة انفسهم ، الد اعداء الرومان ، كانوا مترددين متحفظين يبدلون مواقفهم بين معركة ومعركة . فليست الحروب والثورات هكذا سهلة على الشعوب اذا لم تكن تحركها عقيدة جديدة متغلغلة في وجدانهم بجميع مفاهيمها وقيمها الجديدة . فأية عقيدة يقدم لها هنيبعل ، ان لم يكن سرابا من الانتصار يتراءى فجأة ثم يتوارى . وأية افضلية كبرى كانت « لحلفاء » رومة الايطاليين ان يبدلوا سيدا بسيد آخر . وهذا السيد العتيق قد عرفوه وخبروا أساليبه وارتضوا أن يحيوا معه في

السلم والحرب ، اما هذا الجديد ، وهو لم ينتصر بعد ، فلا يعلمون ما يكون مصيرهم معه . هو يزعم انه آت ليحررهم ، ولكن البدائية الشكاكة لم تكن تؤمن بهذه المزاعم . ولكن الملحمة التي بدأ فصولها هنيبعل بعبور جبال الالب يجب ان تكتمل . وها هو يقترب من خصمه سيبيون ، ويسير نحو الاصطدام الاول .

اجتاز بوليبيوس سيبيون ساقية « تيسان » ، أحد روافد نهر البو ، جادا لملاقاة هنيبعل . ولم يكن يقل توقا الى العراك عن خصمه القرطاضي ، فهو يريد ان يدمر تشكيلة ذلك « الافريقي الوقح » المتجاسر أن يدوس أرض ايطاليا . وكان هنيبعل في الوقت نفسه يتجه نحوه محاذيا الضفة اليمنى من الرافد . وما زال الجيشان في سيرهما حتى اصبحا وجها لوجه ، فكانت بداية الحرب الفينيقية الثانية .

كان القائدان في نفسية الذئاب المفترسة . اما المقاتلون فكانوا يختلفون في الاستعداد النفسي اختلافا أساسيا . كان القائد الروماني قد أعطى صورة مزرية عن جيش هنيبعل : فلول من جيش هدمته الجبال نفسيا وجسديا ، يجر نفسه جرا . مشاة منهوكو القوى يسيرون الى حتفهم سير النعاج ، وخيالة بدون خيل ، واذا كان بقي قسم من خيولهم فأنها تكون تعبة لا تصلح للمعارك . اما هنيبعل فكان قد أرسخ في عقول جنوده وقلوبهم ، ان عليهم أن ينتصروا أو أن يموتوا . وان لا جيش في العالم يكون شعاره الموت أو الانتصار الا وينتصر . وان التخاذل يعني الموت الحقير للقتلى ، والعبودية المخيفة للاسرى . وقد أصبحت الحالة واضحة لكل جندي من جنوده : الجبال وراءهم تقدمهم للاسر والهوان ، وروما أمامهم تجذبهم الى المجد والمغانم .

كانت المعركة مرتجلة في مخططها : اطلق هنيبعل خيالته النوميديين بقيادة شقيقه الفتى ماغون ، شبل هميلقار الاصغر ، فأنقضت بعنف على الفرق الرومانية وكانت الصدمة رهيبة . تلقى الرومان الصدمة العنيفة بعجز وانثنوا الى الوراء ، فشددهم سيبيون ليثبتوا ولكنه جرح في أثناء المعركة ، ودبت الفوضى في صفوفهم عندما اضطر ان يترك القيادة . وقد تضعضعوا كليا عندما طوقتهم خيالة ماغون ، وانقضت عليهم من الوراء تبيدهم . تبعثر جيش سيبيون ، والذين فروا من المعركة اجتازوا نهر البو وهدموا الجسر وراءهم خوفا من مطاردة الخيالة .

لم يتوقع هنيبعل انهزام العدو بهذه السرعة ، فوقف مندهشا لا يجد امامه الا الاموات والمحتضرين . وكانت تصفية المعركة مفاجأة له ، اذ فاتته مطاردة العدو للاجهاز عليه كليا .

اما الاسرى الذين وقعوا في ايدي القرطاضيين فقد كانوا ثلاثة اصناف : رومان ، وحلفاء ، وجلالقة . ومنذ هذه المعركة الاولى اخذ هنيبعل يطبق خطته السياسية في ايطاليا : اطلق سراح الجلالقة قائلا لهم ان قومهم هم

حلفاؤه ، وهو قد أتى ليتعاون معهم لا ليحاربهم . وأطلق سراح حلفاء الرومان موضحا لهم انه أتى ليحرر الاقوام الايطالية التي تتحمل مظالم رومة ، وأوصاهم أن يفهموا مواطنيهم ما هي نواياه نحوهم . أما الرومان فقد ابقاهم أسرى في معسكره . وما أن وصل الاسرى المحررون الى مناطقهم وأعطوا وصفا لانتصار القرطاضيين الصاعق ولمعاملة هنيبعل الانسانية لهم حتى أقبلت بعض قبائل الجلالقة تعلن انضمامها الى المعسكر القرطاضي وتأييدها له في سياسته .

بدأت نتائج المعركة تبدل الاوضاع والافكار . لقد ارتاع سيبيون الجريح من موجة الانفكاك عن رومة لتأييد هنيبعل ، فخاف من مفاجآت على جيشه وابتعد جنوبا نحو رافد « تريبيا » . وأعطيت الاوامر الى الحملة التي كانت معدة لافريقيا في صقلية لتعود بسرعة الى ايطاليا فتنضم الى جيش سيبيون . وقد اكتفي ، خارج ايطاليا ، بحملة كايوس سيبيون في اسبانيا .

شعر هنيبعل انه شق طوق الوحشة الخانقة التي كانت مطبقة عليه . وشعر الجلالقة انهم قادرون ان يرتكزوا على قوته فتحمسوا لقضيته . وهم الاقوام التي ما تزال مستعدة ان تنتفض بسهولة على رومة ، فاحقادها لم تخمد نارها بعد وأملها بالتحرر من النير الروماني ما يزال حيا ينتظر ظروفا مؤاتية .

وسحب القوات من صقلية الى ايطاليا قد أزال شبح الحرب عن قرطاضة ، وبرهن لهنيبعل ان اعداد الجيوش الجرارة لمقاتلته ليس امرا كثير السهولة على الرومان . وبقي منتظرا ان يعلم ماذا جرى في اسبانيا . وتحمس الجلالقة ، من نتائج المعركة الاولى ، جعله يعتقد ان نتائج معركة ثانية تحرك حلفاء رومة وتدفع الجلالقة نحوه بحمية أقوى . عليه اذن ان يجر العدو الى معركة ثانية . جيشه ارتفعت معنوياته ، وهو في توق لخوض معركة جديدة .

وصل الجيش الروماني من صقلية بقيادة تيباريوس سيميرونيوس لونغوس . القائد الجديد هو من عامة الشعب الروماني ، وسيبيون هو من الاشراف . القلوب بين الفئتين ليست صافية ، والمنافسة دائمة . الاشراف يدعون عراقة تقاليدهم في القيادة ، وأبناء الشعب يريدون ان يبرهنوا ان العبقرية والشجاعة والقيادة لا تحتكرها فئة او طبقة في رومة .

كان لونغوس متحمسا لخوض معركة ضد هنيبعل . لقد راعه خبر انتصاره ، ووجد الفرصة سانحة لضرب عصفورين بحجر واحد : الانتصار على هنيبعل والحد من كبرياء سيبيون وغروره . نصح سيبيون بالفطنة والحذر بعد ان اختبر هنيبعل في المعركة ، كما أشار بالتريث ومخاتلة العدو وعدم خوض المعارك في الربيع ، وكان الوقت في اواخر كانون الاول ، حينذاك يكون الجلالقة قد سئموا الانتظار لرؤية الانتصارات التي يعدهم بها هنيبعل ، فيتراجعوا عن محالفته كما فعلوا معنا اليوم . ونبه بصورة خاصة الى أن

جيش هنيبعل هو جيش محترف خاض المعارك العديدة في اسبانيا ، وتعرض لمخاطر وعقبات تغلب عليها ، فتمرس وخشن وتقسى كمقاتل ، وخبر خدع القتال ومداوراته وهول الصدمات العنيفة وصدها . أما الجيش الروماني الواصل من صقلية فهو بأكثره من الجند الاغرار المتحمسين والمندفعين في قلوبهم ، ولكن تدريبهم الاولي لا يؤهلهم ان ينازلوا ، بهذه السرعة ، هذا الجيش القرطاضي الذي شاهد سيبيون مرونته وقوته في القتال .

سمع لونغوس لسيبيون ولكنه لم يأخذ آراءه بكثير من التقدير والاحترام، ونسب كل هذه الآراء الى غاية شخصية . سيبيون يريد ان يضيع الفرصة عليه ، يريد ان يؤجل المعارك ليشترك فيها فيمحو عار الهزيمة الاولى . وكان هنيبعل يستفز الرومانيين باجتياح المزارع والقرى ، فترسل استغاثاتها الى الجيش طالبة حمايتها من النهب والتدمير . ولم يكن لونغوس قادرا ان يصبر على هذه الاعمال ، ويظهر بمظهر الضعف والعجز امام حلفاء رومة وأعدائها . وكان جواسيس هنيبعل المنخرطون في الجيش الروماني ، يطلعونه على المشادة القائمة بين القائدين ، فصمم على استغلالها وجر لونغوس الى معركة.

تقدم نحو رافد « تريبيا » ، وأقام معسكره على مقربة منه . كان البرد قارصا ومياه الشتاء قد رفعت مياه الرافد محولة اياه الى نهر صغير . درس مجرى الرافد فوجد مكانا تكثر فيه الادغال من الجانبين ويصلح للمعركة . غلغل بين الادغال الفا من مشاته والفا من خيالته عند منتصف الليل . وفي الصباح الباكر كان جيشه ، حول نيران عامرة وطعام وافر ، حاضرا للمعراك. وضع خطته الكاملة واعطى أوامره الى جميع القطعات . وكما فعل في المعركة الاولى ، أطلق خيالته النوميديين يتحرشون بالمعسكر الروماني ويستدرجون العدو الى النزال .

فوجيء لونغوس بالهجوم ، ولكنه أبى أن تضيع فرصة النصر ، فدفع خيالته للمطاردة . تظاهر ماغون بالانهزام فتراجع أمام المطاردين وعبر الساقية . ولم يكن خيالة لونغوس وحدهم يطاردونه بل الجيش الروماني كله . عبر خيالة لونغوس الساقية وراء المنهزمين ، وتبعهم المشاة بحماس شديد ، فغمرتهم المياه الى صدورهم ، ولكنهم عبروا بعزم وتوق الى القتال . وما أن أصبحوا على الضفة الثانية ، معدهم فارغة وثيابهم مبللة ورياح الثلوج تصفعهم في وجوههم ، حتى أمسوا في خور وعياء أمام عدو ينقض عليهم من الامام ، ويفاجئهم الخيالة والمشاة من مخابئهم من الوراء .

كان لا بد من القتال فهو محتم عليهم ، فقاتلوا بشجاعة . ولكن المعركة كانت خاطفة ، مخيفة في سرعة التنفيذ ودقته . اندفع الخيالة النوميديون كالصواعق والتفوا على الرومان من الوراء ضاربين قلب الجبهة بشدة . أما الميمنة والميسرة فداستهما الفيلة أولا ، ثم انقض عليهما المشاة يجهزون على الاحياء . أبيد الجناحان كليا ، أما القلب فارتد على الخيالة وتمكن من شق

طريق للفرار . عشرة الاف فروا من المعركة وسقط نحو عشرين ألفا في المعركة .

وعاد لونغوس الى معسكره يتذكر نصائح سيبيون . فاجأته الهزيمة المنكرة كصفعة لرجولته وحياته العسكرية والسياسية أمام الرأي العام الروماني المنتظر بحماس وفروغ صبر نتائج اصطدام جديد « بالافريقي الوقح » . وعندما شجعه سيبيون محاولا تخفيف وطأة الكارثة ، تمنى لونغوس أن يكون سقط في المعركة قبل ان تسقط عليه نظرات سيبيون الشامتة وراء كلامه المشجع . وحاول ان يخفف من أهمية الانكسار باطلاق شائعات متنوعة ، ولكن الرأي العام الروماني كان واعيا في تتبع اخبار الحرب ، خصوصا في هذه الظروف ، فأدرك الحقيقة وكانت له خيبة جديدة .

بعد المعركة تابع هنيبعل خطته السياسية المقررة : الانتصارات الحربية وسيلة للانتصارات السياسية . والهدف فك حلفاء رومة عنها ، لاعادتها مدينة معزولة عن الاقوام والمدن الايطالية . عامل الاسرى الجلالقة معاملة سموحة خاصة . أطلق سراحهم حالا وبدون فدية ، وكذلك حلفاء رومة : « فلتفهم شعوبكم اخيرا ، قال لهم هنيبعل عندما اطلق سراحهم ، اني اتيت الى هنا لمحاربة الرومان فقط ، ولاعيد الحرية والاستقلال الى جميع شعوب ايطاليا . لاعيد اليهم المدن والاراضي التي انتزعها منهم الرومان . فيجب عليهم ، اذا كانوا يفهمون مصالحهم ، أن ينضموا الى جبهته ويحاربوا الى جانبه . كانوا يصغون اليه بانتباه وعندما يعودون الى مناطقهم ينسون كل شيء » (٤٠) .

هذا الانتصار الثاني يسجل . رومة تجتاحها موجة من الهلع . لاول وهلة ظن الرومان ان كل شيء في طريق الانهيار . جلالقة الالب أشعلوا الثورة . عشرة الاف منهم انخرطوا في جيش هنيبعل شرط ان ينقل ميادين الحرب من بلادهم الى مناطق رومانية أخرى . قبل هنيبعل بالشروط ووعد بمغادرة بلادهم في أوائل الربيع . لونغوس توجه الى رومة ليخفف من موجة الخوف ويقلل من اهمية انتصار عدوه . وكانت الانتخابات في رومة على الابواب ، فما لبث الناس ان نسوا الهزيمة وانجرفوا في تيار الدعاية الانتخابية . وكانت نتائجها ان انتخب مجلس الشيوخ غنايوس سرفيليوس جيسينوس ، وانتخب حزب الشعب غايوس فلامينيوس نيبوس . وهما سيواجهان هنيبعل . كان سرفيليوس رجلا عاديا ، وكان فلامينيوس رجل اجتماعات خطابية اكثر منه رجل معارك .

كل ما بقي من اثر الانتصار الثاني ان عشرة الاف مقاتل من الجلالقة قد انضموا الى جيش هنيبعل ، وذلك ثمن لنقل المعارك الى أرض العدو . فالجلالقة كانوا يعتبرون ان هنيبعل كان يقاتل في أرض حلفائه ، وذلك يلحق بهم اضرارا كبيرة .

في مطلع الربيع (٢١٧ ق.م.) غادر هنيبعل بلاد الجلالقة الى منطقة

الاتروريين ( الاتروسكيين ) حلفاء قرطاضة، قديما ، قبل ان يدمر الرومان دولتهم . وقد اختار طريقا قصيرة وصعبة ، ليصل الى هذه المنطقة ، كلفته ضحايا كثيرة من جيشه وفقد احدى عينيه . لقد اجتاز منطقة تكثر فيها المستنقعات والخضاخض النتنة ، فينتشر فيها الهواء الفاسد الرطب حاملا الاوبئة وخصوصا البرداء . وقد اضطر هنيبعل ان يمشي ثلاثة أيام في المياه والوحول الآسنة . وفي صباح اليوم الرابع وصل الى وادي « فيزولي » حيث توقف الجيش ليرتاح من عناء تلك الرحلة المتعبة والخطرة .

وقد اهتم هنيبعل ، كعادته عندما يصل الى منطقة جديدة ، بارسال سباقته وجواسيسه ليكشفوا عن الجوار ، ويأخذوا المعلومات اللازمة . وراح هو شخصيا مع معاونيه يدرس طبيعة الارض مفتشا عن نقطة تصلح لاقامة معسكره ولخوض معركة في آن واحد . وقد وجد ضالته على مرتفعات محاذية لبحيرة « ترازيمان » ترتكز على كتف واد ضيق .

غادر هنيبعل فيزولي متوجها نحو الجنوب الى المكان المختار . وقد تتبع القنصل فلامينيوس خطواته ، لان اتجاه هنيبعل نحو الجنوب يمكن أن يفسر كأنه يزحف على رومة . وبعد ان وصل هنيبعل الى ضفاف البحيرة ، وأقام معسكره على المرتفعات محتفظا هو لنفسه بالمرتفع الذي يسيطر على منفذ الممر ، راى فلامينيوس قبل المساء يصل الى البحيرة أيضا . كان ذلك في ٢١ حزيران ٢١٧ ق.م. نام الجيش الروماني ليلته على ضفاف البحيرة وقبيل الفجر وصلت معلومات لهنيبعل ان فلامينيوس يتأهب لمتابعة طريقه ، ويبدو انه سيجتاز هذا الممر . وبعد برهة أعطى فلامينيوس امره بالمسير . ولندع المؤرخ جيرار فالتر يصف المعركة :

« ضباب كثيف يتصاعد من البحيرة ويمتد على الوادي ، كاسفا نور الشمس ، حاجبا الرجال والاشياء بين جدران من أشباح متحركة . الجنود يسيرون ولا يرون شيئا . جنود الميمنة يتحسسون نفحة الرطوبة آتية من البحيرة ، وجنود الميسرة يتوجسون بالغريزة وجود آكام ترافق سيرهم . هنيبعل لا يتحرك . ينصت الى وقع خطوات تتقدم ، وينجلي وقعها شيئا فشيئا ، وتقترب باستمرار . وتنقشع اخيرا ، بين غيوم بيضاء كلون الحليب ، كتلة غامضة من الاجسام تتراءى انعكاسات الدروع فيها ، هنا وهناك ، كأومضة هاربة في رماد تم اخماده . اذ ذاك أعطى كلمة السر : الى الامام !

وانطلقت اصوات رهيبة من أحد طرفي الوادي الى طرفه الاخر ردت عليها صراخات ممزقة : تلك كانت أصوات الضحايا الاولى تسقط تحت ضربات المهاجمين المنفجرين من العدم . الهجوم يأتي من جهة الهضاب . لقد ضرب الجناح الايسر من الجيش الروماني على طول مداه ، فشاعت الفوضى في جميع الصفوف . الطليعة وحدها نحو ستة الاف رجل وكانت قد قاربت اخر الممر ، قدرت ان تشق الطوق عندما انقضت بلا تبصر الى الامام ولجأت الى مرتفع قريب » .

ويكمل جيرار فالتر وصف المعركة بدقته البارعة فيقول : « لم تكن تلك معركة ، بل كانت التحاما مشوها وفاقدا كل نظام : ستون الف رجل منقسمون الى وحدات صغيرة يتذابحون بضراوة ، جسدا ضد جسد ، خلال ثلاث ساعات متواصلة » (٤١) .

بقي فلامينيوس بشجاعة فائقة ، في وسط المجزرة ، يواصل نداءاته ونصائحه وتهديداته لينظم القتال ويضع حدا للهلع والفوضى . ولكن محاولته كانت عبثا ، فسقط قتيلا مع خمسة عشر الفا ، وأسر خمسة عشر الفا ولم ينج من معركة ترازيمان الا الف روماني فقط . « وخسر القرطاضيون الفا وخمسمائة قتيل ، جلالقة في أكثرهم » (٤٢) .

لم يتمكن أحد من ايقاف أخبار الكارثة عن الوصول الى رومة بسرعة البرق . جيش فلامينيوس أبيد عن بكرة أبيه . القنصل سقط قتيلا في المعركة. لم يسلم الا الف روماني هم مشردون في المنطقة . ذلك كان الخبر الرهيب .

هرعت نساء رومة الى الساحات العامة يسألن عن صحة الخبر . ملأن الشوارع . زحفن الى مداخل المدينة يسألن العائدين عما جرى في ترازيمان . ما عدد القتلى ، والاسرى ، والمشردين ؟ النواح والعويل والتأوه في كل مكان من العاصمة . الامهات والشقيقات والزوجات يطوقن مجلس الشيوخ والجمعية العامة ، ينتظرن بلاغا رسميا ، ينشرن الهلع في العاصمة التي لم تعرف هذا الارتياع يوم كان الجلالقة حول أسوارها .

في اليوم التالي ، عند الفجر ، أطل أحد قضاة رومة من على شرفة مجلس الشيوخ وأعلن : « لقد هزمنا في معركة كبرى » ، وتوارى عن الانظار .

لم يبدل ذلك الاعلان المقتضب شيئا من الحالة . بقيت موجة الحزن والهلع في اندفاعها . الشعب يريد تفاصيل عن المعركة ، ولكن من يجرؤ الان أن يعطي تفاصيل معركة أبيد فيها جيش بكامله ؟ قبل ان يهتم المسؤولون باعطاء لوائح القتلى والاسرى والمشردين ، وهي لم تصلهم بعد ، يريدون أن يعلموا أين هو هنيبعل . هل هو زاحف على رومة ، أم هو باق مكانه ؟ لقد أخذت منهم الدهشة كل مأخذ ، وهم حائرون مبلبلون .

وبينما كان المسؤولون يدرسون الطريقة التي تمكنهم من رفع معنويات الشعب وايقاف تلك المناحة التي تقوم بها النساء ، وصل خبر ابادة النجدة التي أسرعت لمساعدة فلامينيوس بقيادة سرفيليوس ، وهي مؤلفة من أربعة الاف خيال . لقد تنسم أخبارها هنيبعل فأسرع للاقاتها فأباد منها الفين وأسر الفين.

عند وصول هذا الخبر ، طفح الكيل عند جميع طبقات الشعب الذي كان في ابان معركة انتخابية . لقد هب الشعب من كل صوب يقذف الحاكمين بانتقاداته اللاذعة : « ليتوقفوا اخيرا عن التفكير بالانتخابات ، ولينصرفوا الى الاهتمام بخلاص الوطن . لا نريد قناصل ! انهم جميعا عاجزون . فليعينوا دكتاتورا ! » (٤٣) .

أمام هذه الموجة الصاخبة اضطر مجلس الشيوخ ان يستجيب . أجلت الانتخابات ، وعين كونيتوس فابيوس مكسيموس دكتاتورا . « وكلف مجلس الشيوخ فابيوس :

١ — ان يرمم تحصينات العاصمة .

٢ — ان يضع الحاميات حيث يرى وجودها لازما .

٣ — ان يدمر جميع الجسور التي يرى من الضرورة تدميرها . فالدفاع الان لا يستهدف الا روما نفسها . لقد تنازل الرومان عن الدفاع عن ايطاليا» (٤٤).

## من ترازيمان الى كاني

في اليوم التالي جمع هنيبعل جميع الاسرى . اطلق سراح حلفاء الرومان وكرر عليهم ما قاله سابقا ، وهو انه لم يأت ليحارب الايطاليين بل الرومان وحدهم ، وانهم يجب ان يعتبروه كمحرر لا كفاتح . اما الرومان فقد اوصى بأن تشدد الحراسة عليهم . ثم عقد اجتماعا ضم شيقيقه ماغون ومساعديه الرئيسيين ، ودرسوا الوضع الطارىء . كان رأي الجميع أن يزحفوا توا على العاصمة فيستولوا عليها قبل أن يستفيق الرومان من خوفهم ودهشتهم . ولكن هنيبعل لم يكن من هذا الراي . فموجة الحلفاء ضد رومة لم تظهر بعد دلائلها . حتى الجلالقة ، الد أعداء رومة ، لم يجد فيهم تلك الحماسة التي كان ينتظرها لمقاتلة الرومان . وقد بدأ يشك في امكانية تحقيق فكرته فيما يختص بهذه الناحية . واتجه فكره الى الخارج : الى قرطاضة التي انقطعت أخبارها عنه ، الى اسبانيا ليعلم نتائج القتال ضد كنايوس سيبيون ، الى اليونان ليجس نبض فيليب ويعرف استعداده لقتال رومة ، الى سرقسطة ليعلم جو المحالفة بينها وبين رومة ، وقد تنسم خبرا مفاده ان هيرون ، الذي انتزعته رومة من قبضة قرطاضة في بدء الحرب الفينيقية الاولى وحالفته ، قد مات .

لم يكن في وضع عام يمكنه من شن الهجوم الاخير على رومة : ان جيشا رومانيا كبيرا كان ما يزال سليما قويا في منطقة اريمينوم ، ورومة قادرة ان تجيش جيوشا مثله ، فمعينها البشري غزير وما خسرته حتى الان لا يوازي عشر طاقتها الحربية . جيشه ما يزال يعاني أمراض عبوره منطقة المستنقعات ، وخيوله فقدت كثيرا من عددها وعزمها . اعتدته وذخائره يعتورها النقص من معركة الى معركة ، وهو نفسه مندهش من الانتصارات التي يحققها بالامكانات التي بين يديه . وقد بدل الرومان أوضاعهم الان ، حسبما وصله من معلومات ، فانتخبوا دكتاتورا منحوه صلاحيات مطلقة لينقذ رومة قبل أي شيء اخر . فآثر هنيبعل اعتماد الحكمة والحذر ، خصوصا وان فابيوس ، الدكتاتور المنتخب ، هو ثعلب عتيق لن يندفع الى الهلاك كما اندفع غيره ، بل سيداور ويراوغ ، مفسحا في المجال أمام هنيبعل لترميم

أوضاعه والقيام باتصالاته واعداد نفسه للمعارك المقبلة .

في مراحل المخاطر القصوى الطارئة كانت رومة تنتخب مسيطرا مطلق الصلاحيات لمدة معينة . والمسيطر ينتخبه القنصلان ، يتنازلان له عن صلاحياتهما ، ويمنحه مجلس الشيوخ صلاحيات جديدة . فالدستور الروماني كان أكمل دساتير ذلك الزمان : دقيقا معقدا في نصوصه ، يتناول جميع الحالات المحتملة ، محتاطا لكل الطوارىء . ومتى ارتفعت المخاطر الى المستوى الذي يهز رومة اليوم في اسسها ، ويصدعها في هيكل تكوينها السياسي ، فأن رومة تعطل جميع المنازعات السياسية والمجادلات الحزبية، وتسلم مصيرها لرجل مشهود له بالفكر النير والعزم الذي لا يكل والمبادرة الواعية المصممة . كل طاقات رومة البشرية والمادية تدفع الى يديه ، وتخضع لمشيئته ، وتنتظر أوامره . ومتى سحقت المخاطر وتبددت ، تعود رومة الى غليانها السياسي والانتخابي وتعود الاشياء الى مجاريها الطبيعية .

كونيتوس فابيوس مكسيموس هو المسيطر في رومة الان . مصير رومة بين يديه ، كمصير قرطاضة بين يدي هنيبعل منذ خمس سنوات . ولكن شتان بين وحدة رومة ، والمسيطر الذي يقود مصيرها ، واضعة جميع طاقاتها المادية والمعنوية بين يديه وتحت ارادته المطلقة ، وبين تنكر قرطاضة للرجل الذي تطوع للاضطلاع باعباء مصيرها ومصير كل ما هي مسؤولة عنه في عالمها الافريقي الجديد وفي عالمها السوري القديم . مع ان عبقرية هنيبعل في القيادة العسكرية المصيرية كانت تفوق جميع عبقريات رومة مجتمعة في شخص واحد .

بانتخاب فابيوس مسيطرا مطلقا ، تعود رومة ، بقدسية وخشوع ، بتبصر وتتى ، الى جذورها العميقة ، الى تسلسل أزمنتها المجيدة الغابرة ، الى تقاليد المحافظة والبطولة التي بنت عظمتها ، الى الالهة التي رافقت نموها وتقدمها وتفوقها . كونيتوس فابيوس يعود بأصله الى أسرة عريقة ، بعيدة في القدم، تمت بجوهرها الى عرق الهي شغل المراكز العليا في الدولة . وشجرة نسبه تنتزعه من صلب هرقل وتعبر به عشرات القرون لتوقفه اليوم في وجه الغازي الكنعاني ليدمره في عرينه كما دمر هرقل الشقي المعتدي كاكوس . ولكن هنيبعل في وجدانه لم يكن شقيا معتديا مثل كاكوس ، بل كان في ايطاليا كما كان قدموس في اليونان البدائية ، محررا وزارعا بذور الحضارة الكنعانية العالية ، يطلق سراح أسرى المدن والشعوب المظلومة ويزودهم بأفكاره التحريرية وعواطفه المصقولة الراقية ، ولا يستبقي منهم الا الرومان العتاة ، المعتدين على الحضارة في صقلية وسردينية وكورسكا ، والمزمعين ان يعتدوا على حوض المتوسط بأسره اذا قدر لهم الانتصار .

قدموس بنى طيبة اليونانية ووزع بذور الحضارة وحروف الهجاء على اليونانيين البدائيين ، وقتل التنين الذي كان يرعب منطقة بيونية بأسرها ، وهنيبعل سيقتل التنين الروماني الذي يريد أن يفرض مظالمه على الشعوب .

تلك كانت أفكار هنيبعل في ايطاليا .

ولكن رومة بفكرها السياسي المتفوق ، وتنظيمها العسكري الدقيق ، وروحها القومية الجديدة ، كانت أقوى وأمتن بكثير من اليونان البدائية. والقوة القومية الرومانية الجديدة التي يراها هنيبعل في صورة تنين ، ليست الا عقيدة قومية ومفاهيم سياسية جديدة لم تتبلور بعد خشونتها الشعبية ، ولم تتوضح مفاهيمها الاجتماعية السياسية ، ولم يدركها الكنعانيون المتجمدون في نظام المدينة ومفاهيمه العتيقة . ولذلك فان الانتصارات الحربية كانت عاجزة عن أن تفك وحدة سياسية وقومية رومانية نحتت وتكونت عبر قرون مليئة بالصراع الداخلي العنيف الذي ادى الى هذه الوحدة المتمتنة يوما بعد يوم . وها ان رومة ، أمام الخطر الرهيب ، يتبدد غرورها وعتوها واعتدادها فتنطوي على نفسها مستجمعة في وجدانها جميع مراحل صراعها الغابر ، مستوحية كل تقاليد البطولة والتعبد التي مارستها في ماضيها ، مستنفرة كل ما فيها من عزم وزخم واندفاع ، مقررة ان تنتصر أو ان تموت . لقد تبنت تلقائيا شعار هنيبعل : الانتصار أو الموت .

لم يكن فابيوس عبقريا فذا ، وانما كان يجسد الصفات الرومانية الرئيسية : الصبر ، والعناد ، والحكمة ، والتروي ، والصلابة ، والثقة المطلقة بقدرة الروماني على التغلب والانتصار في المراحل الصعبة . ومن ناحيته الشخصية كان موزونا ، مجردا من التسرع العنيف الذي يدفع الى ارتكاب اخطاء لا تعوض أحيانا ، يسير الى أهدافه مداورة ومطاولة حتى ينالها بعد جهد طويل . لا يحب المغامرة ، بل ينفذ تصميمه بحذر ، وتريث ، وتردد واع ساهر ، حتى اذا سنحت الفرصة الاكيدة ينقض كالذئب على فريسته ليسحقها بضربة واحدة كان يعد نفسه لها منذ أمد طويل . يقدم التضحيات البشرية والمادية مهما غلت متى تأكد من حسن النتيجة ، ويحجم عن مغامرة فيها قليل من الخطر حتى ولو كان التوفير في الضحايا والمال قليلا.

فهو كالعنكبوت الماكر ، يمد شباكه في ممر ، ويقبع في زاوية خفية ينتظر فريسته ، حتى اذا لطمت بشباكه وانقلبت متضعضعة ، طوقها بشباك جديدة، وجمد حركتها ، وامتص دماءها بشره ولذة . وهو الروماني الذي يرخص عنده كل شيء في سبيل رومة ، حتى الرومان أنفسهم . فمصلحة رومة الشعب ، ورومة الدولة ، ورومة السيادة والعظمة ، هي فوق كل مصلحة في العالم .

وها هو الان يتسلم مسؤولياته المطلقة . فهو قبل كل شيء يعود بالشعب الى الالهة ، الى التقاليد التي حفظت رومة ونصرتها عبر القرون . وهو يعلم ان الرجوع الى الالهة يولد الصبر على الشدائد ، ويدفع بالشعب الى الهدوء والتقيد بالنظام . فقد نسب جميع الانكسارات السابقة الى الابتعاد عن الالهة واهمال طقوسها وعباداتها ، فمحى بذلك فكرة عجز القادة التي

كانت تحولت عند الشعب الى موجة عارمة .

وبعد أن قدم الضحايا وتمم الطقوس الدينية ، عاد الى مؤسسات الدولة وزعماء رومة يستجلي أفكارهم وآراءهم ونصائحهم فنال ثقتهم وخوله مجلس الشيوخ ان يجند من الرومان والحلفاء ما يـراه هو ضروريا لسياسة الدفاع التي يتبعها .

قرر فابيوس أمرين هامين : الاول ان هنيبعل لا يغلب الان في المعارك الكبرى . والثاني ان المنعزل عن قواعده ، يفتقر الى النجدات ليجدد ملاكاته وقوات جيشه . لذلك يجب عرقلة سيره ، وتتبع خطواته ، وترك الايام تفعل في انهاكه وتدمير امله وصبره . اذن فهو يعلن على هنيبعل حرب التلف والنهك من جهة ، وحرب اليأس وفروغ الصبر من جهة ثانية . فأعطى اوامره الى جميع المناطق الايطالية باخلاء المدن والقرى والمزارع أمام زحف هنيبعل ، بحمل كل ما يمكن حمله من أثاث وغلال ، وباتلاف ما يعجز الشعب عن نقله. المدن ذات القلاع القوية يمكن أن تقاوم ضمن أسوارها ، والضعيفة يجب الانتقال منها الى مدن قوية . وعند الانسحاب لا يجوز ترك أي شيء يفيد منه العدو .

وبعد ان تسلم فابيوس جيش القنصل سرفيليوس وباقـي القـوات القنصلية من يد ممثل مجلس الشيوخ فولفيوس فلاكوس ، مشى يطارد هنيبعل ويتعقب خطواته . وقد لحق به في منطقة ايوليا في الجنوب الشرقي قـرب الجبال الاينية .

ويروي المؤرخون القدماء المنحازون لرومة أن هنيبعل أمر جيشه بقتل جميع الذكور الرومان على طريقه . ولكن المؤرخين المحدثين قد أجمعوا على اعتبار هذه الاخبار تحاملا مفضوحا على هنيبعل لتشويه سمعته . فأكثر قصص بوليبيوس ، مثلا ، تعتبر مختلقة من خياله الخصب في الاشاعـات الكاذبة ، لان سياسة هنيبعل تجاه سكان ايطاليا كانت معروفة ، فالذي يطلق سراح الاسرى بدون فدية ، ويعلن لهم بصراحة انه أتى ليحررهم لا ليحاربهم ، لا يمكن أن تتبدل سياسته بين عشية وضحاها ويأمر بقتل جميع الرجال الذين يجتاز مناطقهم . حتى الرومان انفسهم ، الد أعدائه ، لم يكن يسيء اليهم خارج المعارك ، بل يأسرهم ويعيدهم لقاء فدية عنهم . لم يكن هنيبعل يرتكب في زحفه أي نوع من أنواع الفظائع التي نسبها اليه مؤرخو الرومان ، ولكنه يصادر كل ما يحتاج اليه جيشه . كان بحاجة الى مؤن ومال والبسة . كانت خزينته فارغة ، فأخذ يفرض المبالغ الضخمة على الاغنياء . أقام معسكره في الجنوب الشرقي على ضفاف الادرياتيكي . ارسل رسله الى قرطاضة ، والى فيليب ملك مقدونيا . أرسل تقريرا ضافيا الى حكومة قرطاضة وحتى الان لم يصله أي جواب . قرطاضة ، الغافلة عن مآثر هنيبعل وانتصاراتـه المجيدة ، كانت ميالة الى صم آذانها عن ندائه . كانت تغتنم فرصة انشغال

رومة عن صقلية وسردينية فتجرد اسطولا يرود جوار الجزيرتين متحينا فرصة ليحاول استعادة ما خسرته قرطاضة في الحرب الفينيقية الاولى . قرطاضة تريد ان تضرب ذنب الافعى لاهية عن الراس الذي يريد هنيبعل سحقه لتعود جميع الجزر والبحار ميادين لاساطيل الكنعانيين . هنيبعل يقوم بجولاته المسلحة ليلهي جيشه ، لينتظر ، ليتصل بمن يريد ، ليتنكر على عدوه ، ليفتش عن مكان مناسب لاقتناص انتصار جديد بالقوات التي بين يديه ، لتمر الاشهر عسى الغد يطل عليه بمفاجأة سارة : من قرطاضة ، من اسبانيا ، من مقدونية . ولكن الايام تمر سراعا ولا تأتيه الا بالوحشة والانعزال . وهو يشعر اليوم كأنه وحيد في العالم . رومة ترتعد من وقع خطوات جيشه ثم تستعيد روعها . وتهتز مناطق حلفاء رومة من صدى انتصاراته ولكنها لا تلبث ان تعود الى سكينتها . وتلك الفكرة التي جسدوها له : جبهة ايطالية من الشعوب والمدن والقبائل المنتفضة على رومة الظالمة قد بددها الواقع المرير .

هو يخاف أن ينقض على رومة ، مع ان رومة قد ارتعدت من انتصاراته الصاعقة ، ففقدت كل جراة على خوض المعارك الكبرى . لم يكن يوما جيشان متحاربان في حالة حذر وتهرب من المعارك كما هما اليوم هنيبعل واعداؤه .

وصل فابيوس الى قرب الساحل الذي اقام عليه معسكره . عرض عليه هنيبعل المعركة بارسال خيالته لاستدراجه فأبى . فهو يتبعه من بعيد ، ويكتفي بأن يبقى هنيبعل تحت مراقبته . وهنيبعل لا يخوض المعركة الا اذا جر عدوه الى حيث يريد .

كان هنيبعل راضيا بهذه المصابرة والمطاولة ، وكذلك فابيوس . فقد تعلم فابيوس ان يحاول جر عدوه الى المكان الذي يريده . ولكنه كان ما يزال تلميذا جديدا في هذا الفن الحربي ، ومن الصعب عليه ان يتفوق على معلمه.

كان هنيبعل سيد قيادته . هو المرجع الاول والاخير ، ولا احد يعترض عليه . اما فابيوس فكانت سيطرته نسبية : هناك الشعب الروماني يعيش على اعصابه ، ومجلس الشيوخ يتأثر بتموجات الارادة الشعبية في حالات كهذه . معاونو فابيوس دب فيهم الضجر من جهة ، وتعبوا من كبت جماح عاطفتهم القومية من جهة ثانية . جيشهم يمشي على دمار ما يخربه جيش هنيبعل في وطنهم ، ويسمعون استغاثة المواطنين من كل صوب ، ويرون جيش العدو بأعينهم ينزل الخراب بالبيوت والمزارع . وقد اعتبر هؤلاء المعاونون ، وعلى رأسهم قائد الخيالة مينوسيوس روفوس ، أن فابيوس ليس على مستوى الاحداث . وحرك حزبهم عامة الشعب ، وقد بدأوا يشعرون بالحرمان بينما يرون طبقة الاشراف الغنية تعيش برفاهية وترف .

بقي فابيوس مالكا هدوءه وصبره ، بالرغم مما كان يسمع ، منتظرا الظروف لتبرهن انه على صواب في موقفه . فهو قد اقتبس نظرية هنيبعل ،

ويريد تطبيقها عليه بجره الى مأزق يدمر فيه جيشه وينهي الحرب . وها هو الان في جوار « فاليرنه » ( كامبانية ) في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، يجد المكان الذي يريده ، فيقيم معسكره على سفح جبل قرب ممر ضيق يؤدي الى سهل فسيح كان هنيبعل يقوم فيه بمصادرة المال والمحاصيل لتغذية حملته . وقد ركز فابيوس جيشه حول المضيق كما فعل هنيبعل في معركة ترازيمان وانتظر . ولما انتهى القائد القرطاجي من مصادراته اتجه جيشه نحو المضيق وعسكر هناك ليقضي ليلته . هلل فابيوس واعتبر ان هنيبعل وقع في فخ قد برع هو في نصبه لاعدائه . ولما عسكر الجيش ارسل هنيبعل كعادته فرقة من خيالته لكشف الجوار ، فعادوا حالا واخبروه ان الجيش الروماني قد اوصد المدخل والمخرج من الممر ، اما مرتفعات الجانبين فهي بدون حراسة. ادرك هنيبعل ان « الثعلب العتيق » والذئب الهرم المفترس سيحاربه بسلاحه، وان المعارك الثلاث السابقة كانت أمثولات للرومان . فهل فكر هنيبعل الخصب بالخدع الحربية يبخل بحيلة تنقذه من مأزقه ؟ لمعت في فكر « الساحر » قصة هلاك والده في تلك الخدعة الحربية الماكرة التي بددت جيش هميلقار واهلكته بواسطة الثيران المجفلة ، فاستدعى معاونه هسدروبعل وأمره أن يهيىء الفي ثور امام المعسكر مع قائديها ، وأن تجمع كمية من الاحطاب اليابسة وأن تعد لتكون أربعة الاف مشعل . وأن يعد السائقين أنفسهم للعمل عند منتصف الليل .

في الوقت المعينربطت المشاعل على قرون الثيران ، ودل هنيبعل السائقين على الاعالي التي يجب ان يتسلقوها سائقين ثيرانهم امامهم بعد أن يضرموا النار في المشاعل . وفي الوقت نفسه امر هنيبعل جيشه بالمسير نحو مخرج المضيق .

هاجت الثيران الحاملة نيرانا على قرونها وجفلت بجنون نحو الاعالي ، مندفعة في جميع الوجهات . وما لبث حراس الجيش الروماني ان تنبهوا الى هذه الانوار المتفرقة هناك وهنالك فأعلموا قائدهم . ولم يجد الضابط المولج بالقيادة على مخرج الممر متسعا من الوقت ليتصل بالقائد العام فابيوس ، اذ اعتبر ان القرطاضيين قد أفلتوا من الكمين ولاذوا بالفرار نحو الاعالي ، فما كان منه الا ان اندفع لمطاردتهم مع فرقته . ولما تسلق المرتفعات ووجد ثيرانا هائجة تنقض على كل شيء يعترضها ، وقف مع فرقته محتارا لا يدري ما الحقيقة . واستيقظ فابيوس وشاهد ذلك المنظر الغريب دون ان يفهم شيئا . وعند الفجر عندما أمر جيشه بالمسير وعادت الفرقة المضللة الى مكانها لحراسة الممر ، لم يجد فابيوس وجيشه الا آثار معسكر هجره جيش هنيبعل منذ ساعات قليلة .

حطمت هذه الخدعة المحكمة ما كان باقيا من سطوة فابيوس ونفوذه لدى معاونيه ، فجعلوه موضوع سخرية ، متهمينه بالجبن والسخافة . وكثر الهمس فيما بينهم بأن الحالة لم تعد تطاق ، فالرجل ليس على مستوى الظروف

والمخاطر المحدقة بالوطن . ولكي يتخلص فابيوس من النقد اللاذع تغيب عن المعسكر وأوكل جيشه الى قائد خيالته ، محرضا أياه بأن يكون حذرا حكيما تجاه عدوه المخاتل ، الذي يخطط دائما لجر الرومان الى كمائن جديدة يحولها الى معارك مدمرة .

تظاهر مينوسيوس بالاصغاء الى فابيوس ، ولكنه في الحقيقة كان يتهكم في سره ذلك الشيخ الخرف الذي يشهد خراب ايطاليا دون ان ترف له عين أو تتحرك فيه عاطفة . وقد فكر في اغتنام فرصة غيابه ليحاول القيام بعمل عسكري يعوض عن ذلك الجمود الطويل ويرفع معنوياته عند الشعب . ولم تلبث ان سنحت له الفرصة المرجوة : رأى خيالته يوما بعض الخيالة القرطاضيين الناقلين المؤن الى المعسكر فانطلقوا الى مطاردتهم حتى سياج المعسكر ، فردهم خيالة هنيبعل على أعقابهم . ولكن هذه المناوشة البسيطة لفتت نظر هنيبعل الى ان التحصينات الامامية كانت ضعيفة وان مراكزها غير موافقة فتراجع عنها . وفي اليوم التالي تقدم مينوسيوس واحتل المكان الذي تركه هنيبعل .

هذا الحادث العادي ، الذي لم يشكل اي انتصار أو انكسار لاحد المعسكرين ، ضخمه مينوسيوس وجعل منه انتصارا كبيرا . وبما ان الرأي العام الشعبي كان قد مل تريث فابيوس وجموده ، فانه كان مستعدا لتقبل اخبار تظهر عقم خطته وافضلية خطط سواه ، فتحمس لخبر انتصار مينوسيوس واطلق دعاياته بأن فابيوس هو علة ذلك الجمود . وقد طلب الشعب أن يمنح مينوسيوس صلاحيات متساوية مع صلاحيات فابيوس .

أمام هذا الهياج الشعبي اضطر مجلس الشيوخ ان يلبي طلب الرأي العام ، فانتخب لاول مرة في تاريخ رومة دكتاتورا ثانيا .

تحمل فابيوس ذلك التسرع الجائر من الشعب ومن مجلس الشيوخ بصبر رواقي ، متصوف . ولم يقبل مينوسيوس ، المنتفخ ، بالقيادة المتناوبة فقسم الجيش بين المسيطرين .

كان هنيبعل على اطلاع بما يجري داخل المعسكر الروماني ، وتلك كانت دائما أعظم قواه المصارعة : الاطلاع الدائم على وضع العدو المعنوي ، وعلى صفات القادة ونفسياتهم . عرف بالمنافسة العنيفة بين عدويه ، وبتوق مينوسيوس لتسجيل انتصار يسحق به هنيبعل وفابيوس معا . فسهل عليه استغلال الوضع الملائم بجر مينوسيوس عند أول فرصة الى عراك بين الطليعتين جعلت مينوسيوس في وضع شاق . ولو لم يكن فابيوس واعيا ومراقبا تطور الاشتباك ، فيسرع لنجدته ، لكان مصيره مصير لونغوس وفلامينوس من قبله . وعندما اضطر هنيبعل ، بسبب النجدة المفاجئة ، أن يفك الطوق عن مينوسيوس ، قال وهو يأمر جنده بالتراجع : « لقد انفجرت غيوم الجبل فولدت عاصفة » .

كانت الوهلة التي مر بها مينوسيوس أمثولة قاسية بدلت وجهة نظره وآرائه بين برهة وأخرى . لقد أنقذ مع طليعته في اللحظة الاخيرة . وأدرك أي ذئب عتيق مجرب هو فابيوس ليتمكن من تجنب الاشتباك بهنيبعل ، ومن الوقوف على سلاحه بصورة تسمح له بالانقضاض عند اللحظة المناسبة . فهو مدين بحياته وبخلاصه من هزيمة شنيعة لذلك « العجوز السخيف المقصر عن مستوى الاحداث » . لقد سقط غروره دفعة واحدة ، فضم معسكره الى معسكر فابيوس ووضع نفسه تحت قيادته فكان ذلك اعتذارا كافيا عن الماضي . وارتفعت معنويات فابيوس عند المساعدين والجنود واستعاد نفوذه وسطوته . ولم يعلق فابيوس على الحادث بل استقبل زميله كالابن الشاطر . وحتى اخر ولايتهما بقي الزميلان متفاهمين كل التفاهم .

انتهت سنة ترازيمان المنكودة ، السنة الثانية من سني النكبات . وفي مطلع السنة الثالثة من الجولات الفينيقية المسلحة على أرض ايطاليا ، ومن المعارك الثلاث الكبرى التي طبع بها هنيبعل الارض الايطالية والذاكرة الرومانية الى الابد ، يرى الشعب الروماني نفسه وكأنه على شفير الهوى العميق حيث قد يدفعه هنيبعل بين يوم ويوم . وقد ألف الناس النكبات والانباء المخيفة ، فالحياة تتبع مجاريها الطبيعية كأنها في حالة عادية . نظام الحكم ثابت لا يتزعزع ، ومؤسسات الدولة تقوم بمسؤولياتها ، والوحدة السياسية التي تتزعمها رومة لم يعترها أي تصدع .

ولكن الرأي العام يستفيق من وقت الى اخر ويكفهر جوه في العاصمة، فتستنفر الهمم للقيام بعمل عسكري حاسم يصرع العملاق المتجول في وطن رومة ، زارعا الخوف والرعب ، مصادرا الغلال والمال والمقتنيات ليغذي جيشه، موقفا القوات الرومانية على بعد منه كأنه البراكين اذا داس الانسان جوارها انشقت عن انفجارات رهيبة وابتلعته .

ورومة تدفع بعظماء رجالها الى مراتب القنصلية اثنين بعد اثنين لمنازلة المارد الكنعاني ، الناظر بعين واحدة الى الكون كله فيراه ذاهلا مذعورا ، المنتظر معركته الاخيرة وقت يصرع الشعب البدائي الخشن المحتفظ بأسرار سياسية جديدة ، أقام بها دولة ، وجمع بها شعوبا لا تفت من عزمها المصائب ولا تزعزع وحدتها الكوارث ، تشدها خيوط معنوية ، وتثبتها روح قومية جديدة ترهق العبقريات العسكرية وتبعثر الانتصارات الحربية وتبتلع سني الحدثان والنكبات ، فتحولها الى عدم ، ثم تنتخب قنصليها الجديدين برباطة جأش وصبر ، وتبدأ معاركها من جديد .

باولوس ــ اميليوس وتيرانتيوس فارون يطلان على هنيبعل في ربيع سنة ٢١٦ ق.م. واحد من الاشراف الحذرين المخاتلين المتلمذين على فابيوس ، واخر من عامة الشعب يلتهب توقا وحماسة الى الحرب . فهو يريد أخيرا ان يغسل العار الذي يزرع في ابعاد رومة وآفاقها ، في طرقاتها ومدنها وأريافها ، مبيدا ما رأته تلك المناطق من عظمات وبطولات حققها الرومان خلال

ثلاثة قرون ( ٥١٠ ــ ٢١٨ ق.م.) .

لم يكن هنيبعل في حالة افضل من حالة رومة ، بل كان يجد نفسه في وضع أسوأ . ولكن وضعه كان خافيا على الرومان ، لا تخترق جدار اسراره عيون الجواسيس ولا آذانهم ، بينما كان وضع الرومان واضحا له . من الصعب على الرومان ان يسبروا أمة ودولة وحضارة متجسدة كلها في شخصية انسان يستأنس بأفكار معاونيه ، ثم يقرر وينفذ بدون أن يعترض أحد على قراراته .

كل آماله المبنية على وعود الجلالقة بتسابق الايطاليين الى محالفته والوقوف معه ضد رومة ، والتي غذاها خياله الخصب ، قد اضمحلت . وتلك الجبهة الفينيقية ــ الايطالية التي كان يتصور نفسه على رأسها لسحق رومة وجعل ايطاليا منطقة نفوذ قرطاضي وحضارة كنعانية قد زالت من خياله ، ولم يبق الا واقع شاق لم يجد نفسه فيه أي قائد منتصر عسكريا في التاريخ .

اسبانيا قاعدته الرئيسية انقطعت عنه اخبارها ، وما يعلمه من بعض مخبريه بالتواتر ان السيبيونين قد غزيا السواد الاعظم من الارض الاسبانية. قرطاضة تتلهى بمحاولات جزئية يقوم بها الحزب المعادي للبرقاويين ، مستغلا الهاء هنيبعل للرومان ، فيجرد القرطاضيون حملات بحرية على سردينية وصقلية بدون أن تكون الحملات تحت اشرافه وتوجيهه . وهكذا أمست الامبراطورية الفينيقية في غربي المتوسط منقسمة الى ثلاث قيادات : اسبانيا، قرطاضة ، هنيبعل . بينما رومة تحافظ بدقة على مركزيتها السياسية وقيادتها العسكرية الموحدة .

لو كان الرومان مطلعين على هذه التجزئة الطارئة على وضع عدوتهم لقاموا بحملة على قرطاضة ، ولشنوا هجوما عاما كبيرا على هنيبعل ليجهزوا عليه .

## صليبية رومانية على هنيبعل

كان لانتصارات هنيبعل الثلاثة الاولى تأثير مؤلم في نفوس الرومانيين استنفد صبرهم ورباطة جأشهم وقوة أعصابهم . وقد جاءت دكتاتورية كونيتوس فابيوس مكسيموس تستهلك بقايا فضائلهم العنيدة هذه ، فكادت تخرجهم عن طوقهم ، بل تحدت ، بمجالدتها ومطاولتها وصبرها الذي لا يتعب ، غليان الطبقة الشعبية التي اعتبرت مخطط فابيوس حربا عليها كما قد تكون حربا على هنيبعل . وعندما انتخب باولوس ــ أميليوس وفارون قنصلين لسنة ٢١٦ ق.م. ، كان الهياج الشعبي المطالب بشن هجوم عام على هنيبعل قد بلغ ذروته ، وكان مجلس الشيوخ قد انفعل بحماسة الشعب ، وأخذ يعلن في كل مناسبة ان الهجوم على هنيبعل قد صار وشيكا .

« واكد فارون ، القنصل الذي يمثل طبقة الشعب ، لجمعية الشعب ان الحرب تنتهي يوم يقع نظر فارون على العدو . أما باولوس ، ممثل الطبقة الارستقراطية ، فقد أعلن بتحفظ وحكمة ان أعماله ستنسجم مع مقتضى الظروف . وقد سمع باولوس يعلن لفابيوس الدكتاتور الذي انتهت ولايته انه اذا ساءت معه الامور يفضل مقاتلة عدوه على مقاتلة مواطنيه » (٤٥) .

وبينما كان القنصلان يعدان نفسيهما لمواجهة العدو ، وقد استمر ذلك الاعداد ستة اشهر هي الاولى من ولايتهما ، استولى هنيبعل على منطقة « كاني » ومستودعات المؤن فيها . وكاني هي بلدة قديمة ، تقع على الضفة اليمنى من الاوفيديوس ، دمرت في حروب قديمة ولم يبق منها الا قلعة وبعض الابنية العتيقة التي يستعملها الجيش الروماني كمستودعات للمؤن والذخائر ، وهي تبعد ستة الاف متر عن ساحل الادرياتيكي . ومع ان استيلاء هنيبعل عليها لم يكن بحد ذاته حدثا عسكريا كبيرا ، بل كان عمل اجتياح عادي من جملة الاجتياحات التي كان يقوم بها الجيش القرطاضي ، ومع ان ذلك الاجتياح كان يشكل بالنسبة الى رومة ابتعادا عنها ، فان الرأي العام الشعبي قد استغل الحادث وضخمه فولد ذعرا في أوساط الشعب ودفعة جديدة من التوق لخوض المعارك .

كانت استعدادات القنصلين العسكرية قد تمت ، وكانت فريدة من نوعها هذه المرة . فعوضا عن أن يرافق كل قنصل ، حسب التقليد المتبع ، جيش مؤلف من فرقتين ، عدده ثمانية الاف راجل واربعماية خيال ، فانه قد ضوعف العدد هذه المرة وكان عدد الفرقة خمسة عشر الف رجل وثمانماية خيال . وكان الجيشان متحدين في جيش واحد تحت قيادة القنصلين. وكان عدد الجيش الذي تألف من الحلفاء الايطاليين كذلك ثماني فرق يزيد عدد الخيالة فيها عن ثلاثماية الى ستماية خيال . وهكذا كان عدد الجيوش ، التي قادها القنصلان في اواخر تموز سنة ٢١٦ ق.م. لمواجهة هنيبعل ، ثمانين الف راجل وتسعة الاف ومايتي خيال تمركزت على بعد عشرة الاف متر من كاني ، على الضفة اليسرى من رافد الأوفيديوس .

كان القنصلان في حالة نفسية متناقضة تماما : باولوس ، وهو مزود بمشورات فابيوس ليحذر ويتروى قبل مقابلة هنيبعل في معركة كبرى ، كان في الوقت نفسه رجل دولة متفوقا ، ورجل حرب مجربا ، مدركا رؤيا فابيوس في خطورة منازلة هنيبعل في معارك فاصلة . أما فارون ، فبالرغم من دهائه السياسي ومراوغته الحذرة ، فانه كان يلتهب شوقا لمنازلة هنيبعل، ويردد دائما على مسمع من الشعب ومن جنوده : « طالما الدولة تضع رجلا من أمثال فابيوس على رأس الجيوش فان الحرب لن تنتهي » .

الجيوش الرومانية ، المتمركزة الان على مقربة من كاني ، لم تعد رومة مثلها في تاريخها الحربي ، لا في عددها لمعركة واحدة ، ولا في العناصر الرومانية التي دخلت في تشكيلها . فهي « صليبية قومية » جمعت خلاصة

الشعب الروماني في جميع طبقاته وشخصياته . فما أن أعلن مجلس الشيوخ ان المعركة الفاصلة ضد هنيبعل صارت وشيكة ، وان القنصلين الجديدين يعدان لها الجيوش ، حتى تسابق الاشراف من جميع المراكز الاجتماعية والسياسية ينخرطون في الجيش كمقاتلين عاديين . يجب ان يظهر للشعب ان الاشراف هم أول من يسير للدفاع عن الوطن : شباب في مقتبل العمر ، وكهول مجربون ، قناصل قدماء ، اعضاء من مجلس الشيوخ ، قضاة وحكام متقاعدون ، كبار الملاكين والماليين والصيارفة ، تسابقوا الى صفوف الجيش لينقضوا على الفاتح المتجبر الذي يرود المناطق الايطالية كأنه في المجاهل الافريقية يفتش عن مناجم الماس والذهب .

لقد تحولت رومة الى فكر واحد مصوب نحو كاني ، وارادة واحدة تريد أن تضع حدا لهذه الحرب ، ورغبة واحدة تتوق الى تدمير هذا الجيش الفاتح أو قذفه الى بحر تبتلعه أعماقه أو تواريه أبعاده الى غير رجعة . انها في أزمة نفسية لم تشعر بمثلها في تاريخها . تلك التؤدة الرومانية المتحدية المخاطر ، وتلك الثقة بالنفس وبالانتصار التي لم تغلب بعد ، وذلك التقيد الدقيق بمضامين الدستور ومثابرة المؤسسات والمواطنين على ممارسة صلاحياتهم ، كل هذه المقومات المناقبية والدستورية للحياة الرومانية القومية الواعية هي مأخوذة الان بجاذبية المعركة المقبلة وبالتوق الى خوضها وانتظار أخبارها . ان هنيبعل قد بلبل الحياة الرومانية وأخرجها عن مجاريها التقليدية ، وعن محاورها المألوفة ، وتمزقت الاقنعة التي كانت تظهر الشعب الروماني مالكا أعصابه . ان رومة تتجه بفكرها وروحها الى كاني حيث يتجه جيشها ، وحيث يترجح مصيرها بين ضفتي ساقية .

اعتبر الرومان هذه المرة ان معنوياتهم وكرامتهم وسمعتهم الحربية بالنسبة الى حلفائهم ووحدتهم الايطالية هي متوقفة على انتصارهم في معركة « كاني » . فقد أدركوا أخيرا ، بعد ذلك التهرب الطويل من مواجهة هنيبعل في معارك كبرى ، انه بقدر ما كانوا يظنون انهم كانوا ينهكون ويتلفون آلته الحربية بقدر ما كان هو أيضا ينهك بلادهم ويتلف عمرانها من جهة، وسطوتهم وارتباطهم بمواطنيهم الايطاليين من جهة ثانية . لقد بدا الشك بتفوق رومة العسكري يدب في قلوب الايطاليين ، والرومان انفسهم لم يتعودوا من قبل أن يتلكأوا عن خوض المعارك ، فتاريخهم حافل بردودهم على التحديات بسرعة واندفاع وحماسة . فالحرب عندهم قد أصبحت منذ زمن طويل هواية وانتصارا ومغانم . وقد برهنوا في حروبهم مع المتمدنين والبرابرة انهم أمهر المقاتلين وأجلدهم وأشرسهم ، وأقواهم على المطاولة ، وأكثرهم استعدادا للتضحيات، وأطولهم نفسا في تحمل سني الحرب الطويلة . فهم شعب زراعي بدائي ، لا مصالح اقتصادية كبرى له خارج بلاده ، كما هي موزعة مصالح القرطاضيين في حوض المتوسط .

في أواخر سنة ٢١٦ ق.م. كان هنيبعل متمركزا على هضبة كاني . جيشه ، اربعون الف راجل وعشرة الاف فارس ، يحتل الضفة اليمنى من رافد الاوفيديوس . وكان باولوس — اميليوس وفارون ، القنصلان المتناوبان قيادة جيش روماني واحد ، على رأس ثمانين الف راجل وتسعة الاف ومايتي فارس ، يحتلان الضفة اليسرى من الرافد نفسه على بعد عشرة الاف متر من الجيش الفينيقي .

القنصلان يتناوبان القيادة : يوم لواحد ويوم لاخر . هذا هو قانون القيادة منذ قرر مجلس الشيوخ ان يكون قنصلان في رئاسة رومة . وتلك بدعة جديدة انشئت لمحاربة هنيبعل . فالصلاحيات الدكتاتورية التي مارسها فابيوس خلال السنة الفائتة ، والتي لا تعطى لروماني الا في ظروف مخاطر استثنائية طارئة ، كان قد نسيها الشعب الروماني لان حروبه الماضية، المكللة دائما بالنصر ، لم تضطره ان يقيم مسيطرين . اما رئاسة القنصلين في وقت واحد فلم تعرفها رومة الا في زمن احتلال هنيبعل .

هذه « الصليبية » الزاحفة لمقاتلة هنيبعل ، والتي جرت جميع فئات الشعب وطبقاته للتطوع في صفوفها ، ليست من صنع باولوس اميليوس الارستقراطي وحزبه ، بل نتيجة ذلك الغليان الشعبي الذي يتناول جميع الفئات والمناطق . فقد شعر الرومان والامة الايطالية الجديدة ان الحياة القومية المشتركة ، التي ارتضوها والتي اختبروا منافعها ، هي في خطر مطبق عليها ، وان كرامة هذه الامة لم تعد تقبل الانتظار . ان هذا التردد في منازلة هنيبعل اصبح شيئا معيبا لا يليق بسمعة رومة وعظمتها العسكرية . فنتائج الحرب الفينيقية الاولى كانت قد رفعت النزعة العسكرية الرومانية الى اوج امجادها .

في الثالث من آب سنة ٢١٦ ق.م. كان دور تارنتيوس فارون في القيادة، وكان يشعر ان ملايين الرومان والايطاليين يقولون له : « هذا نظرك يقع على هنيبعل وجيشه ، فحقق لنا ما قطعته من وعود » . وهو في الحقيقة كان يتقد حماسة للمعركة اكثر من الشعب المنتظر والجيش الواقف على سلاحه . هو ينتظر ذلك اليوم بفروغ صبر : الموقع موافق ، الجيش متحمس ، الشعب ينتظر .

امر فارون باجتياز مجرى الماء وصف جيشه للقتال . كان على باولوس اميليوس ان يطيع . لقد ولي قيادة ميمنة الخيالة ، وفارون احتفظ لنفسه باليسرة ، اما قلب الجيش المؤلف من ثمانين الف مقاتل فكان تحت امرة القنصلين السابقين : سرفيليوس جيمينوس واتيليوس ريغولوس .

كان هنيبعل يراقب صف وحدات العدو . وقد لاحظ ان فارون قد ضيق المجال على جناح الفرسان الايمن بين مجرى الماء وقلب الجيش فتعسرت عليه

الحركة الطليقة ، وانه بصورة عامة قد حاذى الرافد اكثر من اللازم . وقد يكون ذلك الخطأ التخطيطي هو الذي قرر مصير ذلك اليوم الرهيب ، وهو الذي اوحى الى هنيبعل تلك الخطة العبقرية التي تجتاز القرون بفذوذيتها التي لم تجار الا في معركة ستالينغراد الاخيرة .

صف هنيبعل جيشه على الشكل الذي اتخذه الجيش الروماني ، ولكن العبقرية كانت تكمن في الاوامر التي اعطيت لوحداته ، فنفذت تلك الاوامر بدقة ما تزال تثير دهشة عظماء القادة حتى اليوم .

يقول جيرار والتر (٤٦) ان « الساحر » بدا ظاهر الغبطة لما رأى فرسان اميليوس في مجالهم الضيق ، بين النهر والمشاة ، عاجزين عن القيام بأقل حركة واسعة ، فخيل اليه ان اولئك الفرسان اصبحوا في قبضة يده ، كما لو كان فارون قد دفعهم اليه مكبلين بالحديد . ويكاد المؤرخون يجمعون على ان هنيبعل ، لما رأى صفوف الرومان كما نظمها فارون ، فكر بوضع خطته العبقرية لتطويق الرومان تدريجيا ، تلك الخطة الفريدة التي جعلت معركة كاني اعظم والمع عملية استراتيجية — تكتية عرفها العالم ، حتى قيل انها معجزة الفن العسكري في كل العصور . وهي ما تزال ، حتى اليوم ، موضوع درس وتحليل في مختلف المدارس الحربية .

ومما يرجح ان هنيبعل ارتجل هذه الخطة ارتجالا ، انه عهد بأهم الاعمال في المعركة الى العناصر الضعيفة في جيشه ، تلك العناصر الجديدة وغير المجربة ، التي لا يثق بها كل الثقة ، والتي اعتاد ان يجعل منها نقاط ارتكاز لا اهمية لها في اثناء القتال .

اما الغوليون والاسبان ، وهم ابطال الجيش واشاوسه ، واشد المقاتلين اقداما وبطشا ، فولى عليهم ضابطا مغمورا لم يعرفه احد قبل ذلك اليوم ، يدعى هسدروبعل ، وجعلهم في الخط الثاني من قلب الجيش .

لا ريب في ان الساحر لمس مواطن الضعف في صفوف الرومان لما وقعت عينه عليها ، فغدت ثقته بالنصر ثابتة وطيدة . وقد لاحظ الخبيرون العسكريون ، باعجاب كبير ، انه اتخذ موقفا ارغم فيه الرومان على ان يقابلوه ووجوههم الى المشرق ، تعمي ابصارهم اشعة الشمس ، فلا يرون اعداءهم بوضوح ، بينما يستطيع القرطاضيون ان يروا من غير ان يزعج النور انظارهم . فبدا الموقف كأن الرومان يهاجمون رومة ، وكأن القرطاضيين يدافعون عنها .

ورأى هنيبعل ، من ناحية اخرى ، ان الرياح تهب من الشرق ، خصوصا في الصباح ، فاتخذ موقفه ذاك ، ليصفع الغبار وجوه الرومان . وهذا ما حدث فعلا ، وما كان من اسباب الهزيمة النكراء التي منيت بها رومة .

بعد اتخاذ تلك التدابير التي لم تخطر في بال احد ، اخذ هنيبعل ينظم جيشه . جعل فرسانه الغوليين والاسبان على ضفة الاوفيدوس ، امام باولوس اميليوس . وجعل في القلب خطا طويلا وغير عميق من المشاة الغوليين والاسبان على ضفة الاوفيدوس ، وخطا آخر ضيقا وعميقا من المشاة الليبيين . فاذا

كان من يلقي نظرة على هذا التنظيم يستطيع ان يدرك غاية هنيبعل ، من غير ان يكون مطلعا على نتيجة المعركة ، فمن حقه ان يعتبر نفسه أبعد نظرا من فارون ، اذ انه من الصعب جدا ان لا يتبادر الى الاذهان ان تلك الصفوف العجيبة التي انزلها الساحر الى الميدان بذلك الشكل الغريب الذي لم ير له مثيل من قبل، هي الفخ السحري المنصوب لتطويق الجيش الروماني والقضاء عليه .

اما الفرسان النوميديون ، بقيادة ماهر بعل ، فكانوا على استعداد لمجابهة الجناح الذي يقوده فارون نفسه . ولم يخف فارون دهشته ، حين رأى صفوف القرطاضيين ، فاتهم هنيبعل بالجنون ، وظن ان الوحدات القرطاضية الصغيرة ستفنى تدريجيا كلما اصطدمت واحدة منها بالقلب الروماني العملاق .

بدأ القتال بمناوشات التحمت فيها القوات الخفيفة . ثم شن الفرسان الغوليون والاسبان الذين يؤلفون الجناح القرطاضي الايسر ، بقيادة هسدروبعل، هجوما صاعقا على الجناح الروماني الايمن . وكان هذا الجناح ، بقيادة باولوس اميليوس ، يضم ابطال رومة ، وابناء اعيانها واسرها الكبيرة ، فحاول الصمود مستبسلا ، واستمات في الدفاع . ولكن الهجوم القرطاضي كان كاسحا ، فاجتاح فرسان رومة اجتياحا ، وسحقهم سحقا ، وهم محصورون بين النهر والمشاة ، لا يستطيعون القيام ، في مجالهم الضيق ، بأقل مناورة .

زال الجناح الروماني الايمن من الوجود في بدء المعركة . قتل اكثر فرسانه تحت سنابك الخيل ، وسقط باولوس جريحا في صفوف المشاة . وراح القرطاضيون يطاردون الفارين في السهل الوسيع ، ويعملون فيهم السيف بلا رحمة .

في تلك الاثناء ، كان هنيبعل قد جمد القلب الروماني في مكانه ، بدفع المشاة الليبيين الى مجابهته . وكان ماهر بعل ، في الوقت نفسه ، يشغل بفرسانه النوميديين الجناح الروماني الايسر الذي يقوده فارون .

ومما يدل على ان الاوامر التي اصدرها هنيبعل كانت في منتهى الوضوح والدقة ، ان ماهر بعل لم يكن يريد من مناوشته غير الالهاء ، لانه لم يهجم ، ولم يفسح للرومان في مجال الهجوم . كان يتظاهر بالهجوم ثم ينكفىء شاردا في السهل ، ثم يعود متأهبا . وظل كذلك حتى اجهز هسدروبعل على الجناح الروماني الايمن ، وانطلق في السهل وراء الرومان ، كأنه في حلبة سباق ، ثم جاء يضرب الجناح الروماني الايسر من وراء . فتضعضع فرسان فارون ، ودب الرعب في قلوبهم ، اذ اطبق عليهم هسدروبعل وماهر بعل من الجانبين الامامي والخلفي ، فاستسلموا للسيوف تضرب اعناقهم ، وللرماح تغوص في صدورهم، ولحوافر الخيل تدوس هامهم . واضطر فارون نفسه الى الفرار على رأس خمسين فارسا ، تاركا وراءه الجيش الروماني يتخبط في افدح كارثة حلت برومة .

وفيما كان الجناحان الرومانيان يتلاشيان ، راح الساحر يحرك اجزاء فخه الجبار ليطبق على العدو . شن على القلب الروماني هجوما عاما . وكان هجومه

هذا مبتكرا ، فريدا من نوعه ، وخارجا عن كل معروف او مألوف . فالخط الطويل المؤلف من الغوليين والاسبان تقدم وسطه ، وثبت طرفاه في مكانيهما . فبدا منتفخا ، واتخذ شكل هلال بارز الصدر صوب الرومان ، مما جعل قائدي القلب الروماني ، القنصلين السابقين ، سرفيليوس وريغولوس يظنان ان القرطاضي يريد اختراق جيشهما ليقسمه شطرين ، فيسهل عليه القضاء عليه كل منهما منفردا ، فصمدا له ، وشنا عليه هجوما مضادا فتح فيه ثغرة كبيرة ، وراحا يقاتلان بضراوة ليوسعا تلك الثغرة حتى تنقطع الجبهة القرطاضية ، وتنقسم الى شطرين .

وكان هنيبعل ينظر وهو مرتاح الى ما يحدث ، لان خطته كانت تتحقق بكل دقة ، فلم تمض فترة من الزمن ، حتى انقلب الهلال القرطاضي البارز الى هلال اجوف يفتح للرومان ذراعيه . وراحت الفيالق الرومانية تتدفق الى داخله حتى اضحت مطوقة من ثلاث جهات ، واضطرت الى القتال على ثلاث جبهات .

ان بعض تفاصيل هذه المعركة ما يزال مجهولا . ولكن بوليب يخبرنا ان الجيش الروماني ظل يتجمع في جوف الهلال القرطاضي ، كأن هناك قوة سحرية تجتذبه ، حتى اصبح طرفا الجيش القرطاضي المؤلفان من المشاة الليبيين ، مشرفين على مؤخرته وبارزين وراءها .

بهذا تمت المعجزة وتهدمت حدود المستحيل ، اذ اضحى الجيش الروماني مطوقا تقريبا بقوة لا تزيد على نصف قوته الا قليلا . اربعون الفا من القرطاضيين طوقوا سبعين الفا من الرومان . وكان من البديهي ان يتمكن الجيش الروماني من فك ذلك الحصار بقوة تفوقه العددي ، من غير الحاجة الى خطة بارعة ، او فن عسكري مبتكر . ولكن الساحر كان قد حسب لكل شيء حسابا ، واحتفظ بمفاجأته الكبرى ليختم بها المعركة .

فبينما كان القلب الروماني يتخبط في موقفه الحرج ، ويحاول متابعة القتال في الظروف الصعبة التي وقع فيها بين ثلاث جبهات ، كان هسدروبعل قد اباد الجناحين الرومانيين ، وارسل كوكبة من فرسانه تطارد فلول فارون ، ثم جاء يضرب الرومان من وراء ، ويجعل جيشهم في نطاق مغلق من الحديد والرجال .

وبوصول هسدروبعل على رأس فرسانه الغوليين والاسبان اتضح مصير المعركة . امسى الجيش الروماني محاطا بالقرطاضيين من كل جانب ، فتضعضع ودب فيه الذعر ، وغرق في غمرة رهيبة من الفوضى ، ولا سيما بعد ان ابتعد عنه قائده فارون . ولكن كتلة المشاة الجبارة التي يتألف منها القلب ظلت تقاتل عدوا اقل منها عددا ، حتى سقط منها آخر رجل .

لم ينقل المؤرخون القدامى الينا شيئا عن التفاصيل التي انتهت بها هذه المعركة . فهناك اقوال متناقضة ، وآراء متضاربة ، تستخلص منها حقيقة راهنة هي ان الرومان الذين نجوا باعجوبة كانوا في حال من الرعب لا توصف ،

فانطلقوا في السهل الوسيع يركضون على غير هدى ، كأنهم أصيبوا بمس من الجنون ، وكأنهم لا يصدقون أنهم فروا احياء من الجحيم التي اعدها الساحر الجبـــار .

يقول الخبيرون ان هنيبعل مدين بهذا النصر لعبقريته الفذة اولا ، ثم لسببين همـــا :

١ ـــ رحابة السهل التي اتاحت لهسدروبعل القيـــام بحركات واسعة ، والانتقال الخاطف من احد طرفي الميدان الى الطرف الاخر .

٢ ـــ غرور فارون ، وقصر نظره ، وجهله الفنون الحربية .

وما يدعو الى الاستغراب ان زميله باولوس كان قائدا مجربا خبيرا ، الا انه خضع خضوعا اعمى ، عملا بنص الدستور الروماني في شريعة التناوب على القيادة .

روى المؤرخون ان باولوس امر فرسانه ، في اثناء المعركة ، بالترجل لئلا يعرقلوا حركة المشاة . ولما علم هنيبعل ذلك ، قال : « لو سلمني باولوس فرسانه مكبلين بالاصفاد ، لما سررت فـــوق سروري برؤيتهم يترجلون عن خيولهم » .

وبالفعل ، لما ترجل الفرسان ، نشروا حولهم الخوف والبلبلة ، ولم يعودوا يفكرون الا بالفرار ، تاركين قائدهم جريحا مضرجا بالدماء ، مرتميا على الطريق، يدوسه رجاله في تهافتهم على طلب النجاة . الا ان احدهم ، المدعو كورنيليوس لنطولوس ، وقف وخاطب باولوس قائلا : « يا باولوس اميليوس ! انت الوحيد الذي يجب ان تعتبره الآلهة بريئا من الكارثة التي حلت بنا اليوم . خذ جوادي ما دمت تملك شيئا من القوة ، ودعني ارفعك الى ظهره واحميك . لا تجعل هذه المعركة اشد وطأة علينا بموت قنصل ، فسيكون لنا بعدها ما يكفينا من الدموع والاحزان ! »

فاجاب باولوس : « انت ، يا كورنيليوس ، كن مغتبطا بشجاعتك . ولكن احذر ان تفقدك الشفقة الباطلة ما بقي لك من الوقت القليل لتنجو بنفسك من قبضة العدو . اذهب ، واجهر بوجه الشيوخ ان عليهم ان يحصنوا رومة ، وان يملأوها جنودا ، قبل ان يصلها هنيبعل منتصرا . وقل ، على الاخص لكونيتوس فابيوس ان باولوس اميليوس ظل يتذكر توصياته الى آخر لحظة من حياته ، وانه اليوم قد مات . دعني الفظ انفاسي الاخيرة هنا ، بين جنودي القتلى ، كيلا يتهمني الشعب لدى انتهاء ولايتي القنصلية ، وكيلا اضطر يوما الى اتهام زميلي فارون ... » .

وما ان بلغ باولوس هذا الحد من كلامه ، حتى مرت به جماعة من الرومان تطاردها كوكبة من الفرسان القرطاضيين . ثم انهمرت عليه السهام ، فقضى فورا .

وقبل ان تغيب شمس ذلك النهار انتهت المعركـــة باضمحلال الجيش

الروماني اضمحلالا تاما ، فبدا سهل كاني تغطيه جثث خمسين الف قتيل من الرومان . ثم اقبل الليل ، فارخى ستاره الاسود على ما لا يوصف . وارتفعت في الظلام جلبة مرعبة ، هي مزيج من الحشرجة ، والاستغاثة ، والانين .

تحصن خمسة الاف وسبعماية روماني في معسكرهم الصغير ، فطوقهم القرطاضيون وقطعوا عنهم الماء حتى استسلموا . وفر اربعة الاف ومايتان من المعسكر الكبير ، فتوجهوا الى كانوزيوم . وقع سبعة عشر الفا وثلاثماية اسير في قبضة هنيبعل ، وابيد الاخرون .

## هنيبعل لا يزحف على رومة

في هذه المرحلة : من انتصار كاني الذي لم يكن الا مرحلة الى هزيمة زاما التي كانت فاصلة في تاريخ الحضارة المتوسطية القديمة ، ستظهر شخصية عسكرية عبقرية تعتبر من أعظم الشخصيات المحققة في التاريخ ، هي شخصية كورنيليوس سيبيون ، الذي كني فيما بعد بالافريقي .

سيبيون الذي تتلمذ على يد هنيبعل في الصراع الكنعاني — الروماني ، وأصبح من معياره ومستواه ، كانت تدعمه وحدة سياسية قومية لم تتراجع مرة ، منذ بدات تتكون ، أمام اي عدوان مهما كان خطيرا . بل كانت تلك الوحدة تنمو في مؤسسات قومية ، وفي وعي قومي عام ، حتى داهمها هنيبعل بخطر ضخم ترجحت فيه بين الحياة والموت .

في هذه المرحلة يتجابه العملاقان القوميان ، هنيبعل وسيبيون ، في أعظم صراع فاصل عرفه التاريخ القديم : الاول يقف وراءه نظام قديم يسير في مرحلة انحطاطية نحو الانهيار ، والثاني يمثل نظاما قوميا مركزيا صارما تزيده المخاطر والنكبات تماسكا واستعدادا للدفاع عن وجوده الجديد .

ماهر بعل يرى رومة ساجدة أمام هنيبعل كما سجد الشرق أمام أشور ، ويرى الاقوام والمدن الايطالية تنفك عن رومة وتلتف حول عملاق « هو اعظم من رومة نفسها » . يرى ماهر بعل هذه الحرب وقد انتهت بزحف خاطف على رومة حيث يرتاح الجيش الذي احنى هامات الجبال ، وحيث يقيم هنيبعل وليمته الكبرى في معبد اله الالهة « جوبيتير » .

أما هنيبعل فينتظر ان يرى رد الفعل الذي ستحدثه نتائج معركة كاني في نفوس الرومان والايطاليين . ان رومة في نظر هنيبعل ليست مدينة تسقط تحت الحصار وتستسلم للمهاجمين ، بل هي « نظام جديد » يجب أن يدمر ، وقوة سياسية وقومية جديدة يجب أن تفكك ، ونفسية جبارة وصبورة يجب أن تسحق .

وبقدر ما كان من تباين وافتراق بين رأي ماهر بعل ورؤيا هنيبعل ، كذلك كان بين فلول الرومانيين الهاربين من معركة كاني وبين الفتى كورنيليوس سيبيون ، ذلك الذي جسد ايمان رومة بشعبها ومؤسساتها وحلفائها ومصيرها .

قال ماهر بعل لهنيبعل : « أعطني أمرا ، يا هنيبعل لازحف بفرساني على رومة فأصلها قبل أن يعلم الرومان اني زحفت » .

« انه مشروع جميل وعظيم ، أجابه هنيبعل ، ولكنه يحتاج الى درس دقيق وتأمل عميق قبل تنفيذه » .

اذ ذاك صاح ماهر بعل ، ذلك الجندي الوثاب وقائد الفرسان : « انت تعرف أن تنتصر يا هنيبعل ، ولكنك لا تعرف كيف تستغل انتصارك » .

وانصرف هنيبعل ليأخذ قسطا من الراحة ، تاركا مساعده الاول وقائد فرسانه يغلي في حميته ويتصور عرضا لخيالته في ساحة « الفورم » حيث تطبع ساحة رومة الكبرى بحوافر الخيول القرطاضية .

ان رومة في نظر ماهر بعل هي مدينة تسقط وتنتهي . اما رومة في رؤيا هنيبعل فهي ظاهرة سياسية جديدة ، قوية في تركيبها ، متفوقة في طاقتها العسكرية ، مبدعة في قيادة مؤسساتها . فقبل أن تجثو روما على ركبتيها مستسلمة مستغفرة ، وقبل ان تبدد عناصر الوحدة الايطالية من حول النواة الدينامية المجسدة في روما ، هناك ستماية الف روماني وايطالي بعد مستعدون أن يموتوا في سبيل روما والوحدة الايطالية .

لم تكن قوة رومة قوة عادية ترتكز على شجاعة المقاتلين ووفرة عددهم، وعلى مناعة الحصون وعناد المدافعين . انها قوة أكثر تعقيدا ، وأعمق جذورا، وأبعد آفاقا من حصون مدينة قوية : انها عالم جديد من القوى النفسية والفكرية والدستورية والقومية المصارعة في سبيل التفوق والانتصار والسيادة والعظمة . وهذا كان أكثر تعقيدا وأمنع صمودا مما كان يراه هنيبعل نفسه . أن قوة رومة الحقيقية لم تخف فقط على ماهر بعل ، بطل الفرسان الفينيقيين وقائدهم ، بل خفيت نواح منها عن الفكر الكبير الذي كان يرى العالم كرة بين كفتيه ، فكر هنيبعل . ولذلك فان اقتناع ماهر بعل بضرورة الهجوم على رومة لتحقيق الانتصار الاخير الساحق لم يكن واردا في مخططات هنيبعل . انه يريد تفكيك « حلفاء » رومة عنها قبل أن يهاجمها . وهؤلاء « الحلفاء » كانوا قد تطوروا الى أكثر من « حلفاء » ، لقد كانوا في مرحلة الانصهار الاخير مع رومة في شخصية قومية جديدة . وان الوضع الحقوقي ، الاجتماعي والسياسي ، الذي وفرته لهم رومة ، لم يكن في مقدور هنيبعل ان يوفر أفضل منه حتى على افتراض انتصاره . فلم يكن اذن من مصلحة الاقوام والمدن الايطالية أن تنفك عن رومة لتنشىء وضعا متساويا مع ما هي فيه أو أقل منه تأمينا لمصالحها وحريتها .

## رومة بعد كاني

« وقعت أخبار كاني على رومة ، المنتظرة بقلق وتوتر ، وقع نفير يوم الحشر . تلك هي النكبة ، والآخرة . ذكريات قاسية ، كان قد أخمدها الزمان، استيقظت مجددا . أبناء وأشقاء وأزواج قد سقطوا . بل ان الرسل الاوائل

قد نقلوا اضمحلال الجيش الروماني بكامله . لقد نفخ عليه الساحر فزال » (٤٧) .

ذلك الزوال الرهيب نكب كل بيت في رومة . الامهات والزوجات والشقيقات يملأن الساحات العامة والشوارع بالصراخ والعويل . موجة من النساء النائحات تغمر مجلس الشيوخ ، تطلب الاخبار الصحيحة والاخيرة . الصمت يخيم على مجلس الشيوخ لان الانباء الرسمية لم تصل بعد . فلول الجيش الباقية مبعثرة ، لم تهتد بعد بعضها الى بعض . اربعة آلاف فقط شقت طريقها ولجأت الى مدينة كنوزيوم ، حيث استقبلت بفتور وعدم اكتراث . ولولا غيرة سيدة محسنة لبقي اللاجئون بدون غذاء .

جمع القنصل فارون فلول المشردين في الحقول بعد أيام ، فكان عددهم نحو اربعة الاف . أولئك هم كل من سلم من الموت والاسر . الرعب يكتنفهم وشبح العملاق المنتصر يرافقهم ، كما يكتنف رومة ويرافق سكانها في منازلهم وفي ساحاتهم العامة . وايطاليا تجتاحها موجات من الخوف ساعة بعد ساعة، اذ لا تعلم أين ستكون الضربة التابعة لتلك الكارثة .

في صباح اليوم التالي للمعركة انشغل هنيبعل وجيشه في تصفية ساحة القتال ومعسكري الرومان . ترك الرومان قتلاهم وجرحاهم وكل ما كان من عتاد واثاث ومؤن في معسكريهم . فر المنهزمون بألبستهم واسلحتهم الخاصة. وكان على جيش هنيبعل ان يجمع اسلحة القتلى والجرحى ومتروكات المعسكرين . أكوام من السيوف والرماح والدروع والخوذ والتروس ، واكياس من التحف الثمينة والاساور والخلاخل والخواتم الذهبية التي كان يلبسها الاشراف والفرسان ، جمعت ونقلت الى معسكر المنتصر . أما المعسكران الرومانيان ، الكبير والصغير ، فكانا يضيقان بالتحف الثمينة والاقمشة الغالية وادوات المائدة الغنية التي كان ينقلها الاشراف معهم اذ لا يتنازلون عن مستواهم الاجتماعي حتى في ميادين الحرب .

وبينما كان الرومان ينتظرون وصول المنتصر الى رومة ، كان هنيبعل ينتظر ان تصله أخبار وقع خبر الكارثة على حلفاء رومة في جميع المناطق الايطالية . وفي الوقت الذي كان يعتقد جيش هنيبعل ومعاونوه أن الحرب قد اقتربت من نهايتها بعد ذلك الانتصار المدوي ، كان هنيبعل يعتقد أن تفكك الوحدة الايطالية لم يبدأ بعد .

وصلت تفاصيل المعركة الى مجلس الشيوخ ، واعلنت الحقيقة المؤلمة للشعب بصراحة . كل بيت في رومة نالته النكبة . ولكن قضية اتخاذ التدابير والاحتياطات اللازمة للدفاع عن رومة قد اصبحت أهم من أخبار الهزيمة . وها أن مجلس الشيوخ يجتمع علنا ليواجه أقسى ظروف مرت بها رومة منذ كانت .

وما أن علم الشعب باجتماع مجلس الشيوخ حتى تدفقت أمواج

المواطنين الى ساحات المجلس والى داخله ، ترافقها تأوهات النساء وزفراتهن وشكاويهن . كانت تسمع أصوات الامهات والزوجات والشقيقات : « ردوا الينا أولادنا ، أين ازواجنا ؟ ماذا فعلتم بأشقائنا ؟ »

ولقد تعسر على مجلس الشيوخ مناقشة المواضيع الهامة في تلك الضوضاء المزعجة . فكلام الخطباء كان يتبدد في ذلك الجو المفعم بالضجيج والتأثرات العاطفية المتنوعة : طبقة الاشراف في مجلس الشيوخ وخارجه تكبت غيظها عن الزعماء الشعبيين المتهورين ، الذين استغلوا قلق الشعب وهيجانه ليقووا زعاماتهم ويضعفوا طبقة الاشراف فجروا الجيش الى معركة كانت اكبر كارثة في تاريخ رومة . والشعب ، بعد الكارثة ، نسي اندفاعه الماضي وتهوره ، بل صدم في اندفاعه لمنازلة العدو وصمت زعماؤه أمام خيبتهم ، وكان في صمتهم اعتذار وندم على ما حدث .

كل الانظار تتجه ، في جلسة مجلس الشيوخ ، الى الدكتاتور السابق فابيوس مكسيموس ، فقد استعاد نفوذه وسطوته واحترامه بدون أن يفوه بكلمة . تحمل انتقاد الشعب وزعمائه بصبر كما يتحمل النكبة الان . والذي زاده احتراما انه لم يكن شامتا ، ولا منتقدا ولا معنفا ، ولا مذكرا بمشوراته المتكررة باتباع تكتيك الارهاق ، وحرب الاعصاب ، ورباطة الجأش ، وتجنب المعارك الكبرى مع العدو . كان الشعب الروماني واعيا ، مدركا ، متبعا سير الاحداث . لقد أدرك الان بوضوح ان خطة فابيوس كانت الفضلى ، وان الدكتاتورية الدستورية هي ضرورية في هذه المرحلة القاسية .

« فابيوس مكسيموس هو في مكانه . وطنه في خطر مرة أخرى ، وسيحتاج اليه ثانية . هو يعلم ذلك ، وهو مستعد . وبلهجة صارمة وثابتة تدخل في المناقشة . ان سطوته وعمره وهيبته تسمح له بأن يفرض صمتا نسبيا . وهو يستغل ذلك ليعرض طائفة من التدابير للسلامة العامة :

« ١ ــ منع النساء من مغادرة المنازل .

٢ ــ منع النوح والنحيب في الطرقات والساحات العامة .

٣ ــ يوقف مشيعو الاخبار ويساقون للمثول أمام القضاء .

٤ ــ يعين حراس على أبواب رومة ليمنعوا السكان من مغادرة العاصمة » (٤٨) .

وقد تقررت جميع هذه التدابير وأعطيت الاوامر لتنفيذها ، على ان يجتمع مجلس الشيوخ بعد ذلك في جو هادىء .

اجتمع مجلس الشيوخ بعد أيام وقرر العودة الى تكتيك فابيوس : حرب الانهاك والاتلاف . « فليترك القرطاضيون يستهلكون انفسهم في الزحف ذهابا وايابا ، ولننهكهم بمناوشات متكررة خالقين فراغا حولهم في جميع المناطق التي يجتازونها » (٤٩) .

بعد معركة كاني انتظر هنيبعل أن تظهر بوادر زلزلة سياسية في

الوحدة الايطالية ، وأن تتسارع الاقوام والمدن الايطالية الى محالفته ووضع جميع طاقاتها تحت تصرفه لضرب رومة ضربة أخيرة . كان انهزام رومة في تلك المعركة الكبرى أكبر مشجع لانكشاف وافتضاح مواطن الضعف في تلك الوحدة القومية الجديدة التي اعتبرها هنيبعل قائمة على القسر والارغام ، ومعرضة في كارثة رومانية كهذه لانهيار عام يجعل من رومة ، المدينة ــ الدولة ، قوة معزولة عن طاقاتها المساعدة ، مطوقة من حلفاء منقلبين الى أعداء ينفثون ضغائنهم وأحقادهم مرتدين عليها ليثأروا مما أصيبوا به في الماضي في عزتهم وكرامتهم .

لم يكن أي شيء من ذلك . لم تبادر الا مدينة « كابو » (٥٠) الى عرض محالفتها وفتح أبوابها لبطل كاني . كانت من أغنى المدن اليونانية في ايطاليا وهي مشهورة بأنها مدينة الملذات والترف وانحلال الاخلاق . لا شيء ينسجم فيها مع خشونة الاطباع الرومانية وتقاليدها المحافظة . ومن الناحية السياسية تحب أن تعيش على هواها ، وتساهم بأقل ما يمكن في العمليات الحربية . في معارك رومة ضد هنيبعل لم ترسل الا ثلاثماية خيال فقط ، وهو عدد قليل بالنسبة الى سكانها الموازين لعدد سكان رومة .

بعد معركة كاني أرسلت وفدا الى فارون ، القنصل المشرد ، لتعلن ثباتها على عهد المحالفة مع رومة . وتحالفها مع رومة يعود الى ٣٤٠ ق.م. ولما رأى الوفد تضعضع القنصل ويأسه ، اذ طلب من الوفد أن تقوم كابوا بواجبها القومي على أفضل وأوسع وجه حاملة عبئا ثقيلا من الحرب عن رومة ، عاد الوفد مقتنعا بأن رومة قد انتهت وان على منطقة كامبانيا ان تفاوض المنتصر وتنضم اليه .

واقتنع مجلس شيوخ كابوا بوجهة نظر الوفد وقرر ارسال وفد جديد يعرض محالفة المدينة على القائد الفينيقي المنتصر . ومع ان هنيبعل كان ينتظر وفودا عديدة تأتي عارضة محالفته ، مستغربا أن يرى وفدا واحدا، فانه استقبل وفد كابوا بترحاب وتشجيع والمح في حديثه الى اليوم الذي تصبح فيه كابوا عاصمة الدولة الفدرالية الايطالية الجديدة ، يوم تأتي رومة نفسها فتلتمس شرائعها الجديدة من العاصمة كابوا . وقد عقدت المعاهدة التالية بين مجلس شيوخ كابوا وهنيبعل :

« ١ ــ تحتل القوات القرطاضية المدينة .

٢ ــ يحافظ سكان كابوا على شرائعهم وادارتهم الداخلية وشؤونهم البلدية .

٣ ــ يتعهد القرطاضيون بألا يلجأوا الى المصادرات والى تجنيد السكان لمصلحة جيشهم .

٤ ــ تقدم القيادة القرطاضية ٣٠٠ رهينة من الرومان حسبما تنتقيهم كابوا بدلا عن ٣٠٠ خيال من سكان كابوا مجندين مع الرومان » (٥١) .

لم يكن لمحالفة كابوا الا فائدة جزئية ، سواء من الناحية المادية أو

المعنوية . فهي ، عمليا ، لم تزد في قوة هنيبعل ، اذ لم تتعهد بتقديم أقل مساعدة عسكرية لا في التجند ولا في العتاد ولا في المؤن . وهي ، من جهة ثانية ، لم تؤثر على وضع رومة ، لانها لم تكن يوما من المدن ذات الطاقة الحربية . ولا شك ان هنيبعل قبل بشروط من هذا النوع لتشجيع المناطق الاخرى للاقبال على طلب التحالف .

عندما علم الرومان ان رومة لم تكن هدف هنيبعل المباشر بعد كاني استعادوا هدوءهم ورباطة جأشهم ، مدركين ان المجتاح ذو نفس طويل وخطط خفيت حتى الان عليهم . وقد تأكدوا من جديد أن التكتيك الافضل لمحاربة هذا الفاتح الغريب الاطوار هو تكتيك فابيوس .

قرر الدكتاتور جونيوس بيرا التجنيد العام في رومة وسائر مناطق ايطاليا . فهو يريد جيشا جديدا أقوى من جميع الجيوش السابقة . لقد اشترى ثمانية الاف من العبيد العاملين في رومة ليحولهم الى مقاتلين، وعرض على السجناء المجرمين ، والمدينن العاجزين عن الدفع ، ان ينخرطوا في الجيش : أولئك للتخلص من العقوبة ، وهؤلاء من ديونهم .

في هذه الاثناء نفسها شاء هنيبعل ان يعرض على الرومان افتداء الاسرى وكانوا أكثر من سبعة عشر الفا في كاني فقط . وقد وضع هنيبعل تعريفة افتدائهم ، وقسمهم ثلاثة أصناف : رومان وفدية كل منهم ٣٠٠درهم حلفاء وفدية كل منهم ٢٠٠ ، وعبيد وفدية كل منهم ١٠٠ . وقد جمع هنيبعل الاسرى فأطلق سراح الايطاليين ، حلفاء رومة ، وطلب من الاخرين أن يتصلوا بحكومتهم لافتدائهم ، فشكل الاسرى وفدا من عشرة أشخاص يرسلونه الى مجلس الشيوخ الروماني . وقد شاء هنيبعل أن يجس نبض الرومان بشأن الصلح ، فضم الى الوفد « كرتلون » أحد معاونيه الاذكياء ، المؤهلين للمفاوضة ، وكلفه ان يترقب سنوح فرصة يفهم منها اذا كان عند الرومان استعداد للمفاوضة بشأن الصلح .

بعد معركة كاني انتظر هنيبعل ان يتقدم الرومان بعرض للمصالحة ، وانتظر ان يتحمس القرطاضيون بعد أن علموا بانتصاره الكبير فيسرعوا بارسال النجدات للقيام بالضربة الاخيرة المجهزة على رومة . لم يكن شيء من كل ذلك ، بل بقي هنيبعل يدور في حلقات الانتصارات العسكرية ، لا يتقدم خطوة واحدة نحو هدفه الكبير . وما قيمة الانتصارات العسكرية اذا كانت لا تقربه من الساعة التي يفرض فيها ارادته على العدو ؟ لقد تعب جيشه من القتال ، بل تعب من الانتصار ، اذ لا يعقب الانتصار الا استنفار مجهود جديد لانتصار جديد . وطاقة الانسان في الصراع المسلح المرهق محدودة كما وزمانا . ومزاج هنيبعل في الوقت الحاضر ، بعد انتصار كاني الساحق ، هو أكبر دليل على ذلك . المنتصر في أربع معارك متتابعة قد مل الانتصار ، فكيف بالجندي والفارس والضابط الذي حارب هو نفسه في

جميع هذه المعارك ؟

عندما علم مجلس الشورى بوصول وفد الاسرى يرافقه كرتلون ، ممثل الفاتح القرطاضي المنتصر ، قبل بمثول الاسرى الرومان أمامه وأمر بطرد الموفد القرطاضي خارج الحدود الرومانية ، ولم يقبل بمبدأ المفاوضة مع رسول هنيبعل لا بخصوص الاسرى ولا بخصوص الصلح . وقد كان لطرد هذا الرسول تأثير بعيد الاغوار في نفس هنيبعل ، فكأنه سمع صدى شعاره الذي أعلنه لجيشه عندما وطيء أرض ايطاليا يتردد في جو مجلس الشيوخ الروماني : الانتصار أو الموت . وكأن ذلك الروماني ، الذي أبدع وتفوق في الفكر السياسي وفي المؤسسات الديمقراطية وفي تكوين الوحدة القومية ، كان يقتبس كل ما سوى ذلك من أعدائه ومن اختباراته في الحروب المتواصلة: حرب الافناء والتفكيك القومي التي شنها هنيبعل قابلها الرومان بحرب الانهاك والاتلاف . والنكبات التي أنزلها هنيبعل بالجيوش الرومانية وبالوطن الايطالي لم تزد رومة الا صلابة في عنادها ، والاقوام الايطالية الا تماسكا مع المدينة ــ الدولة ــ العاصمة التي وحدتهم وحولتهم الى قوة قومية متضامنة في الحياة والمصير . حتى كابوا نفسها لو لم يسىء فارون التوجه الى وفدها لما انفكت عن الوحدة الرومانية ــ الايطالية . لقد أوحى لها كلام فارون ، القنصل الحامل كل عبء هزيمة كاني ، أن رومة قد انتهت ولم يعد هناك أي شيء قادرا أن يقف في وجه الفاتح . ولذلك اسرعت وعرضت محالفتها على هنيبعل لتنقذ نفسها من المشاركة في تحمل اعباء الهزيمة وجورها . لقد قررت رومة أن تواجه هنيبعل بشعاره هو نفسه : « الانتصار أو الموت » .

ادرك هنيبعل بعد رجوع كرتلون مطرودا من رومة ان عليه ان يواجه الواقع القاسي . عليه أن يتغلب على ايطاليا جميعها ، ويقيم حاميات في مدنها وأريافها . عليه أن يدمر جميع طاقاتها العسكرية وجيوشها ومرافقها وانتاجها الزراعي . عليه أن يبيد ويأسر خمسمائة الف مقاتل مدرب بعد أن أباد وأسر ٢٥٠ الفا منهم . ومتى انتهى من تدمير الطاقة الحربية الحاضرة ، فأن الاجيال الناشئة تكون قد أصبحت جاهزة لاستئناف الصراع . ان الامكانات والوسائل الحربية التي تحت تصرف هنيبعل هي عاجزة عن القضاء على الظاهرة الرومانية الجديدة .

لم يكن هنيبعل يتصور ان رومة ، وهي تنكب نكبات أربعا متواصلة ، وتفقد ٢٥٠ الفا من رجالها ، وترى زهرة شبابها وصفوة رجالها يقعون صرعى في معركة كاني ، وتجد مصيرها يترجح بين الموت والحياة ، ستبلغ بها الجسارة والتحدي والعناد الى رفض الاخذ بمبدأ المفاوضة في افتداء الاسرى والصلح : « ان رفض استقبال رسوله بهذه الصورة المتعالية ، القاطعة ، قد قضى على جميع الامال التي كانت تدغدغ فكر القائد المنتصر في كاني . ومنذ الان قد فرض عليه أن يشرب حتى الثمالة خمر الانتصار المرة .

كان لجواب الدكتاتور جونيوس مغزى اخر : فهو يوضح ان الرومان قد استعادوا روعهم ورباطة جأشهم في وقت قصير وانهم حاضرون ، بالرغم مما أصابهم من نكبات ، أن يتابعوا الصراع حتى النهاية . فالشعب الروماني السريع التأثر كان يعرف في ساعات المخاطر ، كيف يبرهن عن ارادة ضارية في الانتصار لا تتزعزع » (٥٢) .

بالرغم من صياح الجماهير أمام مجلس الشيوخ : « ردوا الينا آباءنا ، ردوا الينا أزواجنا ، ردوا الينا أبناءنا » ، رفض المجلس التماس وفد الاسرى بافتداء الاسرى المكبلين بالحديد في معسكر هنيبعل . انهم في نظر مجلس الشيوخ جبناء غير جديرين بالفدية . وقد هاجمهم قاهر قبيلة « البويين » الجلالقة ، مانليوس توركواتوس ، بقوله : « لو كانوا يريدون أن يكونوا أحرارا ما كان عليهم الا أن يغادروا المعسكر الروماني في كاني كما فعل رفقاؤهم الذين تبعوا سميرونيوس . فالجنود الذين يتهربون مرتين من المعركة : أولا من القتال وثانيا من الفرار ليستعيدوا حريتهم ، هم غير مفيدين للجمهورية . فالمواطنون العاجزون عن الدفاع عن حريتهم الشخصية، لن يدافعوا عن حرية وطنهم » (٥٣) .

ذلك هو موقف مجلس الشيوخ من الاسرى الذين اعتبرهم جبناء ، وهو من اقسى المواقف التي وقفتها قيادة عسكرية أو دولة تجاه أسراها في الحرب ، وهو يدل على ثقة الدولة بوعي الشعب وامتثاله لقرارات مؤسساته العليا ، متغلبا على عواطفه العائلية .

ولكن لهذا الموقف الصارم هدفا أساسيا اخر هو أن لا يتيح لهنيبعل تحسين ميزانيته الحربية من مال الفدية . كان الرومان يعلمون ان هنيبعل بحاجة ماسة الى المال ، وأن قرطاضة لا تمده بشيء في الوقت الحاضر . أن فدية الاف الاسرى ستحسن أوضاعه المالية وتجعله قادرا أن يجند جيشا من المرتزقة . ذلك هو السبب الاول الذي دفع مجلس الشيوخ الى التصلب مع الاسرى المعدودين جبناء ومتهربين .

## بين هنيبعل وقرطاضة بعد كاني

وجد هنيبعل نفسه أمام الواقع القاسي الصارم : الرومان مصممون على الانتصار أو الموت ، والاسرى هم عبء عليه ولا من يفتديهم . هو بحاجة ماسة الى مال ولا يقدر أن يجور على الايطاليين كي لا يهدم الجسور بينه وبينهم . قرطاضة لا تمده بشيء ، بل تنتظر منه حصتها من المغانم . اسبانيا قطعت عنه أخبارها ، وهو لا يعلم ماذا جرى فيها . وحيد أمام الاقدار الضارية : يحمل مسؤولية حضارة وامبراطورية ، ويواجه امكانات أمة عسكرية في شرخ شبابها تخضع لمركزيتها الصارمة طاقات حربية واقتصادية

وبشرية متفوقة في وعيها واستعدادها للتضحيات .

ماذا يفعل ، والى أين يتجه ؟ اذا توقف كان بدء التدهور . واذا تقدم تحمل مسؤوليات جديدة لم يعد جيشه المحدود قادرا أن يتحملها .

بالرغم من هذه الحالة السيئة التي قل أن وصل اليها فاتح ينتقل من انتصار الى انتصار ، لم يكن عسيرا على هنيبعل أن يضع استراتيجية جديدة لمرحلة ثانية من حربه قد تقوده الى النصر . المهم أن تلبيه أجزاء الامبراطورية القرطاضية ، كما تلبي مناطق الدولة الرومانية مركزيتها . اذا كان يريد النصر عليه أن يبتكر خطة جديدة . فالوسائل التي بين يديه هي عاجزة عن الوصول الى النهاية المرجوة ، بالرغم من انتصاراته . هو بحاجة الى خطة جديدة ، والى آلة حربية جديـــدة متفوقة في عددهـــا وعتادها ، ليستغل انتصاراته الماضية بتسديد الضربة القاضية . كل ذلك هو في مقدور قرطاضة لو كانت لها ارادة رومة ووعيها وعزمها وآلتها الحكومية الدينامية .

ولكن قرطاضة لاهية عن حرب مصيرها ، مجمدة في مفاهيمها ، تجهل ظاهرة رومة القومية الجديدة وتأثيرها على مصير الحضارة الكنعانية والدولة التي تمثلها في غربي المتوسط . تبدد حيويتها في مصالـــح الاوليغارشيين ، وتهمل شعبها الكنعاني المبعثر في مدنه الافريقية كما تهمل الافريقيين المتفاعلين معها منذ ستة قرون ، فلا تعطيهم حقوق المواطنة القرطاضية لينشأ عندهم فهم صحيح لمصالحهم ومصائرهم المرتبطة بدولة قرطاضة التي تحميهم وتحمي نفسها بهم كما حدث للشعوب والاقوام الايطالية التي وحدتها رومة بالقوة العسكرية الواعية .

وقد كان من حظ قرطاضة ان رومة لم تدمرها بعد الحرب الفينيقية الاولى ، فانفسح أمامها في المجال الرحب لتستيقظ وترى عللها وتجدد حياتها بمفاهيم جديده وقوى مناقبية جديدة . لكن قرطاضة بقيت متعامية عن رؤية حقيقتها المؤلمة .

يبدو ان علة قرطاضة كانت في قلبها . هي وراثية انتقلت اليها ، أو حملتها معها ، من صيدون وصور والشاطىء الكنعاني . هي علة الدولة التي تحيا في دورة مصالح طبقة من طبقاتها ، أو أفـــراد محدودين مـــن مواطنيها ، لا بقوة فكرها السياسي الخلاق ومركزيتها القوميـــة الصارمة ومرافقتها أحداث العالم ، متطورة مع الازمنة لمواجهة تلك الاحداث .

هميلقار لم ينكسر في صقلية في الحرب الفينيقية الاولى ، بل رأى ، بفكره البعيد ، قرطاضة واصلة الى الانكسار ، فتدارك الامر وطلب الصلح وعقد معاهدة مع الرومان تتيح لشعبه ولدولته أن يأخذا عبرة تاريخية من تلك الهزيمة الناتجة لا عن قوة رومة العسكرية ، بل عن جهل قرطاضة لاهمية تلك الحرب اذ لم تعطها الاهتمام اللازم .

وعندما عاد الى بلاده ورأى الحكومة لاهية عن درس أسباب الهزيمة

التي خسرتها أعظم قواعدها ، بمساومة المرتزقة ومراوغتهم بعد أن خدموها ودافعوا عن مصالحها ست سنوات بدون أن يقبضوا أجورهم ، تألم آلاما مريرة وعجز عن فرض ارادته في تلك المشكلة التي كان شرفه القرطاضي ملتصقا بها اذ هو نفسه وعد المرتزقة بأن يدفع لهم أجورهم ويغدق عليهم عطاياه بعد انتهاء الحرب .

في ذلك الوقت بالذات ، وقت مشكلة المرتزقة مع حكومة الحزب الحنوني الانهزامي ، كانت الثورة القومية التجددية ، السياسية والاجتماعية، محتمة على القرطاضيين . وكان على هميلقار أن يتزعم تلك الثورة ، فهو وحده الذي وضحت له رؤيا التخلف والانحطاط في الدولة القرطاضية ، وهو وحده الذي رأى منابع القوة الرومانية القومية الجديدة ، وهو وحده الذي كانت له السطوة والقدرة على مجابهة تلك الطبقة الاوليغارشية المتعامية عما يحدث في العالم من تطور وعما يحدق بها من مخاطر مصيرية وعما في شمالي أفريقيا من بشر وموارد في متناولها .

انما يبدو ان قدسية المؤسسات العتيقة المتحجرة ، التي تحولت الديمقراطية فيها عبر القرون الى روتينية الطقوس المقدسة ، كانت لها رهبتها حتى في قلب هميلقار نفسه . وهو اذا كان واجهها في المؤسسات وعلى الصعيد السياسي الرسمي ، فانه قد تجنب مجابهتها بقوة شعبية وعسكرية تقضي عليها وتعيد قضية تقرير المصير الى وجدان الشعب وقدرته العقلية .

لقد قرر هميلقار أن ينتصر على جهود الدولة القرطاضية بعملية مداورة. فتمكن من ان ينال موافقة الحكومة القرطاضية على ذهابه الى اسبانيا على رأس حملة عسكرية ليقوم بفتوحات جديدة في شبه الجزيرة الايبارية تعوض عن خسارة صقلية وسردينية وكورسيكا . وقد تمكن بعبقريته العسكرية والسياسية أن يجعل من اسبانيا الهميلقارية الجديدة دولة دينامية غنية في جميع الموارد الاقتصادية والمالية والعناصر البشرية الصالحة لانشاء جيوش كبيرة ، حتى انتقلت عمليا زعامة الحضارة الكنعانية من قرطاضة الى اسبانيا . ولم تبق لقرطاضة الا سطوتها التقليدية التي أبى هميلقار ومن جاء بعده ازالتها عنها .

ولما اعتلى هنيبعل عرش هذه المملكة العسكرية الجديدة في سنة ٢٢٤ ق.م. كانت قرطاضة ما تزال هي هي ، تحجرا مستمرا وسيطرة طبقة متخلفة عن مستوى الاحداث الكبرى التي حركتها رومة في الحرب الفينيقية الاولى والتي لن تتأخر رومة نفسها عن تحريكها عند سنوح أول فرصة . ففي الجو العالمي المتوسطي ظاهرة جديدة متفوقة ، هي رومة ، تريد أن تسيطر على المتوسط بأساليب جديدة ونظام سياسي مركزي جديد .
هنيبعل يتصدى لهذه الظاهرة العدوانية المقتحمة . وهو يريد الثأر

مما أصاب قرطاضة في الحرب الفينيقية الاولى ، كما يريد كبح جماح هذه الظاهرة وايقافها عند حدود معينة .

هل يقدر هنيبعل أن يستغني عن مساعدة قرطاضة في حربه ضد رومة ، بل هل يجوز ان يستغني عنها ، وهي ، على الاقل ، قاعدته المعنوية ، تقويه تجاه العالم ؟

هل اسبانيا الهميلقارية الجديدة اصبحت كاملة التماسك في ما بين اجزائها وقادرة أن تغذي ، وحدها ، حرب هنيبعل الجديدة ؟ وهل يجوز أن يظهر تجاه العالم الخارجي ، ان الحضارة الكنعانية في غربي المتوسط قد تحولت الى دولتين ، بينما جميع الدول الايطالية قد تحولت الى دولة مركزية واحدة هي دولة رومة ؟

واضح كل الوضوح ان هنيبعل لم يشأ ذلك . فقد اهتم جديا بموافقة قرطاضة ، الشكلية على الاقل ، على انتخابه قائدا عاما للجيش وحاكما مطلقا لاسبانيا . ثم انه قد حرص على أن يطلع حكومة قرطاضة على المشكلة القائمة في اسبانيا بين السلطة القرطاضية وروما حول ساغونتي . ولم يشن هجومه على المدينة المتمردة ، الخارجة عن طاعة السلطة القرطاضية واللاجئة بتحد الى حماية رومة ، الا بعد أن حصل على موافقة الحكومة القرطاضية .

لقد فعل هنيبعل ذلك للمحافظة على الاشكال الدستورية . فهو يعلم حق العلم ان قرطاضة ما تزال كما كانت : نظاما عتيقا شعاره « السلام مع رومة بأي ثمن » ولو كان ذلك الثمن صقلية وسردينية وكورسيكا بالامس ، وقد يكون اسبانيا في الغد . وما الحماسة التي أظهرها القرطاضيون ردا على تحدي الوفد الروماني ، الا موجة عابرة قد أحدثها انتصاره في ساغونتي ومئات صناديق الهدايا التي شحنها الى قرطاضة من غنائم المدينة اليونانية التي سقطت بين يديه .

كان على هنيبعل ، قبل السير بحملته على رومة ، أن يؤمن قاعدتيه الحيويتين ، شرياني الحياة والقوة في أعظم محاولة عسكرية قام بها قائد في التاريخ ، اسبانيا وقرطاضة .

قد يكون بدا له ، خطأ ، ان اسبانيا هي مؤمنة بوجود شقيقه عزربعل ( عوني بعل ) ، وان قرطاضة مضطرة ان تساعده بعد أن أعلنت موقفها للوفد الروماني الذي كان ماثلا أمام مجلس الشيوخ في قرطاضة . ولكن هنيبعل الان ( ٢١٦ ق.م. ) ، بعد معركة كاني ، وهو في قمة مجده العسكري ، يستعرض الماضي المليء بالعبر والحاضر الماتي الذي تكبحه الانتصارات الساحقة والمستقبل الراقص على أكف الاقدار ، يستعرض هذا الواقع فتعضه معطياته السلبية القاهرة ولا يخلص الى مجابهة هذا الواقع المتألب عليه رومانيا والمتخاذل أمام واجبه المحتم قرطاضيا ، فلا يجد بدا من

متابعة تحدي الواقعين القاسيين : الروماني بضراوته ، والقرطاضي بتعاميه عن الحقائق الصارخة بوضوحها .

ولكن من هو المسؤول الاول عن وجود هنيبعل في هذا المأزق التاريخي الفاصل في تاريخ المدنية العالمية ؟ اسبانيا أم قرطاضة أم هنيبعل ؟ ان المسؤول الاول هو هنيبعل نفسه ، اذ ان المسؤوليات التاريخية الفاصلة تقع على من يدرك اهميتها ونتائجها ، وان خطأ كبيرا يرتكب قد يؤدي الى انهيار حضارة بكاملها .

كان على هنيبعل ، قبل أن يزحف على رومة ، أن يبلـور « النظام الجديد » الذي أبدعه هميلقار في اسبانيا . واذا كان جاز لهميلقار أن يقيم « نظاما جديدا » في اسبانيا ليسيطر على قرطاضة مداورة ويجرها وراءه ، فانه لم يكن جائزا لهنيبعل ، بعد أن اصبح ذلك « النظام الهميلقاري الجديد » قوة سياسية وعسكرية وقومية فعلية ، ان يبقي علـى الاوضاع العتيقة المتخاذلة في قرطاضة . ان الامكانات الحربية التي تقدمها له اسبانيا الجديدة كانت قادرة على أن تمكنه من بلورة نظام اسبانيا الجديد ، وتثبيته بقـوات عسكرية كبيرة وبمعاهدات سياسية قوية مع زعماء الاقوام في المدن الاسبانية كما فعلت رومة في ايطاليا . تلك الامكانات الاسبانية كانت قادرة أيضا أن تمكنه من تدمير الاوضاع القرطاضية العتيقة واقامة نظام هنيبعلي جديد في قرطاضة يقصي العناصر الانهزامية عن الحكم ، ويحول تلك المؤسسـات السياسية المتحجرة الى مؤسسات دينامية جديدة . فالحملة التي سار بها على رومة كان عليه أن يسير بها أولا على قرطاضة نفسها ، ليدمر أوضاعها السياسية ومفاهيمها المدينية والاقليمية العتيقة التي حملتها من صور ، وليبني قرطاضة الجديدة بمؤسساتها ومفاهيمها . وبهذا التركيز في اسبانيا ، وهذا التجديد والبعث في قرطاضة ، كان تمكن من اعداد هاتين القاعدتين أولا للخضوع لقيادته العسكرية وزعامته السياسية ، وثانيا لوضع كل طاقاتهما وامكاناتهما تحت تصرفه الحربي للفصل في الصراع الكنعاني السوري ـ الروماني . بل ان الفرصة لم تفت بعد كليا . ان هنيبعل قادر الان أن يتخذ من تلكؤ قرطاضة عن تلبية ندائه حجة لينتقل من ايطاليا اليها فيخضعها أولا، ثم يعد جيشا جديدا ليعود بحرا الى صقلية فايطاليا .

هل كانت الرهبة من قدسية المؤسسات العتيقة البالية تمنعه من القيام بهذا العمل ؟ أجل انه لكذلك .

أما أن يترك هنيبعل البناء الاسباني الجديد وهو طري بعد لم يتماسك، ويترك قرطاضة حرة في عربدة الانهزامية واللاشعور بمسؤوليتها المصيرية ، فان عمله هذا كان قاضيا على عبقريته العسكرية مقدما .

في سنة ٢١٨ ق.م. كان هنيبعل زعيم الامبراطورية الفعلي ، وقائد الجيوش العام ، وعاصمة الامبراطورية المتجسدة في انسان .

ولكن قرطاضة عجزت عن رؤية هذه الظاهرة الجديدة ، ظاهرتها القومية ، فهي غريبة عن معطياتها وامكاناتها . وهي اعتقدت ، عندما اختارت الحرب متحمسة لهنيبعل ، أن هنيبعل سيثأر لها وسيقدم لها حصتها من الغنائم وسيعيد اليها كل ما خسرته في المتوسط دون أن تقدم شيئا من المجهود الحربي .

قرطاضة عجزت عن فهم هنيبعل كظاهرة لانقاذها وانقاذ الحضارة ، كما عجزت عن فهم رومة كظاهرة لتدمير حضارة الكنعانيين في غربي المتوسط وللتسلط على الحضارة العالمية .

أما اسبانيا شبه المستقلة عن قرطاضة ، فلم تعرف أهي تقود قرطاضة أم تنقاد لها . أهي مسؤولة عن تغذية حملة هنيبعل ومساندتها أم قرطاضة مسؤولة معها . وما اذا كان هنيبعل وقرطاضة هما مسؤولان عن تعرضها الان لحملة فتوح يقوم بها كنايوس سيبيون المكنى بالاصلع ؟

بل ان قرطاضة لم تفهم ، حتى الان ، حقيقة هذه الحروب المصيرية التي استمرت ربع قرن ( ٢٦٤ — ٢٤١ ق.م. ) في مرحلتها الاولى ، والتي استأنفها هنيبعل في سنة ٢١٨ ق.م. وأيدته هي في مغامرته الجبارة . انها ذاهلة عن حقيقة نفسها . ويلاحظ ان قرطاضة ، في غربي المتوسط ، تلعب الان لعبتها الحربية والسياسية الخاصة ، المحصورة ضمن دائرة شمالي افريقيا والجزر التي خسرتها في الحرب الفينيقية الاولى ، مستقلة عن عمليات هنيبعل في ايطاليا وعن الصراع الروماني — الكنعاني في اسبانيا وفي ايطاليا وفي المتوسط .

عمليات هسدروبعل الاولى ضد السيبيونيين ، وعمليات قرطاضة البحرية ضد رومة في المتوسط ، وصراع سرقسطة ضد رومة ، كان يمكن أن تعطي نتائج كبيرة لو كانت منسقة متناغمة مع هنيبعل . بل ان قرطاضة تحاول ان تفيد من حرب هنيبعل لا لتقويته ، ليسحق رأس الافعوان الروماني العسكري العدواني المتجبر ، وانما لمحاولة استرجاع الجزر .

لو كانت قرطاضة واسبانيا الهميلقارية وحملة هنيبعل في ايطاليا ثلاث دول حليفة متفقة على قهر رومة لكان يفترض فيها أن تلتزم معدلا أدنى من تنسيق عملياتها الحربية لتأتي هذه العمليات متكاملة يعضد بعضها بعضا حتى تتمكن الاطراف الثلاثة من استغلال عملياتها الى أقصى حد ممكن . هذا المعدل الادنى من التنسيق الموحد لم يكن حاصلا بين هنيبعل واسبانيا وقرطاضة . ذلك كان أضعف ما يمكن أن تنحدر اليه دولة الكنعانيين السوريين في غربي المتوسط .

الحقيقة هي ان الدولة القرطاضية ارتكبت من الاخطاء الاساسية في حربها الفينيقية الثانية ما يكفي لانكسارها ويزيد ، وان الدولة الرومانية قد مارست من الفضائل القومية والمواهب السياسية المتفوقة ما يكفي لانتصارها

ويزيد . والحرب بين الدولتين كانت ، في جوهرها ، حرب مفاهيم وفضائل قومية أكثر منها حرب معارك عسكرية . لقد انتصر هنيبعل وثبت عبقريته العسكرية ، ولكن قرطاضة انكسرت وتبعتها الحضارة الكنعانية السورية المتوسطية العالمية . ولقد انكسر القادة الرومان في ايطاليا ، ولكن روما انتصرت وتبعها انتزاع قيادة الحضارة من سورية الكنعانية كما انتزعها الاسكندر من قبل من سورية البابلية .

أباد وأسر هنيبعل على أرض ايطاليا مائتين وخمسين الفا من المقاتلين الرومان والايطاليين ، عدا عن الايطاليين الذين أطلق سراحهم ليربح أقوامهم ومناطقهم . ذلك يشكل ثلث الطاقة البشرية الرومانية المقاتلة . ولكن ذلك لم يقدم هنيبعل خطوة واحدة نحو النصر الاخير ، بل أيقظ وحفز واستفز كل ما في الرومان والايطاليين ، الملتفين حول روما ، من فضائل قومية جديدة للصراع حتى النصر النهائي .

حارب هنيبعل وانتصر بعناصر بشرية غريبة ، فلم يتلف من الكنعانيين الا عددا قليلا قد لا يتعدى آلافا خمسة . ومع ذلك فان الكنعانيين لم يزيدوا نموا وقوة ، ولم ينتصروا في النهاية ، بل انهاروا كليا في غربي المتوسط كما انهاروا قبلا في وطنهم الام .

لقد نتج ضعف قرطاضة عن حالتين متعاكستين :

١ ــ قوة استمرار التحجر في قرطاضة الذي لم تؤثر فيه لا هزة الانكسار في الحرب الفينيقية الاولى ، ولا نشوة الانتصار العبقري المجيد ، في الحرب الثانية ، من معارك هنيبعل النادرة المثيل في تاريخ الحروب الحضارية الكبرى .

٢ ــ قوة العبقرية المستهترة بنواميس الحياة الاجتماعية الحضارية ، والطامحة الى روض هذه النواميس بمشيئة عبقرية مطلقة . مع ان التاريخ يقدم أمثلة بليغة على ان التحجر مصيره الضعف والتفكك والانهيار ، والانفلات العبقري مصيره تسجيل الامجاد الفردية بدماء المقاتلين وانهيار الامم العظيمة.

قبل هنيبعل وقع الاسكندر في الاخطاء المميتة نفسها ، وسوف نرى ذلك في الجزء الثاني من هذه الدراسة .

ان الحرب الفينيقية الثانية ( ٢١٨ ــ ٢٠٢ ق.م. ) ، المنطلقة من التحجر القرطاضي والانفلات الهنيبعلي ، ستعطي النتائج نفسها التي أعطتها حملة الاسكندر المنطلقة من التحجر اليوناني المديني ومن الانفلات الاسكندري. ومن غرائب المصادفات ان ظواهر الانحلال في قرطاضة واليونان ومصر البطالسة وسورية السلوقيين كانت تتم في آن واحد ، وان ظاهرة قومية مركزية متفوقة كانت تتم في روما وتعدها للتغلب ولتسلم قيادة الحضارة بالرغم من تخلفها الحضاري بالنسبة الى اليونان وقرطاضة وسورية ومصر . كل مجتمع يتجمد ، يسير الى الضعف والعبودية . وكل مجتمع يتطور وينمو،

يمشي الى التفوق والانتصار والسيادة والبقاء . وليست الانتصارات الحربية العابرة ، غير المرتكزة على دولة مركزية لها مؤسساتها القوية الفاعلة ، بقادرة ان تغير مجاري التاريخ الا لفترة محدودة .

ليست رومة الان دولة عالمية تجمع شعوبا وبيئات وحضارات عديدة كما كانت امبراطورية الفرس في سنة ٣٣٥ ق.م. ، عندما زحف الاسكندر على الشرق ، تمتد من الهند الى الحبشة وتضم مجموعة من الامم والشعوب لا يوحدها الا تاج ملك أو سيف فاتح ولا تبقى متحدة الا اذا أحست دائما بقوة ذلك الملك المهيمنة .

ان رومة هي جمهورية قومية ، من نوع مركزي جديد ، وحدت مصالح الاقوام الايطالية مع مصالحها فأصبحت واياها قوة قومية جديدة متماسكة ، متعاونة ، لا تشذ عن القواعد القومية الجديدة الا اذا رأت رومة قد انهارت كليا . كل انتصارات هنيبعل الساحقة ، الصارخة بعظمتها وتفوقها ، لم تتمكن من أن تفك الاقوام الايطالية عن رومة . انها ، بشعور غريزي ، الصقت مصيرها بالمصير الروماني الكبير .

ورومة التي وعت رسالتها القومية الايطالية ، وآمنت بنفسها ايمانا مطلقا منذ الحرب الفينيقية الاولى ، زادها خطر هنيبعل وانتصاراته وعيا ، فاستنفرت كل ما في نفسها من قوة معنوية وكل ما تطال يدها من طاقات مادية . وها هي تطاول الفاتح منذ اربع سنوات في جولاته الموفقة مطاولة لم يدانها مثل في التاريخ في التصميم على القتال حتى النهاية وفي طول النفس والعزم المتجدد أبدا للصراع .

نحن في سنة ٢١٥ ق.م . اسبانيا تصارع السيبيونيين . وصلتها أخبار انتصارات هنيبعل وطلبات النجدات في آن واحد . لكنها عاجزة عن استغلال انتصاراته وعن ارسال نجداتها . فكما ان هنيبعل يروع ايطاليا ، كذلك الغزاة الرومان يروعون اسبانيا .

أما قرطاضة فقد أوفد اليها هنيبعل شقيقه الاصغر ماغون ، شبل هميلقار ، لينتزع منها نجدة مالية وعسكرية تساعد على تسديد الضربة الاخيرة لرومة .

ان رجوع رسول هنيبعل الذي رافق وفد الاسرى الى مجلس الشورى الروماني مطرودا ، وخذلان الوفد نفسه برفض المجلس افتداء الاسرى بتلك القساوة التاريخية ، خلقا في خيال هنيبعل صورة للمستقبل تتراءى فيها خطوط سوداء قاتمة . أيجوز أن يمسي هنيبعل وحده ، منعزلا في ايطاليا ، متروكا من قواعده ، مهملا من حكومته وشعبه ، كما حدث لوالده في صقلية بين سني ٢٤٧ — ٢٤١ ق.م. ؟ أيمكن ان يفرض القدر ان تكون نتائج انتصارات هنيبعل عظمة خالدة لهنيبعل وحده وانكسارا تاريخيا لدولته وشعبه وحضارة وطنه الاول الكبير ؟ لقد اسودت الدنيا في عيني القائد

المنتصر فطلب من شقيقه ماغون التوجه فورا الى قرطاضة بعد ان زوده بتعليمات واضحـــة .

بعد أيام قليلة كان ماغون امام مجلس الشورى القرطاضي . مهمته تقضي بأن يعرض الوضع في ايطاليا ، وان يظهر ايجابيات الحملة الايطالية والنتائج البالغة الاهمية المنتظرة من نجاحها ، وان يطالب بالتمويل اللازم لتغطية نفقاتها الباهظة : « منذ وصوله الى ايطاليا ، ربح هنيبعل معارك كبرى ثلاثا ضد الجيوش الرومانية الرئيسية . دمر جيشين منها . نازل ستة قادة كبار ، بينهم أربعة قناصل ودكتاتورا وقائد خيالته.حتى ان ابرزهم واقواهم شعبيةقامت شهرته المضحكة على انه تجنب المعركة مع هنيبعل ( نكتة بقيت ، منذ ذلك الحين ، ملتصقة بصيت كونتوس فابيوس ) . قتل هنيبعل مايتي الف رجل واسر خمسين الفا . كل ايطاليا الجنوبية ـــ سكان بروتيوم وابوليا واكثرية السمنيتيين واللوكانيين ـــ التفت حول قضيته . كابوا ، اكبر مدينة ايطالية بعد رومة ، كانت تحت سلطته . وهذا ما يستدعي شكر الالهة على هذه الانتصارات الرائعة .

« وماغون لم يأت فارغ اليدين . افرغ كيسا ، كان يحمله ، يحتوي على نماذج ذات دلالة . رمى على الارض مئات الحلقات الذهبية التي كانت تزين معاصم الفرسان الرومان .

« وقبل ان يختم كلامه ، افهم القرطاضيين ان مصلحتهم تقضي عليهم بتأمين انتصار هنيبعل ، الكامل ، وبالتالي عليهم ان يرفدوه بالوسائل التي تمكنه من تحقيق هذا الانتصار . فهو الان في البعيد ، وسط بلاد عدوة . استهلك كميات كبيرة من المال والمؤن . والانتصارات التي دمرت الجيوش الرومانية كبدت جيشه خسائر جدية . انه محتاج الى النجدات والمال والمؤن للرجال الذين حصلوا على النتائج الباهرة التي يعرضها رسوله .

« هكذا كان تقرير ماغون . كان تقريرا في غاية الدقة » (٥٤) .

اصغى القرطاضيون الى خطاب شبل هميلقار بحماسة وتأييد ، وتحركت قلوبهم بتلك الحمية التي تحركت بها يوم جاءتهم اخبار انتصارات هميلقار في اسبانيا ، وصمموا في وجدانهم على تلبية نداء هنيبعل . ويقول ج. ب. بيكر ان المتحمسين ارادوا ان يستخفوا علنا بالارستقراطية الهرمة ، فسألوا حنون زعيم حزب السلميين ، وعدو البرقاويين اللدود ، الا يزال مصمما على مقاومة الحرب ؟ لقد دعوه ليسمعهم صوت رومة في قرطاضة .

« ولقد أطاع حنون أمرهم وعرض لمواطنيه نقاط الضعف في وضـــع هنيبعل بكليته . وحسب قول المؤرخين الرومان وقف حنون وبدأ بالكلام .

« لقد أكد حنون انه ما يزال مستمرا في استنكار الحرب ، ولن يتوقف عن ذلك الا عندما تنتهي بسلم منتصر . ولن يحمله على التأسف على السلم المنقضي الا سلم جديد .

« ان هذا العرض الذي سمعتم قد أشاع السعادة في قلوبكم . وانا

أيضا أكون راضيا اذا كانت هذه المنافع التي حققها هنيبعل تساعدنا على الحصول على السلم ، اذ أن منفعة الانتصار الوحيدة هي أن نطرد الحرب ونبعدها . ولكن اذا كنتم لا تستعملون الانتصار الا لمتابعة الحرب فأنكم ستدركون يوما ان لا مجال للاغتباط . بأي شيء تفرحون الان ؟ لقد دمرتم جيوشا عدوة وانتم تطلبون نجدات . ماذا كنتم تطلبون زيادة على هذه لو كان العدو دمر جيوشنا ؟ تقولون أن سيطرة رومة السياسية قد تصدعت وان ايطاليا هي ثائرة . قولوا لي بحقكم أية مدينة لاتينية انحازت معنا ، واي روماني قد هجر الى معسكرنا ؟

« ان الرومان ما يزالون كثيرين ، في أية حالة نفسية هم الان ؟ هل قدم هنيبعل لهم عروض صلح ؟ » .

ويتابع حنون كلامه فيقول : « لم تتقدموا اذن في الحرب أكثر مما بدأتم . البعض منكم يتذكر ويلات الحرب الماضية : لم نكن يوما أقرب الى الهزيمة من يوم كنا نشعر اننا نقبض على النصر . فاذا تكررت تلك الحالة في المستقبل ، هل تظنون ، انكم تقدرون ، وانتم مغلوبون ، ان تنالوا الشروط التي تعجزون عن نيلها وانتم منتصرون ؟

« لو كنا نبحث في شروط الصلح لكنت أعلم بماذا اجيبكم . أما ونحن لا نبحث الا في أمر ارسال النجدات الى هنيبعل ، فاني اتساءل لماذا يلتمس مساعدتنا اذا كان صحيحا ما يقول بشأن انتصاراته ؟ أما اذا كان يموه علينا الحقيقة فانه لا يستحق المساعدة » (٥٥) .

يقول المؤرخون الرومان واليونان ان خطاب حنون كان ابلغ خطاب لفظ في مجلس ديمقراطي اطلاقا . ويصورون ماغون في موقف عي متلعثم .

مع ان الدارس المتبصر يرى بوضوح ان ماغون كان الرجل العسكري الصريح في قوله حتى الجسارة ، المصمم على ان لا يخفي شيئا من الحقيقة الصارخة . وقد قال ما لهنيبعل وما عليه بوضوح كلي حتى يضع شعبه ومجلسه الاعلى أمام مسؤولياتهم التاريخية .

بينما حنون كان ذلك الخطيب السفسطائي الذي يحاول أن يغطي ، بفصاحته ، منطق الحرب الفاصلة التي يعانيها هنيبعل في صراعه مع شعب قد وعى حقيقته القومية ومصيره وعيا كاملا . وقد عرف حنون عند بني قومه الواعين الناهضين بانه انهزامي ، أصيب بعقدة الخوف من الرومان ، وعجز عن أن يرى نهضة الرومان العسكرية وتصميمهم على السيطرة الكاملة في غربي المتوسط بعد أن يدمروا القوة القرطاضية البحرية والمالية والعسكرية، فحاول منذ الحرب الفينيقية الاولى تغطية رجعيته وتحجره وانهزاميته وحسده الشخصي من البرقاويين واحقاده عليهم بتلك الفصاحة المريضة ، فصاحة السفسطائيين الذين شوهوا الفضائل الحقيقية بأساليب بلاغية غشاشة .

لم يحدث خطاب حنون البليغ أي تأثير على القرطاضيين ، فقد أخذوا

بالحقائق التاريخية والانتصارات الحالية الصارخة التي عرضها ماغون على بصيرتهم وحكمهم فقرروا حالا أن ترسل نجدة من اربعة الاف خيال نوميدي وأن يجند عشرون الف مقاتل من اسبانيا ، وخصص الف وزنة لهذه الحملة .

وتوجه ماغون الى اسبانيا ليبدأ تجنيد فرق المشاة وليتفقد الحالة العامة في الوقت نفسه حتى يقدم لهنيبعل جميع المعلومات اللازمة عن قرطاضة واسبانيا في آن واحد . فهل كان ما قرره القرطاضيون كافيا ليجعل هنيبعل مسيطرا على الموقف ، قادرا أن يسدد ضربته الاخيرة على رومة المتجبرة ؟ .

علق « بيكر » على خطاب حنون الذي رد فيه على ماغون في مجلس الشيوخ القرطاضي بقوله : « ان انتقادات حنون ، بالرغم من المعيتها ودقتها، كانت تتضمن عناصر لا يمكن لمناقب هنيبعل العبقرية أن تقبلها . ان خطابه كان يجرح هنيبعل بذلك الافتراض المضمر بأنه اذا كانت رومة مصممة على أن تنتصر أو تموت ، فأن على قرطاضة ، اذا لم تكن على مستوى احتمال من هذا النوع ، أن تسعى وراء معاهدة صلح . كان هنيبعل قد أعلن لجنوده: ان المصممين على الانتصار هم المنتصرون غالبا . ان موتهم ليس بذي اهمية كبرى . انه احدى اسعد الطرق لمغادرة هذا العالم . اذا كان حنون على صواب في قوله ، كان عليه ، لينسجم مع نفسه ، ان يضع حدا لحياته . اذ انه لا مكان على الارض للرجال المجردين من الشجاعة . الم يكن هنيبعل في وضع أفضل من حنون ليحصل على أفضل شروط للصلح ؟ وما كان على حنون الا أن يفكر قليلا ليجيب عن السؤال المحرج . كان على قرطاضة أن لا تسعى خلال ستة قرون وراء انشاء الامبراطورية اذا كانت تريد أن تتوانى الان وتتهرب . انها مرغمة على تحمل أعباء نتائج موقفها وأن تلعب دورها حتى النهاية . ان هنيبعل منطقي وواضح في تحليله . بينما لم يكن بوسع حنون أن يبرىء نفسه الا بالتنصل من كل ما كان يدافع عنه . وبما انه لم يكن مستعدا ، فقد كان موقفه غير منطقي في جوهره . فهو كان يسعى فقط ليتجنب غموض نتيجة المعركة » (٥٦) .

بينما كانت رومة متبنية بصورة عفوية شعار هنيبعل في مؤسساتها وشعبها : « الانتصار أو الموت » ، كانت قرطاضة ، بلسان حنون ، زعيم الطبقة السلمية الانهزامية المسيطرة ، تقف منذ البداية مترددة ، ملقية عبء القيادة والحرب على هنيبعل واسبانيا ، ومحملة ضمنا هنيبعل كل المسؤولية. ولم يكن يعني انتصار هنيبعل في ايطاليا ، وانتصار هسدروبعل في اسبانيا الا تخلصها من دفع نفقات الحرب . فالصراع بين رومة وهنيبعل كان مبارزة حضارتين في نظر رومة وهنيبعل ، والانتصار كان اما استمرار سيادة الكنعانيين في غربي المتوسط أو انتزاعها منهم نهائيا . اما في مفهوم حكام قرطاضة فقد كانت مغامرة كيفية يقوم بها هنيبعل ليسجل فيها عبقريته العسكرية . ان مفاهيم حكام قرطاضة كانت ممسوخة حقيرة .

هل كان هنيبعل عدوانيا في هجومه على رومة أم متداركا في حملته عدوانا ثانيا كانت تضمره رومة لقرطاضة ؟ وهل أخطأ هنيبعل بالقيام بحملته ؟ أخطأ هنيبعل فقط في القيام بحملته قبل تركيز أوضاع جديدة في قرطاضة ، وقبل اعداد قوات كافية لتحمي اسبانيا من الرومان ، أما الحملة على رومة فكان لا بد منها عاجلا أو آجلا .

ان حنون يريد صلحا منتصرا ، ولا يريد أن يقدم شيئا لنيل الصلح المنتصر . ورومة ترفض أن تقدم له ذلك الصلح المنتصر الا اذا غلبت على أمرها ، واضطرت الى رمي سلاحها والاستسلام . فبأية وسيلة يحصل على السلم ان لم يكن بالحرب ؟ واذا كان هنيبعل ، بعد أن أحرز الانتصار الساحق في أربع معارك كبرى ، وبعد ان احتل جنوبي ايطاليا ، يعجز عن الحصول على شروط صلح من رومة فكيف يريد أن ينالها حنون ؟ أبغير العبودية والاستسلام لرومة ؟

ومنطق حنون المعكوس في الحرب يرينا انه بقدر ما كان هنيبعل يثبت تفوقه في ايطاليا ، وهسدروبعل سيطرته على اسبانيا ، كانت حكومة قرطاضة تعتبر انها تخلصت من المسؤولية . فلم تكن لتلك الحكومة رؤيا شاملة موحدة واضحة لذلك الصراع التاريخي الرهيب بينها وبين عدوة لا تهادن وقد نذرت كل امكاناتها العسكرية والمالية للقضاء عليها .

هل كانت عبقرية هنيبعل وانتصاراته المتواصلة قادرة ان تعوض عن الفوضى في القيادة القرطاضية ، والتهرب عند الحكومة ، وغموض الرؤيا عند القرطاضيين وحكومتهم ؟

بعد سفر ماغون الى قرطاضة لمعت لهنيبعل في الآفاق البعيدة أنوار أمل كبير : وصلته أخبار ان « هيرون » زعيم سرقسطة قد مات عن تسعين سنة ، تاركا مدينته لحفيد فتي متحمس لقرطاضة وهنيبعل ضد رومة .

ثم بعد مدة قصيرة وصله وفد من قبله يطلب محالفة هنيبعل لطرد الرومان من جزيرة صقلية ، اذ يبدو ان صقلية قد رأت ، خلال ربع قرن ، الفرق الشاسع بين معاملة الكنعانيين للبشر ومعاملة الرومان ، فتاقت من كل قلبها أن يعود اليها القرطاضيون . وقد وصلت هنيبعل أخبار ان فيليب الخامس ، ملك مقدونيا ، قد مال نحو محالفته بعد معركة « كاني » وانه أصبح مستعدا للتحالف ودخول الحرب ضد رومة .

ثم تأتي أخبار اسبانيا المنبئة عن تدمير الجيش الروماني هناك ، وموت السيبيونين الشقيقين بوبليوس وكنايوس وتراجع شراذم جيشهم ، الباقية ، الى شمالي نهر الايبر ، حيث أحد الجنود القدماء ارتجل نفسه قائدا عاما فأطاعه الجنود وثبتوه في القيادة ، فأعاد تنظيم الجيش الروماني المندحر ، وتمكن من المقاومة حتى الاتصال برومة ليأتي قائد جديد .

أرسلت رومة أحد القادة الاشراف كلوديوس نيرون فلم يكن من قياس القادة القرطاضيين وهذا ما يثبته جيرار فالتر حول هذه المرحلة الدقيقة من مراحل الحرب الاسبانية حيث يقول :

« بعد معركة كاني ، أرادت قرطاضة أن تلبي نداء هنيبعل ، فأرسلت الى أخيه هسدروبعل خمسة الاف مقاتل ، وأوعزت اليه باجتياز جبال الالب ودخول ايطاليا . ولكن السيبيونين كانا متربصين على نهر الايبر ، فقاتلاه ، وأكرهاه على الانكفاء ، مما أثار قلق مجلس الشيوخ القرطاضي على البلاد الاسبانية كلها .

« وفي تلك الاثناء ، كان ماغون ، شقيق هنيبعل الاصغر ، في قرطجنة، يعد جيشا مؤلفا من ثلاثة عشر الف وخمسماية مقاتل وعشرين فيلا، فمشى لمقاتلة السيبيونين يعاونه هسدروبعل بن جيسكون ، القائد الوحيد الموهوب من غير الاسرة البرقية . وهكذا أصبحت في اسبانيا ثلاثة جيوش : جيش هسدروبعل برقة ، وجيش ماغون ، وجيش السيبيونين . وقد أدرك هذان عجزهما عن المقاومة ، فافترقا ، على أن يواجه بوبليوس جيش هسدروبعل بن جيسكون وماغون ، وينصرف كنايوس الى مقاتلة هسدروبعل برقة . وكانت هـذه الخطة وخيمة العواقب على الاخوين الرومانيين ، اذ هاجم هسدروبعل بن جيسكون بوبليوس الذي اضطر الى الفرار ، تاركا نائبه مع حفنة من الرجال، فطارده القرطاضيون وقتلوه .

بعد هذا النصر الجزئي ، اتصل جيش هسدروبعل بن جيسكون بجيش سميه البرقاوي ، فعجز كنايوس حتى عن الفرار ، وقتل بعد أخيه بتسعة وعشرين يوما . وهكذا خسرت روما في أيام قليلة ما جنته في اسبانيا طوال ثمانية أعوام من القتال المرير ، فاضمحل وجودها كليا في كل المناطق الواقعة جنوبي نهر الايبر . ولولا الجندي مارسيوس ، الذي أعاد الثقة الى فلول الرومان ، وانكفأ بها الى ايطاليا ، لبادت قوات روما عن بكرة أبيها .

استاء مجلس الشيوخ الروماني ، وأرسل الى اسبانيا كلوديوس نيرون الذي قام بمناورة لا تخلو من البراعة وحصر هسدروبعل برقة في واد مسدود. ففاوضه البرقاوي معلنا استعداده للاستسلام ، وأطال المفاوضات عمدا ، فيما كان جنوده يتسللون جماعات قليلة العدد الى خارج الوادي . وأخيرا خرج هو على رأس البقية الباقية من جيشه وعشرين فيلا . ولما علمت رومة بالامر ، استدعت قائدها الساذج على جناح السرعة ، ولم تجد بين قادتها راغبا في أن يحل محله . لقد أمست اسبانيا مقبرة الجيوش الرومانية في تلك الحقبة من التاريخ » .

هذا الوضع العام المؤاتي لهنيبعل ، والذي يبشر برجحان كفة الحرب الى جهة الفينيقيين ، كانت تشوبه ثلاث نقاط أساسية :

اولا : ان هنيبعل الذي عجز عن اسقاط مدينة نولا ومدينة طارنتا في

الجنوب ، والذي يدافع الان عن كابوا كي لا تسقط من جديد في أيدي الرومان، كان عاجزا عن تسديد ضربة قاضية الى رومة زعيمة الوحدة الايطالية السياسية والقومية . « وقد يكون ادرك اخيرا انه مهما عظمت انتصاراته العسكرية ، ومهما تعددت الشعوب الخاضعة لشريعته ، فلن يتحقق شيء حاسم ، ما دامت جدران رومة قائمة » (٥٧) .

لم تصله من قرطاضة الا نجدة خفيفة لا تتعدى ، على الارجح ، اربعة الاف مقاتل . والوفد اليوناني ، الذي جاء من قبل فيليب وعقد مع هنيبعل محالفة دفاعية هجومية مشتركة ، قبض عليه الرومان في طريق عودته الى مقدونية .

ثم ان انطيوخوص ، ملك سورية السلوقي ، الذي كان يمكن أن يكون له تأثير فاصل في الصراع الكنعاني ــ الروماني ، كان منشغلا بحروب محلية في فلسطين ، واقليمية في آسية ، حولت ايضا اهتمام فيليب الخامس ملك مقدونيا الى الشرق ، فضاعت على الجميع فرصة اضعاف رومة لتدارك شرها في المستقبل .

ثانيا : ان قرطاضة التي اطلعت على انتصارات هنيبعل الكبرى على الدولة الرومانية ، وعلى انتصارات شقيقيه هسدروبعل وماغون على الجيش الروماني في اسبانيا بسقوط الشقيقين السيبيونين كنايوس وبوبليوس وتبدد جيشهما شراذم لائذة بالفرار ، ان قرطاضة لم تع أهمية تلك الانتصارات لتتحمس وترمي بنجداتها في الميدانين لتنهي الحرب ، بل بقيت مستمرة في عقليتها الجامدة ، معتبرة ان على هذه الانتصارات ان تغذي المنتصرين ليتم انتصارهم النهائي بالوسائل المتوفرة لديهم عند الشعوب المغلوبة . فخطة الحاكمين في قرطاضة بقيت على ما كانت : التهرب من انفاق المال على الحرب ، والطمع بنيل الانتصار بدون تضحية .

والنقطة الثالثة والاهم هي ان رومة زعيمة ايطاليا الموحدة ، والقادرة ، بعد أن سقط منها مائتا الف رجل وأسر خمسون الفا ، أن تجند خمسمائة الف مقاتل ، هي غير مستعدة أن تستسلم قبل أن ترمي في ميادين القتال بهذه الطاقة البشرية الهائلة وتستنفدها الى اخر رجل . فالرومان شعب يعي واجبه وحقه القومي والسياسي في الحياة ، وهو غير مستعد أن يتنازل عن حقه أو يتهرب من واجبه ما دام هناك روماني قادر على حمل السلاح والقتال في سبيل أرضه وأمته .

« لم يكن الروماني على شيء خاص من الاخلاق النبيلة في أيام الاقبال والازدهار ، بل كان غالبا ما يستغل سلطانه ويكون فظا . ولكنه كان يبدو ذا قوة اخلاق متينة في أيام البؤس والتعاسة » (٥٨) .

أقوى ما كان في الوضع الروماني هو الوعي الواضح عند المؤسسات والزعماء والشعب الروماني لواجبات المواطن الروماني وحقوقه وللقضية

القومية والسياسية التي تتزعمها رومة في ايطاليا . يسير هذا الوضع ويسهر عليه مؤسسات فتية نشيطة تطبق الدستور والقوانين بدقة صارمة ، وزعماء وقادة لهم من تقاليدهم العائلية والعسكرية والدستورية ، ومن ولعهم بالانتصارات الحربية ما يجعلهم في مقدمة رجال الدولة المتفوقين في العالم .

هذه العوامل الكبرى التي كانت تفرض نفسها في المعسكرين المتصارعين لم يقدر هنيبعل أن يبدل مفاعيلها . وبالرغم من أن جميع الجهات المخاصمة لرومة كانت تتوق الى محالفته فأنها بقيت جميعها بعيدة عن ميدان الحرب الايطالية . فيليب الخامس المقدوني تحالف مع هنيبعل محالفتين وقصر عن أن يرسل قواته المسلحة الى الحرب ، واسبانيا المنتصرة على السيبيونين تأخرت عن ارسال نجدتها ، وسرقسطة كانت تطلب نجدة لانقاذها من النفوذ الروماني في صقلية ، اما انطيوخوص ملك سورية فقد بقيت رؤياه لحوض المتوسط غير واضحة حتى تناوله خطر رومة في آسية الصغرى . أما قرطاضة ، التي كانت تسممها أفكار حنون ، فانها كانت كالخالة البغيض ، تستغل أتعاب أبناء زوجها ولا تغار عليهم . ان رؤياها لهذه الحرب ، حرب مصيرها ، لم تكن أكثر وضوحا من رؤيا انطيوخوص البعيد في شرقي المتوسط .

## مأزق هنيبعل في ايطاليا بعد كاني

بقي هنيبعل يدور ضمن حلقة مفرغة ويعطي لضعف وضعه في الرجال والعتاد والمال قوة وسطوة من عبقريته . ولكن العبقرية ، اذا لم تؤاتها الظروف ، تجرفها الاحداث القاهرة والغادرة كما تجرف السيول الغاضبة حبات الارض الكريمة الى أغوار الوهاد العميقة .

من انتصار كاني المدوي في ايطاليا وفي أبعاد المتوسط (٢١٦ ق.م.) الى سنة ٢١٠ ق.م. لم يتغير شيء في مظاهر الميدان الايطالي حيث يجول جيش هنيبعل ويصول دون أن يتقدم خطوة واحدة نحو النصر . بل ان الجوهر قد تبدل بمعنوياته لمصلحة رومة . فاذا كانت المظاهر بقيت تبين الحالة كما هي ، فالانتصارات الجزئية التي أحرزها هنيبعل في المعارك الجزئية المتحركة التي قام بها بعد كاني لم تعوض عن تقصيره في معارك الحصار التي كانت مفروضة عليه .

فمنذ احجامه عن الزحف المباشر على رومة بعد كاني ، زرع الشكوك في أفكار مؤيديه واعدائه . فأية فرصة يمكن أن تكون أفضل من تلك التي بمفاجآتها الرهيبة قد زعزعت الرومانيين ودولتهم حتى أعماق معنوياتهم وتاريخهم وأوضاعهم ، اذ صعقوا تلك الصعقة المخيفة وراوا أنفسهم ، في خيالهم المرتاع ، مطوقين في مدينتهم ، مرتاعين وراء أسوارهم ، مرعوبين أمام ثغرات الاسوار التي ينقض منها هنيبعل عليهم ، مقدمين أعناقهم

لسيوف المرتزقة ، مشردين في طرقات ايطاليا وحقولها يلتمسون اللجوء الى مناطق حلفائهم وبيوتهم وأبناء الارض الايطالية التي وحدوها .

هذا الاحجام عن الهجوم على رومة ، الذي أثار أولا استغراب الرومان والايطاليين ودشتهم وتأويلهم أسبابه على مختلف الاحتمالات والوجوه ، قد تكشف في نظر الرومان وغيرهم عن عجز عند هنيبعل عندما عصت نولا وطارنتا عليه ، وعندما تهيب من محاصرة نابولي . واخيرا مالت الكفة المعنوية مع الرومان واستعادوا نفوذهم عند حلفائهم عندما حاصروا كابوا ولم يتمكن هنيبعل من فك الحصار عنها ، ولا من شق طريق ليرسل اليها نجدات الى الداخل ، فسير جيشه نحو رومة ليفاجيء المدينة العاتية في ظرف هي أقل ما تكون فيه استعدادا لمقاومة هجوم صاعق من هذا النوع .

انبثقت هذه الفكرة في ذهنه فجأة . فعزم على محاولة ما كان قد أحجم عنه بعد معركة كاني . وليس من المستبعد أن يكون قد لام نفسه على ذلك الاحجام ، حيال عجزه عن انقاذ كابوا ، وأراد ارغام الرومان على فك الحصار عن حلفائه الكابويين للدفاع عن عاصمتهم رومة .

وجه الى أولئك الحلفاء رسالة يحثهم فيها على الصمود بضعة أيام ، متعهدا لهم بانقاذهم ، ثم انطلق الى رومة على رأس الفي فارس ، بعد أن أصدر أمره الى بقية الجيش بأن تلحق به في أقصى ما تستطيع من السرعة .

وعلم فولفيوس بذلك الزحف المفاجيء ، فانذر رومة التي انقض عليها النبأ الرهيب انقضاض الصاعقة . عقد مجلس الشيوخ جلسة طارئة ، وكاد القنصل كورنيليوس أن يفقد صوابه ، وهب يطالب باستدعاء كل القوات الرومانية الموزعة في ايطاليا للدفاع عن العاصمة . ولكن فابيوس مكسيموس وهو الملذوع من مناورات هنيبعل ، عارض القنصل بعنف ، وصاح : « من الجبن أن نرتعد هلعا كلما تحرك هنيبعل . فالرجل الذي لم يتجاسر على الزحف الى رومة بعد انتصاره الساحق في كاني ، لا يمكن أن يكون خطرا الان ، وهو العاجز عن انقاذ كابوا من الحصار ، انه يريد اخافتنا ، لا اكثر . هذه مناورة يقوم بها ، ولا يجوز ان نقع في شركه »

ورأى المجلس ان يتخذ الحل الوسط ، أي ان يوعز الى فولفيوس بارسال قسم من جيشه ، اذا كان ذلك لا يضعف الحصار المضروب على كابوا .

تابع هنيبعل زحفه على الطريق اللاتينية الى المدينة العاصية التي تشغل أفكاره ، وتملأ أحلامه منذ أيام الفتوة والشباب . كانت حوافر خيوله تدوس الزروع النامية في الارض المخصاب . وكان رجاله يضرمون النار في الغلال والبيوت ، فيلوذ الناس أمامهم بالفرار هائمين على وجوههم ، فيما صيحات الذعر تتجاوب من كل حدب وصوب : « هنيبعل على أبوابنا ! ».

استولى الرعب على رومة . وفيه يقول تيت ليف : « راح الناس يتراكضون ، وينشرون الانباء المروعة ، مضيفين من عندهم الى ما سمعوا ،

فاغرقوا المدينة في الفوضى . ولم يقتصر الامر على انين النساء وعويلهن وراء جدران المنازل ، بل شوهدن منتشرات على الطرق العامة ، يهرعن الى المعابد ، ويكنسن اعتابها بشعرهن المحلول ، وهن جاثيات ، رافعات اكف الضراعة الى السماء ، الى الآلهة ، ملتمسات انقاذ رومة من قبضة العدو، وحماية الامهات الرومانيات واطفالهن من الشراسة والعبث » .

اجتمع مجلس الشيوخ في جلسة مفتوحة . واستدعي كبار القادة المتقاعدين ، فاعيدت اليهم سلطاتهم العسكرية . وحشد كل قادر على حمل السلاح .

كانت في رومة آنذاك فرقتان مدنيتان جندتا في العام الفائت لارسالهما الى ابوليا ، واستدعيت على الفور فرقة ثالثة ، فرابعة كانت في طور التكوين ، فبلغ عديد المدافعين عشرين الفا ، توزعوا على الكابيتول ، ومختلف الاحياء السكنية ، وجبل البان ، وقلعة الفولا .

آنذاك ، كان هنيبعل قد بلغ نهر آنيو ، على مسافة ثلاثة اميال من رومة ، فتوقف . ومن هناك سار على رأس كتيبة من الفرسان للاستطلاع، فدار حول الحصون التي تحتمي رومة بها ورأى انها منيعة . ورأى الرجال المسلحين في كل مكان على الاسوار وفي الابراج ، وهم متأهبون للمدافعة بكل ما أوتوا من قوة . فأدرك ان نتيجة الهجوم لن تكون الا اخفاقا ، فعاد الى معسكره وأصدر أمره بالانكفاء وهو على يقين بأن جيش كابوا فك الحصار عن المدينة وزحف لانقاذ العاصمة .

وكم كانت خيبته مرة لما وصل الى كمبانيا وعلم ان فولفيوس لم يتحرك . فتوجه الى بروثيوم ، تاركا كابوا لمصيرها الاسود . وقد استسلمت فأنزل الرومان بها من الفظائع ما لا يتصوره عقل : ذبحوا ثلاثة وخمسين من أعضاء مجلس شيوخها ، وانتحر سبعة وعشرون اخرون قبيل دخول القوات الرومانية ، وباعوا الشعب كله في أسواق النخاسة ، والغوا دستور المدينة الخاص وشرائعها ومحاكمها ، وأبادوا قضاتها ، وبعثروا سكان ضواحيها ، واكثرهم من الفلاحين ، في أطراف شبه الجزيرة الايطالية من غير ان يتركوا لهم أقل أمل بالعودة .

★★★★

لم تكن الحروب في التاريخ حروب قوة مادية غاشمة الا عند الموجات البربرية ، وعند بعض الفاتحين المسيرين بالمعتقدات الخرافية والنزوات الفردية الجامحة كقورش والاسكندر وجنكيزخان والسلاجقة والعثمانيين وغيرهم ممن روعوا ودمروا حياة الشعوب الحضارية دون أن تكون لهم أهداف الا الفتح والسيطرة واشباع نهمهم من لحوم البشر ودمائهم .

وليست هناك حرب عالمية قديمة انبرت فيها طاقات البشر وعبقرياتهم

ومفاهيمهم للمبارزة كما انبرت في الحروب الفينيقية : مفاهيم قومية واجتماعية وانسانية ، عبقريات سياسية وعسكرية ، شخصيات فذة ، مؤسسات دستورية قديمة وجديدة ، كلها دفعت الى ميادين الصراع الفاصل في حوض المتوسط . كانت تلك الحروب عملية تصفية للانظمة السياسية القديمة : نظام المدينة ــ الدولة ، كما كان في اليونان ، ونظام الامبراطورية المرتكزة على مدينة ، كما كان في قرطاضة وقبلها في صور، ونظام الدول والامبراطوريات الغريبة والدخيلة كما كان حينذاك في مصر البطالسة وسورية السلوقيين وفي آسيا الصغرى التي كانت تتنازعها الدول من الشرق والغرب كأنها كرة في ميدان دول متصارعة . ولكنها كانت ، قبل كل شيء ، على الصعيد الحضاري الاوسع ، حروب مصير الحضارة واتجاهاتها انطلاقا من السيطرة على حوض البحر المتوسط من جميع جهاته . كانت ، بهذا المعنى ، حروبا عالمية كبرى تخوضها الاطراف الاساسية في اتجاهات الحضارة العالمية ، يترجح فيها مصير هذه الحضارة بين مهدها وحامليها من جهة ، وبين القوة السياسية ــ العسكرية المنظمة من جهة ثانية .

# الخرائط

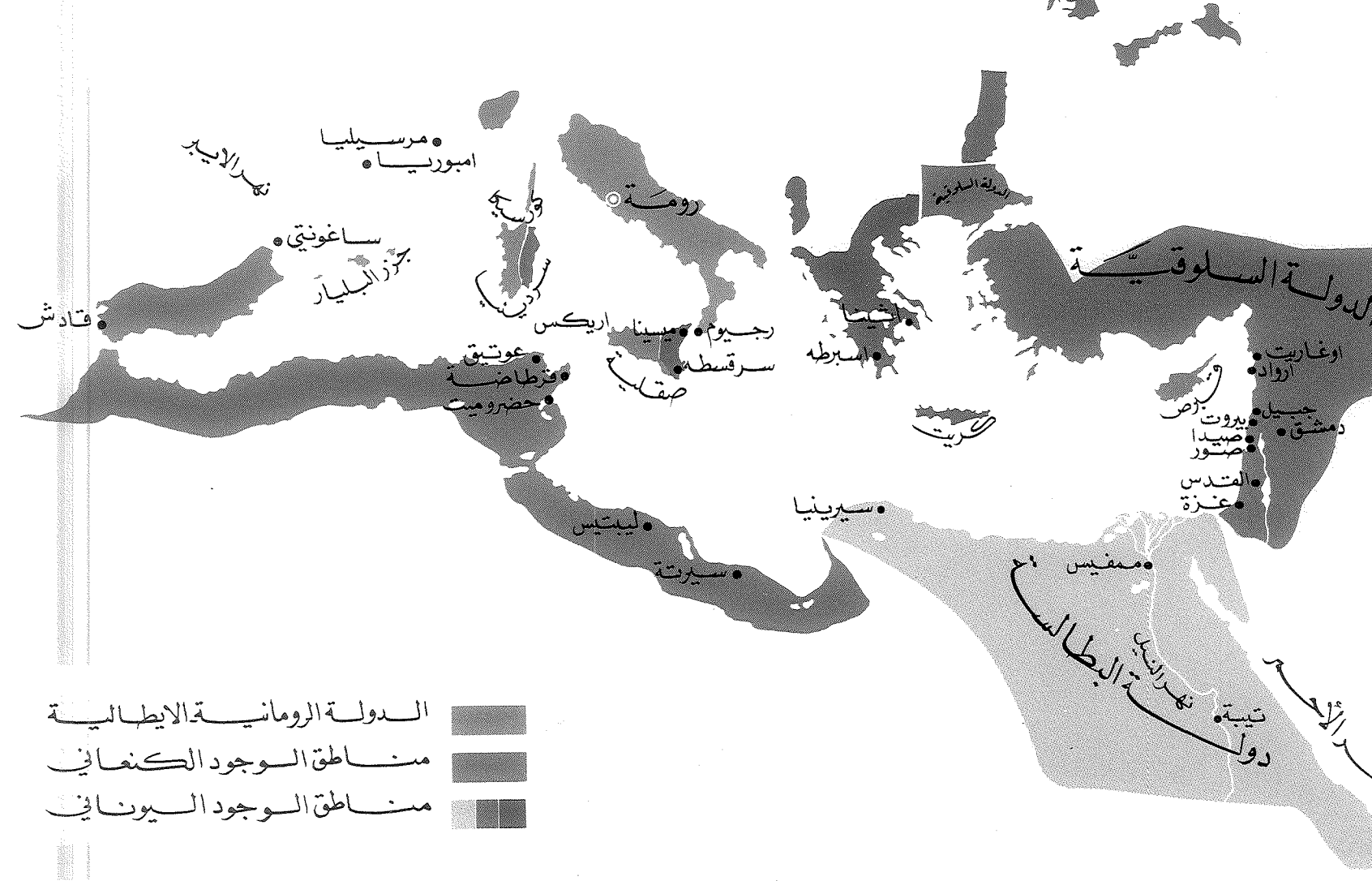
مرسيليا
امبوريا
نهر الايبر
ساغونتي
جزر البليار
قادش
كورسيكا
سردينيا
روما
اريكس
رجيوم
سيراقوسه
صقلية
عوتيق
قرطاجة
حضرموت
ليبتيس
سيرتة
الدولة السلوقية
ايطاليا
اسبرطه
كريت
اوغاريت
ارواد
جبيل
بيروت
صيدا
صور
دمشق
القدس
غزة
سيرينيا
ممفيس
نهر النيل
تيبة
دولة البطالسة
الدولة الرومانية الايطالية
مناطق الوجود الكنعاني
مناطق الوجود اليوناني

# الفصل الثاني

# سيبيون ضد الامبراطورية الفينيقية في غربي المتوسط

## سيبيون يطل على دنيا الحرب الواسعة

بينما كان هنيبعل يقوم بمناوراته وخدعه العسكرية ليلهي القوات الرومانية ويشغلها الى ان تكون وصلته النجدات المنتظرة من قرطاضة واسبانيا ، اذا بشخصية رومانية جديدة تطل على المسرح العسكري محاولة ان تنازع هنيبعل ذلك المركز العالمي الكبير الذي اكتسبه بكونه يمثل ، بشخصه ، القيادة العسكرية الميدانية الثابتة والمستمرة للطرف العالمي الاساسي في الصراع ، كما اكتسبه باجتراحه المعجزات والخوارق العسكرية ، من اجتيازه جبال الالب الى تحطيمه الجيوش والقيادات العسكرية التي واجهته واحرازه تلك الانتصارات الرائعة بخططها العبقرية ونتائجها الكاسحة ووقعها العالمي .

تلك الشخصية التي جاءت تنازع هنيبعل هي شخصية سيبيون الذي سمي في ما بعد بالافريقي .

ولا شك ان المبارزة السيبيونية ــ الهنيبعلية في هذه الحرب هي اعظم ما كان في التاريخ القديم . فقد قام كل من العملاقين العسكريين بمحاولة مسؤولة ، يحاسب عليها أمام مراجعه وأمام التاريخ . واذا ما قسناها بهجوم الاسكندر اللامسؤول على الشرق ، أمسى هجوم الاسكندر ذلك من نوع الموجات المنفلتة من قيودها وقواعدها ونواميس تكامل الامم في بيئاتها الطبيعية لاطلاق دوراتها الاجتماعية الاقتصادية لنمو حياتها وازدهارها . فهي تنصب في اتجاه لا تحسب للعودة منه حسابا ، كانها كوم ثلجية تنحدر من القمم نحو الاودية أو الانهر المندفعة الى البحار .

في سنة ٢١٠ ق.م ، أي بعد بدء الحرب الفينيقية الثانية بعشر سنوات ، شغر مركز القيادة الرومانية في اسبانيا بسقوط كورنيليوس وكنايوس سيبيون في ساحات القتال وتبدد الجيش الروماني . عرض المركز الشاغر

على شخصيات عديدة فوقف الجميع متهيبين خائفين من المغامرة في بلاد هزم فيها وقتل قنصلان سابقان هما السيبيونان ، وفشل قائد ثالث .

أمام وجوم القادة وتخوفهم لجأت الحكومة الى الشعب لينتخب قائدا للجبهة الاسبانية . « في اليوم المعين للانتخاب انتظر الناس ، حسب العادة، اعلان الترشيحات عليهم . ولكنهم عبثا انتظروا . وهكذا نزل المواطنون ساحة مارس ، اله الحرب ، مغمومين لا يعلمون ماذا يقررون . وأخذوا يتأملون في رجال الدولة حولهم فيرون وجوه كبار الشخصيات يلتفت بعضهم الى بعض بحيرة وارتباك . وبينما الناس يتهامسون عن ضياع كل شيء ، وعن ان الدولة هي في حالة يأس ، وأن لا أحد يجرؤ على قبول قيادة اسبانيا، اذا بشاب في الرابعة والعشرين من عمره يعلن فجأة انه مرشح . ثم يتقدم الى مكان عال ليراه الناس . ذلك الشاب هو بوبليوس كورنيليوس سيبيون » (٥٩) ابن أحد السيبيونين اللذين سقطا في ساحات القتال في اسبانيا .

لم يكن ذلك الشاب الارستقراطي ، النحيف ، المتأنق ، جديدا على الحياة السياسية العامة والميادين الحربية . فقد اشترك في أول معركة خاضها والده ضد هنيبعل على ساقية « تيسان » حيث سقط والده القنصل جريحا ، وكاد يداس بأقدام الجنود وحوافر الخيل ، فحمله هو مع أحد العبيد الى خارج المعركة وأنقذ حياته .

هو أحد أحفاد اسرة كورنيلي العريقة بأمجادها ، التي أعطت ثلاثين قنصلا لرومة . بالامس القريب سقط منها عظيمان في ساحة القتال ، واليوم يخطو هذا الشاب خطوته الجسور اذ يقبل على مسؤولية تهرب منها من هم اعظم منه شهرة وخبرة واكبر منه سنا .

أما من الناحية الشخصية فهو منذ أنقذ والده ونفسه من معركة تيسان يبني نفسه في المراقبة والتأمل والعمل .

بعد معركة كاني الساحقة كان له موقف بطولي رائع عندما داهم عددا كبيرا من الجنود المجتمعين عند احدهم ، متلوس ، ليقرروا مغادرة رومة وايطاليا الى بلاد أجنبية ، اذ اعتبروا ان رومة قد انتهت في تلك المعركة ولم يعد أمامهم الا التفتيش عن دولة اجنبية يحاربون معها كمرتزقة . علم سيبيون بذلك الاجتماع المخزي ، وهو لم يبلغ بعد التاسعة عشرة من عمره، فأعلن لرفقائه : ان مكانا من هذا النوع هو اكثر من معسكر للعدو ، فلا مجال للسماح بمناقشة موضوع من هذا النوع . وطلب اليهم ان يتبعوه . وعندما وصل الى بيت متلوس ، دخل شاهرا سيفه ، مقسما بأن لا يغادر أرض الجمهورية الرومانية ، منذرا بأن كل من لا يقسم قسمه فأن سيفه هو مسلط على عنقه .

رفع الجميع أيديهم وأقسموا قسمه ، فقضى بذلك على جرثومة الانهزامية التي اطلقتها خسارة معركة كاني في المناطق القريبة من كاني وبين بعض الهاربين من المعركة .

بعد هذا الموقف غاب سيبيون عن مسرح الحرب . لم يرافق والده الى اسبانيا ، عندما شفي من جراحه وعاد الى الميدان الاسباني ليتعاون مع شقيقه كنايوس ، بل بقي يرافق تطورات الحرب في ايطاليا واسبانيا منتظرا ساعة يضمرها له المستقبل .

ان أمجاد اسرته ، السياسية والعسكرية من جهة ، وثقته بنفسه من جهة ثانية ، كانت تجعله مؤمنا بنفسه وبمصيره . فهو يشعر بعطش الى المجد ، مجد يفوق كل أمجاد اجداده ، بل مجد أي شخصية في تاريخ رومة .

في سنة ٢١٣ ق.م ، وسنه لا تؤهله ليشغل أي مركز اداري أو سياسي كبير في رومة (٢٢ سنة) ، رشح نفسه لمركز مفتش عام في الداخلية. وبالرغم من اعتراض « نواب الحق العام » على أن سنه لا تؤهله لذلك المركز ، فانه قد انتخب واكتفى بأن أعلن بعد انتخابه : « ما دام الشعب قد انتخبني فأن عمري اصبح كافيا » .

خلال ثماني سنوات (٢١٨ — ٢١٠ ق.م ) ، وعبر أحداث عسكرية رهيبة ، تكونت شخصية سيبيون القومية والعسكرية والسياسية . منذ ثماني سنوات حمل والده القنصل الجريح الى خارج المعركة . وبعد معركة كاني تلقى الضربة الرهيبة برباطة جأش وثقة مدهشة بالدولة والشعب . ومنذ اشهر قليلة وصله نبأ مقتل والده وعمه في اسبانيا ، وانهزام الجيش الروماني وتبدده وانسحابه من الاراضي الاسبانية التي كان قد احتلها خلال ثماني سنوات . لقد رافق الشعب الروماني وهو يتلقى الضربة تلو الضربة وشاهد صموده في وجه القائد الفاتح الذي يدوس أرض الوطن ويجتاح مدنها ومنشآتها ويسيطر على خيراتها ومحاصيلها ويبيد الجيوش والقيادات. ورأى من جهة ثانية ارتياع القادة من منازلة هنيبعل في معارك كبرى جديدة ، وفشلهم في حرب الحركة التي فرضها عليهم وأباد بواسطتها مائتي الف ضابط وجندي من الجيوش الرومانية وأسر خمسين الفا من الرومان ، عدا عن الاسرى الايطاليين الذين سرحهم بدون فدية .

هذه الاحداث كلها قد جعلت من ذلك الشاب المشتعل وطنية وغيرة على وطنه رجل رؤيا شاملة لميادين تلك الحرب التي اشعلها هنيبعل ، ورجل تأمل عميق في كيفية معالجة هذه الحرب ، التي تدور منذ ثماني سنوات ضمن حلقات مفرغة ، والانتصار فيها .

كان سيبيون يعرف عبقرية هنيبعل العسكرية ويقدرها كل قدرها . وكان يعرف ، ولا شك ، ان هذه العبقرية استطاعت أن تلعب دورا رئيسيا في توجيه الاحداث وتقرير نتائجها . الا أن سيبيون كان يرى ان الخطر على رومة الان لم يكن في هنيبعل نفسه . فهنيبعل ، في نظره ، قد بلغ في معركة كاني ذروة فعاليته العسكرية . وبالرغم من ذلك فهو يدور على نفسه منذ ست سنوات ويستهلك رصيده المادي والمعنوي .

هو فاشل في حرب الحصار . عتاده لهذه الحرب ناقص ، وعبقريته لا تميل اليه . خطر هنيبعل في ان يتلقى النجدات الكبيرة من اسبانيا وقرطاضة ، وان يعيد نفوذ دولته الى صقلية وسردينية وكورسيكا ، وان يثير على رومة مقدونيا وغيرها من الدول المقدونية في الشرق : آسية الصغرى ، سورية السلوقية ، مصر البطالسة .

قوة هنيبعل اذن هي في قاعدتيه اللتين تتمكنان من نجدته ومده بالمساعدات : اذن يجب تدمير قاعدتيه . اذن يجب أن تخرج رومة من الحلقة المفرغة . ويجب اخراج هنيبعل من ايطاليا بمهاجمة وطنه وارغامه على الاسراع للدفاع عنه . واذا ما ضربت رومة اسبانيا وقرطاضة وقطع هنيبعل عن قواعده ، فانه يضطر حتما اما أن يطلب الصلح واما أن يغادر ايطاليا .

هذا المتأمل المراقب ، الصامت ، الملتهب شهوة ونهما الى المجد ، المتألم من سقوط والده وعمه في ميادين اسبانيا ، الجريح في عزته القومية واعتداده الروماني بأن يرى قائدا واحدا اجنبيا ينتصر على قادة عديدين ، ويرود ايطاليا دون ان يخاف احدا ، بل جميع القادة الرومان يتجنبون الاصطدام به ، هذا الشاب المنتظر ساعته الكبرى بفروغ صبر ، راى تلك الساعة المرتقبة تدق عندما تلكأ جميع العسكريين عن ترشيح انفسهم للقيادة العامة في اسبانيا ، فوثب الى المركز الشاغر ، وانتخبه الشعب بالرغم من ان سنه ورتبه والقابه المدنية والعسكرية لم تكن تسمح بأن يكون قائدا عاما . وقد وافق مجلس الشورى على انتخابه اذ لم يجد من يقبل بتحمل مسؤولية الجبهة الاسبانية المنهارة .

## سيبيون يصيفي قاعدة هيملقار الكبير

في خريف سنة ٢١٠ ق.م. غادر سيبيون رومة يرافقه شقيقه الصغير لوسيوس وصديقه ليليوس ، وقد صحب هؤلاء الفتيان الثلاثة ، كمستشار ومراقب ، رجل في الاربعين من عمره ، هو جونيوس سيلانوس ، يحمل الرتب العسكرية والمدنية اللازمة التي تؤهله ان يتسلم الجيش من القائد الروماني الفاشل كلوديوس نيرون . وقد نزل الجميع في أمبوريا ، وهي مستعمرة يونانية على الشاطىء الاسباني القريب من حدود غالية (فرنسا) . ومن هناك اتجه سيبيون ورفقاؤه الى تراغوني مركز القيادة الرومانية ، على الشاطىء الشمالي الشرقي .

بعد سقوط السيبيونين في العام الماضي ، وتضعضع الجيش الروماني، لم تتمكن بقايا الجيش ، بقيادة أحد جنوده ، الا من الاحتفاظ بهذه الناحية . وقد حدث كل ذلك في اسبانيا بعد مغادرة ماغون ايطاليا ، مرسلا من قبل هنيبعل ليمثل أمام مجلس شورى قرطاضة ويقنعه بضرورة تقديم النجدات للميدان الايطالي .

لقد بقيت عند القرطاضيين ذكريات مرة من خسارتهم جزيرة سردينية بعد الحرب الفينيقية الاولى ، لذلك ضعفوا أمام التجربة عندما علموا أن السردينيين مستعدون أن يهزوا النير الروماني اذا ما تلقوا مساعدة مهما تكن بسيطة . لقد أرسل ماغون في النهاية الى اسبانيا ، بينما جيش اخر مساو لجيشه ارسل من جهة أخرى الى سردينية . جيشان ، يوازيان اذا اجتمعا جيش هنيبعل عندما وصل الى ايطاليا ، دفعا نحو اهداف هي نسبيا قليلة الاهمية ، بينما ترك هنيبعل على مسرح الحرب الرئيسي لنفسه .

واذا كانت جبهة اسبانيا قد استفادت محليا من جيش ماغون ، فأن حملة سردينية قد أبيدت وأسر قادتها كلهم . وهنيبعل بقي منتظرا .

بعد وصول ماغون وهسدروبعل بن جيسكون وانقسام القوات القرطاضية الى ثلاثة جيوش ، استعادت السلطة القرطاضية نفوذها في اسبانيا ، واستعاد حلفاء الامس ثقتهم بالسلطة .

أما هنيبعل فقد أهملته قرطاضة اذ اعتبرته منتصرا لا يحتاج الى نجدات مستعجلة ، ولم ترسل اليه الا فرقا قليلة ، قوت نوعا ما جيشه في الجنوب الايطالي ، ولكنها لم تؤثر في الحالة الحربية العامة .

والقادة القرطاضيون في اسبانيا لم ينقضوا كلهم ، بعد سقوط السيبيونين ، على بقايا الجيش الروماني للاجهاز عليه ، بل ناموا على

انتصارهم وتركوا جنديا بسيطا يرتجل نفسه قائدا عاما ، ويعيد تنظيم الرومانيين ويصمد في الشمال الاسباني حتى مجيء قائد روماني جديد ، وحتى وصل الان سيبيون ، الرجل الذي ستلعب عبقريته دورا حاسما في مصير الحضارة المتوسطية .

لا قرطاضة ولا اسبانيا كانت على مستوى تلك المرحلة الفاصلة . هنيبعل وحده كان على مستوى الحدث الذي خلق . ولكنه ، بسبب مسلك قرطاضة معه ، أصبح أسير انتصاراته في شبه الجزيرة الايطالية .

أما تلميذه وخصمه سيبيون فأنه الان على الارض الاسبانية على رأس جيش قليل العدد ، متواضع في مظهره ، الا انه في حقيقته ، صورة متجددة عن جيش هنيبعل عندما وطىء ارض ايطاليا .

لا يقل سيبيون عبقرية عسكرية ، وشجاعة ، وذكاء سياسيا ، عن هنيبعل . وقد يكون العبقريان ندين ، كثيري التشابه في المواهب العسكرية والسياسية المتفوقة ، انما يبقى تفوق هنيبعل المطلق في خصائص واضحة كل الوضوح :

١ ــ كان هنيبعل المحاولة ــ القمة التي قام بها نظام المدينة ــ الامبراطورية للبقاء والاستمرار .

٢ ــ كان هنيبعل معلم سيبيون والمحرض على انطلاقه في محاولته الجبارة .

سيبيون هو الان في تراغوني ، القاعدة الرومانية في الشمال ــ الشرقي من اسبانيا ، يستعد لينطلق للمعارك . وهنيبعل هو الان في جنوبي ايطاليا، لا ينام على انتصاراته السالفة ، وانما يتحرق انتظارا لنجدات يتوقع وصولها من قرطاضة . هو يستبعد امكانية اي هجوم روماني عام عليه لما بقي له من رهبة في قلوبهم ، وامنعية في خيالهم ، وارتياع قديم في نفوسهم .

تدخل الحرب الفينيقية الثانية الان في مرحلة جديدة . هنيبعل ينتظر الامدادات ليعمل . وسيبيون هو على الارض الاسبانية ، المنبع الرئيسي لثروة قرطاضة منذ ربع قرن ، والمعين الفياض بالامكانات الحربية . والقائد الشاب الذي يتولى قيادة ٢٥٠٠٠ مقاتل ، هم بقايا جيش السيبيونين في اسبانيا ، كان يمثل أعلى درجة في عبقرية رومة الجديدة . وهذه العبقرية تحلت في شؤون عدة :

« لقد امتلك الرومان ، فوق كل شيء ، فن الحكم والادارة ، والقدرة على ايجاد التناغم بين رعاياهم . ذلك التناغم لم يكن عفويا ، ولا ناتجا عن أي من السنن الطبيعية التي تسيطر على الطبيعة الانسانية . فالسليقة لم تكن يوما تدفع رجال ذلك الزمان ليتعانقوا برقة وحنان . بل كانت الوحدة تفرض عليهم أولا بالقوة ، ثم يرتضونها عن طيبة خاطر بسبب أفضلياتها ذاتها . ولم تعرف ، على كل حال ، وسيلة أفضل لتوحيد الشعب . والدول

الحديثة ، التي تظن نفسها متناسقة ، قد تكونت بموجب هذه الطريقة . ولا وسيلة غيرها . وحتى بعد تحقيق وحدة بلد من البلدان ، فأن هذه الوحدة لا تثبت الا اذا بقي المواطنون فيما بعد مقتنعين بحسناتها » (٦٠) .

« لقد أرغم الروماني على ان يوفق بين العناصر البشرية المتضادة داخل مدينته ومهر في هذا العمل حتى أصبح وكأن له طبيعة ثانية . فدخل مسرح العالم خبيرا في فن توحيد الناس ، اختصاصيا في امتصاص العناصر البشرية وصهرها . القول بأنه شخصيا أقوى من الفينيقي هو قول مبالغ فيه . ولكن اذا اعتبرنا القوة موهبة سامية لقيادة الطاقة البشرية وادارتها أصبح الروماني آنذاك الانسان الوحيد الذي امتلكها » (٦١) .

ان سيبيون الرابض الان في شتاء سنة ٢٠٩ ق.م. في تراغوني ، مركز القيادة الرومانية ، يستعد ليثب في الربيع على احدى المناطق القرطاضية في اسبانيا .

حالما تسلم سيبيون القيادة أرسل يستدعي « الجندي القائد » مارسيوس الذي ارتجل نفسه قائدا بعد سقوط القائدين السيبيونين ، وقدر أن يجمع شراذم الجيش المنهزم ويصمد في نقطة معينة للهجمات القرطاضية . وكان ذلك الجندي قد عاد الى صفوف الجيش عندما وصل القائد الروماني كلوديوس نيرون . تكلم سيبيون مع الجندي النبيه مطولا . عرف قيمته وخبرته العسكرية ، واطلاعه على الشؤون المحلية وأبقاه في مركز القيادة . ومنذ تلك الساعة أصبح ذلك الجندي البسيط ، الذي ازدراه « الشيوخ » لسبب أصله الوضيع ، مستشار سيبيون العسكري .

ثم اصطحب سيبيون مستشاره وقام بجولة على بعض المدن والمناطق التي كانت باقية على ولائها لرومة ، فتعرف الى زعمائها ، واطلع على التيارات الفكرية في الرأي العام الذي كانت تتنازعه الدعاوات الرومانية من جهة ، والقرطاضية من جهة أخرى . ثم عاد الى مركز القيادة يعد مخططه الحربي للربيع القادم ، اذ كان الشتاء يمنع القيام بأي عمل عسكري .

وقد اتجه نشاط سيبيون الى أمور ثلاثة : استكمال معلوماته عن الوضع في اسبانيا بصورة عامة ، الاطلاع على وضع القادة القرطاضيين الثلاثة وعلى علاقاتهم الواحد بالاخر ، تعيين المنطقة التي يجب أن يوجه اليها ضربته الاولى ليحدث الدوي الاول اللازم .

أهم ما حصل عليه من المعلومات ان هسدروبعل برقة غير متفاهم مع سميه هسدروبعل بن جيسكون ، بل يعتبره دخيلا ومتطفلا على هذه البلاد التي جعلها البرقاويون فينيقية بعبقريتهم وحد سيوفهم . وان ماغون برقة ، شبل هميلقار ، غير متحيز مع شقيقه ، انما هو مشمئز من هذه الحالة . وقد علم سيبيون ان الثلاثة بعيدون عن عاصمتهم وقاعدتهم البحرية « قرطاضة الجديدة » : هسدروبعل برقة في منطقة الكاربيتانيين في جبال

غواداراما ، اي في قلب اسبانيا . وهسدروبعل بن جيسكون عند اللوزيتانيين قرب مصب نهر التاج . أما ماغون فهو في جهات قادش . وكل منهم مهتم بتنظيم منطقته .

بالنسبة الى الاوضاع الاسبانية العامة والقيادية القرطاضية الخاصة ، وضع سيبيون مخططه الحربي للربيع المقبل مصمما على انتزاع العاصمة والقاعدة البحرية « قرطاضة الجديدة » من ايدي القادة القرطاضيين ليضربهم ماديا ومعنويا ضربة قوية ، ويحدث الدوي المطلوب في جميع انحاء اسبانيا . وبعد ذلك يحول هجومه على القادة .

في أوائل الربيع أمر بتجمع الجيش على مصب الايبر ، وكان عدده خمسة وعشرين الفا . وكانت قد وصلته المعلومات مجددا ان القادة القرطاضيين ما يزالون بعيدين عن عاصمتهم . وكان من الطبيعي ان لا يخطر ببالهم أي هجوم روماني على عاصمتهم ، بعد أن بعثروا الجيش الروماني واعتبروه منتهيا .

أمام خمسة وعشرين الف ضابط ومقاتل وقف سيبيون متكلما ، قال :

« لا تيأسوا من الانتصار بسبب الهزيمة السابقة . لم ينتصر القرطاضيون بشجاعتهم وتفوق قيادتهم ، بل بخيانة بعض الاسبانيين الذين باعوا انفسهم من العدو . وقد زاد في قوة العدو انقسام الجيش الروماني القليل الى جيشين احدهما بعيد عن الاخر .

« أما الان فكل شيء قد تغير : الاسبانيون حاقدون على القرطاضيين لسوء معاملتهم . قيادتكم هي قيادة واحدة تحرسها وتوجهها الالهة . والقادة القرطاضيون منقسمون على انفسهم ، موزعون في ابعاد هذه البلاد ، يأبون التعاون فيما بينهم . فاجتازوا انتم اليوم هذا النهر نحو الجنوب وضعوا ثقتكم بالقيادة الجديدة ، وسيكون النصر حليفكم » (٦٢) .

بعد مسير سبعة أيام متواصلة ، كان الرومان أمام قرطاضة الجديدة . لم يعترضهم أحد في طريقهم ، فزادهم ذلك ثقة بكلام قائدهم . وقد جمعهم سيبيون امام اسوار المدينة — القاعدة وشدد عزائمهم ، ووعدهم بالمكافآت السخية ، خصوصا من يتسلق اولا اسوار المدينة . واكد لهم ان نبتون اله البحر هو الذي أوحى اليه بهذه الحملة ، وهو سيساعدهم على الانتصار .

وقد علم سيبيون ان الف قرطاضي فقط يدافعون عن المدينة ، لذلك كان النصر اكيدا وسريعا في نظره ، فأعطى الامر بالهجوم واندفع هو قصدا أمام الجيش ، يغطيه من جهة العدو ثلاثة مقاتلين تحميهم الدروع والتروس .

دافع القرطاضيون دفاع الابطال عن مدينتهم . وبالرغم من الفرق الشاسع بين خمسة وعشرين الف مهاجم والف مدافع ، فأن المعركة بقيت غامضة ، لا تعرف نتائجها ، حتى لجأ سيبيون اخيرا الى احدى حيله الدينية ، متظاهرا انه يستفيث بنبتون الذي وضع له مخطط الهجوم : « كان في سفح أسوار المدينة مستنقع يخضع لساعات مد وجزر ويسمح بالعبور في ساعات

جزره . وكان بعض الصيادين التراغونيين قد أنبأوا سيبيون بسر المستنقع ، فاحتفظ به لنفسه . بعد اخفاق الهجوم الاول جاء سيبيون برجال يحملون سلالم وأمرهم بالانتظار على ضفة المستنقع ، ووقف منتظرا بدء تراجع المياه. اذ ذاك أخذ موقف متعبد يتلقى الوحي ، وأمر بالدخول في المستنقع . وكان صوته يتهدج بألفاظه حتى حمل الجنود على الطاعة والتقدم . وقد دهشوا وامتلكهم العجب عندما رأوا المياه تتراجع امامهم وتفتح لهم طريقا الى الاسوار . هذا المشهد أحدث في رفقائهم من التأثير ما دفعهم من جديد الى الهجوم بحمية مضاعفة .

« ولما دخل الجيش قرطاضة الجديدة ، فصل سيبيون منه فرقة خاصة أعطاها الامر بأن تجتاز الاسواق وتقتل كل من تراه في طريقها . ويقول المؤرخ بوليبيوس ان تلك عادة اتبعها الرومان لكي يرهبوا أعداءهم . وهكذا كان يرى في شوارع المدن التي يأخذونها بالقوة ليس فقط بشرا مقتولين بل كلابا مقطعة وحيوانات اخرى » (٦٣) .

وبعد جولة من التقتيل شملت كل حي في شوارع المدينة من انسان وحيوان ، بدأ النهب المنظم . وضع الناهبون يدهم على جميع الاشياء المنقولة ومنها الاموال الموجودة في خزائن بيت المال . كل امتعة الجنود القرطاضيين ومفروشات بيوت المدينة جمعت في ساحة عامة ووزعت على الجيش الروماني. أما السكان الذين لم تبدهم سيوف الجنود فقد جمعوا هم ايضا في ساحة عامة . الصناع منهم ، العاملون في مصانع المرفأ ، بلغهم سيبيون انهم أصبحوا ملكا للشعب الروماني . واما الباقون فقد أمرهم بالعودة الى بيوتهم شاكرين ومتذكرين دائما حلمه ورحمته .

وعندما جاء دور الرهائن ، وعددهم ثلاثمائة ، وكلهم ينتمون الى اسر اسبانية شريفة كان قد احتفظ القرطاضيون بهم ليضمنوا ولاء مناطقهم ، فقد مثل سيبيون معهم دورا سياسيا اعلاميا . قربوا له الاطفال فداعبهم ، وقبلهم ، ووعدهم بأنهم سيعودون الى أهلهم قريبا مكرمين معززين ، شرط أن يقبل أهلهم بمحالفة الرومان ، واعلان عدائهم للقرطاضيين ، ووزع على الصبايا منهم بعض الهدايا من الاشياء الثمينة التي كان انتقاها من بين الغنائم ، كما وزع على الفتيان بعض الخناجر والسيوف الثمينة .

كان استيلاء سيبيون على عاصمة القرطاضيين في اسبانيا بهذه السهولة وهذه السرعة ، وبدون خسائر تقريبا في الارواح والعتاد ، ضربة معلم ماهر . وبالرغم من الفظائع الرهيبة التي ارتكبها جنوده في المدينة فأن معاملته الجيدة المتعمدة للرهائن كان لها صدى عند اهلهم من الامراء والزعماء في أنحاء اسبانيا .

وبعد ان استعرض مركز قيادته الجديد ارسل صديقه ليليوس الى رومة ليقدم تقريرا الى مجلس الشيوخ . ثم كتب رسالة خاصة الى فيليب الخامس ملك مقدونيا يعلمه باستيلائه على قرطاضة الجديدة ، وذلك ليخفف

من تحمسه لهنيبعل وليضعف ثقته بامكانية انتصار الفينيقيين في هذه الحرب، فيجعله يتردد في ارسال اية نجدة الى هنيبعل في ايطاليا .

فوجيء هسدروبعل برقة باستيلاء سيبيون على قرطاضة الجديدة وهو بعيد في منطقة الكربيتانيين الثائرين على سلطانه ، فأسرع حالا بالتراجع نحو قادش ، وأرسل يخبر سميه طالبا منه الاسراع بملاقاته الى هناك ليكونوا جبهة واحدة ضد المجتاح الجديد . فبعد ان اعتبروا انهم قد انتهوا من الرومان في اسبانيا اذا بهم يجدون انفسهم أمام خطر جديد يداهمهم في صميم كيانهم .

ولكن سيبيون أدرك ما ينويه القادة القرطاضيون ، وحال دون تجمعهم عليه . فما أقبل ربيع سنة ٢٠٨ ق.م. حتى كان متجها بجيشه نحو منطقة الكربيتانيين ليقاتل هسدروبعل برقة منفردا ، وكان له ما أراد . دارت المعركة في « باكولا » في منتصف الطريق بين منطقة الكربيتانيين وقادش . ولما رأى هسدروبعل ان جيشه في خطر التطويق والابادة ، انسحب نحو قادش تاركا لعدوه اثني عشر الف أسير . وهناك اجتمع بشقيقه ماغون وبسميه ابن جيسكون ليقرروا ما يجب أن يفعلوه ضد العدو الجديد .

وهنا عادت نقطة الضعف الفينيقية الرئيسية تبرز من جديد وتسبب ضياع اسبانيا بعد مجهود حربي دام ثلاثين سنة ، وبعد تلك الانتصارات الرائعة التي حققها هؤلاء القادة الثلاثة انفسهم على والد سيبيون وعمه . تلك هي السلطة اللامركزية المنفلتة عن محورها ، المتصرفة تصرفات كيفية غير صادرة عن سلطة وقيادة موحدتين تراقبان وترافقان سير الجبهات وظهور الاحداث برؤيا شاملة ونظرة عليا جامعة ، وتميزان بدقة مرهفة تطور الحرب في جميع جبهاتها وارتباطها فيما بينها .

حتى في تلك المرحلة الدقيقة المتطلبة كل تفان شخصي في سبيل الانتصار واستعادة قرطاضة الجديدة ، عاصمة اسبانيا القرطاضية ، تباينت وجهات النظر بين هسدروبعل برقة وسميه : كان ابن جيسكون يقدر ان منطقة قادش صالحة للمقاومة ، وان المرفأ القائم هناك يؤمن الاتصال بقرطاضة وامكانية انزال النجدات التي قد تأتي من افريقيا . اما ابن هميلقار فكان يائسا من الحالة ، مقتنعا بأن كل شيء قد انتهى في اسبانيا ، وبأن اهل البلاد ، المنجرفين مع سيبيون يوما بعد يوم ، لم يعودوا يفكرون الا بخيانة القرطاضيين ، وبأن السبيل الوحيد الباقي امامهم هو أن يتجهوا نحو الشمال ليجتازوا غالية ، ومن هناك يسيرون نحو ايطاليا لينجدوا هنيبعل فيتمكن من سحق رومة . لم يتمكن أحد الاثنين من اقناع الاخر . بل وصلا أخيرا الى تسوية : يتجه هسدروبعل برقة بمن بقي معه من جيش نحو ايطاليا ليلتحق بأخيه الاكبر ، ويبقى ابن جيسكون في اسبانيا ليؤمن حماية المنطقة القرطاضية الباقية من اسبانيا ، أما ماغون فيسلم جيشه وينصرف الى جزر الباليار ليجند المرتزقة . وهكذا اقصي البرقاويون عن اسبانيا ، وظن ابن جيسكون انه قطف ثمار مجهود طويل ومثابر .

وفي اجتماع تاعس من هذا النوع ، تسيطر في جوه الانانية والفوضى والكيفية والمحاسدة ، يتخذ قرار تاريخي قد يكون هو الذي سبب ، ليس خسارة اسبانيا فحسب ، بل انهيار الامبراطورية القرطاضية جميعها .

لو قابلنا هذه التصرفات الاقليمية الكيفية ، المنفلتة من قاعدتها ، بسبب ضعف القاعدة وعدم تفاهمها وسيطرتها على امبراطوريتها ، بمركزية السلطة الرومانية الصارمة ، لاكتشفنا سببا اساسيا من اسباب انهيار الدولة الفينيقية في غربي المتوسط . لم يكن يسمح لاي قائد روماني بمغادرة قطاعه الا بأذن خاص من مجلس الشيوخ الروماني . فبعد ان حقق سيبيون انتصاراته الكبيرة في اسبانيا وصفى امبراطورية هميلقار العظيم ، عاد الى رومة فجأة بدون أن يستأذن مجلس الشيوخ . لذلك بقي خارج الاسوار ولم يجرؤ على الدخول الا بعد ان اجتمع بمندوبي مجلس الشيوخ في خارج الاسوار ، وبين الاسباب القاهرة التي فرضت عليه المجيء قبل الاستئذان . وبالنسبة لانتصاراته الرائعة لم يتصلب المجلس ويرغمه على الرجوع الى قطاعه ، بل تساهل معه وسمح له بالدخول بصورة استثنائية . وكان الجندي مارسيوس ، لما قام بعمله العظيم بعد مقتل السيبيونين ، مرتجلا نفسه قائدا عاما ، قد ارتكب خطأ شكليا اذ اعطى نفسه لقب حاكم منطقة اسبانيا الرومانية ، فغضب مجلس الشورى عليه ، واوفد على جناح السرعة قائدا يتسلم منه الجيش وارجعه الى صف الجنود .

كل ذلك يدل بوضوح كيف كان مجلس الشيوخ الروماني قابضا ، بسهر وعزم ودقة ، على أزمة الدولة والقيادات العسكرية ، وكيف كان القرطاضيون منقسمين ثلاث قيادات شبه مستقلة الواحدة عن الاخرى ، وكيف ، منذ بداية الحرب ، قد جر هنيبعل الدولة القرطاضية وراءه ، اذ ان الدولة القرطاضية التي كانت تحكمها في ذلك الحين طبقة ارستقراطية — أوليغارشية مغلقة ، كانت في الحقيقة مجموعة من المنافع والمشاريع الفردية، فقدت فاعلية الدولة المركزية المسيطرة على جميع اطرافها وادارتها وفقدت أيضا معاني هذه الدولة . وقد بدأت مشادة عنيفة ، فاصلة ، بينها وبين البرقاويين في اسبانيا ، فاعتبرتهم ، ضمنا ، شبه خارجين عن دائرة سيطرتها، تريدهم ، وهم قوامها العسكري ، بعيدين عنها ، لاهين عن سياستها بما يحققونه في اسبانيا من نجاحات وانجازات مرتبطة باسرتهم ودوائرها .

والمعاهدة التي عقدها هسدروبعل ، صهر هميلقار ، مع رومة حوالي سنة ٢٢٥ ق.م. تدل بوضوح على شبه الاستقلال الذي كان يمارسه البرقاويون في اسبانيا بمعزل عن القاعدة المركزية . ثم ان انتخاب هنيبعل قائدا عاما من قبل الجيش كان أيضا سابقة ثانية وضعت الحكومة القرطاضية أمام الامر المفعول . كذلك لم يكن طلب هنيبعل الموافقة على الحرب ضد رومة الا عملا شكليا . وهكذا يستمر الانفلات من سلطان قرطاضة منذ بدأ هميلقار

فتوحاته الجديدة في سنة ٢٣٦ ق.م. ولو أردنا تحديد المسؤولية في هذا الوضع الشاذ لوجدنا أنها تقع على الحكومة القرطاضية الممثلة بحزب حنون أكثر مما تقع على البرقاويين . واذا شئنا تحديد مسؤولية البرقاويين وجدناها في تلكؤهم عن وضع حد لذلك النظام المتجمد في قرطاضة منذ مئات السنين ، والذي آل في النهاية الى الانغلاق بين أيدي طبقة معينة ، أمست هي ومنافعها ومشاريعها المالية تشكل مؤسسات الدولة واجهزتها . ولم يبق خارجا عن ارادتها الا ملاكات الجيش الموجودة بأكثريتها في اسبانيا .

وهكذا ، بخفة غريبة تكاد لا تصدق ، انفصل القادة القرطاضيون الثلاثة الواحد عن الاخر . وقد اعتبر هسدروبعل برقة ، المسؤول الاول عن اسبانيا ومجهود ثلاثين سنة من الصراع البرقاوي العنيف ، ان اسبانيا قد ضاعت بمجرد سقوط قرطاضة الجديدة في يد شاب لا يتعدى عمره الخامسة والعشرين . انه راي مرتجل أملته تأثرات عارضة ، قد يكون سببها عدم الانسجام بين الهسدروبعلين المتنافسين على الزعامة في اسبانيا . ولكنه ليس صعبا على قائدين من هذا المعيار أن يقدرا مسؤوليتهما ، فلا تكون اسبانيا ثمنا لاستبداد كل منهما برأيه ، وضحية لتنافسهما وأحقادهما الحزبية والعائلية . ان التنازل عن الجبهة الايطالية نفسها ، ورجوع هنيبعل الى اسبانيا كان أفضل ، على المدى الطويل ، من مغادرة اسبانيا ، أهراء قرطاضة ومنبع ثروتها بالمعادن العديدة .

لم يطارد سيبيون هسدروبعل المتجه شمالا ، بل تركه حرا يتابع طريقه. لان انسحاب هسدروبعل كان يقرب سيبيون من هدفه المنشود : اخراج الفينيقيين من اسبانيا وجعلها ولاية رومانية .

أما هسدروبعل بن جيسكون فقد اعتبر ان ذهاب سميه ابن هميلقار الى ايطاليا كان يعني انتزاع اسبانيا من البرقاويين وسيطرته وحده عليها ، ولم يقدر مدى المخاطر التي كان يضمرها له المستقبل القريب .

في أوائل ربيع ٢٠٦ ق.م. انحدر سيبيون نحو نهر « بيتيس » وراح يتمركز في جنوبي « ايليبا » على بعد مائة وعشرين كيلومترا من قادش .

انه يريد منازلة ابن جيسكون . يريد تصفية القوات القرطاضية ليقدم اسبانيا على طبق من فضة هدية لمجلس الشورى الروماني ، ويعود الى رومة مكللا بانتصاره العظيم . كان عدد جيشه ٤٨٠٠٠ . وكان عدد جيش القائد القرطاضي ٥٥٠٠٠ . لقد وصلت ابن جيسكون ، خلال الشتاء ، نجدات من قرطاضة . وكان ماغون شبل هميلقار قد عاد من جزر الباليار مع قوات من المجندين المرتزقة . ولكن نجم الفينيقيين كان قد أفل في اسبانيا ، وكانت معنوياتهم في تدهور متواصل . ان انسحاب هسدروبعل برقة من اسبانيا بعد خسارة العاصمة كان طعنة نجلاء في معنويات القرطاضيين ، وفي معنويات جنودهم المرتزقة وحلفائهم في جميع المناطق . ولم يكن معقولا ان تكون ثقة

اسبانيا والمرتزقة بهم أكثر من ثقتهم بأنفسهم . واذا كان ابن هميلقار اعتبر اسبانيا قد انتهت فمن الطبيعي أن يعتبرها الاسباني قد أصبحت رومانية .

لقد فرض سيبيون المعركة فرضا على ابن جيسكون وعلى ماغون ، اخر ابناء هميلقار . وبالرغم من تفوق عدد القرطاضيين فأن الروح الانهزامية قد دبت في المرتزقة الاسبانيين فأخذوا يهربون خلال المعركة ، وهكذا قضى سيبيون في جنوبي ايليبا على اخر جيش قرطاضي في اسبانيا . لقد حاول هسدروبعل ان يعيد تنظيم جيشه على طريق انسحابه نحو قادش ، ولكن فرار الجنود من الجيش كان يزيد من ساعة الى ساعة حتى وصل الى شاطىء البحر وليس معه الا ستة الاف مقاتل فقط . لم يخسر عددا كثيرا في المعركة ولكن العدد الكبير من الجيش قد تبدد في كل ناحية بعد ان فقد ايمانه بقيادته ومصيره . وهنا على شواطىء البحر ترك القائدان القرطاضيان بقايا جيشهما تتبدد في جميع الانحاء وركبا سفينة اقلتهما الى قادش ، ومن هذه العاصمة الفينيقية القديمة التي تحمل اسم مدينة سورية منذ تسعة قرون ودعا الارض الاسبانية وعادا الى قرطاضة . وهكذا يكون النفوذ الذي بناه ومارسه الكنعانيون خلال تسعة قرون قد زال ، والامبراطورية التي أسسها هميلقار الكبير قد انهارت في سنتها الثلاثين ، والجولة الاولى من صراع سيبيون ضد قرطاضة قد تمت بهذا الانتصار الكبير .

انتزع سيبيون اسبانيا من قبضة قرطاضة فقطع عن القرطاضيين معينهم الفياض بالمال والرجال والمواد الخام . لكن هذا لم يكن ، في نظره ، الا المقدمة للجولة الثانية من مخططه . كان نقل الحرب الى افريقية يشكل ، في خطته ، الجولة الثانية . وكان الهدف غزو قرطاضة نفسها واخضاعها . لم يكن تصميم سيبيون تصميما مبتكرا ، من ابداع خياله الخلاق ، كما كان تصميم هنيبعل في حملته على رومة . فهو كان مقلدا لهنيبعل وناقلا عنه . ولكنه كان يتحلى بصفات ومواهب جعلت منه واحدا من اعظم قادة التاريخ وعباقرتهم : فالجراة المدربة على المخاطر ، والاقدام مع الوضوح في الرؤيا الشاملة ، والثقة المطلقة بنفسه ، والشخصية الجذابة التي ترضي جميع من اتصلت بهم ، كل ذلك كان يجعل من الشاب الانيق ، الذي تسلم قيادة الجبهة الاسبانية في سنة ٢١٠ ق.م. وهو ابن اربع وعشرين سنة ، شخصية فذة تحمل عالما في فكرها وطموحها .

كان تلميذا لهنيبعل ولكنه تلميذ تفوق ، بحكم موقعه وظروفه ، على معلمه . فبالرغم من الصعوبات التي اعترضت تنفيذ مشروعه الكبير ، والتي ارغمته على تدريب جيش متطوع يستمد مقوماته المادية من تبرعات الايطاليين ، والمعنوية من وعي الرومان والايطاليين ، فانه كان يعلم انه يرتكز دائما على دولة قومية واعية تقدر مواهب رجالها وتراقب أعمالهم ، فلا تهملهم في مصاعبهم ، ولا تبخل في تلبية طلباتهم ، ولا تتهرب من القيام بواجباتها كما فعلت قرطاضة مع عظماء قادتها في الحرب الفينيقية الاولى ، وكما تفعل منذ ستة عشر عاما مع هنيبعل في ايطاليا . لم يتفوق سيبيون على هنيبعل في عبقريته العسكرية . فهو لم ينتصر مثل هنيبعل في معارك كبرى بقيت على الدهور قواعد تدرس في المعاهد العسكرية حتى اليوم ، وهو لم يحتل وطن أقوى دولة عسكرية وهي في عنفوان شبابها وزخمها ، ويدمر ثلث طاقتها الحربية ، بل تفوق بفكره ومفاهيمه السياسية ، وبتفوق دولته كنظام سياسي قومي جديد لم يكن يعرفه العالم في ذلك الحين .

بعد ان صفى سيبيون القوات القرطاضية في اسبانيا وانتزع من قرطاضة أغنى بلد من امبراطوريتها ، وأقوى شعب من شعوبها ، بل الاهراء الكبيرة التي كانت تتدفق عليها بالمال والمعادن وجميع المواد الخام والمقاتلين الاشداء والخيالة المتفوقين ، أوكل الوضع الجديد الى سيلانوس ومرسيوس، وعاد فجأة الى رومة ليرشح نفسه للقنصلية .

لم يكن مسموحا لاي قائد ، حسب القانون العسكري الروماني ، ان يغادر مركز قيادته دون استئذان مجلس الشيوخ . فالدخول ضمن أسوار رومة هو ممنوع عليه . لذلك أرسل الى مجلس الشيوخ يلتمس المثول أمامه خارج أسوار المدينة ، فقبل التماسه . ومثل امام المجلس يعطي تقريرا شفهيا عن مآثره الحربية في اسبانيا ، طالبا أن يدخل رومة دخول الحكام — القادة المنتصرين . لم يقبل طلبه اذ ان حفلة « الدخول الظافر » لم يسبق ان سمح بها في رومة الا للقناصل الظافرين في ميادين القتال ، ولكنه سمح له بالدخول فقط . اما هو فقد عرف كيف يجعل من دخوله الى رومة دخولا فخما يشبه حفلة الظافرين : لقد سير أمامه صناديق الذهب والفضة التي غنمها من اسبانيا ، وأعلن للشعب انه متوجه الى الكابيتول معبد جوبيتر ليضحي بمائة ثور نذرها له حين كان يقاتل في اسبانيا .

هكذا تمكن سيبيون ، بدهائه السياسي ، ان يجتذب الجماهير اليه ليعلن لها مباشرة أعماله الحربية العظيمة . وبعد وصوله بأيام كانت الجماهير الرومانية تحتشد كل يوم امام بيته لتراه خارجا أو داخلا ، وتتحدث عن تحركاته وأقواله وأفعاله .

فاز سيبيون بالقنصلية فوزا ساحقا ، وسعيدا كان ، يوم الانتخاب ، من رآه ساعة انتخابه . ان اسمه ملأ روما الدولة وروما الشعب ، وفي وجدان الرومانيين أصبح سيبيون البطل القومي الاول .

لم تكن القنصلية ولا تأييد الجماهير واعجابها هدف سيبيون الاخير . كل ذلك كان في نظره وسيلة لغاية قومية بعيدة : الحرب في افريقيا ، ومنازلة هنيبعل على أرض قرطاضة ، واخضاع المدينة التي تغلبت على جميع المدن اليونانية بالامس البعيد ، والتي تتعرض اليوم ، للمرة الثانية ، لمواجهة نظام رومة القومي الجديد .

ولكن مؤسسات الدولة الرومانية لا تسمح ان يضعها الافراد أمام الامر المفعول ، مهما علا شأنهم ، واشتد بأسهم ، وحققت عبقريتهم . انهم أفراد يخضعون للمؤسسة . والمؤسسة تمثل ارادة الشعب . وارادة الشعب فوق كل ارادة .

انتخب ليسينيوس كراسوس زميلا لسيبيون في مركز القنصلية . وقد أصدر مجلس الشورى قراره بأن يتوجه سيبيون الى جبهة صقلية ، وكراسوس الى البروتيوم ، جبهة هنيبعل .

كان على كراسوس ان يناوش هنيبعل في جبهة شبه مجمدة ، وعلى سيبيون ان يقبض بيد فولاذية على الجزيرة التي ضمت الى الامبراطورية الرومانية بعد ان حررها مرسلوس نهائيا من النفوذين اليوناني والفينيقي المتحالفين في وجه رومة .

وهكذا تجاهل مجلس الشيوخ رغبة سيبيون ، القنصل الجديد ، في

نقل الحرب الى افريقيا واعتمد كراسوس ليحارب هنيبعل طالما سيبيون يرغب عن هذه المهمة .

لم يكن سيبيون مستعدا ان يتنازل عن الجولة الثانية من تصميمه . فهو قد حارب وانتصر في اسبانيا ليتمكن من الحرب والانتصار في افريقيا . وهو كان يشعر بقدرته على مجابهة مجلس الشيوخ . لن يجابهه بقوته معلنا حكما ثوريا فرديا ، كما كانت تفعل المدن اليونانية في ظروف كهذه ، بل كان أمامه مجلس الشعب ، وهو المؤسسة التي تعلو ارادتها ارادة مجلس الشيوخ . وهي التي يلجأ اليها في القضايا القومية الكبرى . وأية قضية اليوم في رومة هي أهم من ارغام هنيبعل على الانسحاب من الارض الايطالية التي يدوسها ويهدد أمنها ومقدراتها ويذل سكانها منذ خمسة عشر عاما ؟ ان سيبيون كان يحتل وجدان الشعب وقلبه ، لذلك كان واثقا من تأييده .

شعر مجلس الشيوخ بنفوذ سيبيون عند الشعب ، فشاء ان يتجنب لجوءه الى مجلس الشعب والحصول على موافقته بنقل الحرب الى افريقيا ، فأظهر قسم موافقته على مشروع النزول في افريقيا ، ولكن الاكثرية ، وهي من الشيوخ المسنين المتصلبين في آرائهم ، رفضت رفضا باتا هذه المغامرة التي قد تودي بالجمهورية . وقد ساد الرأي القائل بأن هنيبعل هو عندنا فاذا شاء سيبيون محاربته فليتسلم قطاع البروتيوم ليكسره هنا ، ولا مبرر للذهاب الى افريقيا لكسره .

وقد كان الناطق باسم هذه الاكثرية ، في الجلسة التاريخية التي استمع فيها الى سيبيون ونوقش مشروعه ، فابيوس مكسيموس ، الشيخ المسن ابن الثمانين سنة ، الذي انتخب قنصلا خمس مرات ودكتاتورا مرتين ، والذي ابتدع خطة مناوشة هنيبعل وتتبع خطواته وانهاكه دون منازلته في معارك كبرى تتيح له الانتصارات المدوية الفاعلة في معنويات الرومان والايطاليين بصورة عامة . وعدا عن رفض فابيوس مكسيموس مشروع سيبيون رفضا كليا فأنه ، وهو في اخر ايامه ، قد رأى منافسا جبارا على منازعته الشهرة والبطولة القومية الاولى في رومة ، لذلك لم يخل خطابه في المجلس من صبغة الحسد ، ومحاولة تقزيم مآثر سيبيون في اسبانيا ، وجعل فكرة الحملة على قرطاضة في عقر دارها فكرة عادية سبقه اليها أغاتوكليس اليوناني وريغولوس القنصل الروماني وباءت بالفشل .

« وقد علم فابيوس ان رائحة الحسد ستشتم من كلامه لذلك أخذ يدافع عن نفسه منذ بداية خطابه . وقد فعل ذلك ببراءة تعطل رد الفعل عليه ، مع اغتنام الفرصة لمديح نفسه : « أية منافسة يمكن ان تكون بيني وبين رجل ليس له عمر ابني ؟ صاح فابيوس بثورة وغضب ، ثم توجه الى « الفتيان » الملتفين حول سيبيون ورشقهم بكبرياء : لقد منعت هنيبعل من الانتصار ، حتى تتمكنوا انتم الان من التغلب عليه .

« وهل يمكن ان يكون مجحفا بمجد سيبيون حفزه على طرد القرطاضي

الذي يحتل قسما من ايطاليا منذ خمسة عشر عاما ؟ الا يكون ذلك عملا جميلا ومجيدا ؟ ولماذا اللف والدوران ؟ لماذا الذهاب الى افريقيا لمقاتلة هنيبعل بينما هو هنا في متناول يدنا ؟ وبعد ، أيمكن أن يكون سيبيون هكذا واثقا من الانتصار عليه في بلاده ؟ فليتذكر سيبيون والده وعمه اللذين قتلا في اسبانيا خلال ثلاثين يوما مع جيوشهما ، وليتذكر القنصل ريغولوس في افريقيا هذه نفسها ، وليتأمل بحادث أثينا ، تلك التي اتبعت مشورة السيبياد الشاب ، فأرسلت الى صقلية أسطولا كبيرا وخسرت في معركة واحدة كل قوتها .

« كان فابيوس يتكلم بلهجة توبيخ أبوي قد يستدل منه انه مستوحى من رغبة اكيدة في تجنيب ذلك الشاب المتهور مصيبة كبيرة . وبهذه اللهجة نفسها يبدأ بعدئذ بحملة ازدراء كلي منظم لصنيع سيبيون في اسبانيا ، وقد خاطبه قائلا :

« عندما سترى افريقيا من عباب البحر ستبدو لك فتوحاتك في اسبانيا لعبا ومزاحا . في بحر أمين بدون اعداء ، وبالقرب من شواطىء ايطاليا وغاليا ، سار بك اسطولك الى امبوريا المدينة الصديقة . وعندما نزلت قواتك الى اليابسة سرت بها على طريق أمينة نحو حلفاء وأصدقاء للشعب الروماني في تراغوني ، ومنها لم تكن تجتاز الا حاميات رومانية . قرب نهر الايبر كانت جيوش والدك وعمك ، جعلتها المصيبة نفسها ، بعد موت قائديها ، أكثر جرأة من الماضي ، وقد تزعمها قائد ، صحيح انه ارتجل نفسه وهو لا يحمل رتبا عسكرية ، بل هو انتخب من الجنود بصورة مؤقتة ، ولكنه لو كان من اسرة نبيلة ومعينا في القيادة بصورة رسمية لتساوى مع أعظم القادة . مهاجمة قرطاضة الجديدة قد تمت بسهولة ، لم يدافع أي جيش من الجيوش القرطاضية الثلاثة عن حلفائه » .

وباختصار لم تكن فتوحات سيبيون ، حسب رأي فابيوس ، الا نزهة بسيطة . كما لم تكن انتصاراته الا نوعا من « البلف » المضلل للشعب الذي يصدق بسهولة بريئة . ستكون الحالة متبدلة كليا في افريقيا ، حيث لا مرفأ مفتوح أمام الرومان ، ولا مدينة حليفة ، ولا أمير صديق . يثق سيبيون بمحالفة سيفكس ويعتمد على مسينيسا . انه على ضلال . لا يجب الاتكال أبدا على البرابرة . ومما قاله فابيوس للقائد الشاب :

« والدك الذي كان قد ذهب الى اسبانيا كقنصل ، عاد على عقبيه ليجابه هنيبعل المنحدر من جبال الالب . أما أنت فبينما هنيبعل هو في ايطاليا ، فأنك تستعد لمغادرتها . ذلك ليس لان عملك هو انفع للدولة ، وانما لانه أمجد لنفسك حسب اعتقادك .

« حسب رأيي ، ايها السادة ، ان سيبيون قد انتخب قنصلا ليخدم الجمهورية ومواطنيه لا ليخدم نفسه ومصالحه الخاصة ، وقد عبىء الجيش ليدافع عن رومة وايطاليا ، لا لينقله احد القناصل ، كما يفعل عادة الملوك ، من أول العالم الى أطرافه ، حسبما تميل رغباته » (٦٤) .

كان تأثير كلام فابيوس على مجلس الشيوخ قويا جدا . ولكن سيبيون، ذلك الشاب المجرب ، لم يكن من أولئك الرجال العاديين الذين يتبلبلون في المواقف الكبيرة . ان الذي صمم على مهاجمة امبراطورية لن يتهيب من مجابهة شيخ مسن يريد ان يحتكر الحكمة والمعرفة والبطولة . لقد اضطر سيبيون ان يرتجل خطابه ليرد على كلام مدروس ومهيأ مقدما . بدأ كلامه بجملة تعجبية بليغة ، فقال : « كأني بالرغبة في المجد لا تمتد الى ما وراء حدود الحياة الانسانية » . واستطرد معلنا بصراحة انه لا يريد فقط ان يضاهي فابيوس في مجده بل أن يتفوق عليه اذا قدر . ذلك طبيعي بدون شك . ولو شاء المرء عكس ذلك لاستحق الملامة . وهل يمكن ان يمنع الجيل الجديد عن الطموح الى شهرة اعظم من شهرة الاكبر منهم سنا ؟ « ان ذلك الاجحاف ليس بمن يحيطون بنا فحسب ، بل بالدولة ذاتها ، بل قد يكون بالنوع البشري جميعه . ومن أين يأتي فابيوس بهذا العطف المفاجيء علي ؟ عندما قتل والدي وعمي ، عندما كانت جيوش قرطاضية أربعة تسيطر على كل شيء برهبة اسلحتها ، عندما فتشت رومة عن قائد لهذه الحرب لم يتقدم احد ، بل تقدمت انا وحدي ، شاب ابن اربع وعشرين سنة . لماذا لم يوجد اذ ذاك من يشير الى سني ، الى قوة الاعداء ، الى مصاعب الحرب ، الى نكبة والدي وعمي القريبة ؟

« انه سهل ان يحط المرء من قيمة مآثري بعد ان فتحت اسبانيا كلها ولم يعد فيها اي اثر للحرب . وكذلك لو عدت من افريقيا منتصرا سيسهل التقليل من اهمية هذه المصاعب نفسها التي يبالغ بها الان لابقائي هنا » .

ويرد على قصة نكبة ريغولوس بأن هذه النكبة القديمة لن تمنعه من النزول في افريقيا أكثر مما منعه موت والده وعمه من الذهاب الى اسبانيا ، ثم يقول :

« لسنا بحاجة الى عبر قديمة واجنبية لنبين أهمية نقل الهجوم والقلق الى أرض العدو ، وأن نحول عنا الخطر جاعلين الخصم في حالة حرجة ( وهو يريد أن يجر هنيبعل الى حيث يريد هو ، أي سيبيون ، لا أن يبقى حيث يريده هنيبعل أن يبقى ) .

« سأرغمه على أن يقاتل على أرضه ، وعوضا عن بعض القرى المخربة في البروتيوم ستكون قرطاضة نفسها ثمنا لانتصاري . واذا كان تصميمي لا يسرع بانهاء الحرب ، فانه ، على كل حال ، يجدر بعظمة الشعب الروماني وبمقامه لدى الملوك والامم الغريبة ان يظهر ان له الجراة ليس فقط على الدفاع عن ايطاليا ، بل على أن ينقل الحرب الى افريقيا ، وأن لا يسمح للناس بأن يقولوا ويعتقدوا أن ما تجرأ على فعله هنيبعل لا يجرؤ روماني على تحقيقه » .

بالرغم من بلاغة سيبيون وما يؤيده من مآثر هي ما تزال حية تتناقلها

السن الشعب في كل مكان من ايطاليا ، فأن المسنين من الشيوخ ظلوا على تصلبهم . ولكن خوفهم من لجوء سيبيون الى جمعية الشعب حملهم على ان يعرضوا قرارا يشكل تسوية بين سيبيون ومجلس الشيوخ : يذهب سيبيون الى صقلية فيثبت « السلام الروماني » الذي فرضه مرسلوس ، ويمكن وحدة الجزيرة الكبرى مع الوطن الايطالي الذي تنشئه رومة بمفاهيمها القومية الجديدة وقوة سلاحها ، مع السماح له بالنزول في افريقيا اذا ما راى ذلك من مصالح الدولة . ولكنه يفعل ذلك على مسؤوليته وبتجنيد متطوعين للقيام بحملته . ويسمح له بأن يجمع التبرعات من جميع المناطق الايطالية لتموين جيشه ولبناء اسطول ينقله الى افريقيا .

قبل سيبيون بتلك التسوية التي جنبته اللجوء الى جمعية الشعب ، وتحدي مجلس الشيوخ ، اذ كان متأكدا من ان حماسة الشعب الروماني والاقوام الايطالية ستجعل كل الوسائل من رجال ومال وعتاد واسطول في متناوله بسهولة كلية .

فالمبارزة التي ستبدأ اذن على أرض افريقيا بين عملاقي العالم ، قرطاضة وروما ، كانت من جهة رومة مبادرة خاصة يتحمل مسؤوليتها سيبيون وحده ، وفي حال فشلها يمكن لمجلس الشيوخ ان يتنصل منها .

« لم يدفع مجلس الشيوخ الروماني هنيبعل عنه ليركز في حضنه رومانيا مثله . يجب الاعتراف اننا للوهلة الاولى نرى الحق بجانب مجلس الشيوخ . اذ يجب ان لا ننسى أن دستور رومة السياسي ، الذي اسست عليه عظمة الامبراطورية الرومانية ، لم يكن يتجانس مع الفردية السياسية التي يمثلها سيبيون . وفي هذه الحالة ، بصورة خاصة ، يجب على أحد الاسلوبين ان يتنازل للاخر .

« هذا التباين في وجهات النظر لم يكن عارضا ، بل متداخلا في صميم الوضع القائم . فلو ان الشيوخ ، الممثلين للنظام السياسي القائم ومؤيديه، كانوا قادرين على ربح الحرب لتبرر موقفهم كليا . ولكن هل هم قادرون على ذلك ؟ ان متانة رومة الاجتماعية ، المرتكزة على نظامها السياسي ، قد ساعدتها حتى الان على الاحتفاظ بوحدتها عبر جميع التجارب القاسية . ولكن نظاما أعد في أساسه للدفاع ، لا يمكن تحويله بسهولة الى قوة هجومية . اذا استمرت رومة في خطة الدفاع سيسحقها هنيبعل . ولكي تقود حربا هجومية هي بحاجة الى نوع جديد من الرجال ، الى فكر جديد . سيبيون كان كل ذلك » (٦٥) . فحملة سيبيون على افريقيا كانت شبيهة كل الشبه ، أو منقولة صورة طبق الاصل عن حملة هنيبعل على ايطاليا . لقد وضع هنيبعل قرطاضة أمام الامر المفعول وكذلك فعل سيبيون . أما هذه المبارزة ، من جهة قرطاضة ، فقد كانت تستهدفها بكليتها في جميع امكاناتها ومصيرها حتى مع هنيبعل في ايطاليا .

ان المهمة التي اعتبرها مجلس الشيوخ الروماني ثانوية ، كانت ، بالنسبة الى سيبيون ، هي الرئيسية في فكره وطموحه . اذا كانت المؤسسات هي التي تحفظ وتطبق دستور الدولة وقوانينها ، وتكرس تقاليد الشعب وعاداته وأعرافه ، وهي التي تؤمن الاستمرار وتلجم مطامع الافراد المغرورين المتهورين ، وتفرض احترام الدولة وهيبتها ، فلا يجب أن ننسى ان المؤسسات هي بدورها من انتاج عبقرية الافراد الفلاسفة المصلحين ، أولئك الذين تكون لهم انطلاقاتهم الجبارة عندما تقصر المؤسسات في مرحلة تزاحم الاحداث ، أو عندما تكون المؤسسات قد شاخت وتجمدت وتحول نشاطها الى روتينية وثنية ، تمارس طقوسا ولا تولد شيئا جديدا .

انطلق هنيبعل في عملية عبقرية نادرة المثيل في التاريخ ، ولكنه لم يرتكز على مؤسسة ولا بنى مؤسسة .

اما سيبيون فيندفع تحت مراقبة مؤسسة حية خلاقة ، ولكنه يجرها وراءه بقوة عبقريته الواثقة بنفسها الى ما يقرب من الجموح ، وبين أخذ وعطاء ، حقق سيبيون ما شاء خياله الخلاق وبطولته المتفوقة . وعندما انتهى عادت المؤسسة الى سيرها الطبيعي .

ان وضع رومة ، بالنسبة الى احتلال المملاق الكنعاني ، كان وضعا نادرا في حرجه عبر التاريخ . حتى المؤسسة قد أحرجت وطال صراعها الدامي ، وكان لا بد من انفجار عبقري عملاق ، من معيار هنيبعل ، لينقذ الدولة والمؤسسة والامة . فالسلام الروماني كان مستتبا في صقلية . سرقسطة حطمت مقاومتها ، وقرطاضة كنس نفوذها ، واستسلمت الجزيرة بصورة نهائية تريد الامن على أرواحها عند جميع اقوامها وطبقاتها . فمنذ الحرب الفينيقية الاولى لم تكن الحالة قد استقرت هناك .

رومة تريد ان تنتظر انهيار الاحتلال الهنيبعلي في ايطاليا . في نظر سيبيون ، كان ذلك تماديا في تجنب الاصطدام بالفاتح المنهوك. . ولكن من يعلم ماذا يجد في انحاء المتوسط بالنسبة الى الاحتلال الكنعاني ؟ مقدونية لم يعرف موقفها الاخير ، ويخشى جانبها . انطيوخوس في سورية مصمم على تجديد امبراطورية الاسكندر الشرقية . والجلالقة هم اعداء رومة الدائمون ، وكلما تراءت لهم سانحة انقضوا على رومة من جديد ، خصوصا وان جلالقة شمالي ايطاليا يشكلون رقبة جسر دائمة لمواطنيهم وراء الالب . ذلك كان يراه سيبيون بوضوح وكان يحتفظ به لنفسه . لم يتوان ، بعد تصفية القوات القرطاضية في اسبانيا ، عن ارساله رسالة الى فيليب الخامس ملك مقدونية ، يطلعه فيها على انهيار الفينيقيين في اسبانيا وسيطرة رومة عليها ، ويدعوه فيها لمحالفة رومة ليكون مع المعسكر المنتصر في هذه الحرب الرومانية ـــ الفينيقية .

## سيبيون يهيء حملته على افريقية

كل المشاغل والمصانع ومراكز التدريب كانت ترى سيبيون مفتشا ومراقبا ومشجعا كل يوم . حتى تمكن خلال ستة اسابيع من مغادرة ايطاليا الى صقلية مع ثلاثين سفينة حربية وسبعة الاف متطوع وكمية كبيرة من العتاد والمؤن .

وهناك ، في صقلية ، بدأ العمل الكبير لتعبئة حملته على افريقيا ، يعاونه شقيقه لوسيوس وصديقه الحميم ليليوس . بدأ بارسال نداء الى الرومان وجميع الايطاليين ، يدعوهم فيه للتطوع في الحملة التي ستقضي على قرطاضة ، وتخرج هنيبعل من ايطاليا ، وتنهي حربا طال زمانها . ولم يهمل في ندائه التلميح الى الغنائم الكثيرة التي ينالها المحارب عند الانتصار على أغنى مدينة في العالم .

فقط جلالقة شمالي ايطاليا ويونانيو البروتيوم ، الواقعون تحت سلطة هنيبعل ، لم يلبوا نداء سيبيون ، أما باقي المناطق الايطالية فقد كانت تلبيتها رائعة .

وكان أول من لبى دعوته شعوب اترورية . لم يكونوا مستعدين لحمل السلاح ومغادرة البلاد ، ولكنهم أعلنوا استعدادهم لتقديم الارزاق بوفرة ، وخصوصا الكيريين . وعد أهل بولونية بتقديم الحديد ، وأهل تركينية بقماش الاشرعة ، والفولاتريون بعوارض لبناء السفن . أما الاريتيون فقد اظهروا كرما فائقا اذ تعهدوا بأن يقدموا ، عدا عن عشرين الف مد من الحنطة ، ثلاثة الاف ترس وخوذة وخمسين الف رمح وجريد وفؤوس ومعاول ومناجل وسلالا ومجارش . وقدم البيرزيون والكلوزيون والرسلافيون كمية كبيرة من القمح وخشبا للسفن فرضوه على غابات الدولة . اما الذين تطوعوا كجنود فكانوا بالاخص من أهل البلدان السابنية : الاجريون ، والنرسيون ، والرياتنيون ، والاميترنيون . وبعث المرسيون والبلينيون والمروسيون بحارة .

لقد تمركز سيبيون في سرقسطة حيث كان يستقبل ما يصله من ايطاليا من تبرعات ، يقوم بمقايضات على ما يزيد عنده من مؤن ، يصادر ما يحتاج اليه من عتاد بري وبحري ، يجمع ضريبته على الغلال والمال . وعندما رأى موارده تنمو بسرعة ، رفع مرتبات الجنود ليثير حماستهم ، ويربح ثقتهم به وتعلقهم بشخصه ، فأثار ذلك احتجاج مدير ماليته على تبذير مال الخزينة فلم يعبأ باحتجاجه . كان اهتمامه موجها الى الانتصار وانقاذ الدولة أكثر منه الى توفير المال . وقد كان كاتون ، مدير ماليته ، من انصار فابيوس ،

خصم سيبيون ، ومكلفا بمراقبة جميع تحركاته ، واعطاء تقارير سرية عن تصرفاته . لقد انتخب كاتون وزيرا للمالية في سنة ٢٠٥ ق.م. ، ثم عين ليرافق سيبيون الى صقلية . قد يكون مدينا بانتخابه لصديقه الشهير فابيوس ، الذي وجد فيه خير عميل — مخبر قرب هذا « الشاب المغرور » الذي كانت تصرفاته الشاذة تتزايد ، في نظر فابيوس ، وتضر بمصالح الدولة .

كانت تقارير كاتون الى فابيوس متواصلة ، وكلها تثير العجوز السريع الغضب : سيبيون يبدد أموال الخزينة ليستميل جنوده . سيبيون يهمل الاعمال المكلف بها ويقضي معظم اوقاته في الاندية اليونانية مرتديا زيا يونانيا. سيبيون يتدخل في منطقة البروتيوم المخصصة لزميله القنصل ليسينيوس فيرسل بالاتفاق مع بعض العمال اللوكريين الاسرى قوة من ثلاثة الاف مقاتل وينتزع المدينة بمساعدة اولئك العمال من قبضة هنيبعل . ولكن أفرادا من جيشه يرتكبون هناك أعمالا معيبة ، فيوجه سكان « لوكريا » شكوى الى مجلس الشيوخ الروماني يطلبون حمايته من بليمينوس الضابط الذي أرسله سيبيون على رأس القوة الى لوكريا ، والذي يعيث فسادا ونهبا وطغيانا في المدينة . هذا عدا عن التعديات الانتقامية المعيبة التي حدثت بين أفراد الفرقة التي أرسلها سيبيون الى لوكريا والتي أسرع هو ليصلح شؤونها فتساهل مع بليمينوس المجرم الفظ الذي زاده تساهل سيبيون عتوا واجراما .

تلقى فابيوس هذه الاخبار بتفاصيلها فاستشاط غضبا وانفجر غضبه على سيبيون في مجلس الشيوخ : « سيبيون يشين الاسم الروماني . كل أعماله تفسد الانضباط العسكري ، وتعلم الجيش الفسق والفجور . يجب احضار بليمينوس مكبلا الى رومة . اما رئيسه فيجب استدعاؤه لانه غادر ولايته بدون استئذان مجلس الشيوخ » . ثم يبحث مع مفوضي الشعب ليقترحوا على جمعية الشعب أمر الغاء قيادته ...

لم يأخذ المجلس باقتراحات فابيوس المتطرفة ، بل اتخذ قرارا بايفاد لجنة تفتيشية من قبله ، يرأسها قاض كبير ، مؤلفة من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ وممثلين عن العامة ومفتش . ثم تتوجه الى صقلية بغتة لتطلع عن كثب على ما يجري هناك ، فاذا تبين ان اللوكريين هم على حق في شكاويهم ، وان كل ما ارتكب كان بعلم سيبيون وموافقته ، على اللجنة ان ترغم سيبيون على مغادرة ولايته . واذا كان انتقل الى افريقيا ، عليها ان ترسل خمسة مفوضين ليأتوا به حالا الى ايطاليا . اما اذا كان سيبيون بريئا مما نسب اليه فليترك في قيادته وليتابع عمله كما يريد .

علم سيبيون بقدوم اللجنة التفتيشية فقام بجولة على جميع المشاغل والمصانع البرية والبحرية وساحات التدريب ومخيمات المتطوعين ، وهيأ كل شيء ليكون مرتبا وخاليا من العيوب غير معرض للانتقاد . استقبل أعضاء الوفد وعرض على مراقبتهم كل أعماله الاعدادية ، فشهدوا بصورة خاصة

ميادين التدريب والمناورات البرية والبحرية التي يقوم بها جيشه ، فكان الوفد معجبا بكل ما شاهد وقد شاهد كل شيء . لم يترك سيبيون أي مخزن من مخازن المؤن والعتاد الا وعرضه على موفدي مجلس الشيوخ .

ويقول تيتليف انهم انصرفوا وقلبهم طافح بالفرح ، الى درجة انهم كانوا مستعدين ان يعلنوا لرومة انتصارا حربيا ، وليس فقط استعدادات عسكرية باهرة .

وقد عرفوا كيف يطلعون زملاءهم ، فقرر مجلس الشيوخ بعد ان سمع كلامهم ان على سيبيون ان يعبر الى افريقيا ، وانه مخول ان ينتقي من الجيوش الرومانية الموجودة في صقلية ما يريد ان يصطحبه . وهكذا حصل سيبيون على اكثر مما كان يرجو . ولم يبق أمامه أية عقبة ، بل عليه ان يسير الى الامام .

في اخر لحظة فوجيء بخبر مزعج : وصله وفد من قبل سيفكس ينذره بأن لا يعتمد عليه عند نزوله في افريقية ، اذ هو قد ارتبط بالزواج من قرطاضية وبمحالفة مع دولة قرطاضة ... وهو مضطر ان يحمل السلاح للدفاع عن مسقط رأسه وعن وطن زوجته .

في ربيع سنة ٢٠٣ ق.م. كان سيبيون جاهزا لمهاجمة افريقيا . اربعون سفينة حربية ستواكب اربعمائة سفينة نقل تحمل جيشا من ثلاثين الف مقاتل .

قرر سيبيون أن يقلع من ليليبايوم في غربي صقلية عند بزوغ الشمس . وكان الجيش كله على استعداد منذ الفجر .

« ما أن اشرقت الشمس على شاطىء ليليبايوم ، حيث تجمع الاسطول والجيش ، حتى اطلت من على مقدمة سفينة القيادة قامة نحيفة ترتدي معطفا قرمزيا وتغمرها الانوار المتدفقة . هذا هو سيبيون ، متقلد جميع شارات رتبته . فهو سيقدم ذبيحة للالهة في حفلة رسمية ، ملتمسا رعايتها لمشروعه. تقف وراءه زمرة من الرجال ، مكلفين بمعاونته في الحفلة وهم جامدون متأملون . يهز المنادي عصاه ويأمر : « سكوتا » ، يبدأ عازف على المزمار نشيدا بطيئا مونوتونيا عذبا ، يغطي سيبيون أعلى رأسه ونقرته بجانب من معطفه ويوجه كلامه الى الالهة :

« ايها الالهة والالهات الساكنون في البحار وعلى اليابسة ، اتضرع وأتوسل اليكم ان يكون كل ما فعل ويفعل الان وسيفعل في الغد بقيادتي لمجدي ولمصلحة الشعب الروماني وعامته ، وحلفائه اللاتين ، وجميع الذين يحملون السلاح تحت قيادتي وسلطتي وحمايتي في البر والبحر والانهر .

« ان تعاونوا جميع مشاريعي وتزيدوا في نمونا وازدهارنا ، وان تمنحونا القوة والصحة والنصر على أعدائنا ، وأن تردونا انا وجنودي جميعا حاملين الاسلاب والغنائم ومنتصرين .

« وان تمنحونا وسائل الانتقام من أولئك الذين يحاربوننا ويريدون بنا شرا ، وأن تنزلوا على قرطاضة جميع الويلات التي كانت تنوي أن تفجع بها رومة والشعب الروماني » (٦٦) .

وبعد أن تضحى الذبيحة ويعلن الفاحص ان أحشاءها نقية سليمة ، يرميها سيبيون في البحر وتعطى اشارة الرحيل ، فيتحرك الاسطول نحو شواطىء قرطاضة حيث ستتم الجولة الثالثة من الصراع المصيري بين الكنعانيين والرومان .

## سيبيون في افريقية

انتصر سيبيون في مخططه الكبير . بالامس كان دور اسبانيا ، واليوم هو دور قرطاضة نفسها . انه سيصفي دولة عالمية تتوسع وتسود منذ ستة قرون ، وسيتغلب على حضارة هو نفسه من انتاجها . من شرقي المتوسط نقل السوري الحضارة الى اليونان أولا ، فتزعمتها مقدونيا وفشلت في زعامتها ، فهي لم تقدر أن توحد اليونان وتكون معها دولة قومية كبيرة .

ثم نقلها الى شمالي افريقيا واسبانيا وجزر المتوسط الغربية ، ففشل هو أيضا في اقامة دولة قومية صحيحة تفرض زعامتها وحضارتها على غربي المتوسط وجنوبه . ولما أطلت رومة القومية على ميدان تنازع البقاء بينها وبين نظام المدينة القرطاضي ، أخذت قرطاضة بالتراجع أمام النظام القومي الجديد ، وقد استمرت في تراجعها حتى رات الان حملة رومانية تطل على سكان شواطئها . هنيبعل نفسه ، عملاق القرون العسكري ، لم يتمكن ، من ضمن نظام المدينة ، أن يوقف هذا الزحف القومي العملاق الذي دمر في شهر ما بناه البرقاويون في اسبانيا خلال ثلاثين سنة ، وها هو الان ، ومنذ خمسة عشر عاما ، على الارض الايطالية ، يضرب ضرباته الهرقلية ليدمر النظام الجديد الذي انشأته رومة ، ولكنه يعجز عن تدمير هذا النظام الذي انتصر في الحرب الفينيقية الاولى ، وهو الان يضع نظام قرطاضة أمام الامتحان الاخير .

نزل سيبيون على « الراس الجميل » دون أن تصده اية مقاومة . ولم تعلم قرطاضة بنزوله الا من الفلاحين القرطاضيين الهاربين الى العاصمة خوفا من الجيش الاجنبي المحتل .

هل أخذت قرطاضة على حين غرة ؟ من السخف ان نفترض هذا الافتراض . منذ نحو سنة كان سيبيون يعد حملته في صقلية . وكان يعلن ذلك لجميع الناس ، ويؤكد ان لا شيء سيمنعه من مهاجمة قرطاضة في أعقار ديارها . فتدريب الجيش وبناء السفن ، وتخزين المؤن والعتاد ، كل ذلك لم يكن مجهولا من احد . ولا يجوز لدولة ، كقرطاضة ، كانت قواتها بالإمس القريب تحارب الى جانب سرقسطة ضد الغزو الروماني ، ان تجهل أو تتجاهل ما كان يهيأ منذ سنة لغزوها . فقد كان لديها كل الوقت لتعد وسائل الدفاع عن نفسها ، ولتدرب جيشا مؤهلا ان يرمي الرومان في البحر منذ أول

خطوة يخطوها على الارض الافريقية . ولكن ذلك كان يضطرها ان تفعل كما كانت تفعل عندما تشعر انها مهددة بخطر الغزو : كان عليها ان تجند جيشا من المرتزقة ، أو بعبارة أخرى ان تنفق كثيرا من المال ، بينما حكامها لا يرغبون في ذلك .

ولقد كان هسدروبعل ابن جيسكون ، وهو العسكري الاول في قرطاضة ذلك الحين ، يمثل تلك الروح الانهزامية والبخيلة بأبشع صورها ومعانيها عندما اعتقد ، وحمل الحكومة القرطاضية على الاعتقاد ، أن قرطاضة تقدر أن تكل مسؤولية الدفاع عن كيانها وشرفها ومصيرها الى صهره الامير البربري سيفكس . وبينما كان سيبيون يعد حملته ليغزو قرطاضة وينهي سيادتها المستمرة في افريقيا منذ ستمائة سنة ، كانت قرطاضة تتابع حياتها العادية ، كأن خسارة اسبانيا لم تكن تعني أعظم كارثة قومية في حياتها ، وكأن وجود هنيبعل مصارعا منذ خمسة عشر عاما على أرض عدوة لم يكن شيئا عظيما يساوي أمجد مرحلة من مراحل حياتها ، وكأن انتزاع سيبيون اسبانيا من أيدي قادتها وأعداده حملته طوال سنة في صقلية لا يعني عزمه الاكيد على النزول في افريقيا . ولم تكن المرة الاولى التي تحدث فيها محاولة غزو قرطاضة وتدميرها : فأغاتوكليس اليوناني قام بالمحاولة وكاد ينجح ، وكذلك ريغولوس القنصل الروماني هاجم قرطاضة في الحرب الفينيقية الاولى كما رأينا وهدد حياتها ومصيرها . وهذان الغازيان السالفان لم يكونا من معيار سيبيون ، ولا كان لهم تصميمه المدروس واستعداده العسكري والمعنوي للمضي في مشروعه حتى النهاية .

انها لمن أغرب الحالات في التاريخ هذه الحالة النفسية والفكرية القرطاضية . لقد صارعت قرطاضة خلال ستمائة سنة لتتغلب وتتفوق وتتوسع وتثبت سلطانها على غربي المتوسط الاوسط والجنوبي ، فكيف يمكن أن تكون وقعت في هذا الخطأ المصيري الرهيب : تهمل هنيبعل عندما كانت ايطاليا ترتجف من وطء قدميه ، وتلقي مسؤولية الدفاع عن كيانها ومصيرها على أمير بربري ، لا يربطه بها الا رباط المصاهرة ، وعلى قائد قرطاضي فاشل في جميع أعماله الا المحافظة على ثروته الشخصية ، بينما هي كانت في وضع يضطرها ان تدفع بكل طاقاتها العسكرية والمعنوية والمادية الى ميدان الصراع في سبيل انتصارها وبقائها ؟

وأغرب من كل شيء أن ينزل سيبيون على ساحل قرطاضة ولا من يقاوم نزوله ، كأنه ينزل في عالم جديد خال من السكان المدافعين عن وجودهم. ولولا وصول الفلاحين الهاربين امام جيش سيبيون ليحتموا وراء اسوار العاصمة لما شعر القرطاضيون بنزول سيبيون غازيا أرضهم .

بعد ان نزل سيبيون على ساحل مقفر أعطى أمره الى الاسطول بمحاصرة عوتيق ، وتقدم في داخل البلاد ، دون أن يلقى أقل مقاومة ، ناهبا

ومجتاحا كل ما يوجد في طريقه . وكان يشحن جميع مسلوباته حالا الى صقلية حيث كانت تستقبل « هدایاه » بارتياح حار .

وقد التحق به الامير مسينيسا عدو الامير سيفكس اللدود وضحيته ، اذ ان هذا كان قد انتزع منه امارته وضمها الى ملكه . ولم تكن قوة مسينيسا الا مائتي خيال فقط .

ولم يكن سيبيون مهتما بالاجتياح والنهب والتقدم في داخلية البلاد بقدر ما كان يشعر بحاجته الى مرفأ يمكنه ان يركز فيه قيادته العامة وينظم حملته للربيع المقبل . فهو لم يكن مخططا للسير توا لمحاصرة قرطاضة . فزعيمة افريقيا ، بالرغم من تخاذلها وعدم استعدادها لضرب العدو الغازي على سواحلها ولصد زحفه ، كانت ما تزال ترهب النازلين غزاة على ارضها . ولا يمكن لاي فاتح جديد ، مهما كان معتدا بنفسه ، الا ان يتذكر ما كان مصير أغاتوكليس وريغولوس من قبله . ولم يكن هناك مرفأ أصلح وأسهل على سيبيون من عوتيق . وقدر سيبيون ان المدينة الفينيقية القديمة ستتخاذل وتستسلم منفكة عن العاصمة ، فبدأ بمحاصرتها من البر بعد ان كان ضرب الحصار عليها من البحر منذ يوم وصوله .

رأت قرطاضة الاف الهاربين يتدفقون الى داخل اسوارها ، دافعين مواشيهم أمامهم ، حاملين ما خف وكان ضروريا من امتعتهم وأثاث بيوتهم ، مرعوبين من المجتاح الذي لا يعف عن شيء من ممتلكات وارواح ، وعلمت ان الغازي يحاصر عوتيق من البر بعد حصارها من البحر ، وأن جيشه يسرح ويمرح على أرضها ، فيشرد السكان ، ويدمر العمران ، وينهب ما تطاله يده دون صد أو مقاومة ، فاهتزت في صميم كرامتها ، ودب الرعب في حكامها وسكانها ، اذ لم تجد بين يديها قوة عسكرية تدفع بها الفاتح عن أسوارها لو فكر بهجومه المباشر عليها . والفاتح كان يتابع شحن الاسلاب « والهدايا » والاسرى الى صقلية ليضاعف اهتمام مجلس الشيوخ والشعب الروماني بقضية حملته فتتضاعف النجدات حتى تصبح قواته في حالة تمكنها من الهجوم على « القاعدة الجبارة » التي تسيطر على غربي المتوسط منذ ستة قرون .

قدرت قرطاضة بالسرعة المطلوبة ان تجهز أربعة الاف خيال دفعتهم توا الى صد الغازي او الهائه على الاقل . ثم وجهت استغاثة الى حليفها سيفكس والى حميه هسدروبعل الذي كان مقيما دائما في « سيرتا » بعد أن أمسى مغضوبا عليه في قرطاضة لمغادرته اسبانيا منهزما أمام سيبيون . فقد اضطرت قرطاضة ، وهي ترى نفسها على شفير الهاوية ، ان تغض الطرف عن ماضي هسدروبعل الزري ، خصوصا وهو حمي سيفكس والشخص القادر أن يستحثه على تلبية طلب قرطاضة بسرعة . فابنته زوجة سيفكس ، كانت تسيطر بذكائها وجمالها ونبل محتدها على الامير النوبي، وتوجهه كما تشاء . وهي في الحقيقة قد تزوجته زواجا سياسيا لهذه الغاية .

فهي لم تحرق نفسها كما فعلت اليسار بانية قرطاضة عندما طلب يدها الامير البربري ، بل ارتضت بذلك الزواج تضحية في سبيل وطنها .

عجزت فرقة الخيالة المرتجلة عن ان تصمد في وجه الفاتح : واجهها مسينيسا وناوشها ، ثم أتاح للخيالة الرومان لينقضوا عليها ويساعدوه على سحقها . ومن بقي حيا منها وقع أسيرا .

أرغمت قرطاضة على أن تفهم أخيرا ان الوقوف في وجه سيبيون يقتضي جيشا قويا من مستوى جيشه ، فكررت استغاثتها بسيفكس وهسدروبعل . تمكن هسدروبعل من تجنيد ثلاثين الفا ، وسير سيفكس ستين الفا من قواته. أمام هذه القوات الكبيرة اضطر سيبيون أن يفك الحصار عن عوتيق ، فانسحب الى رأس بحري عال شرقي المدينة وتمركز في معسكر محصن .

هناك دخلت الحرب الفينيقية الثانية في سنتها السادسة عشرة (٢٠٣ ق.م.) ، وجددت القيادة العامة لسيبيون حتى انتهاء الحرب الافريقية دون قيد أو شرط . لقد ربح ثقة دولته واستعدادها لتلبية جميع طلباته حتى النصر . وهنا يظهر الفرق الصارخ بين موقف قرطاضة المتردد ، الغافل ، البخيل حتى التقتير تجاه هنيبعل المسجل الانتصارات الساحقة ، وبين موقف رومة الواعية مسؤولياتها ، المقررة بشجاعة وعزم ما يجب تقريره . لقد ساومت قرطاضة وقترت وتغافلت حتى وصلت نيران الحرب الى أسوارها ، أما رومة فقد وضحت لها الرؤية الصحيحة من جميع جوانبها فمحضت سيبيون ثقتها الكاملة ووضعت كل امكاناتها تحت تصرفه .

تسعون الف مقاتل مستعدون ان يواجهوا سيبيون ويصدوه عن قرطاضة ، وقد يرمونه في البحر . ولكن هنا تبدأ مأساة الغفلة ، وضعف القيادة ، وسوء التقدير للنتائج الخطيرة المحتملة ، وسخافة الرأي ، والتلهي بأوهام قد برهنت الاحداث على انها تخدر وتضلل من ينساقون وراءها . لقد رأى سيفكس ، وهو أمير نوبي بدائي التفكير والتقدير ، ان أكبر ثقل الحرب يلقى عليه ، فاتجه تفكيره نحو القيام بمسعى لتسوية الخلاف بين رومة وقرطاضة . وكان ذلك تجديدا لمسعاه وقت استقبل سيبيون وهسدروبعل في عاصمته بعد الانتهاء من معركة اسبانيا . وقد عرض سيفكس فكرته على الحكام القرطاضيين بواسطة حميه هسدروبعل فلقيت موافقة كلية وكلفوه القيام بالمسعى .

لم يكن خافيا على حكام قرطاضة ان هنيبعل ، بعد معركة كاني ، وهو في اعلى قمة من انتصاراته الكبرى ، أوفد رسولا الى مجلس الشيوخ الروماني ليعرض فدية الاسرى ، وفوضه أن يعرض الصلح على مجلس الشيوخ اذا رأى ذلك مناسبا . يومها رفض المجلس السماح لرسول هنيبعل بالمثول أمامه ، وأبى عليه أن يبيت داخل اسوار رومة ، بل طرد طردا قبل ان تغرب الشمس . فكيف يعقل الان ، بعد ان جرى ما جرى ، بعد خسارة اسبانيا ،

وانكفاء هنيبعل الى جنوبي ايطاليا منهوكا يائسا ، وبعد خسارة سرقسطة ومحالفة فيليب الخامس المقدوني للرومان ، ونزول سيبيون منتصرا جامحا على بعد عشرين كيلومترا من قرطاضة ، كيف يجوز أن يتلهى حكام قرطاضة بأوهام امكانية الصلح ، وأن يكلفوا زعيما بربريا بدائيا بالمفاوضة ؟ انها المأساة الزرية التي وصلت بحكام قرطاضة الى الحضيض ، الى الافلاس ، الى التضعضع ، الى التمسك بخشبة انقاذ نخرة ، ليس من شأنها الا أن تزيد اليأس مرارة وغرقا .

عسكر الجيشان الحليفان ، القرطاضي والنوميدي ، على مقربة من المعسكر الروماني . وبعد ان وافق سيبيون على زيارة سيفكس ، توجه هذا الى معسكره عارضا عليه صيغة للصلح : يترك سيبيون افريقيا ويغادر القرطاضيون ايطاليا ، فيعود كل فريق الى قواعده وتنتهي الحرب .

كان سيبيون حاقدا على سيفكس ، الذي نكث بعهده ونقض المعاهدة ، ولكن حذاقة سيبيون جعلته يكتم ما في قلبه ، وقد رأى في العرض فرصة لفهم وضع العدو العسكري من جميع نواحيه المادية والمعنوية ، خصوصا اذا تمكن من تطويل المفاوضات ، لذلك أفهم سيفكس انه من الناحية المبدئية لا مانع عنده في التفاوض ، ولكن الفكرة تحتاج الى اختمار والى متابعة درسها وتحليلها ، وانه حاضر هو لمتابعة المفاوضة . فعرض سيفكس ، لسوء حظه وحظ قرطاضة ، ان تحصل اجتماعات « مؤتمر الصلح » بين الرومان والقرطاضيين في معسكره . هذا ما كان يريده سيبيون فأسرع بالموافقة .

وقد عين سيبيون اللجنة السياسية للمفاوضة وأتبعها بعدد من الضباط الخبراء والمستشارين ، يرتدون أثواب عبيد ، ويتظاهرون بالسذاجة . وبينما كان المتفاوضون الذين تكررت اجتماعاتهم يعقدون جلساتهم ، كان « العبيد السذج » يتنزهون في المعسكر النوميدي وحوله ، ثم ينتقلون الى المعسكر القرطاضي ، ويسجلون في فكرهم ما يلاحظونه من أشياء حربية هامة . وكان تقريرهم الاخير : ان المعسكر النوميدي مؤلف من أكواخ قصبية مغطاة بحصر رثة من القش ، وان المعسكر القرطاضي وان يكن في حالة أفضل ، فهو في معظمة مبني من الخشب .

بعد أن اعتبر سيبيون ان معلوماته اللازمة اصبحت كاملة ، لم يصعب عليه افتعال سبب لقطع المفاوضات ، مدعيا ان القرطاضيين يزدادون مبالغة في مطالبهم ، لذلك لم يعد من مجال لمتابعة البحث .

وهكذا وجد القرطاضيون أنفسهم أمام أبواب موصدة في وجههم ، لم يكن داخلها الا الاوهام والتمنيات المستحيلة ، فصمموا على متابعة الحرب وكانت قواتهم كبيرة ومخيفة . ولكن سيبيون لم يترك لهم الوقت للتحرك ، بل فاجأهم بارسال « زمر للحرائق » وكانت قد تعرفت خلال المفاوضات على جميع مداخل المعسكرين ، فتسربت تحت ستار الظلمات الى المعسكرين

واشعلت فيهما الحرائق ، فاندلعت النيران من كل جهة ولم تعط الجنود فرصة لارتداء البستهم وأخذ اسلحتهم ، بل اندفعوا الى الخارج مرتاعين ، مبعثرين، ليجدوا امامهم جيش سيبيون يقابلهم بالسيوف والحراب وهم شبه عراة مشردين . لقد ابادت النيران والسيوف ، حسب قول تيتليف ، اربعين الفا ، واسر خمسة الاف ، بينهم أحد عشر شيخا من مجلس الشيوخ القرطاضي ، وبقايا الجيشين تبددت في البراري ، ولم يبق مع هسدروبعل وسيفكس الهاربين الا الفان من الجنود وخمسمائة من الخيالة .

لقد انهار سيفكس وتبدد جيش هسدروبعل المرتجل ، وامتلك قرطاضة الارتياع مجددا . لم يعد لها اي ملجأ تعود اليه . ولم يبق لها الا أسوارها تحتمي وراءها . فسيبيون كان قادرا الان ان يسير الى محاصرتها مهملا حصار عوتيق .

اهتزت الدولة في جميع مؤسساتها . دعا السافطان الى اجتماع مجلس الشيوخ ، فاستعرضت الحالة ونوقشت مطولا . عاد الانقسام الى ما كان عليه من قبل كأن شيئا لم يحدث : سلميون يريدون المفاوضة بالصلح واستدعاء هنيبعل ليصلح الحالة وينقذ الوطن . وحربيون يريدون المضي في القتال حتى النهاية ، فعلى قرطاضة ان تجند جيشا جديدا بسرعة ، وأن تحمل سيفكس على اعادة الكرة في نجدتها .

نجح الحربيون هذه المرة بفرض وجهة نظرهم ، ولكن كل شيء كان بطبيعة الوضع مرتجلا . سيفكس اقنعته زوجته الفينيقية بضرورة العمل لانقاذ وطن شعبها ، فأعد جيشا جديدا ، ووالدها أيضا جند جيشا جديدا من القرطاضيين والمرتزقة الاسبانيين والنوميديين . وبينما كان سيبيون يطوق عوتيق من جديد واهلها يدافعون دفاع الابطال ، علم ان جيشين جديدين يعسكران في « السهول الواسعة » جنوبي — غربي عوتيق .

لم يتوان سيبيون عن منازلة القوات الجديدة ، بل أخذ قسما من القوات المحاصرة واسرع نحو العدو ناويا البدء بالهجوم . وبعد مناوشات دامت ثلاثة أيام ، انقض على القوات القرطاضية فضرب الجناحين أولا ، وهما مؤلفان من الفتيان القرطاضيين الذين لم يعرفوا الحرب من قبل ، ثم تحول الى القلب فضرب الاسبانيين وهم جنود مجربون ، فقاوموا حتى فنوا جميعهم . وبهذه المقاومة الضارية فسحوا في المجال أمام سيفكس وهسدروبعل للانسحاب .

تمكن مسينيسا هذه المرة من الدخول الى اراضي امارته المفقودة ، فاستقبل الشعب أميره القومي بحفاوة واكرام ، وطرد الحاميات المحتلة من قبل سيفكس .

لم يقبل سيفكس بأن يعتبر نفسه مكسورا ، بل شق عليه ان يخسر الامارة التي اصبحت جزءا من ملكه . اما القرطاضيون فقد ارادوا ان يقوموا

بمحاولة ثالثة لعلهم يزيلون الخطر الجاثم على وطنهم وحياتهم ، فسيروا ما جمعوه بسرعة خاطفة من القوى نحو عوتيق وللمرة الثالثة والاخيرة لم تتمكن قواتهم من الصمود ، بل لاذت بالفرار من أول صدمة . وخلال الاشتباك سقط سيفكس عن حصانه ووقع أسيرا في يد الرومان ، بينما كان هسدروبعل ينسحب مع بعض الخيالة .

لقد أراد ليلوس ان يوصل سيفكس توا الى سيبيون ، أما مسينيسا فقد أدرك ان ساعة انتصاره قد دقت . اتجه توا الى سيرتا لاحتلالها ، آخذا معه سيفكس مكبلا بالسلاسل . حتى اذا رأى الشعب ملكه مكسورا فتح أبواب مدينته وسلمها للمنتصر .

في هذه الفترة الصعبة من حياة قرطاضة ، يتم فصل من المأساة القومية التي تمثلت على مسرح افريقيا القرطاضية وعلى القسم الواقع تحت نفوذ قرطاضة . يروي أكثر كبار المؤرخين القدماء ان صفو نسب ، ابنة هسدروبعل ، المرأة الفينيقية الرائعة الجمال والمتفوقة الذكاء والحنكة السياسية ، كان لها دور كبير في تلك الحرب . فقرطاضة التي كانت متخلفة في وعيها القومي ، وفي استعدادها للدفاع عن كيانها ومصيرها ، ظنت انها ستعوض عن ذلك التقصير المفضوح باستغلال مراكز بعض أفرادها . وقد كان أمامها هسدروبعل وابنته صفونسب ، زوجة سيفكس في افريقيا ، وهنيبعل وماغون في ايطاليا .

لقد انهار هسدروبعل وسيفكس في المعركة الثالثة والاخيرة ، وها هي صفونسب التي ضحت بحبها وجمالها في سبيل قومها . لقد قبلت ان تتزوج ، وهي المرأة الاولى في قرطاضة ، من أمير بربري تجاوز الستين من عمره ، لعلها تجعله ، بذلك الزواج ، حليفا دائما لدولتها وصديقا لشعبها . ولكن مسينيسا ، قبل سيفكس ، كان قد عرض محالفته المخلصة وصداقته الدائمة للدولة القرطاضية والشعب الفينيقي لقاء زواجه من صفونسب .

منذ تأسيس قرطاضة ، منذ وطئت قدما اليسار أرض افريقيا ورأى الامراء البرابرة في تلك الاصقاع جمالها ، كانت المأساة الاولى للمرأة الفينيقية في تلك البلاد . وكان طبيعيا ان تقع حوادث من هذا النوع في بلاد بدائية ، دخلت عليها الحضارة السورية بجميع عناصرها البشرية والمادية والمعنوية . فكما دخل انتاج الانسان السوري في الزراعة والصناعة وأساليب الحياة تلك المنطقة الجديدة من العالم ، كذلك دخل الانسان نفسه ليتفاعل ولو جزئيا مع البشر هناك . وكما كان طبيعيا أن يجذب جمال المرأة الافريقية الشاب الفينيقي المتجول في تلك الاصقاع العذراء ، كذلك كان طبيعيا أن يجذب جمال المرأة الفينيقية ــ السورية ، المشهور في العالم ، الامراء الافريقيين فيقدموا الولاء والخدمات ليحظوا بقبول الفتاة الفينيقية بالزواج من أحدهم . وكان طبيعيا أيضا أن يكون زواج حب مخلص متبادل ، وزواج سياسي تقتضيه

ظروف عسيرة تفرض فيها الدول ارادتها على أفراد منها ليضحوا بعواطفهم الشخصية في سبيل المصلحة القومية . غالبا ما كانت تقع هذه الحوادث في زواج الامراء والملوك والاميرات .

ان زواج صفونسب من الملك سيفكس ، وهو فوق الستين من عمره ، كان من النوع السياسي الصرف . ان قرطاضة كانت في وضع يرغم بعض أفرادها المستعدين للتضحية أن يضحوا .

ان تعاسة صفونسب في زواجها كانت مضاعفة : لم تضح فقط بحبها في سبيل شعبها ، بل اقتضت الظروف ان تضحي بحياتها .

لقد انهار سيفكس ومعه هسدروبعل . مسينيسا يدخل سيرتا ، عاصمة سيفكس الثانية بعد سيفا ، منتصرا ، ويظهر سيفكس لشعبه مكبلا بالحديد. يريد مسينيسا أن ينتقم من سيفكس انتقاما مضاعفا ، فهذا الاخير كان قد اغتصب امارته ، وانتزع المراة التي كان مسينيسا يحلم بالزواج منها . مسينيسا كان مغرما بصفونسب نفسها . وها هو الان يندفع نحو قصر سيفكس ليشاهد بنت أحلامه وهيامه ، ويرى ما اذا كانت هي نفسها تحبه كما كان يحبها . مسينيسا وصفونسب يتفاهمان . هو يعلن زواجه من زوجة عدوه ، وتتم حفلة الزواج قبل أن يصل أي روماني ، ويضع يده على المراة التي يتمنى الرومان أن يسوقوها أسيرة ، سبية الى رومة ، لتظهر بين عظماء الاسرى يوم يستقبل سيبيون المنتصر . لقد فشل مسينيسا العرف الروماني وجعل من الفينيقية الاسيرة زوجة شرعية له . ولكن الرومان كانوا صارمين قساة في تطبيق انظمتهم وأعرافهم . بعد ان مثل سيفكس أمام سيبيون وفهم منه ان صفونسب كانت سبب حنثه بالمعاهدة بينه وبين سيبيون خاف على علاقاته مع مسينيسا ، فقد تتمكن هذه المراة البالغة الذكاء والجمال والسطوة من أن تحمل مسينيسا على محالفة دولتها والانقلاب على الرومان.

لذلك ارسل يستدعي مسينيسا على جناح السرعة . علم البطل النوميدي ما يريده سيبيون من استدعائه ، وعلمت المراة الفينيقية أيضا ، فحاولت ان تمنعه من الذهاب فلم يقبل . لقد أصر ليليوس على سوق صفونسب الى معسكر سيبيون ليقرر هو مصيرها ، ولكن مسينيسا رفض رفضا باتا تنفيذ رغبته . قبل هو أن يرافقه ولكن زوجته تبقى في قصرها . لم يرض ذلك المراة الخائفة ، بل زاد في هواجسها وارتياعها من قساوة الرومان وحقدهم عليها وعلى شعبها ، ولما لم تقدر على اثناء زوجها عن الذهاب استحلفته أن لا يسلمها الى الرومان حية مهما اشتد عليه ضغط العدو المنتصر ، بل ان يتيح لها الانتحار على الاقل ، فودعها مسينيسا مطمئنا على أمل الالتقاء القريب واعطاها وعد شرف بعدم تسليمها الى الرومان . ولكنه احس ، في أعماقه ، انه يعد بما لا يستطيع ، وهو الضابط في جيش رومة ، ورئيسه الاعلى هو سيبيون .

وكان الرومان يعلمون ان الاميرة الفينيقية هي من الـد أعدائهم ، والمسؤولة الاولى عن حنث سيفكس بالعهد الذي قطعه لهم ، وعن تجنده للدفاع عن قرطاضة ، في تلك الحرب التي انقلبت وبالا عليه . لذلك ، توقع مسينيسا ان يطالبه سيبيون بتسليم صفونسب ، وان تكن قد أصبحت زوجته الشرعية .

وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلها ليليوس لجر صفونسب اسيرة الى المعسكر الروماني ، استطاع مسينيسا أن يصون كرامتها ، وأصر على أن تبقى في قصرها حتى يبت أمرها سيبيون نفسه .

في تلك الاثناء ، نقل سيفكس ، مكبلا بالحديد ، الى المعسكر الروماني. ولما رآه سيبيون ، وسأله عن سبب انقلابه على رومة ، بكى واستغفر ، متهما صفونسب بكل فرية . قال ان مفاتنها الساحرة سلبته عقله ، وضعضعت رشاده ، وسلحت يده ودفعته الى الحرب ضد رومة .

سمع سيبيون عويل سيفكس ، ولم يقل كلمة . ثم صرف اسيره ، وقد ساوره القلق على مسينيسا ، اذ تبادر الى ذهنه ان الاميرة الفينيقية الفاتنة لن تعجز عن السيطرة على حبيبها الاول . فهي كنز لا مثيل له من الجمال ، والذكاء، ورونق الشباب ، والرواء . وهو شاب مرهف الشعور ، ملتهب العاطفة ، شديد النزق ، قد يدفعه طبعه الناري الى اعمال جنونية مدمرة .

بهذا التفكير الواعي ، لا بالقوة العسكرية وحدها ، كان سيبيون يقود حملته على قرطاضة ، فقرر ان ينزع مسينيسا من سيطرة صفونسب وسحرها.

وفيما كان سيبيون يفكر في هذا الامر ، وصل الى سرادقه ليليوس ومسينيسا معا . كان الاول متجهما ، غاضبا ، والآخر لامع العينين ، عصبي الحركات ، كأنه يتحفز للوثوب .

ادرك سيبيون ان سحر صفونسب بدأ يقوم بعمله المدمر في جيش رومة ، فبادر الى اتخاذ التدابير الحاسمة . لم يتكلم ، لعلمه بأن الكلام عديم الجدوى في مثل هذه المواقف ، بل اخذ مسينيسا بيده ، وخلا به في خيمة مجاورة ، وخاطبه بهدوء قائلا : « على من كان مثلنا ، في عنفوان الشباب ، ان يخشى خطر اللذات والشهوات اكثر من الاعداء ...

بكى مسينيسا وصاح : « وعدت صفونسب وعد شرف بأن احميها ، وبألا اسلمها الى الرومان وهي حية ! »

ولما هدأت ثورة أعصابه ، استدعى احد عبيده واعطاه كأسا مملوءة سما ، وامره بأن يحملها الى صفونسب ، وبأن يقول لها : « ان مسينيسا مضطر ان يستسلم لسلطان فوق سلطانه ، لذلك أصبح لا يستطيع ان يبر الا بوعده الثاني وهو الا يسلمك للرومان وانت في قيد الحياة ! ... »

واستمعت صفونسب الى رسالة زوجها تتمتمها شفتا العبد ، فلم يطرف لها جفن ، ولم يبد عليها شيء من الخوف ، ثم قالت : « اني اتقبل هذه الهدية،

هدية العرس ، دون كدر ، اذا كان زوجي لا يستطيع حقا ان يقدم لي افضل منها ... ولكن قل له اني كنت تركت الحياة في متعة رحبة من طيبة الخاطر والسرور ، لو لم يكن يوم موتي هو نفسه يوم عرسي ! » .

ثم تناولت كأس السم مبتسمة ، وجرعتها دون تردد ، ودون ان يختلج في وجهها عصب ... (٦٧)

بكى مسينيسا كالطفل المروع ، وارسل الصيحات مجلجلة مدوية . ولما هدأت ثورة اعصابه وعواطفه ، اغدق عليه سيبيون الهدايا الثمينة ، واعطاه كأسا ذهبية مرصعة بالجواهر ، وصولجانا من العاج ، والبسه رداء مطرزا ، واجلسه على مقعد كأنه عرش ، ثم راح يطري بطولته ، ويثني على ولائه لرومة ، بحضور رهط من كبار الضباط ، وللمرة الاولى خلع عليه لقب ملك .

وكانت هذه المأساة ينبوع وحي والهام لعشرات من كبار الادباء وارباب الفن في مختلف انحاء العـــالم .

# سيبيون على ابواب قرطاضة

## هنيبعل ينتظر النجدات ...

لقد رافقنا سيبيون منذ ان اطل على دنيا الحرب الواسعة ، ورأيناه في اسبانيا يصفي الوجود القرطاضي هناك ، ثم يعود الى رومة وينتخب قنصلا ، ثم يذهب الى صقلية ويهيء حملته على افريقية ، ثم رأيناه في افريقية ورافقنا اعماله السياسية والعسكرية فيها ، مما وضع قرطاضة في أصعب حالة واخطر ما واجهته في تاريخها .

نترك الان سيبيون ونعود الى الوراء قليلا منتقلين الى ايطاليا حيث كان هنيبعل يتحرك وينتظر ويتململ ويرافق التطورات السياسية والعسكرية خارج ايطاليا .

نحن في سنة ٢٠٦ ق.م. منذ عشر سنوات يعيش هنيبعل على اعصابه . لقد ضرب « الصليبية » الرومانية في كاني فابادها بتلك المعجزة العسكرية التي ما تزال تدهش المؤرخين ، ولكن ابادتها لم تزعزع الوحدة الرومانية ــ الايطالية ، ولم تدفع رومة الى المفاوضة بالصلح، حتى ولا الى قبول رسول هنيبعل الى رومة ، وعندما رأى هنيبعل تلك المتانة العجيبة في اعصاب الرومانيين ، وذلك التماسك بين رومة واجزاء الوحدة الايطالية القومية والسياسية ، ادرك بوضوح ان مخططه في تفكيك اجزاء ايطاليا عن رومة لن ينجح ، وانه بجيشه وعتاده لن يقدر على محاصرة رومة واسقاطها . اذن فعليه ان يعود الى حكومته الاصلية ، الى قرطاضة ، حيث سبائك الذهب والفضة مكدسة بعشرات الالوف، وحيث الصناعة قادرة ، اذا شاءت الحكومة ، ان تتحول الى صناعة حربية ، وحيث ميزانية الدولة تسمح بتجنيد مئات الالوف من الجنود المرتزقة ، وحيث افراد من اغنياء قرطاضة هم قادرون ، اذا ادركوا حرج الساعة ، ان يجندوا جيوشا جرارة .

وبينما كان هنيبعل يستمر بسطوته وبشهرته وبقايا تأثير معركة كاني ، كانت قرطاضة تبعثر قواها في حملات فاشلة على صقلية وسردينية ، وفي

نجدات الى اسبانيا كانت نتائجها خسارة هذه القاعدة التي كانت في طريق التحول الى وطن جديد للفينيقيين وهي تفوق القاعدة الافريقية بتكوينها الجغرافي الملائم، وبالموارد الموزعة في ارجائها وبموقعها الاستراتيجي المشرف على المتوسط وبحر الظلمات في آن واحد ، واخيرا ، وهذا هو الاهم ، بأهليتها لتشمل المدى القومي في اسبانيا كلها .

وعندما امست اسبانيا بحاجة قصوى الى القوات الموجودة على ارضها ، عندما امست في خطر الانتقال الكلي الكامل الى سلطان رومة ، تركها هسدروبعل المسؤول الاول عنها ، وتوجه نحو ايطاليا ، بينما كان سيبيون يهيء للفينيقيين الضربة الاخيرة القاضية ، التي اخرجت القائدين القرطاضيين الاخيرين هسدروبعل بن جيسكون وماغون بن هميلقار وحيدين من الارض التي كانت نظفت منذ سنوات من القوات الرومانية . وبينما كان القائدان القرطاضيان يغادران اسبانيا الى الابد ، كان هسدروبعل برقة يجتاز جبال الالب نحو رومة ، يائسا من اسبانيا وقرطاضة ، معلقا كل آماله وآمال الفينيقيين المصيرية على نجدة شقيقه هنيبعل ، ليتمكن من سحق رومة فتنهار الدولة الرومانية القومية، وتتفكك الامبراطورية وينتهي كل شيء . فالخطأ الذي وقع فيه هنيبعل ، وما يزال يقاسي نتائجه العسيرة ، ها ان هسدروبعل يقع فيه هو نفسه ، فلا يرى المحور الدينامي الخلاق الذي تنطلق منه رومة في صراعها المصيري العنيد ، ولا يرى الجمود القرطاضي المتحجر الذي افقد هميلقار ثقته بدولة قرطاضة فراح يبني دولة جديدة في اسبانيا ، فنتج عن هذه السابقة تضعضع مركزية النظام القرطاضي . وبالنتيجة لم يكتمل بناء اسبانيا الجديدة لتصبح دولة الفينيقيين القومية وتنتزع الزعامة من قرطاضة ، وتسير بنهج جديد واساليب جديدة على مستوى النهج والاساليب الرومانية ، ولا قرطاضة تحركت وقامت برد فعل على اللامركزية في اسبانيا ، فجددت مؤسساتها وتحررت من نظامها المديني الذي تخطاه الزمن في غربي المتوسط منذ سيطر فيليب المقدوني سنة ٣٣٨ ق.م. على المدن اليونانية ، فأمست جميع الدول ــ المدينية اليونانية مقطورة وراء الدولة المقدونية القومية الجديدة بالرغم من بدائية الشعب المقدوني وتفوق الشعب اليوناني الحضاري .

كان سقوط كابوا سنة ٢١١ ق.م. ، ورجوعها الى ايدي الرومان ، بدء المرحلة الثانية من الاحتلال الفينيقي في ايطاليا . لقد كان الحدث نقطة الضعف الاولى البارزة في الحملة الهنيبعلية على ايطاليا ، ومنذ ذلك الحين اتجه هنيبعل نحو الجنوب ليتمركز هناك الى ان تصله النجدات من قرطاضة . فاذا كان قد شعر بحاجته الماسة الى تلك النجدات المرتقبة منذ سنة ٢١٥ ق.م. عندما كان محتلا كابوا ومهددا ايطاليا ، فقد شعر عندما اضطر ان يترك كابوا للرومان انه خسر معركة كبرى ، بدلت وجه الميدان الايطالي الذي اوجده هو ، وجعلته يعترف بينه وبين نفسه ان لا انتصار اخير على رومة بدون نجدات كبيرة في الرجال

والعتاد والمال تصل من قرطاضة . لقد كان العقاب الذي انزله الرومان بسكان المدينة ، التي تنكرت لرومة وناصرت عدوها ، رهيبا ومخيفا الى حد دفع جميع المدن التي كانت قد انفكت عن رومة قسرا او اختيارا ان تنفصل عن هنيبعل حتى تتجنب يوما العقاب الذي وقع على كابوا . اذ ان ما حدث لكابوا كان مرعبا يجمد الدم في العروق .

لقد حاول هنيبعل ان يرهب المدن المتحالفة معه ، ولكن خوفها من رومة كان ، على ما يبدو ، اقوى من خوفها منه . ان تهرب هنيبعل من فك الحصار الروماني عن كابوا وتركها تعاني مصيرها التاعس كان ضربة قوية على عصمة هنيبعل وامنعيته ، فتبددت الاساطير التي كانت حيكت حول شخصيته الخارقة ورآه المشدوهون المأخوذون بانتصاراته السابقة بشرا سويا ينتصر وينكسر كباقي القادة .

هذا هو الوضع الجديد الذي قلب ميزان المعنويات في الجبهة الايطالية ، وجسد ثقة رومة بنفسها وبوحدتها الايطالية القومية ، وكشف ثغرات عديدة في جميع ميادين الحرب الفينيقية الثانية . تبين بالاستنتاج ان هنيبعل لم يهاجم رومة بعد كاني لانه كان خائفا من الفشل ، ولم يأخذ « نولا » لان عتاد الحصار عنده كان ضعيفا وناقصا ، ولم يفك الحصار عن كابوا، وتركها تلاقي مصيرها التاعس، لانه تخوف من هدر قواته قبل وصول النجدات القرطاضية ، فيسبب له ذلك انهيار جبهته تحت الضغط الروماني المستفحل .

كان سقوط سرقسطه واقتصاص الرومان من المقاومين ، وقبضهم على صقلية بكف حديدية نهاية استقلال سرقسطه ووقوع صقلية بصورة نهائية تحت السيطرة الرومانية المطلقة . لقد امست صقلية ولاية رومانية . وكانت تصفية القوات القرطاضية في اسبانيا الكارثة الكبرى في تاريخ قرطاضة الحربي منذ وجودها .

بقي لهنيبعل امل وصول شقيقه هسدروبعل عابرا جبال الالب لنجدته ، وامل اخير بتحمس الحكومة القرطاضية لارسال نجدات سريعة ، تمكن هنيبعل وهسدروبعل من توجيه ضربة قاضية الى رومة للتعويض عن الخسائر التي منيت بها قرطاضة في جميع هذه الميادين .

بينما كان سيبيون يدمر الجيوش القرطاضية في اسبانيا ويرغم هسدروبعل على مغادرة مملكة والده هميلقار الكبير ، كان مرسلوس يهاجم سرقسطه ويدمر القلعة الاخيرة لليونانيين في غربي المتوسط ، قاضيا بصورة نهائية على استقلال سرقسطة والتدخل الفينيقي في الجزيرة . وكان فابيوس مكسيموس ، الذي انتخب قنصلا للمرة الخامسة مع مرسيلوس سنة ٢٠٩ ق.م. ، يجمد هنيبعل في جنوبي شبه الجزيرة الايطالية .

في تلك الاثناء فقط علم هنيبعل ان شقيقه هسدروبعل قد غادر اسبانيا قادما اليه عبر الالب . وقد أوفد هسدروبعل اليه رسولا ليوافيه الى ايطاليا

الوسطى ، الى منطقة اومبريا ، حيث يلتقيان ليضعا خطة الزحف على رومة ، ولكن الرسول وقع في ايدي الرومان فعلموا منه كل شيء ، وزحف جيشان قنصليان لملاقاة الغازي الثاني من ابناء هميلقار .

على ضفاف نهر « ميتورو » فرضت المعركة على هسدروبعل قبل ان يلتقي شقيقه ، فتغلب الجيشان الرومانيان عليه ، ولما رأى ابن هميلقار ان جيشه يتبدد وان الانكسار محتم عليه اقتحم صفوف الرومانيين ببطولة تليق بعظمة البرقاويين وسقط في المعركة وهو يعمل سيفه في رقاب اعداء امته . وقد تبعثر جيشه بعد موته وطارد الرومان فلوله فأجهزوا عليها . ثم حزوا عنق القائد الفينيقي الكبير وارسلوه مع رسول خاص تسلل الى مركز القيادة في معسكر القرطاضيين ورمى رأس البطل القرطاضي في خيمة هنيبعل . وما وقع نظر هنيبعل على الرأس حتى عرفه وصاح بألم مرير ، « الان قضي على قرطاضة » .

كان ذلك في سنة ٢٠٦ ق.م. منذ اثنتي عشرة سنة ترتجف ارض ايطاليا تحت قدميه ، واذا تكلم الناس في موضوعه همسوا في آذان بعضهم همسا . وكانت السنون والايام تفني قواته ومعنوياته . فالجنود المحترفون ، اولئك القدماء المجربون ، كانوا قد اصبحوا نادرين . فكم منهم قضوا في ساحات القتال ، وكم منهم ماتوا من جراحهم وامراضهم . والاحياء منهم قد انطفأت حميتهم . فالذين اتوا مع هنيبعل في سنة ٢١٨ ابناء ثلاثين سنة يقتربون من الخمسين . ولا يفكرون اليوم الا بالراحة . فالعنصر الفني المقاتل يتشكل اليوم من العبيد الهاربين من اسيادهم ، والجنود الفارين من جيوشهم ومن الاشقياء وقطاع الطرق المحليين .

كان هنيبعل يعاني هذا المصير بصبر واحتمال . فالقائد العظيم الذي ارجف رومة وجميع الشعوب الايطالية قد تحول الى قائد محتاج الى مجموعة من النهابين والاشقياء تعيش مما تنهب في يومها . وفوق ذلك فان الانباء المؤلمة قد توالت عليه في تلك الفترة تحاول سحق معنوياته المتوترة . علم بانهيار المقاومة القرطاضية في اسبانيا ، وبأن سيبيون قد نزل في افريقيا وحقق انتصارات كبيرة على أرضها . صديقه ملك مقدونية وقع معاهدة صلح مع رومة . لم يعد اذن ينتظر اقل نجدة من اية جهة . قد تكون قرطاضة عاجزة عن صد سيبيون عن اسوارها ، فكيف تقدر ان تنجده بعد اليوم ؟ انها تلكأت يوم كانت بعيدة عن كل خطر ، قادرة ان تسير اساطيلها وحملاتها الى كل جهة ، فكم تكون اليوم بعيدة عن ان تقوم برد فعل مبتكر خلاق !

قبل هميلقار وهنيبعل ، وخارج هاتين الشخصيتين ومن دار في فلكهما ، لم تحدث في قرطاضة مبادرات خلاقة لمواجهة اخطار كلية كبرى ، او للانتقال المبدع من عهد قديم شاخ وتجمد الى عهد جديد في جميع اشكاله وصوره ، وجميع مفاهيمه ومعانيه واهدافه .

بعد وثبة اليسار ، بانية قرطاضة ، ومطلقة زخمها العزوم واندفاعها

الرائد الخلاق ، محققة تلك المرحلة الجديدة من حياة الفينيقيين الحضارية ، سارت قرطاضة نحو ستة قرون ( ٨١٤ــ٢٤١ ق.م. ) مصارعة بناءة ، تنقل مقومات الحضارة الكنعانية السورية الى غربي المتوسط . وقد اتبعت « المدينة الجديدة » قواعد صيدا وصور ومفاهيمها السياسية . ولم يكن التطور العسكري الذي حدث خلال ستمائة سنة من حياة قرطاضة الا من ضمن تلك القواعد والمفاهيم . وبعد مضي مرحلة التأسيس والتوسع التي قد تكون استمرت نحو مائة سنة ، عبرت قرطاضة قرونها التاريخية على وتيرة واحدة ، يتطور احترامها لمؤسساتها وتقاليدها وعاداتها الى نــوع من التقديس حتى امست حياتها السياسية والاجتماعية نوعا من الصنمية التي تقدس الاشكال والطقوس وتتعامى عن الجوهر القادر ان يتطور ويخلق .

ولم تبتدع قرطاضة خلال قرونها الستة الاولى الا مؤسسة الـ ١٠٤ ، التي انحصرت صلاحياتها في محاكمة القادة العسكريين والحكام وكبار الموظفين . ولكنه لم يطل الوقت حتى تجمدت هذه المؤسسة كجميع مؤسسات الدولة : رئاسة الجمهورية ، مجلس الشيوخ ، وجمعية الشعب ، واصبح اعضاؤها ثابتين مدى الحياة ، لا صلاحية لاية مؤسسة بعزلهم او محاكمتهم ، واصبحوا ينتخبون من طبقة واحدة مغلقة هي طبقة الارستقراطيين وكبار عائلات الماليين والملاكين واصحاب المشاريع الاستثمارية الكبرى عبر البحار . ولم يجرؤ احد على تعديل نظام هذه المؤسسة واخضاعها لقانون انتخابي الا هنيبعل عندما تسلم رئاسة الجمهورية بعد زاما .

قبل الحرب الفينيقية الاولى : « لم يواجه القرطاضيون مخاطر قصوى . وبالكد والجهد كانوا يعرفون كيف يتصرفون امام المفاجآت الخطيرة . واقل من ذلك كانوا يعلمون كيف يرتدون على الازمات البالغة مخاطرها الى درجة تفرض اما تحقيق المعجزات واما الموت » (٦٨) .

بعد الامبرة اليسار ، كان هميلقار الفينيقي الاول الذي صمم على الخروج من مرحلة الجمود والتحجر . ولدت افكاره الجديدة على اعالي جبل اريكس في اقصى غربي صقلية ، وتحققت في اسبانيا بين سنة ٢٣٦ و٢٢٨ ق.م. ولكن هميلقار لم يتحرر كليا من الورع امام تلك المؤسسات المتحجرة ، فلا هو ثار عليها بعد انتصاره في حرب المرتزقة ، وكان قادرا على ذلك ، ولا هو جاء بحملة من اسبانيا لتدمير ذلك الحكم الجامد المغلق في قرطاضة واقامة نظام جديد قادر ان يحمي تلك الامبراطورية العالمية الحضارية ، المسؤولة وحدها عي حماية الحضارة في العالم .

ونحن نرى الان ان هنيبعل بأهماله ما كان يجب ان يحققه والده في قرطاضة من اصلاح جذري ، لاقامة نظام جديد خلاق يتخطى بحضاريته العريقة، المكتنزة بتراث ثلاثة آلاف سنة ، النظام القائم في رومة ، فانه قد تحول في حملته الجبارة على رومة ، الى « انسان متوسطي جديد » تهمه السيطرة على

ايطاليا واليونان لانشاء امبراطورية متوسطية بقدر ما تهمه شؤون الفينيقيين . ولم يكن يرى في اسبانيا وقرطاضة الا امكانية متوسطية قادرة ان تساعده لتحقيق مشروعه الكبير . ولكن الذي فات هنيبعل هو ان تلك الامبراطورية المتوسطية لا يمكن ان تنشأ وترتكز الا على نواة دينامية قومية ، هي النواة القرطاضية ـــ السورية .

وها هو الان يدرك هذه الحقيقة السياسية ولكن قد يكون بعد فوات الاوان.

لماذا كان هنيبعل مصرا على التمسك بهذه الارض الايطاليـــة القاسية والعدوة ، حيث وضعه يزداد صعوبة من يوم الى يوم ؟ لقد روجت افتراضات عدة حول هذا الموضوع . فقيل ، مثلا ، انه لم يشأ العودة الى قرطاضة لانه كان يخشى ان يكون مضطرا لتأدية حساب عن مشروعه الفاشل ، وان يعاقب بما شرع للقواد المنهزمين ، وبما انه كان يعلم ان وطنه سيكون بحاجة اليه للدفاع عنه ، فهو كان يفضل الانتظار حتى يستدعيه مجلس الشورى عوضا عن ان يعود هو من تلقاء نفسه . وهكذا يمكنه ان يتأكد ، على الاقل ، من تجنب خطر محاكمته والحكم عليه . يبدو ان تصور هنيبعل لا يجرؤ على المثول امام مواطنيه، ويخاف من اتهامات مجلس الشورى ، هو تقليل بالغ اقصى الحدود لصفتي الشجاعة والعزم اللتين يتحلى بهما .

يقول جيرار فالتر : « لا شيء مما نعرفه عن هنيبعل يسمح لنا بأن نرى فيه شخصا جبانا . بل ان ذلك هو بالعكس ، فهو عندما يعود الى وطنه يمكنه ان يقف كمتهم ، جاعلا مجلس الشورى ، بحق ، مسؤولا عن فشله ، اذ يعلن للملأ سوء النية والبخل المعيب اللذين ما فتىء المجلس يمارسهما نحوه . فالشعب القرطاضي ، الذي كان يرى في هنيبعل اعظم ابطاله القوميين ، كان معه ، وكان يمكن ان يقف الى جانبه ويلبي نداءه ، وكيفما قلبنا هذه المعضلة نجد ، في جميع الاحتمالات ، ان مجلس الشورى هو الذي يجب ، بالاحرى ، ان يخشى رجوع هنيبعل » (٦٩) .

ويكمل فالتر تحليله لمعضلة مغادرة هنيبعل ايطاليا بقوله :

« وهناك تفسير آخر قد يكون اقرب الى الحقيقة وهو ان هنيبعل غادر قرطاضة في التاسعة من العمر . قضى حداثته وفتوته في اسبانيا . ثم قضى ست عشرة سنة في ايطاليا . حتى اصبحت بلاده وكأنها غريبة عليه . لم تعد تجذبه نحوها ، اذ انه كان ، بالعكس ، حاقدا عليها ، لانها لم تقدم له الوسائل ليجعل من الانتصار الـــذي كان قابضا عليه بكلتا يديه انتصارا قوميا نهائيا كاملا » (٧٠) .

ويؤكد المؤرخ تيتليف : « ان هنيبعل قد صرف باسنانه واهتز غضبا ، عندما استقبل النواب القرطاضيين الذين جاؤوا يستدعونه للرجوع الى افريقيا وقال : لا يستدعونني باللف والدوران كما كانوا يفعلون بالامس لينتزعونني من

ايطاليا ، بل يطلبون رجوعي بصراحة . ليس الشعب الروماني اذن هو الذي كسر هنيبعل بل مجلس الشيوخ في قرطاضة ، وقد فعل ذلك بحسد دنيء وخبيث » .

قال تيتليف يصف مغادرة هنيبعل لارض ايطاليا :

« يندر ان يكون رجل عظيم قد تألم الما عميقا عند مغادرة وطنه الى المنفى كما تألم هنيبعل عند مغادرته ارضا عدوة . فبينما كانت السفينة تتجه به نحو بلاده لم يتمكن من انتزاع نظراته عن الشواطىء الايطالية التي تغيب عنه الى الابد ، وقد انهال باللعنات المريرة ، فاتهم الالهة والبشر ، بل استنزل اللعنة على نفسه لانه لم يمش على رومة عندما كان جنوده ما يزالون مخضبين بدماء العدو بعد معركة كاني » (٧١) .

وهكذا بعد ستة عشر عاما من الاحتلال المنتصر ، الذي ادهش العالم وارعب رومة ، غادر هنيبعل ايطاليا الى افريقية ليدافع عن قرطاضة المهددة . هنيبعل لم يحرج وضع رومة مباشرة الا اياما قليلة بعد معركة كاني ، عندما ظن الرومان انه متجه حتما الى تطويق عاصمتهم بعد انتصاره الساحق على « صليبيتهم » ، اما سيبيون فقد وضع قرطاضة تحت خطر الزوال المحدق بها ، فكسر جيشها وجيش حليفها سيفكس ، مما حمل شيوخها على الامتثال والسجود امامه متضرعين ، طالبين رحمته ، محملين هنيبعل والبرقاويين كل مسؤولية الحرب القائمة .

صحيح ان هنيبعل مسؤول عن اشعال تلك الحرب الفاصلة قبل ان يثبت سلطان قرطاضة بصورة نهائية في اسبانيا ، وقبل ان يحدث الاصلاح الثوري اللازم في النظام القرطاضي الذي بلغ به الخوف الى الانهزامية الدائمة امام رومة المهاجمة ، ولكن هنيبعل اعطى دولته ستة عشر عاما لتفكر وتدرس وتدرك مرامي هذه الحرب ، فلم تستفد من الزمن ، ولا من الانتصار ، ولا من الانكسار ، بل بقيت بليدة جامدة ، حتى وصل الخطر الى اسوارها ، وصوبت حربة الروماني الى قلبها ، فراحت تستفيث ببطلها القومي اربعين سنة بعد ان تخطاها الزمان ( ٢٤١—٢٠٢ ق.م. ) .

نزل هنيبعل في « ليبتيس الصغيرة » ثم اتجه الى « حضروميت » حيث تمركز ليقضي اشهر الشتاء . لم يشأ ان يصل الى قرطاضة مع انها كانت تنتظر وصوله لتنتهي من مرحلة القلق والارتياع . الشعب كان ينتظره بحماسة ، ومؤسسات الدولة برهبة ومضض . تريده منقذا ولا تريده حاكما مسيطرا ، فهي ترهب محاسبته القاسية لتلكؤها وتهربها من تلبية نداءاته المتعددة ، عندما كانت رومة وايطاليا ترتجفان تحت وطأة جيشه ، وتتلقيان ضرباته القوية . اما هو فكان يتمنى انقاذها دون ان يرى تلك الوجوه التي لا توحي الا بالانانية المتكالبة

على منافعها ، والانهزامية التي تقبل الهوان شـــرط ان تحافظ على ثرواتها الضخمة .

ولكنه لم يكن واثقا من بقايا الجيش المهدم الذي يرافقه من ايطاليا . فهو يريد ان ينشىء جيشا جديدا قبل ان يفكر بمواجهة العدو المنتصر الرابض على ارض بلاده .

حتى في هذه الايام التي تضمر اخطر الاحداث التي وقعت على ارض افريقيا منذ بناء قرطاضة ، في هذه الساعات التي يترجرج فيها مصير حضارة بكاملها ، وتسعة قرون مـــن المجهود الكنعاني في غـــربي المتوسط الاوروبي والافريقي ، لم يفكر هنيبعل بتدمير تلك الاجهزة العاجزة ، المتصة عظمة الشعب الكنعاني بعقمها وخمولها وفرديتها ، ليفجر من الشعب قوة جديدة مصارعة ، قادرة ان تقوم بمعجزات صناعية وحربية لصد الغازي الروماني ، وقذفه في البحر الذي كان بحيرة كنعانية خلال نحو الف سنة ( ١٢٠٠ــ٢٤١ ق.م. ) ، بل بقي يعتقد ان عبقريته تستطيع وحدها ان تعوض عن الدولة الفاشلة .

ان فكرة الثورة المباشرة المقوضة كل قديم رث ، والبانية كل جديد خلاق ، كانت بعيدة عن تفكير الفينيقي مهما كان عظيما ، واثقا بنفسه . هميلقار بنى اسبانيا لتكون قاعدته ، وهنيبعل اخطأ باهمال تلك القاعدة ، وبمحاولته ايجاد قاعدة جديدة هي ايطاليا . فيتمكن من هناك من ان ينشيء امبراطوريته المتوسطية بعد القضاء على رومة . لقد كان طموحه اقوى من امكاناته العسكرية ، وكان خياله اوسع من امبراطوريته القادرة ، لو عرف كيف يحافظ عليها ويجددها ويحركها ، ان تسيطر على العالم القديم كله .

لم يتوجه هنيبعل توا الى قرطاضة فيسقط حكومتها ويقيم حكومة جديدة من الشعب المتعطش الى العزة والمجد ، بل بدأ نشاطه في بلاده بالاتصال بانسباء سيفكس المنكسر ، محاولا اعادة الثقة الى نفوسهم . احدهم جاءه متحمسا مع الفي فارس ، كذلك « فرمينا » ابن سيفكس ، الذي انتزع منه مسينيسا مملكته ، اسرع الى هنيبعل مع بعض القوى المستعدة للقتال . اما هسدروبعل بن جيسكون القائد القرطاضي الذي هزمه سيبيون في اسبانيا وفي افريقيا ، والذي حكم عليه مجلس الشيوخ القرطاضي بالنفي ، فقد جند جيشا على نفقته الخاصة وجاء يضع نفسه تحت قيادة هنيبعل ، وذلك فقط لينتقم من الحكومة القرطاضية التي اعتبرها جائرة عليه . كذلك قرطاضة ارسلت اليه ثمانين فيلا مروضا وبعض فرق الميليشيا القرطاضية المدربة على عجلة لتقف في وجه سيبيون اذا ما هاجم اسوار قرطاضة .

بعد ان درس هنيبعل قيمة هذه القوات المتجمعة لديه لم يكن واثقا بأنها جديرة بأن تنتصر على قوات سيبيون ، لذلك استمر هو في تدريب فرق جديدة . ولكن قرطاضة كانت تعيش في القلق والهلع ، والمواطنون الهاربون من جور الجيش الروماني كانوا يصلون بعشرات الالوف كل يوم ، لاجئين ضمن اسوارها .

وهي كانت تتوقع ازمة قريبة في تغذية سكانها وعشرات آلاف المواطنين اللاجئين اليها اذا لم يصد جيشها قوات سيبيون ويعيد الثقة الى النفوس . لذلك ارسلت وفدا يستحث هنيبعل ليسرع بمجابهته الغازي الروماني .

لقد امتعض هنيبعل من الحاح الحكومة عليه لمباشرة القتال ، وصد حكام قرطاضة عن التدخل في شؤونه ، ولكنه وجد في النهاية ان لا بد من الاسراع بالاصطدام بالجيش الروماني لكي يضع حدا لعمليات النهب والحرق والتخريب التي كان يقوم بها ذلك الجيش . لذلك اتجه مع جيشه نحو الداخل فتمركز في زاما على مقربة من الجيش الروماني .

# معركة زاما

رأينا ان هنيبعل ما انفك ، منذ نزوله الى الارض الافريقية ، يتأهب لمواجهة عدوه الروماني ، الا انه لم يكن راضيا عن القوات التي بين يديه . فهي وان تكن شبه كافية بعددها فانها لا تنسجم وتتفاعل كوحدة عسكرية تشدها روح واحدة . قوامها الحرس القومي القديم الذي اشترك في جميع المعارك الكبرى ، وبعده كان يأتي المشاة الاسبانيون ، وهم الذين قضوا حياتهم محترفين القتال . دربهم هنيبعل بنفسه ورافقوه كالحرس القومي الى وطنه ليواجهوا العدو على أرض وطن قائدهم كما واجهوه على أرض عدوه . ولكن الفرقتين بالرغم من ان مناعتهما اصبحت اسطورية ، فقد انهكتهما سنو العراك الطويلة ، وتعب رجالهما من الانتصار كما تعبوا من الحرب . ولكن عظمة قائدهم ، ومصير وطنه ، وشهرته العسكرية كانت كلها مرمية في ميدان زاما . لذلك استجمعوا كل ما بقي في كيانهم من اخلاص وتقديس للقائد ، ومن عنفوان واعتداد ، ومن ولاء للقضية الكبرى ، وقرروا في وجدانهم ورجولتهم ان يتفانوا في هذه المعركة الفاصلة .

كان هنيبعل راضيا فقط عن عدد الفيلة التي قدمتها قرطاضة ، فقد كانت ثمانين . ولكنه كان مفتقرا الى الخيالة ليتساوى مع سيبيون .

سيبيون كان يتفوق تفوقا كبيرا بالخيالة عدا عن تفوقه الكبير بوجود مسينيسا الى جانبه مع عشرة الاف خيال ومقاتل ، ومسينيسا وحده يساوي جيشا ، فهو اعظم فارس عرفته افريقيا في تاريخها ، وهو في افريقيا ، على المدى الطويل ، كان يوازي القوة الرومانية ، وكان له الوزن الاثقل في التأثير على مصير قرطاضة . أما ابن سيفكس ، الذي كان يصارع في سبيل استعادة ملك أبيه او اجزاء منه ، فقد تلكأ عن تلبية هنيبعل بالرغم من وعده بذلك .

في النتيجة كان الجيشان متساويين عددا ، ولكن هنيبعل لم يكن مرتاحا لذلك ، اذ كان مقبلا على معركة فاصلة لا يثق بنتائجها ولا يرغب في خوضها .

في الساعات الاخيرة من اعداداته خطرت له فكرة من افكاره العبقرية ، كتلك التي خطرت له يوم سار فجأة على رومة ليفك الحصار عن كابوا . خطر له ان تكون له مواجهة مع سيبيون . فهو يريد ان يرى خصمه ، ان يقيمه عسكريا وانسانيا وفكريا . ذلك كان هدفه الرئيسي . وقد يتمكن من اقناع خصمه بحسم الخلاف تراضيا .

أوفد هنيبعل رسولا الى سيبيون يطلب الاجتماع اليه ، فرضي القائد الروماني ، وعين مكان الاجتماع في منتصف المسافة الفاصلة بين المعسكرين .

في الوقت المعين تقدم كل قائد من الاخر ممتطيا جـواده ومصطحبا ترجمانه فقط . ولما أصبح كل منهما على مسافة خطوات من الاخر صوب كل من الاثنين نظره الى خصمه ، يريد أن يسبر أغوار نفسه ، وضميره ، ونياته . وبعد هنيهة من الصمت ، تكلم هنيبعل ، لانه هو الذي طلب المقابلة، فقال انه شديد الاسف لان دولتين كبيرتين ، لكل منهما حدودها الطبيعية ، تحاولان بسط سلطانهما على ما وراء هذه الحدود . واستطرد ان هاتيـن الدولتين اقتتلتا أولا على صقلية ، ثم على اسبانيا ، واخيرا اتسع النزاع بينهما اتساعا مخيفا ، حتى ان رومة وجدت نفسها يوما في خطر كبير ، ثم وجدت قرطاضة نفسها في الخطر نفسه . وعلق على هذه الحوادث وكأنه يخاطب نفسه فقال : « اليست هناك وسيلة لحل هذه الازمة ؟ » واجاب بانه مستعد للتفاوض في سبيل الصلح .

أشار بيكر الى ان هنيبعل كان لطيفا ، لينا ، سلسا ، في حديثه ، الا ان عباراته الانيقة ، المختارة الالفاظ ، المنسجمة الاجزاء ، كانت اشبه بقفاز مخملي فيه قبضة حديدية . أما سيبيون ، فبدا جافا ، نزقا ، عصبي المزاج . فهو ، أمام العملاق الكنعاني ، كاد يفقد ما اتصف به من رحابة الصدر ، ورباطة الجأش ، والسيطرة على نزوات النفس ، خصوصا لما وجه اليه هنيبعل كلامه مباشرة فقال : « انك جديد في لعبة القدر . وانك ، حتى الان، ما أصبت الا نجاحا ، وما سرت الا صعدا ، وقد يتبادر الى ذهنك انك لن تسقط ابدا . لذلك انصحك بأن تتخلى عن هذا الظن الخداع ... اني اعطيك نفسي مثلا . فبعد معركة كاني غدت ايطاليا كلها خاضعة لي ، وقد بلغت أبواب رومة التي انخلع قلبها هلعا . وها انا اليوم اقاتل دفاعا عن وطني . اني ادعوك الى التفكير مليا ، كيلا تبالغ في ثقتك بنفسك . فكن حذرا ، واعلم انك ، اذا أحرزت انتصارا جديدا ، فلن يضيف الى مجدك شيئا . أما اذا منيت بالهزيمة ، فانك ستخسر كل شيء دفعة واحدة » .

لزم سيبيون الصمت . فانتقل هنيبعل الى تقديم المقترحات . اعرب عن استعداده للتخلي نهائيا عن صقلية ، وسردينيا ، واسبانيا ، وكل جزر البحر الابيض المتوسط ، ولحمل قرطاضة على التعهد بذلك .

ولم يذكر الساحر شيئا عـن التعويضات الحربية ، ولا عن مصير الاسطول القرطاضي . وختم حديثه قائلا ان هذه المقترحات تضمن سلامة قرطاضة ، وتعطي رومة نتيجة مشرفة .

عندئذ تكلم سيبيون ، فقال ان الرومان غير مسؤولين عن حرب صقلية واسبانيا ، وان القرطاضيين كانوا دائما معتدين . واستطرد انه يعرف اكثر من سواه تقلب القدر ، وغدر الزمان ، ولكن المقترحات التي يقدمها هنيبعل ، كان من الممكن أن ترضى بها رومة قبل خروج الجيش القرطاضي من ايطاليا، أما اليوم ، فلا ! ... وقال : « ان رومة قد تمركزت الان في افريقيا ، وأرغمت هنيبعل على الجلاء عن أرضها ، وليس في وسعها الا أن ترفض مقترحات

هنيبعل ».

على هذا الرفض انفصل الرجلان . عاد كل منهما الى معسكره .

هذا ملخص ما جاء في التقرير الذي رفعه سيبيون الى رومة عن تلك المقابلة . ولا ريب في ان هذا التقرير اغفل اتفاقا سريا بين القائدين يقضي بأن يحترم كل منهما الاخر ، مهما تكن نتيجة القتال . وهذا ما أثبتتـــه الحوادث التالية ، اذ حرص كل منهما على صيانة حرية الاخر ، وتعزيز كرامته .

المقابلة بين القائدين الكبيرين قررت السرعة في المعركة الاخيرة الفاصلة : في صباح اليوم التالي كان كل من الجيشين في موقعه ، مستعدا للقتال . بدأت المعركة كأنها متفق عليها من الجانبين . لا مناوشات ولا مقدمات . استعداد صامت لمعركة كلية نهائية ، لا تعرف الرحمة ، بل ستكون خاتمة حرب تستمر منذ ستة عشر عاما بل منذ سنة ٢٦٤ ق.م.

وضع هنيبعل الفيلة أمام خطوطه الاولى . وهي مؤلفة من الجلالقة والليغوريين الذين دربهم وقادهم ماغون ، شبل هميلقار قبل وفاته .

والخطوط الثانية كانت مؤلفة من الافريقيين والقرطاضيين المدربين على عجلة بعد وصول هنيبعل . وعلى مسافة وراءهم ركز المشاة الاسبانيين ، أولئك الذين تربوا وعاشوا تحت السلاح ، دربهم وحارب بهم هنيبعل نفسه في حملته الايطالية ، اولئك هم « الحرس القديم » ، الحرس الامبراطوري » ، ذلك الذي قدر لعظمته العسكرية ان تتجلى بطولتها بالانكسار في « زاما » ، كما تجلت ، بعد الفي سنة ، بالانكسار في واترلو .

أما الخيالة ، فقد شغل الفينيقيون منهم الميمنة ، والنوبيون الميسرة .

لم تكن عند سيبيون أية اعتبارات خاصة في تلك المعركة ، لذلك أعد جيشه حسب التقليد الروماني المتبع في المعارك : وضع الفتيان في الخط الامامي ، والرجال الشبان في الخط الثاني والاكبر منهم سنا وراءهم . أما الخيالة فقد شغل ليليوس بهم الميمنة ومسينيسا الميسرة .

ثم اعطى سيبيون حصانه وجال على جيشه مشددا على النقاط التالية: « ليس في افريقيا كلها أي ملجأ لكم في حال انكسارنا . قد يحاول الجبناء الفرار ، ولكنهم لن يحظو الا بحياة العار والبؤس عند العدو . أما الذين يموتون مصارعين فانهم يعانقون المجد اذ يهلكون في سبيل وطنهم ويرقدون في أمجاد جميلة . ولن يغلب من قرر أن يضحي بحياته » .

وكان لا بد من أن يقوم هنيبعل بالعمل نفسه ، حسب التقليد الذي اتبعه في جميع معاركه . ولكنه قام به هذه المرة بدون حماسة ورغبة . فقد جمع في خيمته ضباط المرتزقة والفينيقيين . أشار على أولئك بأن يشددوا على أهمية وجوده بينهم مع جنوده القدماء وان يعدوهم بدفع مرتباتهم حالا بعد المعركة مع الغنائم المضافة اليها . اما الضباط الفينيقيون فقد أمرهم بأن يصوروا لجنودهم البلايا التي تنتظرهم مع نسائهم وأولادهم في حالـــة

الهزيمة .

ثم اتجه الى المكان الذي تمركز فيه رفقاؤه القدماء ، أولئك الذين أصبحوا أجزاء من وجوده ، واصبح هو يملأ شجاعتهم وصبرهم وأملهم في الحياة ، أولئك الذين قاسموه مغامرات وبطولات ستة عشر عاما زحمت التاريخ بأمجادها ، وكانت عبرة ابدية للاجيال في الولاء للعبقرية الخلاقة المصارعة . وقد كلمهم برفق ومحبة عميقة . هؤلاء الذين شاخوا تحت سلاحه لم يعدهم بدفع مرتباتهم ولا بالمغانم والاسلاب ، لانهم في تقديره اسمى من ذلك وأرفع ، بل أيقظ في نفوسهم وخيالهم ذكريات الامجاد التي سجلوها بسيوفهم : « فالرومان الذين يواجهونهم اليوم ليسوا أفضل من الذين رأوهم في كاني وترازيمان . فليسوا الا أعقابا وفلولا لاولئك الذين هزموا وشردوا مرارا قبل اليوم » . وقد تغافل عن القول بأن عديدين هم بينهم أولئك الذين انتصروا على الجيوش القرطاضية في اسبانيا ، وبأن هذه « البقايا » تحقق الانتصار تلو الانتصار في افريقيا منذ ثلاث سنوات .

كان سيبيون واثقا بجميع أعماله العسكرية المجيدة الماضية ، واكيد الثقة بالغد . فالقوة التي سحبت هنيبعل من ايطاليا بعد انتصاراته المدوية لن تعجز عن ضربه الضربة الاخيرة .

أما هنيبعل ، الذي لم يواجه بعد حكام قرطاضة ، ولا شعبها ، فلم يكن مرتاحا ارتياح سيبيون ، انما كانت ثقته بنفسه وبحرسه القديم كبيرة جدا . ولم يكن يستبعد أن تكون زاما تكملة لكاني . وقد اتبع خطة توصله الى هذه الغاية .

بدأ هنيبعل المعركة . حرك الفيلة في الخط الامامي . فكان هجومها مخيفا ، بعثر خفاف المشاة الرومان . ولكن ضوضاء مرعبة انطلقت من الجبهة الرومانية ، تحدثها مختلف الابواق والطبول والادوات المزعجة الاصوات ، أجفلت الفيلة الحديثة التدريب فدارت على نفسها واندفع قسم منها في الممرات الفارغة التي كانت تفسحها لها الفرق الرومانية لتوصلها الى ما وراء الجبهة الرومانية عديمة الاذى ، أما القسم الاخر فقد ارتد ، تعميه الضوضاء، الى اليمين والشمال مبددا الخيالة الفينيقيين من جهة ، والنوميديين من جهة أخرى .

وفي هذه اللحظة المخيفة انطلق ليليوس ومسينيسا يطاردان جناحي خيالة هنيبعل المبعثرين مطاردة تصفية وابادة ، فغاب الخيالة جميعهم عن الجبهتين فترة من الزمن لم تكن قصيرة .

أمر سيبيون بتقدم خط المشاة الامامي فالتحم بخط المرتزقة القرطاضي، فتغلب المرتزقة في الجولة الاولى وكبدوا الرومان خسائر كبيرة ، ولكن النجدات الرومانية التي كانت تتقدم من الوراء تغلبت في النهاية على المرتزقة فتراجعوا على أعقابهم ، لان الفرق القرطاضية الفتية التي كانت وراءهم لم

تنجدهم كما أنجد الرومان ، بل منعتهم عن التراجع وتقدمت في آن واحد تصد الخط الروماني الامامي المقاتل على أرض لزجة يغطيها القتلى . أمر سيبيون خطه الثاني بالتقدم فانقض على الفينيقيين والمرتزقة وهزمهم بسرعة خاطفة ، فتراجعوا .

ولكن « الحرس القديم » ، أبطال ترازيمان وكاني أبوا أن يستقبلوا الهاربين الا برماح مسددة الى صدورهم فاضطروا ان يقاتلوا حتى الفناء . اذ ذاك وصل خط القتال الى رفقاء هنيبعل القدماء ، والتحم الرومان بهم بعد أن كانت صفوفهم قد تصدعت .

حتى تلك المرحلة من تطور المعركة كانت خطة هنيبعل تتنفذ بدقة عجيبة: انهاك سيبيون في جميع صفوفه ثم انقضاض « الحرس القديم » للاجهاز عليه .

لم يكن سيبيون يحسد على وضعه عندما أطل على المعركة جيش كاني . فقواته المتصدعة كانت أقل عددا ، وكان عليه ان يواجه قوات لـم تمسها المعركة بعد ، وهي التي أصبحت مناعتها أسطورية . ولو قدر الخيالة الفينيقيون والنوميديون المطاردون ان يشغلوا ليليوس ومسينيسا فترة أخرى من الوقت ، لما كان وجد هؤلاء أي أثر للجيش الروماني بعد رجوعهم .

ولكن مقاتلي الخط الثاني والاخير الرومانيين الملتحمين « بجيش كاني » لم يكونوا من النوع العادي ، بل من أولئك المتطوعين اليامين الذين قاتلوا وانتصروا في اسبانيا ، ومن بقايا المحاربين القدماء الذين قاتلوا في ترازيمان وكاني وتطوعوا مع سيبيون لينتقموا .

كـل مـن الفئتين المتمرستين بالبطولة ، والواعيتين اهمية نتائج تلك المعركة الفاصلة وضع رجولته وشرفه ومصيره في ذلك الصراع الرهيب .

عمل سيبيون لينحرف بخطه الثاني والثالث الى الجناحين على أمل أن يطوق هنيبعل . وقد نفذ ذلك برباطة جأش . لم يحاول الساحر ان يتدخل مناورا أو قائما بهجوم معاكس على المشاة الرومانيين ، بل بقي ثابتا . ويقول بوليبيوس ان المعركة بقيت مدة طويلة غامضة في مصيرها . كل من الطرفين يعتبر أن شرفه هو في أن يموت في مكانه .

« وعندما مالت الكفة الى جهة الاسبانيين ، رفقاء هنيبعل القدماء ، شعر كل من القائدين ان نبضات قلبه كادت تتوقف ، لولا انهما لم يكونا من معيار يفوق الانسان العادي .. وبعد برهة وجيزة ، وفيما كان الرومان على وشك أن يتراخوا ، وان تضطرب صفوفهم ، وأن يتراجعوا ، اذا بليليوس ومسينيسا يلوحان من بعيد كزوابع تشق الصحراء ، ويصلان في الوقت الموافق » .

في زاما جعلت الاقدار هنيبعل في الوضع الذي جرت الرومان اليه في كاني . قدر لليليوس ومسينيسا ان ينتهيا من ابـادة الخيالـة الفينيقيين والنوميديين وتشتيتهم بسرعة غير منتظرة فعادا مع خيالتهما وأطبقا علـى الاسبانيين من الوراء ، فاضطروا ان يقاتلوا في جبهتين ، وسقط أكثرهم في

المعركة ولم ينج منهم الا عدد قليل .

تمكن هنيبعل من الانسحاب مع هيئة قيادته . وبعد مسيرة يومين وصلوا الى حضروميت .

هكذا اعتبر سيبيون ان زاما محت عار الرومانيين بعد اربعة عشر عاما مرت على معركة كاني .

## بعد زاما

### زاما في عبرها ونتائجها البعيدة

لا أعلم هل كان في احداث العصور القديمة من تاريخ الانسانية ما يفوق حدث زاما في ضخامته ومعانيه وأبعاده ، وفي العوامل التي تألبت لتصل اليه، وفي النتائج البعيدة المدى المنبثقـــة منه . فهو أبعد مدى ، في نتائجه المخربة حضاريا ، من دخول قورش الى بابل ( ٥٣٩ ق.م. ) ، ومن عبور الاسكندر جبال طوروس ( ٣٣٤ ق.م. ) ليهدم صور ويبيد أهلها ، ومن دخول طغرل بك البربري بغداد ( ١٠٥٥ ميلادية ) ، ومن انتصار السلطان سليم العثماني البربري في معركة مرج دابق ( ١٥١٦ ميلادية ) . انها الضربة التي انتزعت من سورية اخر حصونها الحضارية في العالم ، ونقلت قيادة الحضارة من أربابها الاصليين الى شعب جديد ، حقق وحدته القومية وانتصر بها ، ولكن مستواه الحضاري الانساني لا يؤهله لقيادة الحضارة .

وكما انتقلت الحضارة في سورية من أيدي أصحابها وروادها وموزعيها الاصليين الى الفرس ، ومن ثم الى المقدونيين المتخلفين عن السوريين ، كذلك انتقلت في غربي المتوسط من الفينيقيين — السوريين ، موزعي بذورها الاولى في المتوسط وعبر اعمدة هرقل ، الى الرومان المماثلين للفرس والمقدونيين في مستوى تحضرهم ورقيهم .

حدث ذلك لان السوريين ، منذ ظهورهم كقوة حضارية متفوقة ، منذ أيام سرجون الاول الكبير ( ٢٣٠٠ ق.م. ) لم تكن الحرب عندهم الا وسيلة سياسية واقتصادية وقومية حضارية . فلم تكن الحرب في مفهومهم غاية في حد ذاتها . لم تكن الفتوحات وسيلة لنهب الشعوب والامم ، وغاية للسؤدد والمجد والسيطرة ، كما كانت عند الفرس والمقدونيين والرومان ، بل كانت دائما وسيلة ظرفية عابرة لحماية توسعهم الحضاري في الامصار البدائية من العالم . وهذه الخاصة الانسانية المتفوقة لم تجارهم فيها أمة في التاريخ القديم ولا في الحديث .

وقد رد السوريون على تحدي القوة العسكرية بقوى الفكر والروح . على قورش والاسكندر ردوا بزينون الفينيقي ( ٣٣٢ — ٢٦٢ ق.م. ) ، خالق الفضيلة الانسانية الكونية ، والمواطن العالمي الاول في التاريخ . وعلى الرومان ردوا أولا بسيطرة المسيحية على الامبراطورية الشرقية في سنة ٣٣٧ ميلادية ، في عهد قسطنطين الكبير ، وردوا ثانيا في اليرموك سنة ٦٣٦ ، بقوتهم الروحية والعسكرية العربية الجديدة ، فصفوا في احدى عشرة سنة

تعديات اثني عشر قرنا ( ٥٣٩ ق.م. — ٦٣٦ بعد المسيح ) ، واعادت الرسالة الاسلامية والدولة العربية الجديدة بناء ما خرب خلال تلك القرون .

بعد زاما ، سلط الرومان على القرطاضيين القوى المحلية البربرية التي لم تشأ قرطاضة أن تدمرها خلال ستمائة سنة من السيادة . فالدولة التي كانت تسير حملاتها على صقلية وسردينية واسبانيا ، كانت قادرة بدون شك، لو أرادت افناء الاقوام والشعوب على الطريقة الرومانية ، أن تسير هذه الحملات على الامارات الافريقية المجاورة لها وتفنيها . ولكن الفينيقيين أبوا دائما أن يفهموا من الحرب قوة للطغيان والتدمير والنهب والسيطرة . وكل حروبهم ضد المدن اليونانية أو غيرها ، ومن ثم ضد رومة في الحروب الفينيقية، لم تكن الا ردا على التحدي ، واتقاء للعدوان الموجه ضدهم .

ان السيادة الكنعانية — السورية في غربي المتوسط لم تكن الا سيادة تعمير وتحضير وحماية مصالح متبادلة . كانت في مصلحة الشعوب والاقوام البدائية اكثر مما كانت في مصلحة الكنعانيين . لقد كانت افضل من النزوح الاوروبي الى العالم الجديد بعد سنة ١٤٩٢ ميلادية .

ماذا حمل الرومان ، بعد زاما ، الى الشعوب المغلوبة التي احتلوا أرضها واذلوا شعوبها ؟ ماذا حمل الفارسي الى سورية سنة ٥٣٩ ق.م. وهو بدائي ، أمي ، ليست له لغة مكتوبة ، بل استعار ابجدية السوريين ولغتهم ليكتب ، وقوانين حمورابي السوري ليحكم ، وملاكات آرامية سورية لينظم ادارته ؟ وماذا حمل الاسكندر الى سورية غير مجموعة من محترفي الحرب الافظاظ ، الذين دمروا وفتكوا ونهبوا ، ولم تكن لهم من غاية الا التدمير والفتك والنهب ؟ والرومان كان لهم فكرهم السياسي القومي وتنظيمهم الاداري ومؤسساتهم السياسية ، أما من ناحية الحضارة الانسانية فأنهم كانوا تلامذة فاشلين لاثينة وللفينيقيين . ان « سلامهم الروماني » اذا افاد ايطاليا وبعض الاقوام البدائية ، فانه كم افواه الشعوب الحضارية ، مثل مصر وسورية واليونان ، وجمدها في المفاهيم الرومانية الحضارية الساذجة .

لماذا انكسر هنيبعل ، وانهارت وراءه الامبراطورية الفينيقية في غربي المتوسط ؟

من أعظم ما قيل في تحليل الاحداث الكبرى في التاريخ ، من نوع حدث زاما المدوي ، قول غوستاف ليبون في كتابه « الحضارات الاولى » : « لا تحيا الامم الا بالمحافظة على مؤسساتها القومية وتقاليدها وعاداتها وأعرافها، ولا تتجدد الا اذا عرفت كيف تبدل هذه المؤسسات والتقاليد والعادات والاعراف عندما تمسي عديمة الفائدة . والتاريخ مليء بأنقاض الامم ، تلك التي لم تعرف أن توافق بين هذين الناموسين الصارمين » .

لا شك ان الحروب الفينيقية كانت صراع مفاهيم جديدة ضد مفاهيم قديمة أكثر مما كانت مبارزة بالسلاح في الميادين . ومن المؤسف ان رومة

المتفوقة في وحدتها القومية المركزية ، لم تكن تتحلى بفضائل الكنعانيين الانسانية .

## هنيبعل في قرطاضة

غادر هنيبعل ميدان معركة زاما مع أفراد قيادته وعدد من الخيالة القرطاضيين والنوميديين الى حضروميت ، وبقي هناك ينتظر رد الفعل عند بني قومه . انهم انتظروا الانقاذ فمنوا بالهزيمة . والهزيمة في زاما تعني نهاية الحرب التي أشعلها هو ، وتخاذلوا هم عن تغذيتها بطاقتهم الحربية . كل من الفريقين يتحمل الان قسطه من المسؤولية .

ولكن خسارة المعركة ، بعد أمجاد عسكرية توزعت شهرتها على الدنيا حتى منذ ذلك الحين ، لم تفقد هنيبعل الا قليلا من هيبته وجلاله . انه القائد المعلم في الفن العسكري الذي ابتدعه ، وأول تلامذته ، سيبيون ، قد تفوق عليه .

لم يكن خائفا من مواطنيه ، فهو فوق الخوف والمحاسبة ، ولكنه كان مشمئزا من مواجهة حكام خذلوه وخذلوا قضية شعبهم ومصيره في أصعب مراحل الصراع .

ما أن علم مجلس الشيوخ القرطاضي ان هنيبعل قد نجا مع بعض معاونيه من الهلاك حتى أسرع باستدعائه ، فلبى الطلب . هو لم يفقد بعد كل ثقته بنفسه وبرسالته .

لاول مرة في حياته يمثل القائد العظيم أمام حكام يعتبرهم ، في وجدانه، المسؤولين عن فشله الماضي والحاضر . كان خطابه غاية في البساطة والاختصار ، وبدون لف وموارية صارح الناس بأنه لم يخسر معركة فحسب بل خسر الحرب ، وانه لم يبق من وسيلة للخلاص الا التماس الصلح .

ان هنيبعل الذي كان دائما في أيام عزه وانتصاره مقنعا بالغموض ورباطة الجأش ليخفي كل أثر لافكاره وتأثراته ، لم يعتره اليوم أي تبدل في المصيبة . وصل قرطاضة مسيطرا على نفسه ، مصمما ، ثابتا ، كما لو كان منتصرا في زاما .

ان من احتل ايطاليا ستة عشر عاما بستة وعشرين الف مقاتل ، وحقق أعظم أمجاد التاريخ العسكري ، لن يتهيب المثول أمام حكام كان هدفهم الدائم، منذ عشرات السنين ، التهرب من المسؤوليات الحربية ، والركون الى المشاريع التجارية والمنافع المادية .

قبل المجلس برأي هنيبعل وقرر أن يطلب الصلح من المنتصر . لم يفتح باب المحاسبة عن الماضي . ان ظروف الساعة كانت حرجة ودقيقة ، ولا مجال لفتح سجل السنين الغابرة . ولكن حزب « السلميين » ، ولا يعني ذلك

الا الانهزاميين المتخاذلين ، رفع رأسه من جديد ، وبكل صفاقة اعتبر نفسه ربح المعركة ، لانه كان دائما يبشر بالسلم ، ولو كانت الكرامة القومية والمصالح القومية العليا ثمنا له .

## سيبيون أمام أسوار قرطاضة

كان سيبيون مصمما على مهاجمة القاعدة الفينيقية في غربي المتوسط راسا بعد زاما ، فيهاجمها من البر والبحر في آن واحد . وقد انتقل حالا الى عوتيق حيث اصدر اوامره بالزحف على العملاقة المتكبرة . وهو يريد ان يضاعف عليها الذل الذي تحملته في نهاية الحرب الفينيقية الاولى . وعندما خرج باسطوله من مرفأ عوتيق رأى سفينة فينيقية تعلوها أغصان الزيتون وعصائب السلام . فهي كانت تحمل وفدا قرطاضيا مرسلا اليه للمفاوضة بالصلح . ولما علم بما يريد الوفد أعطى أوامره بأن يتوجه الى عوتيق لانتظاره ، واكمل رحلته في اتجاه قرطاضة . فهو كان مصمما أن يرى تلك المدينة التي ارتد عنها اغاتوكليس اليوناني وريغولوس القنصل الروماني من قبله .

توقف اسطول سيبيون أمام المرفأ الذي اختاره خبراء الفينيقيين منذ ستة قرون ، فكان أفضل موقع بحري يشرف على المتوسط في جميع جهاته . ولما تأمل سيبيون في تلك الاسوار الضخمة العالية المتحدية البحر واليابسة منذ وضعت اليسار أسسها ، تهيب الموقف الرهيب ، وأدرك ان المدينة لا تؤخذ بهجوم بري — بحري صاعق كما كان يتصور ، بل هو مضطر ان يقوم بحصار طويل ، خصوصا وان الفينيقيين وأنصارهم سيقاومون مقاومة اليائسين حتى النهاية . واذا كان سكان عوتيق الصغيرة لم يستسلموا بسهولة، فكم ستكون طويلة وقاسية مقاومة القرطاضيين الذين لم تدس أرض مدينتهم بعد قدما فاتح مغتصب ؟

لقد أعطى المؤرخون تهديد سيبيون البحري والبري تفسيرات متنوعة ، كلها لمصلحة القائد الروماني ، وقارنوا بين تصرفه وتصرف هنيبعل بعد معركة كاني ، معتبرين ان هنيبعل قد اخطأ في عدم زحفه المباشر على رومة بينما سيبيون عرف كيف يستغل انتصاره في زاما على أفضل وجه . وقد غفل المؤرخون أو تغافلوا عن الفرق الشاسع بين وضع رومة بالنسبة الى هنيبعل بعد معركة كاني ، وبين وضع قرطاضة بالنسبة الى سيبيون بعد معركة زاما .

فاذا ما صمم سيبيون على استغلال انتصاره كاملا بالزحف على قرطاضة مباشرة بعد زاما ، فان ذلك غاية مخططه العسكري ، واذا كان هنيبعل لم يزحف على رومة راسا بعد كاني فان ذلك من طبيعة مخططه . ولم يكن أحد اعلم بتينك الحقيقتين الكبيرتين اللتين شغلتا التاريخ والمؤرخين من القائدين العظيمين نفسيهما . فاذا كان هنيبعل العابر فوق جبال الالب ، والمدمر ثلث

القوات الرومانية المقاتلة ، والمزعزع بعض الوحدة الايطالية ، لم يزحف على رومة فهو وحده يعلم السبب الحقيقي . واذا كان سيبيون صمم على الهجوم فهو أيضا أعرف من غيره بالسبب المشجع على الهجوم . ولا يتضح هذان السببان الا للدارس المدقق ، الذي يتوصل بدرسه وتعمقه الى ان يعايش ذلك العصر بخياله ويربط معلوماته في كل متسلسل دقيق .

ولكن لماذا أحجم سيبيون في اللحظة الاخيرة عن مهاجمة قرطاضة وضرب الحصار عليها ، وارغامها على التسليم بلا قيد أو شرط ؟

ذلك أيضا بقي سرا من أسرار التاريخ . لم يكن سيبيون في هذا الامر، وفي أمر شروط الصلح التي أملاها على الوفد القرطاضي ، خاضعا لارادة مجلس الشيوخ الروماني . بل مرت فترة قصيرة من الزمن ، بين زاما ورجوع سيبيون الى رومة ، كان فيها القائد الروماني الاوتوقراطي فارضا ارادته المطلقة على تسيير شؤون الحرب والصلح فيما يختص بقرطاضة .

ان ما يرجحه منطق الاحداث ، يجعلنا نعتقد ان المقابلة بين هنيبعل وسيبيون قبل معركة زاما ، اذا كانت فشلت في كل ما كان يبغيه هنيبعل ، فانه قد يكون نتج عنها مفاهمة ضمنية أوحاها احترام كل من القائدين العظيمين للاخر . ذلك ما يوحيه تصرف سيبيون النبيل بالنسبة الى هنيبعل فيما بعد ، كما سنرى .

ليس من المعقول ان يكون وصول الوفد القرطاضي المفاوض هو الذي حول سيبيون عن عزمه . ولا هي الاسوار المحيطة بقرطاضة قد أثنته عن غايته . ولقد كانت شروط سيبيون أخف بكثير مما كان ينتظر في حالة كهذه .

فقرطاضة التي عقدت معاهدة صلح مع رومة سنة ٢٤١ ق.م. ، قدرت ان تدفع الغرامة المفروضة عليها ، وأن تحارب المرتزقة وتنتصر عليهم ، وان تغزو اسبانيا وتحولها الى ولاية فينيقية ، ثم أن تهاجم رومة سنة ٢١٨ ق.م. في وطنها وتبقيها تحت تهديدها المباشر خلال ستة عشر عاما . فهي دولة ذات طاقة صناعية ومالية وعسكرية مخيفة ، تحمل رومة على التفكير بسحقها هذه المرة ، بعد الانكسار ، كي لا تقوم لها قائمة بعد اليوم .

## معاهدة الصلح

هذه هي الشروط التي أملاها سيبيون على الوفد القرطاضي ، والتي فرض بنفوذه وسطوته قبولها على مجلس الشيوخ الروماني فقبلت كما هي بلا تعديل :

١ ــ تتخلى قرطاضة عن كل سيطرة لها في أوروبا .

٢ ــ لن يكون لها حق القيام بحرب ، ان في افريقيا او في خارج افريقيا قبل أن تطلب ترخيصا من رومة وتحصل عليه .

٣ ــ تساعد رومة ، عند الحاجة ، بقواها البرية والبحرية .
٤ ــ تقدم الى رومة موادا غذائية لمجرد طلب ذلك من قبل رومة .
٥ ــ تحافظ قرطاضة على شرائعها ، ومدنها ، واراضيها الافريقية التي كانت مسؤولة عنها قبل الحرب ، الا انها تسحب حاميتها من المدن الواقعة وراء « الحفر الفينيقية » ، وتعيد الى هذه المدن الرهائن المأخوذة منها .
٦ ــ تعقد قرطاضة الصلح مع مسينيسا ، وتعيد اليه كل ما اخذت منه ، وتعقد معاهدة خاصة لرسم الحدود الجديدة بين الدولتين .
٧ ــ تسلم قرطاضة الى رومة كل اسطولها الحربي ، باستثناء عشر سفن يحق لها الاحتفاظ بها .
٨ ــ تسلم قرطاضة الى رومة كل ما لديها من فيلة مدربة على القتال، وتتعهد بألا تدرب غيرها .
٩ ــ يحظر على قرطاضة تجنيد مرتزقة من الغوليين والاسبان .
١٠ ــ تعيد قرطاضة الى رومة كل من لديها من الاسرى ، وكل الارقاء الآبقين ، وكل الجنود الفارين الذين تبعوا هنيبعل الى افريقيا ، وذلك في غضون شهر واحد بعد توقيع المعاهدة .
١ ــ تدفع قرطاضة الى رومة غرامة حربية تقدر بعشرة الاف وزنة من الفضة ، على دفعات متعادلة موزعة على خمسين عاما .
١٢ ــ تقدم قرطاضة الى الجيوش الرومانية مؤنا لمدة ثلاثة اشهر ، وتدفع رواتبها حتى يأتي جواب مجلس الشيوخ الروماني بشأن الصلح .
١٣ ــ تقدم قرطاضة الى رومة مائة رهينة يختارها سيبيون ، على أن تراوح اعمارها بين ١٤ و٣٠ عاما .
١٤ ــ تغادر الجيوش الرومانية ليبيا خلال مائة وخمسين يوما بعد توقيع معاهدة الصلح .
١٥ ــ ولاعطاء القرطاضين المهلة اللازمة لالتماس الصلح من مجلس الشيوخ الروماني ، على اساس الشروط الانفة الذكر ، يمنحون هدنة . الا انه يتوجب عليهم أن يعيدوا كل سفن النقل التي استولوا عليها في الهدنة السابقة بكل ما فيها من حمولة . واذا لم تعد هذه السفن ، فلا هدنة ، ولا صلح .

لقد وجد حزب الحربيين في مجلس الشيوخ القرطاضي ان الشروط قاسية ومعيبة ، ووجدها حزب السلميين موافقة . وفي نظر هذه الاكثرية كان المهم ان تنتهي قرطاضة بأي ثمن مما ورطها فيه البرقاويون وحزبهم ، وتعود الى التجارة والاثراء . ولكن حرج الموقف ، وغليان الشعب أمام النكبة، وتهديده الشيوخ باجتياح منازلهم ونهبها وحرقها اذا ما هم قبلوا بشروط كهذه ، جعل حزب السلميين يتهيب مسؤولية قبول الشروط فأحال المعضلة الى « جمعية الشعب العامة » ، واستغاث بهنيبعل ليكون حكما بينه وبين

فئة الحربيين والشعب الثائر . وكان هنيبعل موافقا على شروط الصلح لاسباب غير أسباب حزب السلميين الانهزاميين . فهو كان يرى في أكثر شروط الصلح ناحيتها المذلة التي لا بد لقرطاضة من تحملها . فهي قصاص طبيعي لتخاذلها وتقتيرها في البذل للدفاع عن نفسها . ولكنه كان يرى وراء المظاهر المذلة امكانات وفرصا لقرطاضة لتنهض بزعامته وتستعيد تدريجيا وضعا جديدا يتيح لها الانتفاض على روما ومسينيسا لتجديد سطوتها وهيبتها ومركزها كقوة وحيدة مسيطرة في الشمال الغربي من افريقيا وفي مضيق أعمدة هرقل وما وراءها . لذلك عندما وقف أحد المحرضين على رفض شروط الصلح خطيبا في جمعية الشعب ، خرج هنيبعل عن طوقه وتناوله من على منبر الخطابة ورماه أرضا بعنف . فأثار بعمله سخط الشعب الحاضر وسمعت دمدمات من نواح عدة ، فشعر هنيبعل انه أثار على نفسه غضب الشعب بحركته الفظة ، وهو بحاجة كلية ، في تلك الظروف ، الى الشعب ليقف في وجه السلميين المتخاذلين ، فتوجه حالا الى الجمهور مستدركا معتذرا بقوله : « لقد غادرتكم ابن تسع سنوات ، واني أعود الان بعد غياب ست وثلاثين سنة . اعتقد اني خبير في شؤون الحرب التي أمارسها منذ طفولتي ، أما فيما يختص بالقوانين والعادات الجارية عندنا ، فأني قد أكون بحاجة اليكم لمعرفتها » . ثم عرض باسهاب الاسباب التي تقضي بقبول شروط الصلح للمصلحة القومية العليا .

« وقد تبنت الجمعية العمومية وجهات نظره . ثم جاءت تصرفات هنيبعل بعد ذلك تجعل الناس يسبرون أغوار ما كان يجول في رأس زعيم الشعب الجديد . انه لم يفقد كل أمل . بل انه بهدوئه ووضوح فكره كان يستشف امكانية اعادة بناء سلطان قرطاضة » (٧٢) .

وكما قبل الشعب القرطاضي بشروط الصلح متأثرا برأي هنيبعل ونفوذه، كذلك وافقت « الجمعية العمومية الرومانية » على المعاهدة ، وفوضت مجلس الشيوخ بأن يعطي سيبيون صلاحيات خاصة لتوقيع المعاهدة بين روما وقرطاضة .

« من الاكيد ان تعاطفا غريبا قد ألف فيما بعد بين القائدين العظيمين . قد نكون مخطئين ، ولكنه يبدو مرجحا ان الخصمين قد مهدا ضمنا بشروط المعاهدة قبل المعركة ، اذ كانا يعلمان ان واحدا منهما سيغلب . فالمظاهر تؤكد لنا ذلك » (٧٣) .

قبلت معاهدة الصلح من الطرفين ، وبدأ كل طرف بتنفيذ ما عليه . خمسمائة سفينة حربية قرطاضية سيقت الى عرض البحر وأضرمت فيها النيران على مرأى من الشعب المنكسر . سلم القرطاضيون الرومان الفارين فعلقهم سيبيون على الصلبان . وسلموا الايطاليين فحزت رؤوسهم جميعا . سلمت الفيلة فنقلها سيبيون الى روما وأهدى عددا قليلا منها الى مسينيسا .

أما غنائم الفضة التي نهبها الجيش من المنازل التي اجتاحها في طريقه فكان وزنها نحو خمسين الف كيلو . وغادر سيبيون افريقيا في الوقت المحدد لتستقبله رومة أعظم استقبال عرفته في تاريخها .

# محاولة هنيبعل الاخيرة

## هنيبعل يصارع نظام قرطاضة متأخرا

رافق الفينيقيين ، في تاريخهم الطويل من سنة ٢٥٠٠ الى سنة ١٤٦ ق.م. وبصورة أخص من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٤٦ ق.م. ، عاملان رئيسيان كان لهما فعلهما التقريري في مصيرهم : الاول عامل الاستمرار في المحافظة على العادات والتقاليد والاعراف والانظمة حتى التقديس الوثني والجمود الصنمي ، والثاني عامل اللاثورية في التفكير الاجتماعي والسياسي والقومي ، في جميع حقوله النظرية والعملية والشعبية . وقد سيطر هذان العاملان على الفئات الحاكمة من جهة ، وعلى الشعب من جهة اخرى . فلا الصراع بين الحاكمين ولد نظريات ومفاهيم سياسية ، ولا الصراع بين الشعب والحاكمين أدى الى حركات شعبية ثورية ، من شأنها أن تبدل الانظمة والمفاهيم والعقليات السائدة منذ أزمنة طويلة .

خلال تاريخ قرطاضة حدث انقلاب واحد ، قام به القائد ملكو عندما حكمت عليه الحكومة القرطاضية بالنفي مع جيشه ظلما واستبدادا . ولم يدم حكم ملكو الا ثلاثة أشهر ، لانه كان يفتقر الى حزب سياسي يدعم الوضع الذي أقامه بقوة جيشه . وقد انتهى على الصليب .

لقد خلت حياة الفينيقيين الطويلة من الانتفاضات الشعبية الثائرة على أوضاع عتيقة رثة ، وكذلك من الحركات السياسية الثورية التي تتنافس على السير تقدميا ، سعيا الى اقامة انظمة سياسية قومية جديدة . كانت حياتهم راكنة الى الاستقرار والاستمرار الواعي المحافظ ، المبالغ في احترام ما انتج من انظمة الى درجة تقديس الاشكال والصور في النهاية ، حتى يضيع الجوهر ، وتؤول الحياة الى نوع من الصنمية .

ومن الغريب جدا أن يكونوا قد تقولبوا في نظام سياسي واحد هو نظام المدينة ، الذي كان في البداية سبب ازدهار حياتهم ، كما كان في سومر من

قبل ، وكما كان في اليونان معاصرا لهم ، ثم أمسى فيما بعد مقبرة لحيويتهم وعبقريتهم ، كما حدث في اليونان تماما .

ومن يرافق حياة الفينيقيين ، على شاطئهم اولا : من حدود مصر الى خليج اسكندرون ، ومن ٢٥٠٠ الى الفتح الفارسي ٥٣٩ ق.م. ، وعلى سواحل افريقيا الشمالية وفي اسبانيا وصقلية ثانيا : من سنة ٨١٤ الى ١٤٦ ق.م. ، يسائل نفسه بألم ودهشة مستغربة : هل يعقل أن يكون هذا الشعب النشيط ، المغامر ، المتفوق في الميادين الحضارية ، الرائد المجاهيل ليجعلها معلومة واضحة ، أن لا يكون قد سبق العالم الى الانظمة السياسية التي تساعده على اقامة دولة عالمية ؟

ومهما جربنا ان نعتبر ان ظروف الماضي قد تكون عرقلت تطور قرطاضة ، فأنه يستحيل علينا أن لا نحاسب القرطاضيين حسابا تاريخيا عسيرا منذ بداية الحرب الفينيقية الاولى .

من سنة ٢٦٤ الى سنة ٢٠٢ ق.م. ( زاما ) ، تبدو قرطاضة وكأنها مكبلة بلعنة قديمة تجرها الى القبر . فلا تحدي النظام القومي الروماني الجديد المنتصر عليها قد حركها وأطلق فيها تيارات فكرية سياسية جديدة . ولا ثورة المرتزقة أعطتها عبرة لتعدل نهجها في افريقيا وتقوي نفسها بضم جميع الفينيقيين الى مواطنيها ، ولتسعى الى صهر الافريقيين في بوتقتها . ولا حرك مطامحها ما حققه هميلقار في اسبانيا من توسع يساعدها بموارده على السيطرة على شمال افريقيا الغربي كله . هنيبعل نفسه ، يثير الدهشة والاعجاب في العالم بعد أن قفز فوق جبال الالب ، فهز أرض ايطاليا وتطلعت اليه الدنيا باعجاب تنتظر بلهفة ما سيطلق من أحداث في العالم ، هنيبعل هذا الذي يثير اعجاب العالم منذ ذلك الحين حتى اليوم ، لم يحرك وجدان الحاكمين فيدفعهم الى التضحية في سبيل حياتهم ومصيرهم وكرامتهم ، بل ظلوا ينقادون الى انهزاميين هم أحقر من عرفتهم قرطاضة : حنون وهسدروبعل الملقب بالتيس . والشعب بقي صامتا ، تجمده وتغرر به فئة مريضة متحجرة في فكرها وشعورها ، أدمنت حب الاثراء وتسخير الدولة للمنافع العائلية والفردية .

حتى عندما أصبح هنيبعل نفسه حاكما قرطاضة ، محاولا ايقاظ وجدانها ، واثارة حيويتها وتنسيق مجهودها القومي لانهاضها وتنظيم طاقتها الدفاعية ، حتى ذلك الحين أصرت قرطاضة على الانتحار في جمودها ، وانتحرت .

خلال ست سنوات بعد معاهدة الصلح ( ٢٠١ — ١٩٥ ق.م. ) بقي هنيبعل يمرس نفسه على الحياة السياسية المدنية ، ويشجع أهل بلاده حكاما وشعبا على النهوض والتغلب على اليأس . لا يذكر المؤرخون هل شغل وظائف معينة أم بقي فقط قائدا عاما للجيش القرطاضي ، ومرجعا كبيرا في بلاده . ان ما يبدو واضحا هو ان قرطاضة قد نهضت اقتصاديا ،

واستأنفت نشاطها الصناعي والتجاري . وهي ، وان تكن قد أذلت معنويا، فان حالتها الاقتصادية كانت أفضل من حالة رومة . كان على رومة أن تضمد جراحها الدامية في مائتي الف عائلة منكوبة . مائتا الف يد عاملة ومقاتلة قد أبيدت ، وكثير من الحقول المنتجة قد تحولت الى أرض موات .. وقبل ربع قرن لن تعود الحياة الرومانية الى وضعها الطبيعي السابق . هذا اذا لم تضطر رومة ان تخوض حربا جديدة تزيد في خرابهـا واضعاف طاقتهـا الاقتصادية والحربية .

وفي هذه الاثناء ثار بعض الليغوريين والجلالقة في شمالي ايطاليـا بقيادة أحد الضباط الفينيقيين الذين كانوا في اخر جيش دربه ماغون هناك قبل أن يتلقى أوامر حكومته بالرجوع الى بلاده .

لم يعرف تماما سبب بقاء الضابط هميلقار هناك بعد ابحار ماغون . أهو كان جريحا أم عاصيا ، أم بأمر خاص من قائده ؟ لقد حرك أربعين الف مقاتل فنهب بياسنزا ، واجتاز نهر البو متجها نحو كريمونا ليفرض عليها المصير نفسه ، فأرسلت رومة نجدة الى المدينة المهددة الموصدة أبوابها في وجه العدو المفاجيء ، كما أرسلت وفدا الى قرطاضة يفرض سحب هميلقار وتسليمه الى السلطات الرومانية . وكان جواب حكومة قرطاضة انها في حالة كهذه لا يتخطى سلطانها الحكم على هميلقار بالنفي وبمصادرة املاكه .

وكان هنيبعل في ذلك الحين ما يزال قائدا للقوات القرطاضية المسلحة ، ويعني ذلك انه كان مسيطرا في قرطاضة ، وقد اضطر ان يتحمل مسؤولية اعمال هميلقار الثائر . ومن المرجح ان الحزب الارستقراطي لم يبرىء هنيبعل من هذه القضية . وعلى كل حال ترك هنيبعل مركزه كقائد أعلى ، وبعد زمن قصير أصبح عضوا في « المجلس القضائي الاعلى » ( مجلس الـ ١٠٤ ) ، روح الحزب الارستقراطي في قرطاضة . ومن المؤكد انه لم يستقبل بحرارة في هذه المؤسسة ، ولكن نفوذه ورتبه والقابه كانت تحتم له حق العضوية في تلك المؤسسة .

في سنة ١٩٥ ق.م. انتخب هنيبعل رئيسا للجمهورية في قرطاضة .

من المرجح انه ترك القيادة العسكرية ، التي لم يكن لها شأن كبير في تلك المرحلة ، سعيا للوصول الى المركز الاول في وطنه حتى يتمكن من القيام بالاصلاحات الداخلية الضرورية . فان استمرار النفسية الانهزامية عنـد الحزب الارستقراطي الحاكم جعله يفكر جديا في زحزحة ذلك الحزب الممثل بصورة خاصة في المجلس القضائي الاعلى ، ذلك الذي ، وان كان وجـد في الاساس للمحاكمات العليا ، أصبح عمليا يهيمن على الدولة بكليتها ويسيـر بنفوذه جميع مؤسساتها .

منذ البداية وقع الاصطدام بين الرئيس الجديد القائد وبين « مجلس القضاء الاعلى » الارستقراطي الذي كان اكتسب مع الزمن صفات العصمة والقدسية والديمومة . أعضاؤه كانوا ينتخبون على مدى الحياة ، ولا صلاحية

لاية مؤسسة بعزلهم . وهذه المؤسسة التي ابتدعت في الاساس لمراقبة قادة الجيش ، ورؤساء الجمهورية ، واعضاء مجلس الشيوخ ، ومحاكمتهم في حالات معينة ، امتصت مع الزمن جميع الصلاحيات وجمدت الدولة وتجمدت هي بدورها . لقد أراد هنيبعل أن يستجوب أحد كبار موظفي الخزينة وعامله بحذر وريبة . وكان الرجل ينتمي الى الحزب الارستقراطي ، ويطمح ان يكون عضوا في مجلس القضاء الاعلى . أوقف الموظف وأحيل الى جمعية الشعب العمومية ، ولم يجرؤ أحد على الوقوف في وجه القائد الذي ارتجفت منه رومة ستة عشر عاما . ولكن ذلك كان بمثابة اعلان الحرب على الاوليغارشية والارستقراطية الحاكمة .

خلال ست سنوات قضاها هنيبعل بين شعبه (٢٠١ — ١٩٥ ق.م. ) عرف اخيرا وجه هذا الشعب الحقيقي ، اذ لم تكن قد وصلته عنه من قبل الا انعكاسات ضعيفة كاذبة ، فرأى كم كان كبيرا سوء نية الاغنياء وانانيتهم ، والى اي حضيض من الذل والبؤس قد انحدروا بالشعب . منذ تسلمه مسؤولياته اتخذ موقفا ديمقراطيا نهائيا .

في الجمعية العمومية ، لم يكن ذلك الموظف فقط هدف هنيبعل بل كان مجلس الـ ١٠٤ جميعه . كان لخطاب هنيبعل دوي عظيم في جمعية الشعب العمومية . لقد عالج أزمة من تلك الازمات الحكومية التي تتقرر بها مصائر الامم . ولكي نفهم الوضع الصحيح فلنستعرض مع بيكر عناصر ذلك الخطاب .

« منذ ما قبل عهد « جيلو » ومعركة « هيمارا » كانت قرطاضة مرة فريسة ثورة حكومية . في أساس تلك الاضطرابات كانت جهود الارستقراطية الفينيقية الحثيثة للحد من سلطات القادة ، وتقييدهم . وليس هناك من دولة قادرة ان تتجنب خلافات من هذا النوع ..

« بعد فترة من ثورة ملكو وسقوطه ، انشأ القرطاضيون « محكمة القضاء العليا » المؤلفة من مائة عضو ، وهي التي نحن الان بصددها ، والتي كان هدفها مراقبة القادة العامين .

« هذه المحكمة كانت أفضل تنظيم مناسب لذلك العمل عرف حتى ذلك الحين . ولكن سلطانها نما بنسبة كبيرة حتى توصلت الى أن تصبح حكومة قرطاضة الفعلية : كل حياة العاصمة أخضعت لرقابتها . وكانت قوتها بحت سلبية اذ لم يكن هدفها أن تحكم فعليا ، بل ان تكون لاجما . كانت لها سلطة خنق العمل ، وليس العمل ...

« ظهر نفوذ هذه المؤسسة بوضوح في نهاية الحرب الفينيقية الاولى . وكان تأثيرها يوصل الى الشلل والتعطيل : كانت تخمد كل محاولة للاصلاح، كل فكرة أو طريقة جديدة ، وتسحق كل شخصية فذة . لقد رأينا كيف أن هميلقار حل المشكلة وافلت من قبضة هذا المجلس ، فأسس في اسبانيا ، دكتاتورية متميزة مستقلة كل الاستقلال عن الحكومة النظامية في قرطاضة .

وكان هنيبعل وارث هذه الدكتاتورية . فكانت عودته ما بين مواطنيه باعثة للمعضلة القديمة . ذلك ان قرطاضة لم تعد مجرد مدينة تجارية ، بل كانت قد أضحت مركز امبراطورية تشمل شعوبا عديدة من أعراق مختلفة . فهل كان يصح ، في سبيل صيانة المصالح المادية لرجال أغبياء جبناء ، ان يلجم بقساوة ، الرجال الاقوياء والرجال المتفوقون ، ذوو المقاصد البعيدة والافكار الجريئة ؟ وهل كتب لقرطاضة ، وكأنه اعتراها نوع من الجنون ، أن تموت مختنقة بفعل حبس انفاسها ؟

« تلك كانت الاسئلة التي طرحها هنيبعل على جمعية الشعب العمومية . فمن كان اذن يفضل المواطنون ؟ الجبناء الانانيين أم الرجال المتميزين بالمفاهيم الجريئة ، والتنفيذ القادر ؟ ثم ماذا كانوا يفضلون ؟ ان يقضوا جوعا أم أن يموتوا مقاتلين ؟

« لم تتردد جمعية الشعب العمومية في الجواب . ولم يكن هنيبعل قد بلغ بعد خاتمة خطابه حتى شعر بأن الرأي العام كله مؤيد له ، على نحو ما التفت الجمعية العمومية الرومانية حول سيبيون . فاختتم خطابه طالبا أن لا يبقى أعضاء « مجلس القضاء الاعلى » دائمين مدى الحياة ، بل أن يخضعوا لانتخاب سنوي . صدقت الجمعية العمومية على اقتراحه ، وعندما نزل هنيبعل عن المنبر كان قد أصبح هرقل الجديد ، القادر على تنظيف « اسطبلات أوجياس » التي خلفتها حكومة قرطاضة .

« حتى هميلقار نفسه لم يسبق له أن أحرز انتصارا شبيها بهذا الانتصار » (٧٤) .

خطاب هنيبعل في « جمعية الشعب العمومية » وانتصاره الكبير على الحزب الارستقراطي ــ الاوليغارشي ، المسيطر في مجلس الشيوخ وفي مجلس الـ ١٠٤ ، فتح المعركة بينه وبين الرجعية الانهزامية في أعنف مظاهرها .

جميل أن ينتصر هنيبعل على الرجعية من ضمن المؤسسات الدستورية . ولكن هل يستمر انتصاره ؟ وهل يؤدي الى انهزام الرجعية النهائي ؟ فالرجعية هي أخطبوط ممسك بأجهزة الدولة بقبضاته العديدة ، ومن الصعب تقطيعها من ضمن الاجهزة الدستورية . فالمؤسسات والاجهزة التي تقبض عليها الرجعية كليا من الصعب تطعيمها بنفسية جديدة وفكر جديد عن طريق جمعية الشعب العمومية ، التي لا تجتمع الا للفصل في القضايا الكبرى ، الا اذا قررت هذه الجمعية ، بروح ثورية فاصلة ، نسف هذه المؤسسات وانتخاب جميع أعضائها مجددا .

هنيبعل يقدر ان يقوم بعملية ثورية شاملة مرتكزا على الشعب . من الاكيد ان الشعب سيدعمه حتى النهاية . فالشعب يحب البطولة ويحب أبطاله . جميع الشعوب الحضارية اذا ما تركت لوجدانها ، تحب البطولة

وتفضل الثورية على الجمود . ولكن هنيبعل قد تأخر ، على ما يبدو ، عن القيام بهذه العملية الجذرية الفاصلة . ان رومة واقفة بالمرصاد وعميلها مسينيسا تحركه ساعة تشاء . فهل تسكت رومة عن تعطيل المؤسسات الرجعية التي تعتبرها عينها الساهرة على هنيبعل وتصرفاته ؟

كان مجلس الشيوخ الروماني مراقبا كل حركة طامحة في حوض المتوسط . لم تشعر رومة براحة بعد زاما ، لا داخليا ولا خارجيا . داخليا كان الشعب الروماني والوحدة الايطالية الجديدة تتحمل أعباء حربية ومالية ثقيلة بعد أن دمر هنيبعل جيوشها وطاقتها الانتاجية . وخارجيا كان انطيوخوص ملك سورية يغازل فيليب الخامس ملك مقدونية ليعاونه على اعادة انشاء امبراطورية الاسكندر . وكان هناك تفاهم ضمني بين الملكين المقدونيين على أن تكون مقدونيا واليونان من نصيب فيليب ، وشرقي المتوسط من مضائق البوسفور والدردنيل الى الهند من نصيب انطيوخوص . وعلى رومة وحدها ان تعطل اي طموح من هذا النوع في حوض المتوسط . فهي لم تقيد قرطاضة بتلك القيود الثقيلة ، وتقيم على جنبها مملكة افريقية وملكا نوميديا ضاريا ، ليطل عليها عدو جديد أوسع طموحا ، وأضخم مطامع . ان امكانات سورية ، وما وراءها من الشرق التابع للمملكة السورية السلوقية، هي أغنى من امكانات قرطاضة وان لم يكن رجل كهنيبعل متزعما تلك الامكانات . فالمقدونيون لم يكونوا يوما مقصرين في الميدان العسكري .

ان انتصار هنيبعل على مجلس الـ ١٠٤ ، وتحويله الى نفسه انظار الشعب ، المفتش عن بطل انقاذ ، جعل جميع المؤسسات والاجهزة الرجعية تفكر جديا بمكيدة لاهلاكه . وكان بعض أعضاء هذه المؤسسات يشعر بما يكتم القائد الكبير في سره ، فأرسلت تقارير سرية الى مجلس الشيوخ الروماني تدس عليه . واهم ما جاء في تلك التقارير ان هنيبعل يفكر بالانتفاض على رومة عندما تسنح له الفرصة ، وانه على اتصال دائم بانطيوخوص عدو رومة الجديد ، وانه قد يكون انشأ مصانع سرية للاسلحة في بعض المناطق القرطاضية . وكانت رومة قد أحرزت انتصارا عسكريا وسياسيا في مقدونيا واليونان . فقد انتصر القنصل طيطوس كونيتوس فلافيوس على الملك فيليب الخامس في معركة « جبال سينوسفال » (رؤوس الكلاب ) سنة ١٩٧ ق.م. ، واعلن استقلال المدن اليونانية في المباراة الرياضية الكورنثية ، فحقق انتصارين في آن واحد ، انتصارا عسكريا على فيليب ، فسيطر على مقدونيا ، وانتصارا سياسيا في المدن اليونانية اذ ربح اعجابها وتأييدها وصداقتها . ولقد برهن فلافيوس عن دهاء وحسن تصرف ولياقة ، ونال اعجاب اليونانيين خصوصا عندما وصلته أوامر من مجلس الشيوخ باخلاء جميع المدن اليونانية من الحاميات الرومانية . ولقد برهنت رومة بعملها عن بعد نظر سياسي مدهش ، اذ راعت الشعور الاناني عند

المدن اليونانية المدمنة ، كالمدن الفينيقية ، على مخدر نظام المدينة ، فتركت لكل مدينة حرية استعادة استقلالها ، وربحت صداقة اليونان حتى اذا ما هاجمها يوما انطيوخوص تستغيث برومة وتقع باختيارها تحت نفوذها . بل قد برهنت رومة على أدهى من ذلك وأعمق : فمقدونية كانت بحاجة الى مساعدات المدن اليونانية المالية لتقوم بحروبها ، اذ ان القوات المقدونية الحربية لا تقدر أن تستمر بدون الموارد المالية اليونانية .

أمام هذه المعضلة المتوسطية المركبة ، التي كانت قد اعتبرتها رومة منحلة بكسر قرطاضة في معركة زاما وتكبيلها بمعاهدة صارمة ، وتقوية جار جشع وضار ، اذا بها تجدها تنبت من جديد مركبة تركيبا معقدا ، فتتناول أطرافا جديدة عدة : مقدونيا ، اليونان ، آسية الصغرى ، مصر . أمام معضلة كهذه وجدت رومة انه أصبح من مصلحتها أن تصغي الى آراء اعداء هنيبعل القرطاضيين ودسهم عليه ، ضاربة برأي سيبيون عرض الحائط ، وأن ترى كيف يمكنها التخلص منه لتمسي قرطاضة نسرا مقطوع الجناحين ومقلم المنسر ، يجاوره ذئب أو رخم جشع كاسر ، يتلذذ بالانقضاض على النسور الكسيحة . لذلك أصغى مجلس الشيوخ الروماني هذه المرة الى التقرير السري المرسل ضد هنيبعل ، وقرر ارسال لجنة تحقيق في مضمون التقرير .

علم هنيبعل بمجيء اللجنة الرومانية ، وكان يراقب وضع رومة الحرج في المأزق الجديد الذي وصلت اليه ، كما كان يراقب نشاط المؤسسات القرطاضية الرجعية ونشاطها ضده ، حتى في أوساط الشعب ، متأكدا من اطلاعها على اتصالاته السرية بأنطيوخوص ، لذلك ظهر في الساحات العامة وفي قصر الرئاسة يوم وصول اللجنة ، ولكنه عند الغروب توجه الى مدخل المدينة الشرقي الكبير مع حرسه ، وخارج الاسوار وجد حصانه مع السائس فأمر الحرس والسائس بانتظاره ثم ركب حصانه متظاهرا بأنه يقوم بنزهة مسائية كعادته في بعض الايام .

جال هنيبعل بنظره على الاسوار العملاقة ، المشرفة على افريقيا والمتوسط منذ ستة قرون ، وانطلق نحو الشرق ، وحده ، في مغامرة جديدة ، قد تعيد المتوسط كله الى حضن أمته وحضارتها ...

هنيبعل يقصد انطيوخوص ، ملك وطن أجداده الاصلي . كان وحيدا بين قومه ، يراقب تطورات الاحداث في حوض المتوسط . وما تطمح اليه رومة وامبراطوريتها ومجلس شيوخها يطمح اليه هو وحده . لم يفقد بعد كل أمل بالانتصار . ومن أغرب أحداث التاريخ ، تاريخ السوريين بصورة خاصة ، ان ما لم تجرؤ عليه قرطاضة عندما كانت في أوج مجدها ، فلم تستجب لاستغاثة صور لتساعدها على رد الاسكندر ( ٣٣٣ ق.م. ) ، يجرؤ هنيبعل وحده اليوم على محاولة تحقيقه : التعاون بين سورية وابنائها عبر البحار للدفاع عن حضارتها . هنيبعل مشرد من قرطاضة . وهنيبعل لا يطمح الا أن يكون مستشارا وقائدا عند انطيوخوص . وهذا الهنيبعل نفسه يطمح الى أن يسبب انهزام رومة وسيادة سورية على المتوسط وتجديد مجد قرطاضة .

فلنتبعه حاملا مطامح أمة ومصيرها يريد انقاذها من العبودية .

« في تلك الليلة وفي اليوم التالي اجتاز هنيبعل ١٢٠ كيلومترا على حصانه . مر على « زوجيتانة » و « بيزاسيوم » ووصل الى دارته المبنية على الشاطىء بين « أسيلة » و « تبسوس » . هناك كانت تنتظره سفينة مع سبائك من الذهب جاهزة التوضيب . وقد بلغ « سرسينة » قبل الليل . كانت في ذلك المرفأ سفن فينيقية . عرف القائد ، وهتف له البحارة المتحمسون بل بالغوا بالتحمس له ...

« وفي اليوم التالي ، عندما استيقظوا متأخرين ، كان الساحر قد غاب مع ضباب الصباح ...

« وعندما أبلغت السفن الاتية من سرسينة الى قرطاضة الحقيقة الى القرطاضيين ، كان الساحر قد أصبح بعيدا ، على الامواج الزرقاء ، في طريقه نحو الشرق . وقد طاردته سفينتان حربيتان من ذوات الصفوف الثلاثة ، ولكنهما لم تلحقا به .

« أراد حكام قرطاضة ، المهللون لهرب هنيبعل كالابالسة ، أن يبرئوا أنفسهم أمام الوفد الروماني ، فأعلنوا هنيبعل خارجا على الشرائع ، وهدموا قصره وصادروا ما يملك » .

هل فكر هنيبعل في تلك الفترة الدقيقة من حياته انه كان عليه ، قبل

أن يجتاز جبال الالب ، أن يزحف على قرطاضة نفسها ويخلع حكامها ، ويقيم نظاما قوميا جديدا ، مرتكزا على الشعب ، مشكلا ، بجميع مؤسساته الدستورية ، من عناصر شعبية جديدة ، متفجرة من صميم شخصية الشعب وحيويته ؟ ذلك سر ذهب مع هنيبعل .

« هكذا انتهت تجربة هنيبعل لحكم قرطاضة وانهاضها . فالضربة وجهت اليه من قرطاضة نفسها ، ومصيره كان شبيها بمصير ملكو من قبله. وعندما نتأمل في عقلية من هذا النوع تضحي بموضوع أملها الاخير لاسباب هكذا حقيرة ، لن نكون محتاجين الى أكثر من ذلك لنكتشف الاسباب التي جرت فيما بعد الى سقوط قرطاضة وزوالها من الوجود .

« وكان من الطبيعي ، بدون أدنى ريب ، أن يحاول الذين خانوا هنيبعل أن يعللوا عملهم ويجعلوا أسبابه مقبولة في الظاهر . فالحزب المحافظ المقتنع بأن سلامة قرطاضة كانت تستند على تخليها عن الكبر والطموح ، وعلى مطلب متواضع هو تكديس الثروات ، هذا الحزب لا بد انه كان له مفهوم غريب عن نظرة حكام الدولة الرومانية في التجارة .. ان التجارة شأن سياسي . وطالما بقي الانسان حيوانا مهتما بالسياسة فستبقى التجارة هي الوسيلة لانشاء علاقات متبادلة بين الناس . فالسيطرة على الوضع الاقتصادي مرتبطة بعملية الحكم ارتباطا لا انفصام له الى حد ان الامرين يتشابكان بين أيدي الذين يتولون زمام السلطة . ان السلطان التجاري هو قوة ، ولا يمكن لاية قوة أن تكون محايدة في السياسة . ولذلك يجب أن يكون للمرء مفهوم للامور في غاية الخطأ ليعتقد ان نظاما تجاريا هنا يمكنه أن يبقى في حالة استقلال عن وجوه النشاط الانساني الاخرى المدرجة تحت عنوان السياسة .

« لقد كان من شأن نفي هنيبعل نفسه أن يستتبع لقرطاضة التخلي عن القوة الوحيدة التي كان بامكانها أن تصون جميع مصالح قرطاضة التجارية ، كما كان في هذا النفي أيضا معنى زوال الهدف الاوحد — يعني الحكومة — الذي يعطي تلك المصالح المختلفة قيمتها الكبرى . وعندما حدث سقوط قرطاضة اثبت هذا السقوط بوضوح ان الفكرة الاساسية التي أقام الفينيقيون عليها وجودهم ، فكرة التجارة المتجردة عن كل سياسة ، لم تكن الا حلما من المحال ، فالانسان الغني المجرد من الاهمية السياسية يوجد في عالم الاحلام وهو لا يوجد الا هناك فقط » .

« استقبلت صور هنيبعل بصورة لائقة ، بل رحبت به بالحفاوة التي تليق بأعظم أبنائها وانجبهم . وبعد ان قضى هنيبعل بضعة أيام مكرما معظما ، أسرع بالسفر الى آسية الصغرى حيث اجتمع بأنطيوخوص في « أفسس » . وعندما استقبله الملك قبله واعتبره رسولا آتيا رأسا من السماء . كل شيء اذن كان على ما يرام » (٧٥) .

عندما صممت رومة على عدم الاصغاء لنصائح سيبيون باللاتدخل في شؤون قرطاضة الداخلية ، وبعدم تشجيع ملك بربري كمسينيسا على التحرش ببطل كهنيبعل ، لم يكن مجلس الشيوخ يتوقع أن يفلت هنيبعل من يده ويصبح قوة عسكرية ومعنوية هائلة في يد انطيوخوص . لذلك كان لا بد لرومة من أن تواجه الحدث الجديد بتدابير واقية ، خصوصا وان أعداء هنيبعل من الحكام القرطاضيين قد أطلعوها على بعض التفاصيل من مشاريع هنيبعل الحربية بعد تفاهمه مع انطيوخوص .

أصبح هنيبعل مستشار انطيوخوص العسكري ، فأطلع الملك على تصميمه الاول : مائة سفينة حربية ، جيش مؤلف فقط من عشرة الاف مقاتل راجل والف خيال ، يكون هنيبعل في القيادة ، يمر على قرطاضة حيث حزب البرقاويين مستعد للتعاون معه ، ومن هناك ينزل في نقطة معينة من السواحل الايطالية ، وقد احتفظ بسر ذلك المكان لنفسه .

لم تقف رومة مكتوفة اليدين أمام النشاط الذي بدأ يبديه هنيبعل عند انطيوخوص . فقد لا تكون فهمت حقيقة مخططات القائد الفينيقي الكبير ، ولكن ما وصلها من معلومات يدل على نشاط واسع النطاق موجه ضدها . قبضت السلطات القرطاضية على اريسطون ، أحد الصوريين الواصل مؤخرا من صور . وقد اتهمته السلطات بمحاولة الاتصال بحزب البرقاويين . لم يثبت عليه شيء لانه لم يكن معه شيء مكتوب ، ولكن مجرد وصوله في ذلك الوقت جعل الشبهات تحوم حوله ، وأقلق مجلس الشورى الروماني .

وأراد الرومان ، كعادتهم ، أن يربحوا وقتا ، وان يستجلوا الحقائق بجميع وسائلهم الدبلوماسية ، فقرروا ارسال وفد الى انطيوخوص ، بعد أن أفهموا وفد انطيوخوص اليهم ان رومة ترفض اي ادعاء للسلوقيين في مقدونيا . وقد كانت مهمة الوفد الروماني الى انطيوخوص مهمة دهاة سياسيين محنكين ، هدفهم ان يسبروا أغوار مطامع انطيوخوص ، وأسرار استعداداته وامكاناته الحربية ، ودور هنيبعل في مخططات السلوقيين ، وان يطيلوا الوقت الذي يسبق اصطدامهم بأنطيوخوص في آسية الصغرى ، لكي يحتاطوا لجميع الطوارىء المحتملة .

لقد ابدت رومة في هذه الفترة الدقيقة نشاطا دبلوماسيا منقطع النظير في ذلك العصر . كان عليها أن تراقب في آن واحد قرطاضة ، ومقدونيا ،

والدويلات اليونانية ، ودول آسية الصغرى ، وانطيوخوص السلوقي في سورية ، ومصر التي وضعت نفسها تحت حماية مجلس الشيوخ الروماني ، كما كان مفروضا عليها ان تعد جيوشا لمواجهة جميع الطوارىء في أية جبهة تفتح عليها في هذه المناطق من العالم .

قرطاضة كانت مهددة بنزول هنيبعل في نقطة ما من شواطئها ، وصقلية أيضا كانت تتجه اليها انظار الاعداء ، والمدن اليونانية ، بالرغم من تصرف رومة المتساهل معها والمشجع لها ، لم يكن يركن بصورة قاطعة الى حيادها أو محافظتها على الصداقة الرومانية ، فقد تستهويها مشاريع انطيوخوص ، أو المدن اليونانية الاسيوية ، أو مقدونيا . فانتصار طيطوس كوينتوس فلامينيوس على فيليب الخامس المقدوني في معركة جبل « رؤوس الكلاب » لم يعطل نهائيا كل امكانات مقدونيا واليونان الحربية . كان على رومة أن تكون حاضرة بدبلوماسيتها وقواتها العسكرية في كل مكان حتى تتمكن من تحطيم كل قوة عسكرية طموح في حوض المتوسط جميعه .

بعد الوفد الذي أرسله مجلس الشيوخ الروماني الى قرطاضة ليشعرها ويشعر جارها النوميدي العاتي ان رومة موجودة ومراقبة ، أرسل مجلس الشيوخ وفده الثاني الى انطيوخوص ، مع تعليمات خاصة بأن يمر الوفد في آسية الصغرى ويقوم باتصالات دبلوماسية هناك ، خصوصا مع « أومانوس» ملك « برغام » . ويبدو ان بين أعضاء الوفد كان سيبيون الشهير قاهر هنيبعل في زاما ، والخصم النبيل الذي احترم هنيبعل وأحبه ، وفرض على مجلس الشيوخ الروماني احترامه وعدم التعرض لسياسته الداخلية ما دام نفوذه قد مكنه من ذلك . وكان بين الوفد شخصيتان قويتان اخريان هما بوبليوس فيليوس وبوبليوس سولبيسيوس غاليا .

وصل الموفد الى أفسس فلم يجد انطيوخوص . ولكنه لم يضع الوقت ، بل استغل غياب الملك ليقوم باتصالات كانت ذات فعل كبير في مجرى الاحداث . قام بوبليوس فيليوس بزيارات عدة لهنيبعل ، ظاهرها أن يطمئنه الى موقف رومة المسالم منه ، وباطنها ان يسبر أغوار مقاصده ونياته البعيدة . كان طبيعيا ان لا ينجح فيليوس في مقصده اذ ان هنيبعل كان عالما غامضا على الجميع ، لا يتوضح الا لصاحبه . وكذلك سيبيون كانت له اجتماعات بهنيبعل . واذا كانت هذه الاجتماعات لم تفد الوفد الروماني معلومات وتكهنا بما ينوي هنيبعل عمله ، فأنها أقلقت انطيوخوص بعد عودته ، وزعزعت ثقته بهنيبعل ، وخلقت عنده شيئا من التحفظ والتكتم بالنسبة الى مستشاره العسكري .

لم يصل الوفد الروماني الى نتائج حاسمة من أبحاثه مع الملك السلوقي، ولكن الدبلوماسيين الدهاة كونوا فكرة واضحة عما يطمح اليه أحد خلفاء الاسكندر الطموحين في الشرق . وقد تكون عندهم سؤال متوسطي كبير :

« هل ستقع دول شرقي المتوسط تحت سلطة اسيوية ، أم سيسودها سلطان اوروبا ؟ تلك هي المعضلة . ولم تكن معضلة يحتمل أن يحلها اجتماع » (٧٦).

ثم أرسل مجلس الشيوخ الروماني ناظر الخارجية طيطوس كوينتوس فلامينيوس ، صديق مدن اليونانيين ومحررهم من سيادة مقدونيا ومن الحاميات الرومانية التي كانت تحتل مدنهم بعد معركة « رؤوس الكلاب » ، على رأس وفد الى المدن اليونانية ليتأكد من أمانتها للصداقة الرومانية .

لم تكن رومة ، في تصميمها المتوسطي التوسعي ، دولة تسويات ، تتجنب الخلافات والمشاكل ، واذا اضطرت الى مواجهتها حاولت أن تحلها سلميا ، وتبقي على عدوها السياسي . انها تريد تحطيم كل قوة عسكرية تقف في طريق توسعها . ولكنها لم تكن متهورة ، متسرعة . ان الوحدة السياسية الايطالية التي تتزعمها رومة ، والتي توثقت ارتباطاتها بعد انكسار قرطاضة ، قد أصبحت ، بالرغم مما لحقها من تدمير من جراء احتلال هنيبعل الماضي ، معينا غنيا من الموارد الطبيعية والقوى البشرية . فهي قادرة ان تعبىء ما تشاء من القوات المسلحة الجرارة ، القادرة أن تلبي جميع الميادين التي يحتمل أن تفتح عليها .

ان معضلة انطيوخوص ، بالنسبة الى رومة ، كمعضلة هنيبعل ، لن تحل الا بقوة السلاح . والميادين الحربية ستكون الفاصلة بين رومة والدولة السلوقية السورية .

زيارات بوبليوس سيبيون وبوبليوس فيليوس من جهة ، ومستشارو انطيوخوص الرعناء من جهة ثانية ، حولوا اهتمام انطيوخوص ، عن هنيبعل ورايه العسكري المتفوق وحملته على ايطاليا مرورا بقرطاضة ، الى النزول السريع في غربي اليونان للاصطدام بالرومانيين ونجدة منطقة « ايتوليا » التي تجرات وحدها واعلنت الحرب على رومة . وفي الاجتماع الذي قرروا فيه صرف النظر عن حملة هنيبعل الى افريقيا فايطاليا لم يسمح لهنيبعل بحضور الاجتماع واعطاء رأيه .

وفي اجتماع اخر حضره هنيبعل تطفل أحد الفلاسفة الحاضرين ، واسمه « فورميون » وأخذ يشرح قواعد القيادة العامة في حالة الحرب ، ولما سئل هنيبعل رأيه في ما يقول الفيلسوف أجاب : « سمعت في حياتي كثيرا من البلهاء المسنين يتكلمون ، ولكنهم لم يصلوا الى جنون هذا المتكلم ! » ويعلق بيكر على هذا الاجتماع بقوله : « عبثا صارع هنيبعل ضد الغرور والغباء عند الانسان . لقد ابتذل الملك خطواته الاولى . عجز انطيوخوص عن الاستيلاء على المدن اليونانية الاسيوية . السفن المخصصة لحملة هنيبعل الى افريقيا لم تكن جاهزة . وللاحتماء وراء قوات انطيوخوص بعد ان جلبوا على أنفسهم غضب الرومان الصاعق ، روج الايتوليون السؤال التالي : هل حملة هنيبعل الى افريقيا ضرورية ؟ وقد اغتبط انطيوخوص بسماع من كانوا يقولون له

ان اليونان كلها مستعدة ان تستقبله بالابتهاج ، حال وصوله . وبناء على هذه الحماسة المفترضة — التي لم تكن الا من انتاج خيالهم ولمصلحتهم الشخصية — اصر الايتوليون عليه لكي لا يحول اي رجل أو سفينة عن الحملة المعدة لليونان . ولم يكن هنيبعل ، حسب اجتهادهم ، الا مغامرا يعمل لحسابه الشخصي .... لقد اثبت اليونانيون خبثهم المعهود ، فكل ما تميزت به سذاجتهم الشيطانية في البرهان انما كان يستند على قسط ضئيل من الحقيقة . وهكذا قرر انطيوخوص ومستشاروه فجأة ان لا يتوجه هنيبعل الى افريقيا » (٧٧) .

عبر انطيوخوص بحر ايجه ونزل في ايتوليا مع عشرة الاف مقاتل وخمسمائة خيال وبعض الافيال ، فتعجب الايتوليون وقلقوا من قلة عدد جيشه ، فطمأنهم الملك بقوله ان حملة كبيرة هي في طريقها اليهم . ولكن ذلك لم يهدىء من روعهم ، اذ ان ذلك العدد الضئيل لم يكن قادرا ، لا على احتلال المدن اليونانية ولا على محاربة الرومان . لم تظهر حماسة اليونانيين المنتظرة فضلا عن تهرب الايتوليين انفسهم عن الاشتراك مع انطيوخوص في العمل لاحتلال المدن اليونانية من جهة ، ولفتح جبهة ضد الرومان من جهة اخرى . وقد جاء طيطوس كوينتوس فلامينيوس يحرض المدن اليونانية على انطيوخوص ويهزأ بقواته الهزيلة التي جاء ليحارب بها رومة ويخضع المدن اليونانية التي منحتها رومة كامل حريتها .

تضايق انطيوخوص من موقف المدن اليونانية التي جاء ليحررها حسب زعمه ، والتي كانت تعتبره آتيا لاخضاعها لسلطانه أو لسلطان فيليب الخامس بعد ان حررها فلامينيوس وسحب الحاميات الرومانية من اليونان جميعها ، فعقد اجتماعا مع معاونيه ومستشاريه ليدرس الوضع الحرج الذي جر اليه . وقد عيل صبر هنيبعل ، الذي كان حاضرا الاجتماع ، من آراء المستشارين الرعناء فشرح للملك رأيه : أوضح للملك ان عليه أن يتعاون مع فيليب بدون قيد ولا شرط ، وهذا أمله الوحيد باحراز اي انتصار في اليونان . كما أوضح له انه ما يزال مقتنعا بضرورة نقل الحرب الى ايطاليا ، وانه لو كان أعطى حرية العمل ووسائله لكان الرومان اليوم يفكرون بالدفاع عن أرضهم لا بمضايقة انطيوخوص في اليونان .

وقد أشار هنيبعل على انطيوخوص بجمع جميع قواته الحاضرة حالا ، وبارسال اسطول الى « كورسيرا » ليراقب حركة النقل في « برنديزي » ، واسطول اخر الى منطقة كامبانيا . وختم كلامه بقوله : انه اذا لم تكن معارفه عن فن الحرب عالية ، فهو على الاقل يعلم كيف يقاتل الرومان .

لم تؤخذ نصائح هنيبعل بعين الاعتبار . كان الملك قد بدأ يتضعضع في قراراته . أمر باستقدام جيشه واسطوله الباقيين في سورية . وعقد بعض المحالفات التافهة مع اليونانيين ، مما أساء الى فيليب وأغضبه ، فانساق الى

الاتصال بالرومان ، واعترضت مدن يونانية عديدة على وجود انطيوخوص على الارض اليونانية .

فشل مخطط انطيوخوص في جميع نقاطه ، فوجد نفسه اخيرا عدوا في بلاد اجداده ، وغازيا في اليونان التي جاء لانقاذها من الرومان ، وضيفا ثقيلا على الايتوليين انفسهم . اذ ذاك تذكر مشورات هنيبعل ونصائحه ، ولكن بعد فوات الاوان .

في ربيع سنة ١٩١ ق.م. ابحر القنصل الروماني مانيوس اميليوس غلابريو دون أن يعترضه أحد ، لان الاسطول الذي أشار هنيبعل بارساله الى كورسيرا لمراقبة برنديزي لم يرسل .

انسحب انطيوخوص الى « تيرموبيل » ( الابواب الحارة ) تلك التي سجل فيها السبارتيون بطولتهم العظمى في وجه الفرس سنة ٤٨٠ ق.م. وقد اعتقد انطيوخوص ان تلك الممرات لا تؤخذ ، وان بامكانه الصمود هناك في وجه الرومان . ولكن كاتون الرهيب ، عدو قرطاضة المخيف ، وعدو كل من وقف في وجه مطامع رومة ، أنزل بانطيوخوص أشنع الهزائم ، اذ عجز جيشه عن الوقوف للدفاع عن تلك الممرات ، ولجأ في نهاية المعركة الى الفرار، فانسحب وهيئة قيادته الى « الاتيا » ، ثم انتقلوا الى « كلسيس » حيث ركبوا سفينة اتجهت بهم نحو الشرق ، وكان هنيبعل برفقتهم .

لقد ارتاع انطيوخوص من نتائج الحملة ، وظن ان الرومان لا بد نازلون على الشواطىء السورية ، وعابرون المضائق الى آسية الصغرى . فشجعه هنيبعل وأوضح له بخبرته العسكرية ان الحرب ما تزال بعيدة عن النهاية .

كانت سنة ١٩٠ ق.م. فاصلة بين انطيوخوص والرومان . وقد تبين للعالم مرة أخرى ، بعد زاما ، ان الدولة القومية التي تسير شؤونها مؤسسات دستورية ناشطة تنتصر دائما على الدولة القوية التي يسيرها انسان واحد، أو تشرف عليها مؤسسات عتيقة جامدة . كان انطيوخوص وريث تلك الامبراطورية التي أسسها انسان فرد هو الاسكندر ، فلم تعش الا سنوات قليلة بعد موته . ثم نشأت على انقاضها دكتاتوريات من نوعها ، تقوم على سلطة فردية ، تنبثق من أسرة مالكة ، كما سنرى لاحقا .

في سنة ١٩٠ ق.م. كان لوسيوس شقيق بوبليوس كورنيليوس سيبيون الشهير قنصلا في رومة . وقد نال القنصلية بشهرة شقيقه الذي حمله على تولي قيادة الشرق ليتمكن هو ، بوبليوس ، من قيادة هذا الجيش ضد انطيوخوص .

تقدم سيبيون ، قاهر هنيبعل ، برا حتى ضفاف البوسفور . ورابط انطيوخوص على الضفة الاسيوية ليحاول منع سيبيون من العبور الى آسيا. وأسرع هنيبعل نحو الجنوب ليعبىء اسطولا فينيقيا لينجد به انطيوخوص . ان عبور سيبيون الى آسية الصغرى سينهي آماله الاخيرة بامكانية الانتصار على الرومان .

بالرغم من نجاح هنيبعل بالحصول على اسطول فينيقي ، ومن اشتراك الاميرال السلوقي السوري « بوليكسينيداس » في المعركة ، فأن سيبيون تمكن من العبور فانسحب انطيوخوص الى الجنوب من افسس مجليا عن قلعة « ليزيماشيا » العظيمة ، المشرفة على الخليج . حاول انطيوخوص ان يجس نبض سيبيون بشأن الصلح ، فكان جواب القائد الروماني ان على انطيوخوص أن يعبر جبال طوروس الى سورية وبعدئذ يبحث بشأن الصلح .

كان من الطبيعي ان لا يقبل انطيوخوص بذلك الاقتراح ، فقدر ان المعركة الفاصلة بين الرومان والسلوقيين ستكون في مغنيزيا ، في الشمال ـــ الشرقي من أزمير الحالية . وعندما تقرر مصير المعركة ارسل انطيوخوص رسوله الى بوبليوس ، وفوضه ان يقبل أي شروط تعرض عليه . أجابه الروماني بصورة متعالية ان شروطه لم تتغير . وهكذا بعد ان دفع انطيوخوص كـــل نفقات الحرب انسحب الى ما وراء طوروس وتوارى من التاريخ .

وفي الوقت نفسه كان هنيبعل يركب سفينة من خليج « بامفيليا » الى مكان مجهول آخذا معه سبائك الذهب . فعل هنيبعل ذلك لانه كان متأكدا من ان شروط الرومان للصلح مع انطيوخوص ستتضمن حتما تسليمهم القائد القرطاضي .

وكما ان معركة زاما قد جعلت الغرب تحت رحمة رومة ونفوذها ، كذلك معركة مغنيزيا قد نقلت الشرق الادنى من النفوذ السلوقي والبطالسي الى النفوذ الروماني . واتخذت رومة موقف المنتظر المتوقع الاحداث لتحتل فعليا تلك الاقطار التي خيمت عليها سطوتها .

## نهاية هنيبعل

مات هنيبعل وسيبيون في السنة نفسها ، سنة ١٨٣ ق.م. ، الاول مشردا مقهورا ، متنقلا من ملك الى ملك ، ناشدا قوة عسكرية تعوض عن تخاذل حكام بلاده ، في وطن أجداده وجواره ، ليحارب رومة التي اعتبرها عدوة شعوب المتوسط وحضارته ، والثاني متألما ، يائسا ، ينعي للناس جحود الناس وكفرهم بعظمة رجالهم .

مات هنيبعل على شاطىء من شواطىء آسية الصغرى ، ولا يعلم أحد من دفن جثمانه . أما سيبيون فقد مات في جزيرة يونانية كانت أرض منفاه ، وأوصى بأن يحفر على قبره : « ايها الوطن الناكر الجميل لن تكون لك عظامي » . وكأن المنتصر والمنكسر لفهما مصيران متشابهان . قد يكون ذلك صحيحا في المظاهر التي سببت نفي كل من القائدين ، ولكن شتان بين الدوافع الجوهرية التي شردت هنيبعل ، وبين تلك التي أوقفت سيبيون متهما في حسابات حملة الشرق ، أمام الجماهير في ساحة الفوروم في رومة .

ان حكام قرطاضة الذين تآمروا على هنيبعل وشردوه هم جبناء رعاديد ، تنازلوا عن عزة الشعب وكرامته وشرفه ، واستسلموا لمنافعهم الذاتية الحقيرة ، ورأوا في تكديس الثروات المادية وفي استغلال الشعب والتمتع بموارده كل مقاصد الحياة القومية والانسانية . وهكذا مسخوا الحياة في أشكال شوهاء ومقاصد معيبة .

أما مجلس الشيوخ الروماني الذي أراد محاسبة سيبيون بصورة تشهيرية ، فان غايته كانت الوقوف في وجه الاوتوقراطية الفردية التي استفحلت في شخصية سيبيون . لقد تساهل مجلس الشيوخ في بعض الشكليات ، وتحمل بعض التطاول على سلطاته وهيبته عندما كان سيبيون يفكك امبراطورية الكنعانيين ويذلهم لمصلحة رومة ، ويخضع مصيرهم لارادة أمير نوميدي تتآكل قلبه الاحقاد القديمة التي تعود ادراج ستمائة سنة الى الوراء. أما اليوم بعد أن حقق سيبيون مآثره الحربية الكبرى ، فأنه ، في نظر مجلس الشيوخ ، الساهر على مصالح رومة القومية البعيدة ، أمسى من الضروري وضع حد لمطامحه الفردية ، ولاوتوقراطيته البارزة ، لتعود مؤسسات الدولة، وعلى رأسها مجلس الشيوخ ، الى ممارسة صلاحياتها بدون تعثر بالعقبات الفردية . ولا يمنع الدارس من القول بأن مجلس الشيوخ كان قاسيا جدا في معاملته البطل القومي العظيم الذي جسد العبقرية العسكرية والبطولة والفروسية الانسانية في معان فذة نادرة .

ومات هنيبعل على شاطىء بحر مرمرة الشرقي ، حيث كان منذ سنوات يستنفر ما بقي في فكره من عبقرية ، وما عند « بروزياس » الثاني ، ملك « بيتينيا » من طاقة للصراع ، حتى يقف في وجه الموجة الرومانية المزمعة أن تحتل الشرق الادنى ، بعد ان جعلته تحت نفوذها . فلكأنه ، بعد أن فشل في مخططه في الغرب ، اعتبر نفسه المسؤول عن الحماية الاخيرة للشرق من المد الروماني الذي يجتاح حوض المتوسط كله .

ولم يكن هنيبعل في نظر الحقيقة التاريخية الانسانية ، بالرغم من عبقريته العسكرية الفذة ، وبالرغم من بطولته التي لا تقاس ، الا المحاولة الجبارة الاخيرة التي قام بها النظام الفينيقي — اليوناني المديني والفردي والاقليمي ضد النظام التعاقدي القومي الدستوري الذي جسدته رومة في مؤسساتها وفي وحدتها القومية الجديدة .

وقد علق المؤرخ بيكر على موت هنيبعل ، فقال :

« مات وكأنه فتح بابا وخرج منه في منتهى البساطة ! فهل توارى في هوة لا قرار لها ، أم مثل أمام الله ليحاكم ؟ اننا ، اذ نجهل ما يمكن أن تكون هذه المحاكمة ، لا نستطيع الا أن نقيس هنيبعل ونقدره بمقاييسنا . فهل كان نيزكا اخترق ليل تاريخ الانسان بلا معنى ، وبلا هدف ؟ أم كان واحدا من تلك الكواكب الفائقة الجمال ، يتبع مسرى محددا ، ويحدث تأثيرا معينا ؟ هذا ما جعل تاريخ هنيبعل يسحر الناس ويدهشهم الى أعمق اعماقهم . ان يكون رجلا عظيما ، فهذا ما لا يرقى اليه شك عند أحد . ولكن هل كان شيئا اخر ؟ ما هي الرسالة التي حملها الى العالم ؟

« من حيث هو رجل ، ليس لنا ما نقول فيه الا القليل . واذا اعتمدنا ما وصل الينا من أصداء ، نرى ان هنيبعل كان رجلا هادئا ، حسن الاخلاق، منصفا، عادلا ، ذا نزاهة تامة ، متين الاعصاب ، رابط الجأش في مختلف المواقف . لا يشرب الخمر الا قليلا ، وكانت مواقفه من المرأة تدهش معاصريه لما اتصف به من العفة . أعداؤه وحدهم وصفوه لنا ، ومن خلالهم نعلم انه لم يقل فيه الا ما يشرفه . ونادرون جدا هم الذين نستطيع ان نقول فيهم مثل هذا القول ...

« ... تسترعي الانتباه في شخصية هنيبعل ميزتان اثنتان : عبقريته الاستراتيجية ، وطرافة النكتة في أحاديثه وخطبه . ثم انه كان رجل المفاجآت. كانت وعوده جديرة بالثقة ، الا انه كان يفي بها بطريقة غير منتظرة . فهو قبل كل شيء ، فريد بين الرجال . ولم يكن أحد يستطيع ان يعلم كيف ستكون أقواله وأعماله . والذين حاولوا ان يحزروا ، أخطأوا دائما .

« قليلون هم القادة الذين وفروا قواتهم بعناية كما كان يفعل . كان يقدم على المجازفة من أجل هدف مهم ، كاجتياز جبال الالب ، مثلا ، أو جبال « الابنان » ، الا انه لم يجازف قط من أجل هدف عديم الفائدة .

« ان رجال الدول ، وقادة الجيوش ليسوا الا ربابنة سفن . والامواج لا تخضع لمشيئتهم . وتاريخ هنيبعل هو انصع برهان على هذه الحقيقة . فلو قدر لرجل ان يغير ، هو وحده ، مجرى التاريخ ، لكان هنيبعل هو هذا الرجل ، وعلى هذا المستوى ، الا انه لم يستطع ذلك ، او بالحري لم يستطع تحقيق التغيير الذي فكر فيه واراده .

« عظمة هنيبعل تكمن في الهام فكره ، ذلك الالهام الذي ، اذا عوكس ، أو شوه ، أو نفذ بشكل يختلف عن مفهوم صاحبه ، أمسى بلا جدوى ... وكان هنيبعل ، في ذلك ، فينيقيا حقيقيا ، لا يعطي على مدى طاقته الا في العزلة .

« .. ان الحرب التي شنها هنيبعل على رومة هي منعطف تاريخي لنمو الانسان ... فالتجربة الصعبة التي زج فيها الرومان اثبتت ان الوحدة الشعبية التي صنعت في الفوروم ومجلس الشيوخ كانت متفوقة على القوة المنبثقة من العلاقات العائلية ، وحتى من قدرة الفرد العبقري .. » (٧٨) .

# آثار كنعانية في غربي المتوسط

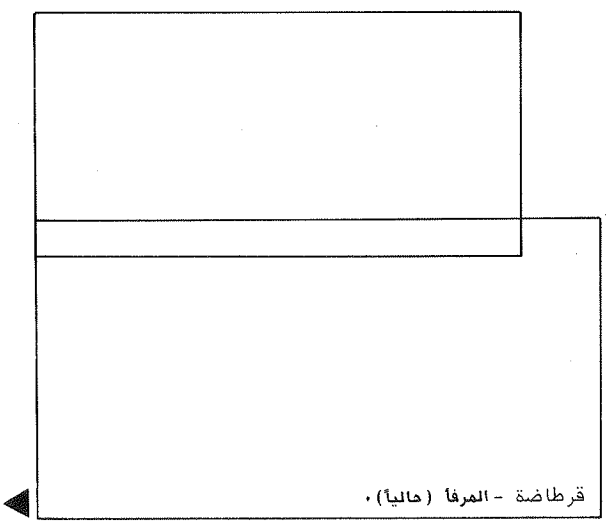

قرطاضة - المرفأ (حالياً).

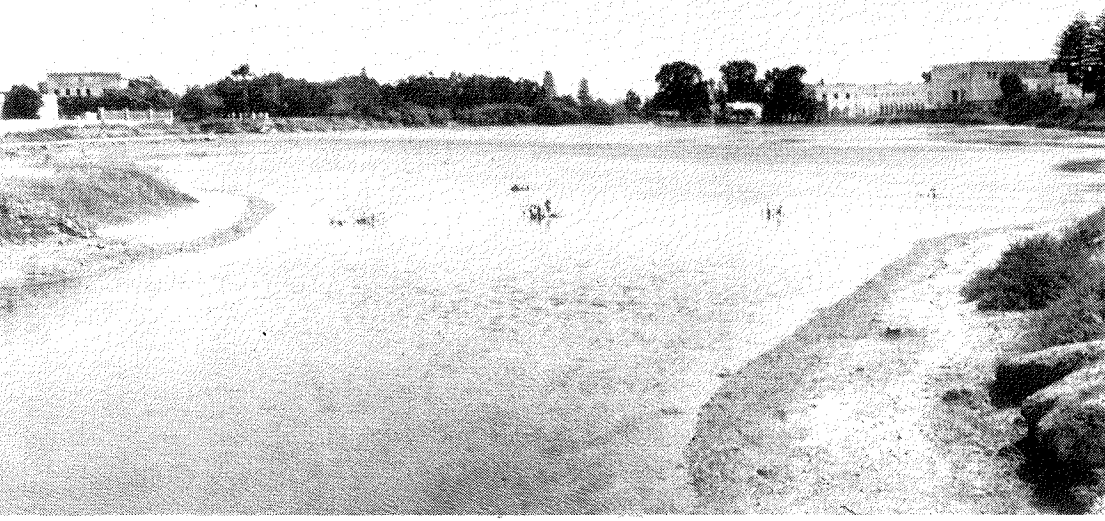

# انتفاضة قرطاضة الاخيرة

## قرطاضة في سنواتها الاخيرة

لقد أدمنت قرطاضة والمدن اليونانية الاسيوية والاوروبية على الاقليمية والفردية والجمود في المفاهيم القومية والسياسية العتيقة حتى الموت . انه لمن أغرب الاحداث التاريخية أن يكون الشعبان اليوناني والكنعاني قد بقيا في مدن مستقلة مع أن شخصيتيهما الشعبية والثقافية والحضارية كانتا متبلورتين واضحتين ، بينما تمكنت رومة من توحيد الاقوام الايطالية المختلفة الاعراق واللغات في كيان قومي واحد صهرها جميعا في بوتقة مجتمعية واحدة.

المدن اليونانية نبهت منذ الغزو الفارسي في أوائل القرن الخامس ، فكان الخطر الفارسي أقوى حافز يدعوها الى الوحدة القومية لتقف في وجه المخاطر الخارجية . وقد نبهت أيضا في النصف الثاني من القرن الرابع عندما أرغمها فيليب وابنه الاسكندر على الاتحاد . وها ان الخطر الروماني يدعوها مرة ثالثة الى الوعي والتنبه ، وبالرغم من كل ذلك فأن فرديتها واقليميتها يجمدانها في أوضاعها العتيقة حتى تأتي ساعة العبودية .

كذلك قرطاضة قد أعطيت انذارات أقسى مما أنذرت به اليونان من قبلها . ان الحرب الفينيقية الاولى كانت كارثة معنوية ومادية على القرطاضيين . فقرطاضة التي أخضعت المدن اليونانية في صقلية وسردينية وكورسيكا وفي الجهة الشرقية من شمال افريقيا وأصبحت سيدة المتوسط الغربي في البحر والبر ، ضربتها رومة ضربة قوية افقدتها سطوتها وهيبتها وأمنعيتها ، وانتزعت منها تلك الجزر الكبيرة التي صارعت ثلاثماية عام للسيطرة عليها .

ثم جاءت الحرب الفينيقية الثانية فكانت كنفير الحشر بالنسبة الى الفينيقيين وحضارتهم ومصيرهم ، ليس فقط في غربي المتوسط بل في شرقيه أيضا . فكما كانت رومة متطلعة الى كل ساحل وخليج من سواحل وخلجان

المتوسط ، كذلك كان هنيبعل طامحا ليقيم دولة متوسطية واحدة . ولكن حكام قرطاضة ظلوا جامدين في اجداث مفاهيمهم المحنطة ، فلم يمزقوا أكفان الماضي ويقفوا على أرجلهم ، مرتدين حلل البعث والنشور والتجدد .

وقد مددت الفرص لقرطاضة لتنهض ولتطور وتجدد معالم حياتها : كان من حظها ، بعد ان تجاهلت نفير اليقظة مرات عديدة ، مستسلمة الى جمودها ، أن يكون المنتصر عليها في المعركة الفاصلة رجلا غير مجرد من روح الفروسية والانسانية ، هو بوبليوس كورنيليوس سيبيون ، الذي أعجب بهنيبعل واحترمه الى درجة انه عند انتصاره عليه أراد أن يكون متساهلا في شروط الصلح ، وأن يعطي هنيبعل ومدينته المجال للبقاء ، مادامت قرطاضة بحسب اعتقاده ، لم تعد تشكل خطرا كبيرا ومباشرا على رومة . وفسح في المجال امام القائد الفينيقي العظيم ان يصبح رئيسا على بلاده وأن يقوم بالاصلاحات اللازمة لتغيير مجرى حياتها ، اذا لم نقل تغيير جميع مفاهيمها بصورة سريعة لتجاري رومة في وضعها القومي . لقد كان بامكان قرطاضة أن ترى بصورة تدريجية قواعد الحياة الجديدة التي ابتكرتها رومة وارتفعت عليها ، أو أن تعود الى مفاهيم أكاد وبابل القومية . ولكن حكام قرطاضة الاغبياء والعقوقين ، أبوا الا أن ينحروا مدينتهم ومصير شعبهم وينتحروا بدورهم ، فتآمروا على بطلهم ومنقذهم وشردوه . وبالرغم من موقفهم المشين بقي اثنتي عشر سنة في منفاه يصارع عبثا ما في الانسان من بلاهة وغرور .

من أجل قرطاضة وشعبها لجأ الى انطيوخوص ، وحاول ان ينصره على رومة . ومن اجل قرطاضة وشعبها لجأ الى جزيرة كريت بعد ان يئس من انطيوخوص ، فاضطر ان يعيش زمنا مع القراصنة واللصوص والمجرمين، فكان بطولة وفضيلة وعبقرية منفية في جزيرة تسيطر فيها الرذائل بأبشع صورها . ومن أجل قرطاضة أيضا أنقذ سبائك الذهب التي ترافقه من أيدي اللصوص والقراصنة ولجأ الى بروزياس الثاني ، ملك بيتينية فعمل عنده كمستشار عسكري سبع سنوات .

كل هذه الاحداث الضخمة التي مرت من سنة ٢٦٤ الى سنة ١٨٣ق.م.، والتي تقلق الاموات في قبورهم ، لم توقظ القرطاضيين من غفلتهم ، بل ظلوا يسيرون الى حتفهم ، كأن الفناء قدرهم .

بعد مغادرة هنيبعل قرطاضة ولجوئه الى السلوقيين في سورية تحول مسينيسا الى ذئب مفترس ، يريد ان ينشب أنيابه في خواصر الدولة القرطاضية وأطرافها ، ويريد أن يتصرف كأنه سيد شمالي افريقيا الفينيقية من خليج سيرانية الى شواطىء بحر الظلمات .

كل ما حققه الفينيقيون في شمالي افريقية من بناء في جميع ميادين الحياة الزراعية والصناعية والفكرية والدينية ، وفي توزيع بذور حياة حضارية راقية خلال ستة قرون ، أمسى تعديا واغتصابا في نظر الرجل الذي كان

مطمحه الوحيد بالامس أن يكون صهرا لقرطاضة ليصبح معترفا بجميع مآثرها وتابعا لها .

لقد اشتدت شهوة مسينيسا الى الانتقام ، والاذلال ، والتوسع ، بعد أن توارى هنيبعل عن مسرح قرطاضة ، اذ أدرك الزعيم والملك النوبي أن الطبقة المتخاذلة قد استأثرت بالحكم .

أعادت معاهدة الصلح بين رومة وقرطاضة الى مسينيسا كل الاراضي التي كان قد اغتصبها منه سيفكس ، ومن ضمنها جميع الاراضي التي كان قد تنازل عنها الملك السابق لقرطاضة . وقد وجد مسينيسا ان ذلك لم يكن كافيا ، وانه ، حسب المنطق السليم ، يجب أن تعاد له جميع المساحات التي ملكها قديما أجداده ، والتي اغتصبها الفينيقيون عند مجيئهم الى افريقيا .

يتضح من ذلك ان مسينيسا كان يفكر بتنفيذ ما أحجم عنه سيبيون ومجلس الشيوخ الروماني : محو قرطاضة من الوجود ، أو استعبادها استعبادا كاملا . بل هو ، في مقاصده البعيدة ، تجديد لماتو القديم ، زعيم المرتزقة الثائرين بعد الحرب الفينيقية الاولى ، ولكنه تجديد له صفة الشرعية، وتدعمه رومة ، وهو ينوي ضرب قرطاضة بعد أن أمست يتيمة من الابطال وأعوانهم ، وبعد أن كره هنيبعل حكامها وأساليبهم الحقيرة ، وأرغم على تركهم يقاسون أرهب مصير قاساه شعب حضاري في التاريخ .

وبينما كانت هذه الافكار والنيات العدوانية تختمر في رأس مسينيسا ، اذا بالظروف تشجعه على البدء بتحرشاته : لقد ثار عليه أحد الشيوخ من اتباعه ، ولما هزمه لجأ الثائر مع عدد من الثوار الى قرطاضة ، فكان من واجب المدينة ، حسبما تقتضيها تقاليدها ، ان تحمي اللاجئين الى حمايتها . وعندما حاول مسينيسا أن يجتاز حدود الارض القرطاضية ليلقي القبض على الثوار اللاجئين ، كان من الطبيعي ان تمنعه قرطاضة عن انتهاك حرمة ارضها . فما كان من الملك المستهتر بحرمة الجيرة ، وقد يكون ذلك بتحريض من الرومان ، الا أن بدأ ، بعد حين ، باجتياح المناطق القرطاضية الساحلية المجاورة له وبنهبها وفرض الجزية على المدن التابعة لقرطاضة .

كانت قرطاضة قادرة أن تصد المعتدي وتحمي أرضها من العدوان ، ولكن المعاهدة الرومانية ــ القرطاضية كانت تمنع عليها استعمال السلاح الا بعد استئذان رومة . لذلك اضطرت قرطاضة ان ترسل وفدا الى رومة يطلب منها حمايتها من جارها المعتدي ، فأرسلت رومة بدورها وفدا ليحقق في أسباب الخلاف ، ولكنها ، بعد أن أكمل وفدها جميع تحقيقاته مع الطرفين المجتمعين أمامه ، تركت الامور يجرها الزمان ويكون منها مضاعفات جديدة ترفع حدة التوتر بين الدولتين الحضارية والبدائية . وقد تكررت تعديات مسينيسا بعد ان عرضت قرطاضة على رومة في سنة ١٩٠ ق.م. ان تدفع الغرامة الحربية المقسطة على خمسين سنة دفعة واحدة وتتحرر من

عبوديتها ، وللمرة الثانية بعد موت هنيبعل سنة ١٨٣ ق.م. فقد اتجهت قرطاضة ، بعد ان أغلقت في وجه صناعتها أبواب غربي المتوسط ، نحو الشرق ، فغزت صناعتها المتقدمة أسواق مصر وما وراءها عبر البحر الاحمر، كما غزت سورية السلوقية وسائر بلدان الشرق ، فعوضت تجاريا عن الخسائر التي منيت بها من جراء اقفال الغرب في وجهها .

وهذا الانتعاش الاقتصادي كان له صداه في الميدان السياسي أيضا : فحزب البرقاويين تجدد نشاطه تحت اسم « الحزب الشعبي » أو كما يسميه « ابيان » « الحزب القومي » ، وكان شعاره ان لا يتفاهم مع المنتصر الروماني المصمم على متابعة اذلال الفينيقيين ، بل أن يرمم قرطاضة ، ويجدد مصانعها الحربية ، فينتقم أولا من الجار الفظ المتآمر مع رومة على جارته ، ثم يضع حدا أخيرا لتدخل رومة في شمالي افريقيا .

وقد وقف في وجه هذا الحزب حزب حنون القديم ، الحزب الانهزامي الذي ما فتىء يبشر بالسلام مع الرومان ، فتمسي قرطاضة بصورة مستمرة دولة صغيرة تابعة لرومة خاضعة لمشيئتها ، مؤتمرة بأوامرها . وهو الحزب الذي جر قرطاضة الى الكوارث التي منيت بها .

ولكن الى جانب هذين الحزبين القديمين ، نشأ حزب جديد يحمل فكرة مبتكرة تكون نقطة انطلاق لاعماله الكبيرة : هو يبشر بالتفاهم مع مسينيسا على حساب رومة ، بل يذهب الى أبعد من ذلك : هو يفكر باقامة اتحاد بين قرطاضة ونوميديا يكون مسينيسا ملكا عليه ، وتسيره قرطاضة بنظامها ومؤسساتها السياسية . بهذه الطريقة تصبح قرطاضة سيدة شمالي افريقيا من جديد ، وقادرة ، في مستقبل قريب ، ان تحمل السلاح ضد الرومان وتنتقم .

يبدو ان الحزب القومي تمكن من السيطرة في تلك المرحلة . فالحزب الحنوني الانهزامي كانت تزيد نقمة الشعب عليه كلما ازداد مسينيسا غطرسة وعدوانا . والحزب الجديد الذي كان يفكر بجمع شمالي افريقيا في دولة قرطاضية — نوميدية واحدة بدا متطرفا في آرائه ، وسابقا أوانه في هذه الافكار الجديدة ، أو انه جاء متأخرا وبعد فوات الفرص السابقة .

ولما شعر الحزب القومي الحاكم ان رومة تتغافل أو تتغاضى عن وضع مسينيسا عند حده ، متعمدة تشجيعه على التنكيل بالفينيقيين في المدن الساحلية وفي المزارع الداخلية ، قرر ، أخيرا ، العودة الى التسلح ، فبدأت مصانع السفن تبني السفن الحربية ، ومعامل السلاح تصنع جميع أنواع الاسلحة .

وفي سنة ١٥٣ ق.م. بينما كانت رومة منشغلة في اسبانيا في حرب مع « السلتيباريين » ، وكان مسينيسا موجودا هناك على رأس جيش يساعد الرومان في حربهم ، اغتنمت قرطاضة هذه الفرصة فهاجم كرتلون حاكم الولايات الشرقية التي ما تزال تابعة لقرطاضة ، الحامية النوميدية

المحتلة المنطقة التي وقع عليها الخلاف في الماضي ، كما احتل معسكر النوميديين بعد ان فتك بقسم منهم ، وأثار الفلاحين الليبيين على مسينيسا المعتدي .

أسرعت رومة وأرسلت وفدا للتحقيق ، ولكنها هذه المرة تصرفت بتحيز مع النوميدي أكثر منها في كل مرة سابقة ، اذ كانت بحاجة ماسة لمعونته في الحرب الاسبانية . فاضطرت قرطاضة ان تعيد المنطقة القرطاضية التي كانت انقذتها من أيدي النوميديين .

ولم تقف الحالة عند هذا الحد : فلم تمض سنة على هذا الحادث حتى هاجم مسينيسا « السهول الكبيرة » ومنطقة « توسكا » مدعيا انها من أملاكه . ومرة أخرى وأخيرة لجأت قرطاضة الى رومة لترد عنها جارها المعتدي . لم تسرع رومة هذه المرة بارسال الوفد بل تباطأت ، كأن تواطؤا كان قائما بين رومة وتابعها . ولما وصل الوفد وجمع الطرفين في مؤتمر اتبع خطة غريبة : فبالرغم من أن منطقتي السهول الكبيرة وتوسكا هي ضمن الحدود القرطاضية حسب المعاهدة التي عقدها سيبيون ، فان الوفد فرض نفسه حكما وطلب من الطرفين اعطاءه صلاحيات مطلقة لحل الخلاف . كان من الطبيعي ان يرضى مسينيسا بالتحكيم ، لانه كان واثقا من ان الحكم سيكون لمصلحته ، أما القرطاضيون فقد رفضوا طلب الرومان وأوضحوا لهم ان لا لزوم لاتباع هذه الاساليب ، بل من الضروري الرجوع الى المعاهدة والقضاء حسب نصوصها . ولكن الوفد ، الذي كان كاتون رئيسه أو أحد أعضائه ، قفل راجعا الى رومة ، تاركا الخلاف ناشبا بين الطرفين ، عندما علم انه لا يقدر هذه المرة أن يكون مساعدا لمسينيسا على العدوان ، ومعطيا الوضع العدواني الجديد صفته القانونية .

أمام هذا المخطط الروماني الخبيث لاستهلاك كل ما بقي عند الفينيقيين من كرامة في مناوشات استنزاف متواصل ، رأى الحزب القومي الحاكم ، بينما رومة ما تزال عالقة في حرب طاحنة في اسبانيا ، انها لحظة لن تسنح بعد الان لتقف قرطاضة موقفا يلائم عزتها المكبوتة ، وكرامتها المقهورة ، ويحتويه مصيرها الذي يتقاذفه عدوان لدودان : الواحد بربري فظ ، لا يعرف الرحمة والعدالة ، والثاني طماع قاس ، ابتذل جميع القيم في سبيل مطامعه اللامحدودة .

قرطاضة هي ، بدون ريب ، حوالي سنة ١٥٠ ق.م. وبنفوذ الحزب القومي ، على منعطف في سياستها الخارجية . فهي باتت تعتقد انها أصبحت على جانب من القوة يمكنها من مخاطبة المنتصرين بلغة صارمة ، ومن مقاومة ادعاءات اتباعهم . فحكامها يعتبرون ان رومة المكبلة اليدين الان في حربها الاسبانية المستفحلة يوما بعد يوم ، هي أعجز من أن تخلق لنفسها مشاكل أخرى في أفريقيا . فالظروف تبدو لهم جد مؤاتية ليجابهوا بحزم

مطامع مسينيسا ولاعتبار انصاره في قرطاضة بعد اليوم مواطنين اشرارا وخونة للوطن . والمحرضون بينهم ، وعددهم أربعون ، حكم عليهم بالنفي ، والحكومة الطائعة لاوامر الحزب القومي جعلت الشعب يقسم في « جمعيته العمومية » بأن لا يسمح بعودتهم ولا أن يبحث بشأن رجوعهم .

ولكن الاربعين منفيا الذين نبذهم الشعب القرطاضي كانـوا يمثلون الانهزامية والخيانة في أسفل دركاتها ومظاهرها . لقد لجأوا الى مسينيسا واخذوا يحرضونه على شعبهم ودولتهم ، ويشجعونه على مهاجمة قرطاضة وابادة القوميين الحاكمين . ولما كان مسينيسا يفتش عن أقل مبرر ليجدد تعدياته ، فقد سولت له نفسه الامارة ان يفرض على الدولة القرطاضية الصفح عن المنفيين وارجاعهم الى ديارهم ، فأوفد ابنيه غولوسا وميسيبسا يرافقهما ستة الاف رجل مسلح على رأسهم قائدان نوميديان هما اغاسيس وسوباس .

رفض القرطاضيون السماح لابني مسينيسا بالدخول الى قرطاضة ، بل انهم استمالوا القائدين النوميديين ورجالهما ، فاضطر ابنـا مسينيسا ان يعودا مع حاشيتهما وبعض مرافقيهما فقط ، وتحول الستة الاف مقاتل مع قائديهم الى القرطاضيين . وعلى طريق العودة نصب القرطاضيون كمينـا وهاجموا موكب الاميرين النوميديين لابادته . تمكن الاميران من الافلات من المهاجمين ، ولكن القسم الاكبر من الموكب لقي حتفه .

كان رد مسينيسا على عمل القرطاضيين ان جدد هجومه داخل الحدود القرطاضية واحتل مدينة كبيرة كان يطمع بها منذ زمن طويل ويفتش عن مبرر لاحتلالها . تلك هي مدينة « اوروسكوبا » .

لم يتحمل القرطاضيون هذه المرة عدوان الجار الشرس ، ولا اشتكوا الى رومة كعادتهم ، كما كان يتوقع المعتدي ، بل اعتبروا انهم قد اصبحوا في حالة تمكنهم من أن يثأروا دفعة واحدة من جميع تعديات مسينيسا وتصرفاته المذلة ، غير وجلين ولا هيابين مما تتخذه رومة من تدابير ضدهم .

بين مساء وصباح ، وكما بسحر ساحر ، ظهر على مسرح الحرب خمسة وعشرون الف مقاتل قرطاضي بين مرتزقة وفرق قومية ، يقودهم قائد جديد ، لم يسمع باسمه من قبل ، هو هسدروبعل . عرفه المؤرخ بوليبيوس شخصيا واعطى عنه صورة لا بد ان تكون اقـرب ما يكون الى الحقيقة : « فهو جسيم مرح ، كبير الثروة ، مولع بالنساء ، طموح ، معجب بنفسه ، مخاتل وجبان » . ويؤكد بوليبيوس انه لم ينل القيادة العامة لهذا الجيش الجديد لتفوق مواهبه العسكرية ، بل فقط لانه ذو ثروة طائلة . ان قرطاضة المتململة ، المحاولة ان تقف على قدميها من جديد ، ما تزال تنتابها المفاهيم المريضة حتى في أفضل فئاتها .

هل استهلك الانهزاميون والاغبياء الجبناء في قرطاضة خميرة العبقرية

عندما قضوا على هنيبعل مشردا بعيدا عن شعبه ؟ الم يكن هذا الحزب القومي الجديد ، المدعي تمثيل نهضة فينيقية متجددة ، الا شبحا وهميا أو سرابا مضللا لما بقي من النفس الفينيقية — السورية الرائدة ، المغامرة ، الخلاقة ، المصارعة ، المكتشفة مجاهيل الكون ، تلك التي تشغل المتوسط وما وراء أعمدة هرقل منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ؟

كان القائد الفينيقي الشاب يجابه رجلا مسنا ناهز التسعين من عمره، ولكنه ما يزال محتفظا بحيوية عجيبة . قضى حياته في ميادين القتال . ولو حسبنا حياته العسكرية فقط من عهد سيبيون حتى اليوم لتجاوزت نصف قرن وهو يخوض المعركة تلو المعركة . حالف سيبيون وتألق نجمه بعد زاما، وهو ما يزال حليفا مخلصا للرومان ، يبني كيانه الافريقي المتين ببطولته وسطوة الرومان المنتصرين . فوجيء بجيش قرطاضي جديد يسانده ستة الاف جندي من جنوده انقلبوا عليه وانضموا الى القرطاضيين .

لم يكن مسينيسا يتوقع مجابهة جيش كبير من هذا النوع ، ولا مستعدا لمعركة كبرى ، لذلك تمكن ، بدهائه العسكري العتيق ، وكقائد جربته خمسون سنة من المعارك ، أن يتراجع أمام هسدروبعل وأن يجر القائد الفينيقي الى سهل قاحل جاف تحيط به مرتفعات وعرة . تمركز مسينيسا على أرض مسطحة وبادر الى استقدام نجدات جديدة حتى اصبح عدد جيشه يربو على الستين الفا . وتمركز هسدروبعل على مرتفع وأسرع هو أيضا بالمجيء بقوات جديدة من جميع المناطق الخاضعة لقرطاضة حتى أصبح عدد جيشه موازيا لجيش عدوه . وقد باشر هسدروبعل حالا بتحصين معسكره استعدادا لجميع الطوارىء .

لم يكن مسينيسا يرغب في حرب الحصار ، لذلك قبل أن ينتهي هسدروبعل من تحصيناته بدأ هو بهجومه عليه . جرت المعركة على المرتفع الذي قام عليه معسكر الفينيقيين ، ودامت من الصباح الى المساء بين مائة وعشرين الف مقاتل . وفي المساء عاد كل من الجيشين المتصارعين الى موقعه . في الظاهر كانت نتائج المعركة متوازية : لا غالب ولا مغلوب . أما في الحقيقة فقد كان تأثيرها بالغا في جيش هسدروبعل . خسارته كانت كبيرة ، ومعنوياته هبطت دفعة واحدة . وفكر في سره بطلب الصلح ، قبل أن يقضى عليه في جولة ثانية .

كان الجيشان متوازيين ، ولكن الفرق كان كبيرا بين القائدين . كان القرطاضي قائدا مرتجلا ، لا يتحلى بالمواهب والصفات التي كان يتحلى بها كبار القادة الفينيقيين ، كما كان غير مجرب ، تهمه السلامة والمحافظة على حياته وثروته الضخمة ومركزه بين الفئة الحاكمة . فالمواهب العسكرية التي تحلى بها هميلقار في حربه ضد المرتزقة لم يكن لها أي اثر عند القائد المغتر الجديد . أما القائد النوميدي المدرب على يد سيبيون ، والذي خاض عشرات

المعارك في حياته ، فقد كان ، بالرغم من سنيه الثماني والثمانين ، يمثل خريجي تلك المدرسة العبقرية التي بدأها هنيبعل في ايطاليا ، وأنهاها سيبيون في اسبانيا وافريقيا .

علم هسدروبعل ان بوبليوس كورنيليوس سيبيون أميليانوس ، حفيد سيبيون الكبير ، كان يراقب المعركة ، فقد جاء من اسبانيا ليتسلم من مسينيسا أفيالا للحرب الاسبانية . واتفق وجوده في افريقيا مع حدوث تلك المعركة فشهدها من على أكمة قريبة برجاء من مسينيسا . وبعد أن درس القرطاضيون وضعهم الدقيق الحرج ، طلبوا من أميليانوس أن يكون وسيط صلح بينهم وبين مسينيسا ، معلنين استعدادهم لاخلاء المنطقة التي وقع عليها الخلاف .

وبالرغم من مخالفة قرطاضة لمضمون المعاهدة ، فأن أميليانوس كان وافر الذكاء ليعلم انه من مصلحة رومة الان ، وهي مشغولة بالحرب الاسبانية ، أن تنطفىء الحرب القرطاضية ــ النوميدية ، لكي لا تضطر رومة أن ترسل قوات الى افريقيا لتوقف أيا من المنتصرين عند حد . لذلك حاول أميليانوس أن يقوم بالمهمة التي كلفه اياها القرطاضيون . ولكن مسينيسا كان صارما في تطلباته ، وأراد أن يسلم اليه قبل كل شيء القائدان النوميديان المنقلبان عليه مع ستة الاف جندي . وقد رفض هسدروبعل هذا الطلب رفضا قاطعا وختمت المباحثات . ثم انصرف أميليانوس الى اسبانيا آخذا معه الافيال التي سلمه اياها مسينيسا . وبعد سفره باشر مسينيسا حالا بضرب الحصار على معسكر هسدروبعل ليدمر الجيش الفينيقي ويصبح هو ، في غياب رومة عن المسرح ، السيد المطلق في الشمال الافريقي . أخطأ القائد القرطاضي في جميع حساباته الحربية والتموينية . ولم يمر على الحصار وقت قصير حتى أحس بالنقص في المؤن والماء والحطب ، وقد زاد الوضع حرجا اذ دبت الاوبئة في المعسكر وأخذت تجرف المئات يوميا الى القبور ، حتى اضطر هسدروبعل أخيرا أن يعلم مسينيسا أنه مستعد ان يسلم القائدين النوبيين وجيشهما ، كما قبل أيضا بأن يعود القرطاضيون المنفيون الى ديارهم . وكلا العملين كان محطا بسمعة قرطاضة وهيبتها . زيادة على ذلك فرض مسينيسا على قرطاضة خمسة الاف وزنة من الفضة عوضا عن الالف التي كان قد اتفق عليها ، كما فرض أن يغادر الجيش القرطاضي معسكره مجردا من سلاحه ، فقبل هسدروبعل بجميع الشروط .

وفي اليوم التالي عندما غادر القرطاضيون معسكرهم وأمسوا على طريق عودتهم بعيدين عن كل ملجأ ، ولم يكونوا سوى جمهرة من العزل ، اهزلهم الجوع والمرض ، انقض عليهم غولوسا ، أحد ابناء مسينيسا ، فجأة ، واعمل السيوف والحراب في أجسامهم ، منتقما مما حدث له يوم كان عائدا من قرطاضة . وقد أبيدت تلك الجمهرة الكبيرة ، الا أن عددا قليلا من الضباط

والاشراف تمكنوا من الفرار مع القائد العام ووصلوا الى قرطاضة .

حينذاك علمت قرطاضة بدون شك انها ، عندما تآمرت على هنيبعل ، قد تآمرت على نفسها .

## "يجب تدمير قرطاضة"

مات هنيبعل منذ ثلاث وثلاثين سنة (١٨٣ ق.م.) ، وبموته انطفأت شعلة العبقرية العسكرية بين الحكام الفينيقيين ، وزال خطر انسان عظيم عن رومة . وخلال نصف قرن ، بعد معركة زاما ، ازدهر الاقتصاد القرطاضي بصورة مخيفة ، فعاد شبح الفينيقيين يكون الهواجس عند قادة رومة . بالامس عرضوا على رومة دفع الغرامة الحربية المقسطة على خمسين سنة دفعة واحدة ، فلم تقبل رومة لتبقي قبضتها عليهم . وهذه السنة دفعوا اخر قسط وغدوا من جديد أحرارا في تصرفاتهم . وقد استيقظ فيهم العنفوان والتمرد ، وتذكروا أمجادهم القديمة ، ورأوا أساطيلهم التجارية تشغل خطوط المتوسط التي بدأ الفينيقيون بشقها منذ تسعة قرون ، وغدا من يعلم ماذا يفعلون ؟ ...

كل ذلك جدد عند الرومان عقدة الخوف والحذر من قرطاضة . وتذكروا رجلا مسنا قاسيا ، رهيبا ، يردد منذ نصف قرن على مسمع من مجلس الشيوخ والشعب الروماني : « يجب تدمير قرطاضة » .

ماذا يفعلون ؟ أينفذون مطلب كاتون ؟ أيبيدون قرطاضة ويزيلون معالمها من الوجود ؟ ولكن ماذا يقول فيهم العالم ؟ أيرضى الرأي العام العالمي بعمل وحشي من هذا النوع ؟ والشعوب التي يطمحون الى اخضاعها ، الا يرهبها عمل الرومان ، فتستقتل في الدفاع عن كرامتها ، وتكبد رومة ضحايا كثيرة ؟ ورومة مصممة أن تكون ، وحدها ، سيدة المتوسط ، وثقتها بنفسها غدت كاملة ونهائية .

عندما زار كاتون قرطاضة في المرة الاخيرة ، اذ كان عضوا في وفد التحكيم الذي أرسلته رومة خلال سنة ١٥١ ق.م. ، لم يكن حينذاك عضوا عاديا كباقي زملائه ، وقد يكون هو الذي طلب أن يعين في الوفد ، ذلك لان قرطاضة والمخاطر التي قد تنشأ عنها لم تكن تفارق فكر كاتون . فبينما كان الوفد منشغلا بالقضية التي جاء من أجلها ، كان كاتون يتجول في قرطاضة وضواحيها وانحاء مينائها الكبير . وقد لاحظ الازدهار المدهش في زراعتها ، والنمو السريع في صناعتها ، وخصوصا في مصانع السفن التجارية ، كما لاحظ بصورة خاصة مستودعات المؤن والذخائر ملأى بما يكدس فيها من احتياط للطوارىء .

وقد عاد هذه المرة الى رومة مصمما على تنفيذ الفكرة التي طالما بشر

بها منذ خمسين عاما : ابعاد القرطاضيين عن عاصمتهم ، وتحويلهم الى شعب زراعي ، ثم تقويض المدينة من أسسها . فلا مجال ، في نظره ، لتجنب خطر القرطاضيين ، الا بسد ابواب التجارة في وجههم ، وبافناء اسطولهم التجاري ، وبازالة صناعتهم . وقد اعتبر نفسه منذ ذلك الحين مكلفا تنفيذ هذه الخطة الشيطانية : تدمير قرطاضة بأسرع وقت ممكن ، قبل أن يقودها ازدهارها الاقتصادي الى يقظة عسكرية جديدة تقضي على جمهورية رومة . وهكذا اعتقد انه مكلف برسالة مقدسة يفرضها عليه واجبه الوطني : وهي ان يدق ناقوس الخطر ، وأن يبقي مواطنيه في حالة تنبه دائم، وأن يخيفهم من ظهور هنيبعل جديد ، أرهب من الاول ، فيبيد الجمهورية الرومانية ، ويحول الرومان كلهم عبيدا . الوسيلة الوحيدة لانقاء ذلك هي ، حسب رأيه ، أن نسبق قرطاضة وان نصرعها قبل أن تصبح قوية الى حد الهجوم على رومة . من هنا نداءاته المتكررة التي كان يوجهها الى الشيوخ بتدمير قرطاضة . فهذا العجوز ، ابن الثمانين ، قد احتفظ بقامته الرياضية وصوته الصاعقي . وكان يعرف كيف يقدر بواسطتهما أن يحدث تأثيره القوي عندما كان يردد بعد جميع خطبه هذه الجملة الاخيرة : « والان اقول لكم وأردد على مسامعكم ان قرطاضة يجب أن تدمر » ، ولهذا السبب قد انبرى أحد زملائه بوبليوس كورنيليوس سيبيون نازيكا ، صهر « الافريقي » ، يجيبه دائما بالجملة نفسها : « وانا اعتقد ان قرطاضة يجب أن لا تدمر » .

وقد شكلت تلك المشادة بين كاتون وسيبيون نازيكا موضوعا هاما عند الرومان ، وفي مجلس الشيوخ ، بقي يشغل الرأي العام زمنا طويلا .

التجار ورجال المال والمصارف كانوا متحمسين لوجهة نظر كاتون . فان زوال قرطاضة يفتح لتجارتهم وأموالهم أبواب المتوسط ، ويتخلصون من المزاحم الاكبر الذي عرف عبر التاريخ بقدرته ومرونته وحنكته التجارية ، فاكتسب أفضل شهرة في هذا الميدان العالمي الكبير . فالنقد القرطاضي ، حتى بعد زاما ، بقي النقد المفضل عند شعوب المتوسط ، والسلع الفينيقية كانت مشهورة بمهارة صنعها ودقة اخراجها عند الشعوب المتمدنة والبدائية. وان خسارة المستعمرات وأسواقها قد حفز القرطاضيين على تحسين انتاجهم، فقويت مزاحمتهم خصوصا بعد أن تحولت جميع الرساميل الكبرى الى الصناعة التجارية الخفيفة .

أما سيبيون نازيكا فقد أيد وجهة نظره بعدم تدمير قرطاضة المفكرون البعيدو النظر ، أولئك الذين رأوا ان الرومان بعد الصلح (٢٠١ ق.م.) قد أصبحوا أغنياء ومتكبرين وكسالى ، يصعب حكمهم . فاذا فقدوا الان الخوف من حرب جديدة يوحيها لهم حتما بقاء قرطاضة ، فان الثورة والفوضى الكاملة تجران الجمهورية الى الهلاك . فالقرطاضيون ، حسب تقدير نازيكا ، لن تكون لهم أبدا بعد اليوم لا الوسائل ولا الجراة ليهاجموا رومة . فليس هناك

خطر اذن من الابقاء على عاصمتهم .

في النهاية تغلبت وجهة نظر كاتون وقرر مجلس الشيوخ تدمير قرطاضة . فالرومان كانوا ميالين ، بطبعهم وأساليبهم ، الى هذا النوع من الاعمال العسكرية بعد انتصاراتهم ... « انها كانت تتفق مع الطرق التي كانوا ينهجونها في فتوحاتهم : كل ما كان يعرقل أعمالهم كفاتحين كان محكوما عليه بالفناء . وقبل ان تصل اعمالهم الى شرقي المتوسط ، كما كانوا يخططون ، كان عليهم ان يؤمنوا السيطرة البحرية بصورة نهائية . وما دام الفينيقيون يغسلون ايديهم في البحر — وهو تعبير لاحد الاميرالات الفينيقيين — فان هذه السيطرة تفلت من أيديهم . اذن : يجب تدمير قرطاضة » (٧٩) .

بعد أن اتخذ مجلس الشيوخ هذا القرار التاريخي الرهيب المزمع ان يبيد شعبا ومعالم حضارة ، راح شيوخ رومة ، كقطيع من الذئاب الكاسرة، يتحينون الفرصة للفتك بأميرة العواصم في غربي المتوسط . فقد خططوا ، بدهائهم ومكرهم ان لا يظهروا بمظهر المبادرين الى التعدي ، بل عليهم أن ينتظروا وقوع قرطاضة في أحد الفخوخ التي ينصبونها لها . وقد بدأت رومة تعد نفسها ، تحت أجنحة الظلام ، لارتكاب جريمتها التي لم تنسها الاجيال حتى اليوم .

منذ الحرب الفينيقية الاولى حكمت قرطاضة على نفسها بالموت . حاول هميلقار انقاذ الحضارة الفينيقية بانشاء دكتاتوريته العسكرية في اسبانيا ، ولكن مشروعه آل الى الفشل .

حكمت قرطاضة على نفسها لانها قصرت عن ادراك المفاهيم القومية الجديدة . ظلت قرطاضة تنحدر خلال قرن ونيف حتى وصلت الى ساعة صدر فيها الحكم عليها بالموت . صدر الحكم سرا في مجلس الشيوخ الروماني ، دون أن يعلم به أحد حتى من الرومانيين . وأخذت السلطات الرومانية تهيىء قرطاضة ليومها الاخير بأساليب رهيبة ، تهد الاعصاب وتفت من العزائم .

بعد انكسار هسدروبعل وفناء جيشه ، قامت القيامة في قرطاضة على الحزب القومي الحاكم ، واتهم بجر قرطاضة الى الهلاك . وعوضا عن أن يتكتل الجميع في جبهة قومية تحول القرطاضيين جميعهم مع حلفائهم الى « شعب تحت السلاح » ، مستعد أن يصارع الى النفس الاخير ، فقد ذر الحزب الانهزامي المعادي قرونه وأخذ يشهر بالحزب القومي ويثير نقمة الشعب عليه ، وأظهره بمظهر المتهور الذي لا يقدر العواقب ، فتوارى أفراده عن الانظار ، واعتقل القسم الاخر ، فظهرت قرطاضة ضعيفة متخاذلة أمام جارها المتغطرس ، وأمام الرومان المضمرين لها شر الموت والفناء .

لم تعلم قرطاضة خلال خمسين سنة بعد زاما أن بقاءها غير محتلة عسكريا ومتمتعة بكثير من الحرية ، يعود الى ارادة سيبيون شخصيا ، لا الى ارادة مجلس الشيوخ الروماني . ولقد بقيت قرطاضة خلال ١١٤ سنة

مخدرة بروحيتها الانهزامية ، تسير الى حتفها ببطء ممل ، وهي تتوهم ان التهرب من التضحية يقود الى السلامة ، بينما كان يجرها الى القبر .

وقد اسرع مجلس الشيوخ القرطاضي بارسال وفد الى رومة ليقدم اعتذاره عما حدث ، محملا الحزب القومي مسؤولية نقض المعاهدة والقيام بحرب ضد مسينيسا . وقد ابدى مجلس الشيوخ الروماني استخفافه بكلام الوفد ، واظهر عدم ثقته بما يقوله القرطاضيون أو يوقعونه من مواثيق .

ولما أصر القرطاضيون على التصريح برغبتهم في ارضاء رومة ونيل ثقتها ، وعلى معرفة ما تريده منهم ليكفروا عن الماضي ، أجابهم مجلس الشيوخ بمراوغة ومخاتلة : « يجب عليكم ارضاء الشعب الروماني » .. ولما استفسروا عما يرضي الشعب الروماني ، تهرب مجلس الشيوخ قائلا : « انتم تعلمون ما يرضي الشعب الروماني » . فعاد الوفد من رومة وهو تائه لا يعلم ماذا يفعل ، ولا ما يخبئه له الغد الروماني الغامض . ولما اجتمع الوفد العائد من رومة بمجلس الشيوخ القرطاضي واطلعه على ما جرى زاد القلق في الاوساط الحكومية ، اذ عجزوا عن فهم أي شيء من كلام الرومان الغامض .

قرر حزب السلميين الانهزاميين أن يرسل وفدا اخر من شخصيات مشهورة برغبتها في ارضاء الرومان ، وبحبها للسلم مهما يكن ثمنه باهظا على كرامتها وعزتها ، فلم يكن جواب الرومان هذه المرة أوضح من الجواب الاول : « ان القرطاضيين يعلمون ما عليهم أن يفعلوا » ، وصرف الوفد الثاني بدون أن يفهم شيئا .

بهذه الاساليب الشيطانية بدأ مجلس الشيوخ الروماني بالضغط على أعصاب القرطاضيين . فقد خطط لانهاك معنوياتهم واستهلاك اعصابهم حتى يرتموا أخيرا منهوكين ، يائسين ، مستسلمين بدون قيد أو شرط لمشيئة عدو ضار سينقض عليهم ويجهز على حياتهم .

ان طريق الجلجلة التي حمل عليها السيد المسيح صليبه واجتاز مراحلها بعناء ومذلة نتيجة لاحقاد اليهود وقساوة الرومان ، قد سلكها الفينيقيون من قبله ارضاء لكيد الرومان ومكرهم وضراوتهم ، ولغباوة النوميديين وبدائيتهم .

بعد أن أعد الرومان جيوش الحملة على قرطاضة سرا ، وأصبحت جاهزة في صقلية للسفر ، أرادوا أن يؤمنوا مرفأ كبيرا يستقبل هذه الجيوش بدون مقاومة . فهم مخططون لتذليل جميع العقبات قبل تحركهم من صقلية ، حتى تتخذ حملتهم مظهر حملة تأديبية ، لا حملة حرب وفتوح . وقد رأوا ، بعد درسهم السواحل الممتدة من قرطاضة شرقا وغربا ، ان عوتيق هي أصلح مرفأ لاستقبالهم . ولكن عوتيق هي مدينة فينيقية عريقة ، أعرق من قرطاضة نفسها ، بل هي بكر المدن الفينيقية على الساحل الافريقي الشمالي . وهي خذلت سيبيون وقاومته حتى سقطت بعد حصار طويل . فقد وقفت مع

هنيبعل وحاولت صد القائد الروماني عن اسوارها عندما كان في بداية انطلاقه وعنفوان هجومه . فهل يعقل ان تسالم الرومان أو تحالفهم عندما تعلم انهم ينوون النزول مرة جديدة على الساحل الافريقي لمحاربة قرطاضة ؟

أرسل الرومان عملاؤهم الى العوتيقيين . ان نزول الجيوش الرومانية على الارض الافريقية هو محتم ، وان نهاية قرطاضة هي مقررة . وصوروا لعوتيق ان من الافضل لها أن تسالم وتحالف وتبقى متزعمة افريقية الرومانية من أن تدمر مع قرطاضة وتلاقي مصير العاصمة . وقد علمت عوتيق من جهة ثانية أن الوفد القرطاضي قد استقبل بجفاء في رومة ، وعاد مكسور الجناحين تعتمل في نفسه افكار اليأس والاستسلام .

هبطت عوتيق الى حضيض اليأس والاستسلام ، « ووهبت نفسها الى الشعب الروماني » . انها النهاية المحتومة لمدينة تفوقت عليها قرطاضة بقوتها السياسية والعسكرية والعددية والاقتصادية ، فأمست هي مقطورة وراء قرطاضة المتزعمة ، مع انها تكبر قرطاضة بثلاثمائة سنة .

لا شك ان عوتيق ، التي وقفت مع قرطاضة في كل مرة نزل غاز على سواحل افريقيا ، قد رأت هذه المرة ان وقفتها هي ضرب من الانتحار ، اذ علمت حالة اليأس والضعف التي وقعت فيها قرطاضة واستعدادها للاستسلام لمشيئة رومة ، لذلك استسلمت هي بدورها وقبلت محالفة رومة ، ووضعت مرفأها تحت تصرف الرومان ، وبذلك خسرت قرطاضة نصف معركتها المقبلة والفاصلة .

ولم يعد على رومة ، بعد ذلك الاتفاق ، الا النزول على الارض الافريقية بدون اي معارض .

بعماوة قلب وبصيرة غريبة ، تغافلت قرطاضة عن جميع امكاناتها الحربية وامكانات المدن الفينيقية على الساحل الافريقي ، وتهالكت على أبواب مجلس الشيوخ الروماني تتضرع لانتزاع وعد يطمئنها على حياتها . وأصر الرومان على غموضهم القاسي المعذب في خطتهم الاجرامية المميتة . وصل وفد ثالث من قبل قرطاضة يلتمس من مجلس الشيوخ حقيقة ما تفرضه رومة على قرطاضة تكفيرا عن خطأها الاخير . وكان قد ادرك القرطاضيون انهم أمام شرين كبيرين : اما الحرب واما الاستسلام لمشيئة رومة . وقد حدد المؤرخ بوليبيوس معنى الاستسلام لارادة رومة تحديدا واضحا بقوله :

« ان شعبا يستسلم لمشيئة الرومان يسلم أولا ارضه وجميع المدن القائمة عليها ، ومن ثم جميع سكان المدن والارياف من ذكور واناث ، كذلك جميع مجاري المياه والمرافىء والمعابد والقبور . ويصبح الرومان ، باختصار ، اسيادا مطلقين على كل شيء . والذين يستسلمون يتجردون من كل شيء » (٨٠) .

ومع ذلك حاول القرطاضيون محاولة اليائس لعلهم ينالون شيئا افضل بالحاحهم وتذللهم . وكان الوفد القرطاضي الثالث مزودا بصلاحيات كاملة

ليفاوض ويوقع المعاهدات ومؤلفا من شخصيات اشتهرت بسلميتها وقبولها بالخضوع للاستعمار الروماني شرط أن تبقى قرطاضة حرة في تجارتها . وكان انصار التفاهم مع رومة ومسينيسا قد تسلموا زمام الحكم وشردوا الحزب القومي ، واعتقلوا عددا كبيرا من أفراده وانزلوا بقسم منهم الاعدام أو النفي الدائم .

عندما وصل الوفد القرطاضي الى رومة وجد أن مجلس الشيوخ قد أعلن الحرب على قرطاضة ، وان القنصلين قد انتقلا الى صقلية ليتوجها من هناك على راس الحملة الى افريقيا .

فالمفوضون ، المطلقو الصلاحيـــة ، الذين كانوا يعللون النفس بـــأن ينتزعوا من الرومان بعض التساهلات ، رأوا انه قد فات أوان هذه المحاولة، فأعلنوا بالتالي أن قرطاضة « تستسلم لمشيئة الشعب الروماني » . بعد أن أخذ مجلس الشيوخ علما بهذا التصريح بلغ الوفد قراره : بما ان قرطاضة قد برهنت أخيرا عن تعقلها فاننا نترك لها حريتها واستقلالها وأرضها والتمتع بجميع أملاكها العامة والخاصة . ولكنها ، لكي تنال هذه النعمة ، يجب ان ترسل الى ليليبايوم ، حيث يوجد القنصلان حاليا ، وفي زمن لا يتجاوز الثلاثين يوما ، ثلاثمائة رهينة ، تنتقى من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس الـــ ١٠٤ ، وبتعبير اخر زهرة الشبيبة الارستقراطية في قرطاضة ، كمـــا يجب على قرطاضة ان تخضع لجميع الاوامر التي يبلغها اياها القنصلان . سأل المفوضون القرطاضيون عما يمكن أن تكون تلك الاوامر ، فقيل لهم ان القنصلين يعلمانهم بذلك .

ها هم من جديد في جو الغموض والتهديد . ولكن الاختيار لم يعد في أيدي القرطاضيين ، اذ انهم أعلنوا تسليمهم لمشيئة الرومان ، ولم يعد عليهم الا الطاعة والسكوت .

وصلت طريق الجلجلة الى مراحلها الصعبة ، وأقسى ما فيها كان الغموض المقصود الذي اتخذ صفة المؤامرة الخالية من روح الفروسية ، وأبرز مثالبها الغدر البارد عن سابق تصور وتصميم .

كان وقع خبر ارسال الرهائن مرعبا على القرطاضيين . أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس الـــ ١٠٤ أنفسهم كانوا في وجوم محزن . أما الامهـــات والنسيبات فقد بدأن البكاء والولولة ... واعترت قرطاضة كلها موجة من التردد والالم والملامة ، ووقع الناس في تضعضع عام لا يعلمون ما يفعلون . فوقف أخيرا أحد اعضاء الوفد وصارح مجلس الشيوخ والجماهير المتجمعة بقوله : كان علينا أن نتردد وندرس قبل أن نقرر « التسليم لمشيئة الشعب الروماني » أما الان فنحن أمام أمرين لا ثالث لهما : اما أن نعود عن كلامنا ونبدأ بالاستعداد للحرب . وأما أن نرسل الرهائن ونكون مستعدين لتنفيذ أوامر الرومان .

فكرة الحرب كانت قد أصبحت تخيفهم بصورة غريبة . لقد تنازلوا عن الصراع في سبيل كيانهم وقيمهم القومية والانسانية ، واستسلموا للسكينة المذلة . هكذا يعلمهم حكامهم منذ قرن ونيف . فما ان وضعهم المتكلم امام احتمالين : الاول حربي والثاني سلمي ، حتى فضلوا السلم وقرروا ارسال الرهائن بأسرع ما يمكن لارضاء القنصلين المنتظرين في صقلية ، لعلهما يسران بسرعة التنفيذ ويترأفان بهم في الاوامر الاخرى المتوقعة .

كان مشهد سفر الرهائن من احزن المشاهد التي عرفتها قرطاضة حتى ذلك الحين . ثلاثمائة شاب بين الرابعة عشرة والثلاثين من العمر ، يمثلون نخبة الشبيبة النبيلة في العاصمة ، ينسلخون عن عائلاتهم ووطنهم ليسلموا الى عدو غادر قاس ، لم تسبر بعد اغوار نياته التدميرية البعيدة . فهو غامض غموض القدر ، متكتم تكتم المتآمر الحريص ، كلما انحدر القرطاضيون امامه الى وهدة وجدوا امامهم وهدة جديدة ، حتى امسوا لا يطمحون الا الى معرفة حقيقة مقاصده مهما تكن تلك المقاصد مجحفة ومرهقة .

زهرة شباب قرطاضة على الشاطىء تودع ارضها واهلها . الوف المواطنين في وجوم وغم . الدمعة في عيون الشقيقات والاشقاء . الاباء يكظمون المهم وحزنهم ، اما الامهات ففي مناحة لم يعرفها هذا الشاطىء المجيد حتى عند نزول الحملات الغازية السالفة .

« الامهات كن يصرخن بائسات ، يتمسكن بالسفن ، يتعلقن بالمراسي . بعضهن رمين بأنفسهن في الماء وتبعن سباحة المراكب التي كانت تقل ابناءهن. والبعض الاخر يلعن الحكومة صارخات بان ارسال الرهائن الى رومة هو ضرب من العبث ، لن يفيد شيئا ، اذ انه قد قضي عليهم جميعا . فهل كن فعلا يتحدين المجهول عبر موجة الحزن الجنونية التي كانت تجتاحهن ؟ انه لصوت العقل نفسه كان يتكلم » (٨١) .

كان القنصلان الرومانيان لسنة ١٥٠ ق.م. ، منيليوس وسنسورينوس من اصلف القناصل الذين حكموا رومة . تميزا بالقساوة والكبرياء والمكر . وقد كلفهما مجلس الشيوخ تمثيل دور لا انساني يتفق مع ميولهما الذاتية . فعندما تسلما في ليليبايوم الرهائن القرطاضية اعلنا بتعال رضاهما عن سرعة التنفيذ التي ابداها القرطاضيون في تعهداتهم . وعندما سأل مرافقو الرهائن : ماذا يطلب بعد الان لارضاء رومة بصورة نهائية ، اجابهم القنصلان انه لم يعد عليهم بعد الان الا الحضور الى مركز القيادة الرومانية العام في عوتيق ليأخذوا التعليمات الاخيرة .

وهكذا تتسلسل مراحل الجلجلة القرطاضية . فهم ينتقلون من مرحلة الى مرحلة دون ان يعلموا ما هي النهاية . وعبثا كانوا يحاولون التنفيذ بدقة ليصلوا الى نتيجة اخيرة . وكل سرعتهم في التنفيذ كانت تستهدف عدم نزول الجيوش الرومانية على ارضهم ، وها هم الان يعلمون ان عوتيق قد امست مركز القيادة الرومانية العامة . الرومان اذن نازلون في افريقيا ، وعازمون

على القيام بأعمال عسكرية كبيرة ، وهل يمكن أن تكون الا قرطاضة هدفا لعملياتهم ؟

قبل أن يعود الوفد المرافق للرهائن الى قرطاضة مـــر بعوتيق وطلب مقابلة القنصلين اللذين كانا قد وصلا الى افريقيا وتمركزا في القيادة العامة. انه يريد ان يحمل الى مواطنيه كلمة تهدىء الخواطر ، وتريح الاعصاب ، وتجعل الناس يطمئنون الى حياتهم ومصيرهم وشيء من حريتهم . انهـــم يتوقون الى الخروج من ذلك الجو المكفهر ، الخانق بغموضه وبما يحدق به من تكتم وطلاسم .

في هذه المقابلة دخلت طريق الجلجلة في مراحلها الارهابية ، المستهدفة تهديم الاعصاب وتفتيت ما بقي عند القرطاضيين من أمل بالتمتع بشيء من الحرية الداخلية والحكم الذاتي . وقد بدأ الرومان بعرض قوتهم وكبريائهم وغطرستهم .

« قبل ان يسمح القنصلان بمثول الموفدين القرطاضيين أمامهم ، لجأوا الى عرض مسرحي مؤثر : أقاموا قرب المدينة منصة عالية ، أمامها حاجز يفصلها عن الحضور . وقد وقفت القوات المسلحة في لباس القتال الكامل ، على جهتي الطريق المؤدية الى المنصة . جلس القنصلان على المنصة محاطين بضباطهما الرئيسيين . ثم نودي للقرطاضيين ليدخلوا . تقدم هؤلاء بيـــن صفين كثيفين من الجنود المسلحين « حتى أسنانهم » ، وتوقفوا عند الحاجز الذي يمنع الدخول الى المنصة .

« أخذ الكلام مانيليوس ، القنصل الاكبر سنا . هنأ القرطاضيين مجددا على تقديمهم الرهائن بسرعة . ثم اعلن لهم بدون مقدمة بـــأن عليهم ، بدون خداع أو غش ، أن يقدموا للرومان جميع اسلحتهم ، وجميـــع ذخائرهم الحربية . حاول القرطاضيون أن يثيروا بخوف بعض الاعتراضات ، ولكنهم أدركوا أن لا فائدة من ذلك ، فامتثلوا للامر وقفلوا راجعين الى ديارهم ، تتبعهم لجنة رومانية مكلفة جمع الاسلحة التي ستقدم لها . لقد جمعت من النبال والحراب والسهام ما يسلح مائتي الف رجل ، مع الفي آلة منجنيق . ونقل الكل الى عوتيق . اذ ذاك تشكل وفد وفير العدد من المع شخصيات قرطاضة : كهان ، وقضاة ، وكبار الضباط ، توجهوا في الوقت نفسه الى عوتيق . يريد القرطاضيون أخيرا ان يعرفوا الحقيقة ليرتاح قلبهم . ليقل لهم الرومان في النهاية ، ومرة واحدة ، هل حصلوا على الترضية الكاملة ، وهل تستطيع قرطاضة أن تكون مرتاحة بعد اليوم ؟

« استقبل الموفدون بنفس الاسلوب « الاحتفالي » الذي استقبل به من جاؤوا قبلهم . وهذه المرة تكلم سنسورينوس المشهور بأنه خطيب أفضل من زميله الاكبر سنا ، وكان مقتضبا في كلامه . فبعد أن أثنى على المبادرة السريعة في تسليم الرهائن المطلوبين أعلن ما يأتي : لسنا بحاجة الى خطب مسهبة حيث الضرورة تدعو الى السرعة . اصغوا اذن بصبر الى أوامـــر

مجلس الشيوخ : غادروا مدينة قرطاضة ، انقلوا منازلكم الى المكان الذي ترغبون فيه من أرضكم ، شرط ان تبتعدوا عن البحر خمسة عشر الف متر . اذ اننا قد صممنا على تدمير عاصمتكم » (٨٢) .

تلك كانت الكلمة الرهيبة التي لفظها القنصل الروماني سنسورينوس معبرا عن ارادته وارادة زميله القنصل مانيليوس وقرار مجلس الشيوخ الروماني . ومنذ تلك السنة السحيقة في القدم ، منذ اكثر من الفي سنة ، ينتقل دوي تلك الكلمة الجانية من جيل الى جيل ، ومن قرن الى قرن ، ومن عصر الى عصر ، دون أن يخسر شيئا من فظاعته ورهبته . ليس فقط لان الرومان أمروا بتدمير مدينة ، وذلك جان ومخيف ، بل لانهم ، عن عمد وسابق تصور وتصميم ، أمروا بتدمير دولة ، وافناء شعب ، واتلاف حضارة كاملة . وهي جريمة لم تضاهها عبر القرون الا جريمة الصهاينة في فلسطين.

كانت كلمة سنسورينوس المرحلة الاخيرة من طريق الجلجلة . وقد كان الامر الذي أعطي لاعدام قرطاضة أفظع بكثير من الامر الذي طلبه اليهود واعطاه بيلاطوس بصلب المسيح : لقد أمرت قرطاضة بأن تصلب نفسها ، بأن تدق المسامير هي نفسها في أيديها وارجلها . لقد حكم عليها بالاعدام وأمرت بأن تنحر هي نفسها بصورة مخيفة .

بين لحظة واخرى تحول وفد كبار قرطاضة الى جوقة من النائحين المتفجعين . جاؤوا كهانا وقضاة وحكاما وضباطا ليأخذوا خبر الطمأنينة والسلام فصفعهم القنصل القاسي المتجبر بنعي مدينتهم وشعبهم وحضارتهم ووجودهم كشعب له كيانه وحرمته . بعد اليوم سيشردون هم وأبناء جنسهم، المنتشرون على الساحل الافريقي من خليج القيروان الى ساحل الاطلسي ، الى ابعاد هذه الارض ، لا دولة تحميهم ولا مواطنين يعطفون عليهم . منذ تسعين سنة حرك المرتزقة الثائرون على الحكومة القرطاضية أحقاد الافريقيين على الشعب الذي كان لهم معلما في جميع نواحي الحياة ، وابقاهم جيرانا له ، أقوياء أغنياء عوضا عن أن يعاملهم « معاملة رومانية » تبيدهم أو تبعدهم الى الداخلية . واليوم مسينيسا يحرك افريقيا من جديد ويتآمر عليهم مع الرومان أعداء افريقيا واعداء حوض المتوسط جميعه . كرامتهم كشعب وكدولة ستتبعثر كما تبعثر الرياح كومة من التبن اليابس ، فيعيشون مضطهدين اذلاء ، يذوبون يوما بعد يوم بين هذه الاقوام المتعددة التي اكتسبت بعض أساليب حياتهم عبر القرون .

ما أن وصل القنصل الى جملته القائلة : « اذ اننا قد صممنا على تدميرها » حتى سمع صياح الرعب يطغى على صوته ويمنع عليه الكلام . وبعد أن كسر القرطاضيون الحواجز وانتشروا حول المنصة كانوا يرفعون أيديهم الى السماء ويهولون بها ، مستغيثين بالالهة الشاهدة على المعاهدات المنقوضة ، وشاتمين الرومان .

بقي القرطاضيون في مناحتهم ، يولولون ويشتمون ويمزقون ثيابهم ، نادبين ومرددين الم المدينة التي كانت خلال ستة قرون مركز عزهم وعظمتهم، حتى خارت قواهم وأمسوا عاجزين عن نفث غيظهم وغضبهم .

ويؤكد المؤرخ ابيانوس انه عندما أخرس الاعياء ثورتهم وأمسى صخبهم الغضوب نوعا من الانين ، توجه اعظمهم شأنا الى الرومان معاتبا مؤنبا بعد أن سمح له بالكلام : « لقد استصرخ فيهم رحمتهم ، بل عقلهم وادراكهم الصحيح وعدالتهم . اذ انهم ، عندما طلبوا الرهائن ، أعطوا وعدا لقرطاضة بأن يتركوها تحيا حرة حسب شرائعها . فاذا كنتم الان تهدمونها فكيف تتركونها اذن حرة ؟ ثم قال : يريد الرومان أن يقتصوا من مواطني لانهم حنثوا بتعهداتهم ، فليكن . ولكن ، آلهة قرطاضة ومعابدها وأمواتها لم يرتكبوا اي ذنب . فلا تعاقبوهم بحرمانهم من القرابين والعبادات التي تقدم لهم في هذه المدينة . لا تنتهكوا حرمة قبور الاموات وعبادتهم . احترموا مذابحنا ، احترموا آلهتنا ، احترموا الالهة التي تسهر على قرطاضة ... اسمحوا لنا بأن نرسل وفدا جديدا مفاوضا الى رومة لنلتمس منها منة أخيرة » (٨٣) .

كل ما حدث وما قيل لم يحرك عاطفة عند القنصلين الرومانيين . بقيا جامدين كجلمود صخر أبكم . وعندما أراد الخطيب أن يتابع كلامه تكلم سنسورينوس قائلا انه قد تلقى أوامر من مجلس الشيوخ لا يقدر أن يحيد عنها ، ثم أمر حجابه بأن يصرفوا الوفد .

كان الوفد كله من أنصار السلم والانهزامية والتهرب من مسؤولية الدفاع المسلح ، وهم وأمثالهم كانوا يقنعون الشعب بتلبية أوامر الرومان سعيا وراء السلام وتجنبا للحرب . وهم يقدرون ما سيكون مصيرهم عندما يطلعون الشعب على حقيقة ما يأمر به الرومان . انهم سيقتلون حالا في الساحة العامة ، اذ سيعتبرهم الشعب هم وأمثالهم المسؤولين عن هذا المصير التاعس . لذلك توارى أفراد منهم في الطريق مفضلين الهيمان في البراري مشردين ، خائفين من الرجوع الى قرطاضة . انهم كانوا خائفين من أن تقع أعينهم على أعين الشعب . الشعب يريد الدفاع عن نفسه وكرامته وكيانه، وهم ثبطوا عزائمه وأقنعوه بقبول هذه الحالة المذلة . ولما اقتربوا من قرطاضة رأوا الناس على الاسوار بانتظارهم على جمر القلق .

ولما اقتربوا من مدخل المدينة كانت الجماهير الشعبية قد أحاطت بهم ورأت عودتهم المنكسرة ، الكآبة طاغية على وجوههم ، واليأس ظاهر في نظراتهم ، والخبر الفاجعة في صمتهم ، تساقطت عليهم الاسئلة من كل جانب، ولكنهم تسلحوا بمادة قانونية حمتهم من الموت للحال اذ قالوا ان عليهم أن يطلعوا مجلس الشيوخ قبل الشعب .

دخلوا مجلس الشيوخ وأطلعوه على حقيقة الامر ، وعلت الاصوات الغاضبة ، والصيحات المرعبة ، فاقتحم الشعب القاعة الكبرى واطلع هو أيضا على الحقيقة المرة . وللحال صمم على قتل جميع العناصر الانهزامية

المسالمة من اعضاء المجلس ، وقضي عليهم ضربا وطعنا وتمزيقا . ثم انطلق في الشوارع يفتش عن فرائس اخرى من تلك الفئة الحقيرة التي تجر قرطاضة منذ مئة سنة الى الذل والهوان ، وها هي الان تجرها الى الفناء ذليلة حقيرة. كل من وقع بين أيديهم من الحزب الحنوني أو من الايطاليين والنوبيين المناصرين لرومة ومسينيسا فتكوا به بصورة مخيفة ، ثم تحولت قرطاضة الى مناحة عامة ، والى ثورة شعبية كبرى : الشعب يتنادى من كل جهة ليتجمع في ساحة المجلس الكبرى . الجماهير تدخل المعابد وتشتم الالهة التي أوصلتها الى هذه الحالة ، ومنها من يتجه نحو المرفأ ليبكي الاساطيل التي سلمت الى العدو ليحرقها ، والرهائن الحبيبة التي سلمت الى العدو المجرم كالنعاج للنطع . مدربو الافيال كانوا يرددون على المرفأ اسماء الافيال التي صودرت ويأسفون على اتعابهم المضنية لتدريب تلك البهائم سنين عديدة لتصبح صالحة للحرب . العمال والصناع ينوحون على الاسلحة والذخائر التي انتزعها العدو بالحيلة والمكر ، والتي كانت تسلح مائتي الف رجل . الشعب تحول الى موجة عارمة من الغضب وحب الانتقام السريع ، وبعد ان حركت هذه الموجة كل حي في المدينة العملاقة عادت الى ساحة مجلس الشيوخ والى القاعة الكبرى حيث يجلس أولئك الاعضاء الذين لم يفقد الشعب ثقته بهم فأبقى على حياتهم .

## قرطاضة تنتفض وتقاوم

« عندما وجدت قرطاضة نفسها مهددة بالزوال ، قدرت ان تستجمع ارادتها لتقاتل وتقاوم » (٨٤) .

اتخذ مجلس الشيوخ قرارا بالدفاع عن المدينة حتى اخر قرطاضي : قرر اعتاق جميع العبيد العاملين في قرطاضة ليزيد عدد المقاتلين . أوفد رسولا الى القائد هسدروبعل يستدعيه فورا الى قرطاضة ، ويطلب منه نسيان الماضي ووضع نفسه تحت تصرف المجلس لانقاذ الوطن والشعب ، فعاد مع عشرين الف مقاتل ، كان قد طوعهم في منفاه ، وتسلم القيادة العامة .

الشعب كله كان حاضرا ليلبي نداء الساعة الرهيبة ، وبين ليلة وضحاها تحولت المعابد والقصور والصروح الكبيرة الى مصانع عامة ، حيث رجال ونساء كانوا يعملون ليل نهار لصنع السلاح والذخائر بدون ملل .

ويؤكد ابيانوس ان الانتاج اليومي كان : ١٠٠ ترس ، وثلاثمائة سيف، والف سهم ، وخمسمائة نبلة وحربة ، وعددا كبيرا من المقاليع ، ولما كانت تنقصهم الحبال جزوا شعور النساء وصنعوا منها حبالا .

كل الاواني والتجهيزات المعدنية في المنازل والقصور والمعابد صارت اكواما مصنفة من المعادن أمام مصانع الاسلحة . وهكذا قرر الشعب القرطاضي أن لا يموت رخيصا ، بل ميتة تليق بتاريخه ، كما ماتت صور من قبله .

ان اقدام الكنعانيين على الرد البطولي على التحدي في الساعات الاخيرة ، عندما تعود شؤون المصير الى الشعب مباشرة ، وتخرس حناجر الانانيين والانهزاميين ، يدل دلالة واضحة على ما كان يتحلى به الشعب الكنعاني من فضائل البطولة والفداء والكرامة القومية . صور وغزة ، قبل قرطاضة ، ردت على تحدي الاسكندر ، وكان لهما أعظم استشهاد في تاريخ نظام المدينة . وها ان قرطاضة تعد نفسها الان لتقف في وجه الغازي الغادر، ذلك الروماني الذي حنث بعهوده ، واتبع أساليب الخداع والمكر والخيانة ، تلك الرذائل المتجسدة فيه والتي يدفعها عنه المؤرخون ويلصقونها كذبا وبهتانا بالفينيقيين .

هذه هي الجولة الثالثة والاخيرة من المبارزة القرطاضية ـــ الرومانية التي بدأت سنة ٢٦٤ ق.م. لقد انتصرت رومة في الجولتين السابقتين ، وهي ستنتصر في هذه الجولة ايضا انتصارا بربريا يزيل قرطاضة وحضارتها من

الوجود . وكما يمتص الذئب الكاسر ويلعق دماء فريسته المهشمة الدامية ، كذلك امتصت رومة معالم الحضارة السورية التي وزعتها قرطاضة والمدن الفينيقية الاخرى على أرض شمالي افريقيا . لقد زالت قرطاضة ودولتها ، أما حضارتها فقد استمرت فاعلة في افريقيا حتى مجيء العرب المسلمين في نهضتهم الرسولية العالمية .

لم تنتصر رومة بفروسيتها وعبقريتها العسكرية ، ولا انكسرت قرطاضة بجبن شعبها وفقره في الفكر العسكري . ان الحرب في اساسها بينهما كانت « حرب مفاهيم » جديدة ضد مفاهيم عتيقة ، كانت حرب « نظام المدينة » الاقليمي ، الفردي ، ضد « نظام الامة » الذي يجمع الوطن والشعب تحت نظام قومي واحد ، يعي وجوده وواجبه وحقه في الحياة والصراع . أن تكون رومة معتدية ، باغية ، تريد التوسع والسيطرة والاستعمار ، ذلك لا شك فيه ، وقد اعطت براهينها التاريخية على ذلك . وأن تكون قرطاضة مظلومة في عالم زرعت فيه بذور حضارتها الراقية خلال ستة قرون ، ذلك ايضا لا شك فيه ، وقد شهد فيه عظماء المؤرخين . ولكن ذلك لا يقلل من تفوق الرومان ، نصف البرابرة ، في الفكر القومي السياسي ، ولا من تحجر الفينيقيين في « نظام المدينة » نحو عشرين قرنا . ذلك يعلمنا ايضا اهمية التطور والتجدد في الدولة ومؤسساتها عبر القرون لتبقى ، ولا تسمح للزمن بأن يتخطاها ، ولا للفكر البربري أن ينظم جيوشا افضل من جيوشها فيدمر حضارتها ومعالم وجودها الراقية .

وكذا قرر الشعب القرطاضي ان لا يموت رخيصا ، بل ميتة تليق بتاريخه العظيم . لقد قاومت صور الاسكندر وسقطت والسيف في يدها ، وقرطاضة ايضا ستسقط وحرابها موجهة الى الغازي الغادر . ان ثورة القرطاضيين على الفئة الانهزامية من زعمائهم وقتلهم في قاعة مجلس الشيوخ وفي الساحات العامة ، ومباشرتهم انتاج الاسلحة ، كان بداية الحرب الفينيقية الثالثة .

خلال فترة قصيرة وضعت قرطاضة تحت أمرة هسدروبعل ثمانين الف رجل تحت السلاح الكامل . انها قامت بمعجزة الصناعة والارادة . كانت عزلاء بكاملها ، جردتها رومة بمكر وخداع من جميع أسلحتها ، ثم أعطتها الامر بأن تقتل نفسها . أمام خطر الموت والمذلة والزوال عرف الشعب ، ولو في اللحظة الاخيرة ، كيف يقتص من الانهزاميين عنده ، ليقف على قدميه مسلحا متحديا المكر والخيانة ، ومزدريا بأوامر المجلس الروماني الطاغوت ، الذي أبدع في اقامة دولة قومية ، ولم يبدع في بلورة انسانيته ليصبح في مستوى الكنعانيين ، الرفيع انسانيا .

لم تكن قرطاضة واثقة من الانتصار ، ولكنها كانت مؤمنة بقدرتها على محو كل ما لحقها من عار وهوان منذ بدات رومة تسيرها على طريق

الجلجلة . من الطبيعي أن يكون الشعب قد استعرض ، وهو في ابان محنته، جميع الفرص التي سنحت له بضرب عدوه المتغطرس ، المصمم على ابادته منذ مائة سنة .

اذا كان القرطاضيون قد تمكنوا في اخر مراحل ضعفهم واستكانتهم واستسلامهم ، وبعد تجريدهم من كل أسلحتهم ، ان يسلحوا ثمانين الف مقاتل بسلاحهم الكامل خلال أيام ، فكم كانوا قادرين ان يسلحوا ويرسلوا من نجدات خلال ستة عشر عاما من احتلال هنيبعل لارض ايطاليا . لو كانوا ارسلوا حملة واحدة كهذه الى هنيبعل لكان قضى على رومة وانقذ بلاده والحضارة من تعدياتها المستمرة . ولكن علة الفينيقيين الاولى ان رؤية المخاطر التي تقتحم بلادهم لم تكن تتوضح لهم الا في اللحظة الاخيرة ، فتكون معاركهم الطاحنة مواقف دفاع عن العزة والكرامة والشرف ، ومجالات استشهاد في سبيل هذه القيم الاجتماعية . هكذا سقطت صيدا وغزة وصور، وهكذا سيكون مصير قرطاضة في الوقت الحاضر .

بالامس ، عندما كانت الارض الرومانية تميد تحت قدمي هنيبعل ، كان على الشعب القرطاضي أن يثور على الانهزاميين فيه ، وأن يقضي عليهم كما فعل اليوم خلال ساعات قليلة ، وأن يرسل نجداته المتواصلة الى قائده العظيم وبطله القومي الفذ . لم يفعل شيئا من ذلك ، بل بقي مستسلما للجبناء الرعاديد حتى وصل الخطر الى أسواره .

علم القنصلان بما كان يجري في داخل قرطاضة من استعداد للحرب ، فخططا للاسراع باشعال المعركة الفاصلة لتلقين المدينة ، العاصية أوامر رومة ، درسا تاريخيا قاسيا .

كانت الخطة أن يضرب الحصار على المدينة من البحر والبر : تعهد سنسورينوس القطاع البحري فنزل على الشاطىء المقابل للمدينة ، وتمركز في ضواحيها ، في منطقة رطبة تغطيها المستنقعات . أما مانيليوس فقد احتل المضيق الممتد على اتساع اربعة الاف متر ، والفاصل بين شبه الجزيرة التي تقوم عليها قرطاضة وبين اليابسة . ولما اقترب القنصلان من الاسوار العملاقة ورأيا الالات الحربية المركزة عليها ، وحركة السهر الدائم عليها تبددت أوهامهما ، وأدركا أنهما أمام حصار طويل الامد ، وأن عليهما أن يحكما طوقه وينتظرا استسلام المدينة أو ساعة يقرران مهاجمتها وأخذها عنوة .

كان القنصل سنسورينوس مستعجلا لاسقاط المدينة ، وكان ما يزال واهما بأن حصار قرطاضة ، التي تتحدى ، منذ ارتفاع أسوارها ، جميع المهاجمين من افريقيين وغرباء ، يجب أن ينتهي سريعا باستسلامها أو بسقوطها . فاقترب من الاسوار قدر امكانه ، وركز الات مدفعيته ، وأخذ يسلط قذائفه على مكان واحد حتى أحدث في النهاية ثغرة تمكن الجنود من

الدخول . وقد وهم انه قادر ان يأخذ المدينة بالمفاجأة ، فأطلق فرقه للهجوم وتدفق الرومان الى داخل المدينة ليصطدموا بقوات قرطاضية مستقلة ، جابهتهم بعنف لا يحتمل ، فارتدوا على أعقابهم هاربين ، ولو لم تحم فرقة سيبيون اميليانوس تراجعهم لكانت انزلت بهم خسائر فادحة .

وقد كانت نهاية سنسورينوس عندما ظهر وباء في جيشه فاضطر أن ينقل الجيش كله الى الاسطول . لكن القرطاضيين ، أسياد الحرب البحرية عندما يريدون ، سيروا على الاسطول الروماني ، في يوم عصفت رياحه ، عشرات من الزوارق المستقلة والمحملة بالمواد الملتهبة ، فأبيد الاسطول الروماني ولم ينج منه الا من رمى بنفسه في المياه ولجأ الى اليابسة .

ومنذ ذلك الوقت اختفى سنسورينوس عن المسرح الحربي ، ولم ير قرطاضة كما توهم ساجدة أمامه تطلب عفوه .

كان ذلك انتصارا يذكر لهسدروبعل . لقد صفى الجناح البحري ، وانضمت قوات سنسورينوس التي نجت من الحرائق البحرية الى قوات مانيليوس . اغتبط القائد الفينيقي بانتصاره من داخل طوق الحصار المضروب عليه ، وتشجع لمهاجمة الجناح البري ليقضي على جميع القوات الرومانية المحاصرة . وتحت جنح الظلام هاجم القرطاضيون المعسكر الروماني وتمكنوا من بلوغه وتخريب سياجه ، ولو لم يتمكن سيبيون أميليانوس من الانسحاب مع خيالته من مؤخرة المعسكر ، والانقضاض من الوراء على القرطاضيين واجبارهم على الهرب ، لكان قضي على الرومان وهم نيام في خيامهم .

وبعد هذا الهجوم القرطاضي الموفق ، وان لم يبلغ أهدافه ، بقي هسدروبعل خارج الاسوار يناوش الرومان بصورة دائمة ، بينما كانت قوات قرطاضية أخرى تهاجم من داخل الاسوار بين الفينة والفينة ، حتى تحول الحصار على الرومان في النهاية . وكانت المؤن وجميع وسائل العيش تصل الى قرطاضة من جميع نواحي ليبيا ونوميديا ، بينما كان الرومان يصلون الى درجة التقنين في المؤن .

غضب بعض الضباط ، من بطانة القنصل والمقربين منه ، واعتبروا نجاح هسدروبعل الجزئي انتصارا لعدو ضعيف محاصر ، لا يجب السكوت عنه ، بل يجب القيام بهجوم صاعق على المدينة الوقحة لسحقها دفعة واحدة. اندفع مانيليوس مع معاونيه المتهورين ، فأمر بهجوم عام على قرطاضة ، فاصطدم جيشه بقوات هسدروبعل المستميتة في الدفاع عن عاصمتها وصدت صدا عنيفا ، وأرغمت على التراجع في فوضى تشبه الهرب والتقهقر ، ولجأت الى المعسكر تحصن مداخله اتقاء لهجوم قرطاضي عليه . وأكثر الضباط المتحمسين سقطوا في المعركة . ولكن هسدروبعل لم يدرك قيمة انتصاره الكبير ، فاكتفى بتلك النتائج وأعطى الرومان الوقت الكافي لتحصين معسكرهم واعادة تنظيم قواتهم من جديد ، فخسر فرصة ذهبية لاحراز انتصار فاصل قد يكون بدد شمل الرومان ورماهم في البحر .

وصلت أخبار الهزيمة الى رومة فأرسلت لجنة تحقق في الاسباب التي أدت الى ذلك . وقد رأت اللجنة عدم جدارة مانيليوس بالقيادة العامة في تلك الظروف الفاصلة . وارتفع شأن سيبيون أميليانوس اذ علم الجميع أن جميع الاعمال العسكرية التي جرت الى الفشل سواء بقيادة سنسورينوس أم بقيادة مانيليوس لم تكن من رأيه . وقد أصبح راسخا عند الضباط والجنود كما بدأ يتردد في رومة ان حفيد سيبيون الكبير وحده قادر ان ينتصر على قرطاضة .

في هذه الاثناء انتهت قنصلية مانيليوس وجاء كالبورنيوس بيزو الى افريقيا ليتسلم القيادة كقنصل جديد ومسؤول ، حسب التقاليد ، عن جبهات القتال .

لم يعمد القنصل الجديد الى محاصرة قرطاضة من جديد ، بل اهتم بمهاجمة المدن الساحلية العزلاء بدون أن ينال نتيجة تذكر . ان أعماله العسكرية في خريف سنة ١٤٨ ق.م. كانت محاولته أن يحاصر حضروميت المدينة الفينيقية العريقة التي كانت صامدة مع قرطاضة . وقد أرسلت قرطاضة نجدة الى شقيقتها المجاهدة ، فهاجم الحضروميون المحاصرون مع القوات القرطاضية القوات الرومانية وأحرقوا جميع آلات الحصار ، فانسحب القنصل الى عوتيق لقضاء فصل الشتاء ، ولم يقم بأية محاولة عسكرية اخرى .

ان انتصارات هسدروبعل على قنصلين ، ومساعدة حضروميت على القنصل الثالث في تلك الظروف العصيبة ، جعلته يفكر بالسيطرة المطلقة على قرطاضة . والقائد الذي ارتجلته الظروف وساعدته الاقدار واستقتال بني قومه قد جمح طموحه اكثر من امكاناته .

كان قائد الحاميات القرطاضية في داخل المدينة قائدا اخر اسمه أيضا هسدروبعل أبوه فينيقي وأمه هي احدى بنات مسينيسا . اتهمه هسدروبعل بالتواطؤ مع المعسكر الروماني . فوجيء قائد الحاميات بتلك التهمة الشنعاء فلم يعرف كيف يدافع عن نفسه ويرد التهمة عنه ، وكانت كلمة هسدروبعل مسموعة بعد انتصاراته المتتالية فأحيل حفيد مسينيسا الى المحاكمة وحكم عليه بالموت ونفذ فيه الحكم حالا .

وبهذه الطريقة ، التي لم يعرف هل كانت مكيدة أم تهمة صحيحة ، تمكن هسدروبعل أن يكون سيد قرطاضة المطلق . فمع ان المؤسسات الدستورية لم تكن معطلة ، فان حاجة الدولة الى هسدروبعل حملتها على التساهل معه حتى اعتقد ، وهو في أوج مجده ، انه اصبح السيد المطاع .

وعندما أصبح دفعة واحدة نوعا من مسيطر غير محدود الصلاحيات ، برهن منذ البداية عن حمية عسكرية متقدة ، وأقسم علنا بأن لا يغمد سيفه قبل أن يجهز على اخر روماني يدوس أرض افريقيا ...

وربما يكون بمساعيه بدأ مجلس الشيوخ في قرطاضة مفاوضات مع الموريين للتفاهم على القيام بعمل عسكري مشترك ضد رومة ، كما أهتم « ليشتري » بعض الزعماء النوميديين العاملين مع الرومان .

مسينيسا كان قد انتهى وغاب عن المسرح ، وأبناؤه لم يكونوا مواظبين على القيام بواجباتهم كحلفاء . ولكن انتصارات هسدروبعل وقفت عند ذلك الحد . فمع ان القنصل بيزو كان ضعيفا ومترددا ومتهربا من القيام بأعمال عسكرية فاصلة ، فان هسدروبعل بقي على الدفاع ولم يغتنم الفرصة لانهاء الحرب .

في هذه الاثناء كانت رومة ناشطة في أوساط الشعب وفي المؤسسات لتجد الرجل القادر أن يجهز على قرطاضة . فالوعي السياسي الشعبي كان ساهرا أبدا على التنفيذ في الميادين الكبرى . وكان يحاسب مجلس الشيوخ محاسبة قاسية . ان الشعب الروماني كان شعبا سياسيا عسكريا فريدا من نوعه ، لم يضاهه شعب اخر في تلك الازمنة . تذكر الرومان سيبيون الكبير في هذه الظروف ، وبعد ان علموا بعض ما قام به سيبيون أميليانوس وقت كان تحت أمرة القنصلين سنسورينوس ومانيليوس ، رسخ في فكرهم ان حفيد سيبيون الكبير وحده قادر ان ينتصر على القرطاضيين . لذلك عندما رشح سيبيون أميليانوس نفسه لمفتشية الداخلية في رومة قرر الشعب انتخابه قنصلا ليتمكن من قيادة جيوش افريقيا . وقد انتخبه بالفعل دون أن يبالي بأن عمره القانوني لا يسمح بذلك . وعندما اعترض القنصل الذي كان يترأس عملية الانتخابات واعتبر انتخابه غير قانوني ، وقف وكيل الحق العام وانذر مجلس الشيوخ بالغاء المادة التي تحدد سن المرشح بثلاث واربعين سنة .

اضطر مجلس الشيوخ ان ينفذ حالا عندما أصرت جمعية الشعب العمومية ، ولكي يحفظ شيئا من هيبته حدد الغاء المادة في سنة واحدة . وعندما ثبت انتخاب أميليانوس بصورة قانونية أراد الشعب أن يتأكد من تسليم قنصله المفضل القيادة العامة في افريقيا . ذلك كان من صلاحيات مجلس الشيوخ ، ولم يكن هذا المجلس ميالا لاسناد القيادة الى رجل فرض عليه فرضا . ولكن الشعب الساهر لم يتساهل هذه المرة أيضا في ترك الامر لارادة مجلس الشيوخ ، بل فرض ارادته العليا . وقف وكيل الحق العام في الجمعية العمومية وسأل الشعب أيا من القنصلين يريده قائدا عاما للقوات المحاربة في افريقيا فكان الجواب : سيبيون أميليانوس ، حفيد قاهر هنيبعل . وساد الصمت كأن الناس في معبد ، ونفذت ارادة الشعب .

## دولة متحجرة وشعب يصارع حتى النهاية

المثل القرطاضي المميز بمتناقضين صارخين : دولة متحجرة ، تحافظ على نظام وأساليب وتقاليد مر عليها أكثر من الفي سنة ، وشعب مستعد للصراع في سبيل تجدده وبقائه ، هذا المثل القرطاضي يعطينا عبرة تاريخية واضحة عن تأثير الدولة السلبي في الشعب عندما تسيطر عليه فئة معينة مغلقة ، تجمد التفاعل بين الدولة والشعب ، وتعطل وصول أفضل أفراده الموهوبين الى المؤسسات القومية العليا ، والى مراكز القيادة التوجيهية .

الفئة الاوليغارشية ـــ الارستقراطية التي هجرت صور ، وبنت قرطاضة وقادتها ضد المنافس اليوناني خلال خمسة قرون الى المجد والعظمة ، وحولت المدن اليونانية المنافسة الى « غبار من الدويلات » ، على حد تعبير المؤرخين، هي نفسها التي تحجرت عبر القرون ، وجمدت نمو الشعب وتطوره ، لتجره اليوم ، بعد ان تخاذلت خلال قرن كامل ، الى الهاوية . وهي لم تتحرك وتقرر خوض معركة الصراع الاخير الا بعد أن رأت الشعب يثور ثورة العـــز والكرامة ، ويفتك بقسم من الحاكمين في قاعة مجلس الشيوخ وفي الساحات العامة .

من السهل ان يقول الدارس المنتقد : كان على الشعب أن يثور ، فهو المسؤول الاول عن حياته ومصيره ، واذا كانت الدولة قادرة أن تسيء اليه حقبة من الزمان ، فلا يجوز أن تتمكن من الاساءة حقبا طويلة ، أو قرونا طويلة ، كما حدث في قرطاضة .

هذا صحيح من الناحية النظرية . الدولة هي وكيلة الشعب ، المعبرة عن مطالبه العليا ، والموجهة خطاه في المسير المصيري . وهو يجب أن يسهر على سلوكها في تحقيق مضامين وكالتها ، واذا أخلت مرة بعد مرة واستمرت في أخطائها ، وتجمدت في أساليبها ومفاهيمها المخطئة ، يجب على الشعب أن ينتفض في النهاية عليها لينتزع منها الوكالة ويقيم حكما جديدا جديرا بثقة الشعب وبالاضطلاع بأعباء المسؤوليات القومية الكبرى .

أما من الناحية العملية ، فويل للشعب اذا ما استحكم أمر فئة معينة في أجهزة الدولة ومؤسساتها ، فقدمت هذه الفئة للشعب خدمات كبرى في ظروف عديدة ، ثم اعتراها التقهقر الفكري والجمود في مفاهيمها العتيقة ، فآل بها ذلك الى الضعف والهوان والانحطاط .

ثم ويل للشعب الف مرة اذا ما كان حكامه ، منذ البداية ، قد أحدثوا

عاهات فكرية في أساليب معالجة قضاياه الكبرى ، في التكوين والصراع والمصير . لقد حمل حكام القرطاضيين من صور والساحل الفينيقي أمراضهم السياسية المزمنة : الفردية والاقليمية ونظام المدينة الذي تسيطر فيه فئة أوليغارشية معينة ، والذي زال في سورية الشرقية ( سومر ) منذ عهد سرجون الكبير (٢٣٠٠ ق.م. ) ولكنه استمر في سورية الغربية ( الشاطىء الكنعاني ) حتى أضعفه الاستعمار الفارسي ( ٥٣٩—٣٣٣ ق.م. ) ثم حطمه الاستعمار المقدوني — الروماني ( ٣٣٣ ق.م. — ٦٤٠ م. ) .

ان النجاح النسبي الذي رافق نظام المدينة في قرطاضة قبل بدء «الحرب الفينيقية » هو الذي منع تنبه الشعب الى ان الزمان قد تخطاه ، وانتقل الى « نظام الامة » ، فكان اهمال الفينيقيين في قرطاضة قضية الفينيقيين في عشرات المدن الفينيقية على الساحل الافريقي ، مما سبب انهيارهم في النهاية أمام زحف القوميين ، كما سبب انهيارهم من قبل الفرس والمقدونيين القوميين.

عاد سيبيون اميليانوس الى افريقيا مزودا بصلاحيات القنصلية ، حاملا مطامع رومة ونياتها في السيطرة الكلية على افريقيا بجميع الاساليب المكيافيلية . يجب أن تصبح افريقيا الشمالية مقاطعة رومانية ، مثل صقلية وسردينية واسبانيا . وبهذا العمل العسكري الاخير تزول الامبراطورية الكنعانية في غربي المتوسط من الوجود ، وكذلك يزول الشعب الكنعاني متبعثرا بين الاقوام البدائية .

البدائية تتقدم نحو الحضارة عندما تكون الحضارة دولة تحمي مبادئها وأساليبها في الحياة ، أما عندما تمسي الحضارة أفرادا وفئات مبددة ، فان البدائية تمتص الحضارة دون أن تبدل كثيرا من مبادئها وأساليب حياتها .

بصورة تلقائية حدسية تضامنت المدن الفينيقية مع قرطاضة . لقد شعرت بمغبة المصير اذا ما هي تفرقت بعضها عن بعض . كان تضامنها ناتجا عن عصبية قومية قوية صحيحة ، ولكن ينقصها التنظيم الدقيق لمواردها وامكاناتها العسكرية ، والتخطيط البعيد المدى لاستغلال طاقاتها الصراعية . بقيت قرطاضة حتى هذه الساعات الحرجة لا ترى امكانية أبعد من أسوارها، ولا تجد ملجأ لشعبها الا ضمن هذه الاسوار ، فكأن هذه المدن الفينيقية المنتشرة من حدود مصر الى شواطىء الاطلسي ليست منها ولها . انها تختنق في نظامها المديني وفي أقليميتها وفي طبقيتها . من جميع المدن الفينيقية التي تعد بالعشرات ، سبع مدن فقط انحازت من خوفها ويأسها الى رومة .

برهن سيبيون أميليانوس ، منذ وصوله الى افريقيا ، انه قائد من معيار كبير ، جدير بأن يكون حفيدا لسيبيون الكبير . كل ما فعله زملاؤه الثلاثة ومعاونوهم من قبله اعتبره اخطاء في أخطاء . كان الجيش الروماني في افريقيا عند وصول سيبيون أميليانوس في حالة يرثى لها . لقد أصابه ، خلال سنتين من البطالة والترف في عوتيق ما أصاب جيش هنيبعل في كابوا ،

المدينة اليونانية في ايطاليا . وكما أسرع هنيبعل الى اصلاح حالة جيشه ، كذلك اسرع أميليانوس ، بعد غياب سنة عن افريقيا ، الى اعادة النظر في مسلكية جيشه . لقد تحول المعسكر الى مأوى للاشخاص المشبوهين وبائعات اللذة : فللسماسرة والباعة والوسطاء وبنات الهوى كان المعسكر ميدانا في النهار والليل .

جمع أميليانوس جيشه وكلمه بصراحة فقال :

« أنتم تعلمون ما هي افعالكم . أنا أخجل من أن أعددها على مسامعكم في اجتماع عام . انتم تحيون حياة أقرب الى اللصوصية منها الى الجندية . وقد تعودتم ممارسة البيع والشراء أكثر من ممارسة القتال . في ابان الحرب تهجرون المعسكر لتتهافتوا على الضواحي . لا تفكرون الا بملذاتكم ، ولا تنشغلون مطلقا بالانتصار على العدو . لو كنت أعلم انكم مسؤولون عما فعلتم لاوقعت فيكم القصاص بدون تردد . ولكن اعتقادي ان غيركم هو مسؤول يجعلني انسى الماضي . أنا جئت الى هنا لانتصر لا لانهب . ولن آخذ أي مال من العدو الا بعد أن أسحقه . لذلك أريد أن يغادر المعسكر هذا اليوم كل شخص ليس جزءا من الجيش . ويمنع الدخول الى المعسكر الا على الباعة الذين يخصص لهم وقت محدود لبيع سلعهم بعد أن أكون أنا ومدير ماليتي وضعنا لها أسعارها المعقولة .

« الطاعة تكافأ بسخاء أما العصيان فيقمع بشدة وقساوة » (٨٥) .

بعد ان شعر أميليانوس انه أعاد الانضباط ونفسية الصراع الى جيشه انتقل الى العمل . وضع مخططا لمحاصرة المدينة العاصية من جميع جهاتها البحرية والبرية حتى تسقط بين يديه . فالحصار الذي سيضربه اذن هو طويل الامد ، وقد خطط لتنفيذه بأساليب تضمن عدم تمكن القرطاضيين من الانقضاض عليه لا من الداخل ولا من الخارج .

بين ليلة وضحاها ، وبدون أن يطلع أحدا على ما ينوي فعله ، تغلغل في ضاحية « ميغارة » ، وهي المنطقة القائمة بين قلب المدينة « بيرسة » ، وبين الداخل ، وهي صالحة للبدء بالحصار وصعبة المسالك على العمليات الحربية . وكان عمل أميليانوس أولى المفاجآت المزعجة للقائد العام هسدروبعل . لقد تمركز الرومان في جميع جهات ميغارة ، وهرب السكان بالالوف لاجئين الى داخل أسوار المدينة .

يزعم المؤرخ البيانوس ان المفاجأة المزعجة حملت هسدروبعل على اتخاذ خطوة قاسية ترغم القرطاضيين على الصراع حتى النهاية بدون أمل بأية رحمة من قبل القائد الروماني : لقد أمر باقتياد الاسرى الرومان الى أعالي الاسوار حيث أمر بتعذيبهم أمر العذاب على مرأى من الرومان . فأدرك أميليانوس من تصرفات هسدروبعل هذه انه لن يكون استسلام ، بل ستستمر الحرب حتى الفناء .

منذ تلك الساعة بدأت خطة الحصار تنفذ . أمر اميليانوس بحفر خندق طوله أربعة الاف وخمسمائة متر ، يفصل قرطاضة عن البر كليا . ثم حفر خندقا اخر يحمي معسكره من جهة البر ، وبعد الانتهاء من هذين الخندقين أمر بحفر خندقين اخرين من جهة اليمين واليسار ليقي جيشه اية مفاجأة .

وقد أصبح المعسكر الروماني محميا ضمن مربع من الخنادق ، مطوقا بسياج من الاوتاد الحديدية الحادة الرؤوس . أما من جهة المدينة فقد بنى القائد ، زيادة على كل ذلك ، سورا كبيرا علوه أربعة أمتار ، عرضه متران مع أبراج عالية يرى منها كل ما يجري في المدينة .

وبهذه الطريقة المحكمة تمكن اميليانوس من قطع المدينة كليا عن اليابسة ، أما من البحر فقد عجز عن قطع طرق تموينها . فقد بقي الاسطول القرطاضي يجمع المؤن من حيث يقدر وينقلها الى المدينة المحاصرة ، وكان الاسطول الروماني يتجنب الالتحام بالاسطول الفينيقي خوفا من الكمائن البحرية المفاجئة . وكانت هذه المؤن توزع أولا على الصناع والعمال الذين كان يربو عددهم على ثلاثين الفا ، فيما كان السكان يتموّنون بوسائلهم الخاصة .

بعدما أمن اميليانوس نجاح الحصار من البر ، عمل لاحكامه من البحر. كان عمله يستهدف تعطيل المرفأ ، فأمر بتشييد سد من الحجارة الضخمة يمنع السفن من انزال حمولتها على الارصفة . وقد شغل الاف الفعلة عدة أشهر لاقامة السد ، فكان عمله شبيها ، الى حد بعيد ، بما فعله الاسكندر في صور عندما ردم البحر خلال سبعة أشهر ليصل الى صور الجزيرة . لم ينجح السد البحري بقطع علاقات قرطاضة مع الخارج كما نجح الحصار البري . لقد تمكن القرطاضيون ، بمهارتهم الهندسية ، من شق مدخل جديد.

« أيغلق الرومان المرفأ في وجههم ؟ انهم قادرون أن يفتحوا مدخلا اخر ، في مكان لا يسمح عمق المياه وصولة العواصف بالقيام بمحاولة كالاولى . وقد جندت المدينة كلها رجالا ونساء وأولادا لهذا الغرض . ولم يكن الهدف فتح ثغرة في السور البحري الكثيف الذي كان يفصل الحوض الداخلي عن البحر ، بل بناء اسطول حربي كامل قادر أن ينازل العدو . في شهرين فقط تم كل شيء ، وبقي سر العمل مكتوما الى اخر ساعة بالرغم من انه كان للرومان جواسيس في المدينة . وفي أحد الايام ظهرت مائة وعشرون سفينة حربية في البحر خارجة من المدخل الجديد كأنها انتاج أعجوبة ، منها خمسون سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة . ويؤكد ايبانوس أن ظهور هذا الاسطول المفاجيء قد أرعب الرومان الى حد لو عرف القرطاضيون كيف يستغلونه بمهاجمة الاسطول الروماني الخالي من البحارة والقذافين ومن أي شخص جدير بالدفاع ، اذ كان الجميع منشغلين بالحصار ، لكانوا تمكنوا بسهولة أن يسيطروا على الموقف » (٨٦) .

يبدو ان القرطاضيين لم يقدروا قيمة عملهم العسكري حق قدره ، فاكتفوا بعرض أسطولهم وايقاع الرومان في دهشة مخيفة ، ثم عادوا الى قواعدهم . وبعد ثلاثة أيام من ذلك الحادث خرجوا مرة ثانية الى البحر بنية استفزاز الرومان وجرهم الى معركة بحرية . ولكن الرومان كانوا على استعداد كامل هذه المرة . كانوا بانتظار ظهور الاسطول القرطاضي الجديد الذي كان أعجوبة انتاج المصانع المرتجلة في الخفاء . قام الرومان بهجوم معاكس وكبدوا القرطاضيين خسائر فادحة ، وعند المساء عاد الاسطول القرطاضي الى قواعده منهوكا مهدما .

كان أميليانوس مخططا متفوقا في شؤون الحصار . في اليوم التالي قام بمجهود عسكري كبير لاحتلال الارصفة التي تسمح له بالسيطرة على المرفأين ، وباحكام الطوق على المدينة من جميع جهاتها . فأطلق قواته لاحتلال المكان المستهدف ونجح في عمله . ولكن المتطوعين القرطاضيين ، من نوع المغاوير ، هاجموا الرومان تحت جنح الظلام ، فاجتازوا البحر سباحة وانقضوا على الرومان من الوراء مرغمينهم على التراجع ومدمرين جميع الاتهم الحربية . وعندما عاد أميليانوس هذه المرة الى محاولة الاحتلال ثانية قاومه القرطاضيون بضراوة مرعبة وصدوه عن المكان ، فاضطر أن يقاتل اشهرا عديدة في المكان نفسه ، ولم يسيطر عليه الا بعد تضحية أربعة الاف مقاتل .

لم يتمكن أميليانوس من احكام الطوق على المدينة ، بل بقي القرطاضيون يتمونون من المناطق التي تسيطر عليها قواتهم من الخارج ، والتي اتخذت مدينة « نيفيريس » قاعدة لتحركاتها العسكرية .

نحن الان في خريف سنة ١٤٧ ق.م. وقد بدأ فصل الامطار ، والطقس لم يعد يساعد للعمليات الحربية الواسعة . بالرغم من ذلك مشى أميليانوس على نيفيريس ، فهي القاعدة الفينيقية المتحدية التي يجب تدميرها وابادة اهلها ليكونوا عبرة لمن يعتبر . ضرب حول المدينة طوقا كاملا ، وبعد اثنين وعشرين يوما سقطت بين يديه . كانت استعداداتها مرتجلة وناقصة . وقد أباد أميليانوس سكانها والمقاتلين الذين دافعوا عنها . ولم ينج من القتل الا الوف قليلة تبعثرت في البراري البعيدة . ويقول ايبانوس ان سبعين الفا أبيدوا في المدينة .

بعد هذه المجزرة الرهيبة التي أبادت مدينة كاملة ، أسرعت جميع المدن الفينيقية الى الاستسلام ، وأمسى تموين قرطاضة مستحيلا . لقد تغير وجه المعركة . كل الامكانات الفينيقية التي لا تحصى ولا تحد على الساحل الافريقي جرها الرعب الى الاستسلام وطلب الامان على حياتها . هنا يكمن سر الضعف القرطاضي ، بل سر ضعف الفينيقيين جميعهم . لم يعلموا كيف يوحدون قواهم فانهارت امكاناتهم الجبارة أمام قوة رومانية لا توازي جزءا

من امكاناتهم . ان عشرات المدن الفينيقية كانت مستعدة للاسهام في المجهود الحربي لتنقذ نفسها والحضارة الكنعانية من السيف الروماني المبيد ، والنير المستعبد . امام احتمالين لا ثالث لهما : الدفاع عن النفس او الفنـــاء ، لا شك ان الفينيقيين جميعهم كانوا قد قرروا الدفاع حتى النفس الاخير . ولكن عقلية « نظام المدينة » الفردي والاقليمي كانت قد استأثرت بوجـــدان القرطاضيين وعقلهم ، فاستمروا حتى ساعاتهم الاخيرة بعيدين عن مفهوم المجهود القومي الكبير الموحد الذي يقاتلهم به الرومان وينتصرون به عليهم منذ سنة ٢٦٤ ق.م.

بعـــد استسلام المدن الفينيقية وجميع البلاد المحيطة بقرطاضة مـــن الشرق والغرب والجنوب اصبح مستحيلا عليها ان تحصل على المؤن . لقد طوقت نفسها بسياج من الاعداء الرومان والمستسلمين الفينيقيين والافريقيين، ولم يبق لها من عالمها ، الذي شمل بالامس شمالي افريقيا واسبانيا وجزر المتوسط ، الا « بيرسة » التي اشترتها اليسار بحياتها . تلك هي آخـــرة الجمود في المفاهيم الاجتماعية والسياسية اللاقومية . صحيح ان حياة الدول لا تقاس بالسنين كحياة الافراد ، ولكن الفينيقيين زالوا قبل اوانهم . لقد كانوا رومنطقيين في تفكيرهم السياسي . تفوقوا في تحضرهم ، في اختراعاتهم ، في مغامراتهم الحضارية والتجارية ، في تفكيرهم العالمي الذي توجه زينون في مدرسته الفلسفية الكونية ، ولكن قصروا في فن انشاء الدولة .

بالرغم من انغلاق جميع الطرق والمنافذ في وجهها قررت قرطاضة ان تصارع حتى النهاية ، فهي مثل امها صور تريد ان تموت كبيرة ، كما عاشت كبيرة .

جاء ربيع سنة ١٤٦ ق.م. ، بدا الجوع يوهي المحاصرين ، واليأس يهد عزائمهم ، وبدأت الايام والساعات تلتهم كل ما بين أيديهم من مؤن وذخائر ، شيء واحد لم تقو على التهامه هو كبرياؤهم القومية وتصميمهم على الموت ضمن أسوار مدينتهم . ان المدينة التي حمتهم نحو سبعة قرون ، وكانـــت منبعا من منابع عزهم وعظمتهم ، يجب أن تروى بدمائهم . والارض التـــي سارت منها جحافلهم لارتياد المجاهيل وتثبيت معالم حضارتهم ، يجب أن تضم جثثهم . والجدود الذين رقدت عظامهم في هذه التربة المقدسة ، يجب ان تنضم اليهم عظام أحفادهم . واليسار الالهية التي دشنت هذه الحضارة باستشهادها لن ترضى بأن تنتهي الا بشهادة حفدائها .

وكما اتخذت رومة قرارها الرهيب بابادة دولة وحضارة وشعب ، كذلك قرر القرطاضيون ان يكون موتهم على مستوى تاريخهم .

ادرك أميليانوس ان الاعياء قد دب في المدافعين المستميتين . والمفاوضة التي قام بها غولوسا ، أحد أبناء ميسينيسا ، مع هسدروبعل لاستسلام المدينة بلا قيد ولا شرط ، قد فشلت . كل ما وعد به أميليانوس هو الامان

لهسدروبعل وعيلته وعشر عيال من أقاربه أو أصدقائه . فلم يلق وعده الا الرفض التام .

قرر اميليانوس القيام بالهجوم العام الاخير ، وهو ، حسب العرف الروماني ، يقوم بالحرب ضد البشر لا ضد الالهة . عشية اليوم الذي قرر أن يشن فيه هجومه الاخير ، وبمقتضى التقليد القديم في بلاده ، وجه الى الالهة القرطاضية هذا النداء في حفلة علنية وأمام جيشه كله المجتمع حول المذبح المقدس :

« اذا كان هناك آله أو آلهة تحمي الشعب القرطاضي ومدينتـــه ، أسألكم وأتضرع اليكم ، ونعمة التمس منكم ، بأن تتخلوا عن مدينة قرطاضة وشعبها ، ان تهجروا المدينة ومعابدها وأمكنتها المقدسة ، وأن تبتعدوا عنهم. أن تلقوا في نفس هذا الشعب وفي مدينته الخوف والرعب والنسيان ، وأن تغادروهما وتأتوا الى رومة حيث أنا وقومي . فلتكن مدينتنا ومعابدنا وأمكنتنا المقدسة أحب وأعز لديكم . خذونا تحت رعايتكم ، أنا والشعب الروماني . واذا جعلتمونا نعرف انكم تستجيبون التماسنا ، فاني انذر على نفسي ان أبني الهياكل ، وأقيم الالعاب اكراما لكم » .

وفيما كان يتكلم ، ذبحت القرابين ، وفحصت أحشاؤها .. فاذا بها خالية من كل شؤم ينذر بالويل . وهذا دليل — في عرف رومان ذلك الزمان — على ان آلهة قرطاضة غير غاضبين على الفاتح الروماني ، بل على انهم يرحبون به ...

عندئذ أكمل اميليانوس ابتهاله الجهنمي ، فصاح :

« أنتم جميعا ، أيها الالهة ، انشروا الفرار ، والذعر ، والرعـــب ، والطاعون في هذه المدينة ، قرطاضة ، وفي هذا الجيش الذي أقاتل . وليمنى بالخذلان ، ويحرم نور السماء ، كل من يحمل السلاح ، أو يرمي السهام ضد فيالقنا ، ان في هذه المدينة ، أو في المدن الاخرى ، والحقول والاراضي المختلفة ... » .

ولما فرغ القائد الروماني من انزال لعناته الصاخبة على القرطاضيين ، انحنى حتى لامس الارض بيديه ، وتضرع الى « ام الارض » ثم رفع يديه الى السماء ، والتمس معونة جوبيتر .

وفي هذه الصلاة المدهشة دليل واضح على المصير الرهيب الذي كان أميليانوس يعده لمدينة اليسار .

# المعركة الاخيرة

لم يكن في التاريخ القديم والحديث معركة مدينة محاصرة تضاهي معركة قرطاضة الا معركة صور من قبلها وستالينغراد الحديثة من بعدها . فقد بلغت البطولة والاستماتة في سبيل الكرامة القومية مستوى من السمو والعظمة هما أوج ما يصل اليه الانسان في صراعه للدفاع عن كيانه وقيمه الاجتماعية وفضائله الانسانية ضد شعب يقدس الدولة ومصالحه القومية والامبريالية . لم يكن صعبا على القرطاضيين ، خصوصا وان حياتهم معرضة للفناء ، أن يبتعدوا عن مدينتهم حاملين جميع ممتلكاتهم المنقولة ، وأن يتوزعوا فيما بعد على المدن الفينيقية التي كانت تتمنى أن تؤويهم مع ثرواتهم الضخمة وامكاناتهم المالية والصناعية . ولكنهم أبوا أن يتنازلوا عن الارض والصروح والابنية التي تكون رمز تاريخهم وأمجادهم . لقد كتب لهم أن تنشأ مدينتهم بمحرقة اليسار وأن تنتهي بمحرقة امراة هسدروبعل . تلك ماتت وحدها فداء عن المدينة الصاعدة على أرض غريبة ، وهذه التهمتها النيران مع ولديها فداء عن المدينة التي تلتهمها النيران كلها .

انطلق أميليانوس في هجومه من الارصفة التي كان قد أوقفه عندها هسدروبعل منذ ثمانية أشهر . هاجم المرفأ فاحتله بسهولة . ومن هناك تمكن من الدخول الى المدينة . ولشد ما كانت دهشته عندما وجد شوارع المدينة الرئيسية خالية من البشر . كان ذلك عند الفجر . انطلقت فرق الهجوم تحركها وتحرضها فكرة المغانم والاسلاب . المدينة المكتظة بالكنوز ، والتحف النادرة ، والرياش الفخم ، والاقمشة الغنية ، والادوات المنزلية الغالية ، خاضعة لضراوتهم ونهبهم ونزواتهم وتصرفاتهم الكيفية . كل ما في المدينة من اشياء وبشر هو ملك سيوفهم . هذا الاغراء بالمغانم والاسلاب والسبايا كان يستعمل دائما في الحروب القديمة ، وخصوصا عند المقدونيين والرومان ، كحافز قوي لدفع الجيوش الى اقتحام الاسوار العاصية .

مرت فرق النهب والقتل والتدمير في زحفها بأحد المعابد الكبرى فاقتحمت داخله وأسرع كل جندي بالاستيلاء على ما تطاله يده . أعمل الجنود فؤوسهم في تمثال الاله الذهبي فحطموه وتقاسموا قطعه ، كما أعملوا سيوفهم ورماحهم بالجدران المغطاة بالذهب الخالص فعروها من طلائها الاصفر . ولما أفرغوا المعبد من جميع تحفه تابعوا طريقهم ، فوصلوا الى ساحة عامة تمتد منها شوارع ثلاثة رئيسية تؤدي جميعها الى القلعة . كانت ابنية هذه الشوارع

من طوابق عديدة . وكان جميع السكان متمركزين في منازلهم ، مستعدين للقتال بجميع وسائلهم . فما أن دخل الغزاة هذه الشوارع حتى أمطرهم السكان من الطبقات العليا وابلا من القذائف المتنوعة . فاستحال عليهم التقدم . وبعد توقف قليل ارتدوا على البيوت لينقذوا انفسهم مما تمطرهم السطوح والمنافذ ، وبدأ عراك رهيب بين طبقة وطبقة ، بين منزل ومنزل ، بين غرفة وغرفة . الشعب كله تجند للقتال والموت . لقد سدت الادراج بادوات منزلية شتى ، وكانت النساء تمطر كل من يقترب من السدود بالمياه الغالية ، فلا يتمكن المهاجمون من اقتحام المنازل الا بعد قتال عنيف .

من أقبية البيوت حتى سطوحها في الطبقات الرابعة أو الخامسة كانت تدور معارك طاحنة بين الشعب والمهاجمين . رجال ونساء كانوا يقذفون بنفوسهم من النوافذ في الهواء فيصلون الى الارض محطمين ، وغالبا ما يستقبلهم الغزاة على رؤوس الاسنة . الدماء تسيل على الادراج ، وانين المحتضرين يسمع في كل منزل . وبينما ترمى جثث الاموات في زوايا المنازل يتابع الناهبون جمع ما تصل اليه أيديهم مما خف حمله وغلا ثمنه .

وأخيرا ، بعد ابادة سكان الشوارع الثلاثة ، وصلت فرق الهجوم الى القلعة . اذ ذاك أمر أميليانوس باشعال النار في الشوارع التي نظفت من السكان ، بينما فرق أخرى كانت تجتاح الشوارع الاخرى فتلاقي المقاومة نفسها .

القلعة قاومت سبعة أيام أكثر من المدينة . في اليوم السابع فاوض المحاصرون للتسليم مشترطين أن يؤمنوا على حياتهم . رضي أميليانوس بالشرط وخرج من القلعة ثلاثون الف امرأة وخمسة وعشرون الف رجل سيقوا جميعهم الى معتقلات خارج المدينة .

بقي في القلعة الهاربون من الجيش الروماني ، وقد أبى اميليانوس أن يؤمنهم على حياتهم وعددهم نحو ثمانمائة جندي والقائد هسدروبعل وامرأته وأولاده وبعض القرطاضيين القلائل . فكر هسدروبعل بالاستسلام حسب الشرط الذي كان وضعه اميليانوس ، ولكن امرأته أبت أن تستسلم الى الرومان فاضطر أن يجاريها . وقد دخل الجميع القلعة وتمركزوا في معبد أشمون ، وهو أعلى مركز في القلعة حيث يتمكن العاصون من الاستمرار في المقاومة زمنا طويلا بعد .

يزعم بوليبيوس ، المؤرخ اليوناني الذي كان مرافقا لاميليانوس ، ان هسدروبعل غافل امرأته وانسحب وحده من القلعة ، واتجه نحو المكان الذي كان فيه أميليانوس مع أركان جيشه ، وهناك استسلم . ولكن بوليبيوس كان مغرضا في أخباره ومأجورا عند الرومان . وفي جميع أخباره عن هسدروبعل يظهر ميله الدائم لتسخيف القائد القرطاضي والحط من قيمته العسكرية والمناقبية ، لذلك لا يمكن الركون الى قوله . وبقدر ما يحط من

قيمة هسدروبعل يرفع من قيمة امرأته التي تجلت فيها كل معاني البطولة والفداء . فهي في نظره اليسار الثانية أو الاخيرة من سلسلة بطولات الفينيقيات .

يظهر ، حسب بوليبيوس ، انه بعد مغادرة هسدروبعل للقلعة قرر المحاصرون أن يشعلوا محرقة ويرموا انفسهم واحدا بعد الاخر في النار تخلصا من الرومان ومن الموت جوعا . وكانت المحرقة على مرأى من القيادة الرومانية . وبعد ان قذف تسعمائة رجل بأنفسهم في النار نادت امرأة هسدروبعل زوجها الجالس الى جانب القائد الروماني ووبخته على جبنه واستسلامه ثم أفهمته انها ، قصاصا له ، وتجنبا من الوقوع في قبضة الرومان ، فانها تقدم نفسها للنيران مع ولديها . وبشجاعة لا توصف تقدمت ممسكة بولديها ودخلت بين السنة النيران المندلعة الى كل جانب . وبموت هذه المرأة العظيمة تنتهي المقاومة القرطاضية وتزول قرطاضة من الوجود .

انتهت مقاومة القوات المسلحة التي كانت في القلعة وعلى رأسها القائد هسدروبعل . أما محرقات المدينة ومجازرها وفرق النهب والتدمير فكان يسمع معها هدم الجدران ، والاعمدة المتساقطة ، وضجيج الجنود المتهالكين على قتل الناس وانتهاك حرماتهم ، وهدير النيران المحولة كل ما انتجه الانسان من جمال وفن الى قبضة من رماد ، تبعثرها الرياح في مجهول جديد .

سبعون الفا من الجثث تغطي أرض الشوارع والمنازل والمعابد وتحترق مع العاصمة . الوف من عذارى قرطاضة ونسائها يصارعن الجنود دفاعا عن شرفهن ، كما يصارع الانسان ذئابا كاسرة مفترسة . الاولاد يهيمون في الازقة ويلجأون الى المخابىء هربا من الموت والمناظر المرعبة .

عشرة أيام متواصلة كانت النيران تلتهم عملاقة العالم القديم في غربي المتوسط . تعب الجنود من القتل والنهب والتدمير ، وتعبت النيران من تحويل انتاج الانسان الجميل الى عدم . هدأ الضجيج والقرقعة ، وعاد الجنود الى معسكرهم ينهشون سباياهم . وبقي اولاد في المخابىء يرتعدون خوفا ويموتون جوعا ، ومنهم من يتسلل الى البراري يفتش عن انسان في قلبه خميرة من انسان .

باع أميليانوس خمسة وخمسين الفا من الفينيقيين في سوق النخاسة التي ارتجلها النخاسون الهارعون من جميع الانحاء ليسهموا في تصفية المدينة. وقد اعتبر اميليانوس ان عمله العسكري قد انتهى ، وان امر مجلس الشيوخ قد نفذ ، مع ان قرطاضة التي أمست هيكلا مهدما من مدينة ، أو جثة عملاقة نهشتها الكواسر والضواري ولم تجهز عليها ، لم تقوض جميع أبنيتها ومعابدها وصروحها الكبرى كما قد يفهم من أمر مجلس الشيوخ الروماني .

لذلك بعث سيبيون الى رومة يقول : « لقد استوليت على قرطاضة ونفذت اوامر مجلس الشيوخ . ماذا تريدونني أن افعل بعد ؟ » ، وشفع كلامه

هذا بتقرير مطول عن الوضع العام . وكان جواب مجلس الشيوخ على تقرير أميليانوس أن أرسل لجنة خاصة تشرف على تدمير المدينة العدوة . ان وصية كاتون الروماني الحقود يجب أن تنفذ بحذافيرها . لم يكن مجلس الشيوخ واثقا من ميل أميليانوس للتنفيذ الكامل ، ولم يستنتج من تقريره ان المدينة اضمحلت بجميع معالمها من الوجود . لذلك أمرت اللجنة بمراقبة تدمير المدينة وابادتها كليا ، ثم فلح ارضها ورشها بالملح لتمسي عقيمة ملعونة الى الابد .

أما بشأن المكتبات العامة ، وكانت في ذلك الحين من أغنى مكتبات العالم ، فقد أمرت اللجنة بأن يحتفظ فقط بموسوعة ماغون القرطاضي عن الزراعة ، المؤلفة من ثمانية وعشرين جزءا ، أما آلاف المؤلفات الباقية فتحرق أو توزع على أمراء ومشايخ النوميديين . وقد اسرع أولئك الامراء والمشايخ واقتسموها فيما بينهم اذ انهم ، ولا شك ، كانوا يحسنون اللغة الفينيقية . لم يكن الرومان يهتمون في ذلك الحين الا بما يتعلق بالزراعة .

أما المدن الفينيقية التي بقيت متضامنة مع قرطاضة الى الساعات الاخيرة ، فانه أمر بتدميرها وبيع سكانها في أسواق النخاسة لتدر المبالغ الضخمة على الخزينة الرومانية . ان رومة كانت مقبلة على متابعة الحروب والغزوات في حوض المتوسط وهي بحاجة كلية الى المبالغ الكبيرة لتنفق على جيوشها .

بقي أمر المدن الفينيقية التي اضطرت ان تعلن تعاونها مع الرومان بسبب تغافل القرطاضيين واهمالهم ولامبالاتهم بامكانات شعبهم . وقد أمر مجلس الشيوخ باعلانها مدنا حرة وحليفة لرومة .

وهكذا ، بعد وقت قصير ، ساد « السلام الروماني » افريقيا ، أي سلام القبور ، سلام الشعوب الحضارية البادة التي يتحول من نجا منها من الموت الى أقوام تفرض عليها البداوة والبدائية الزراعية مجددا . ومع ذلك فـ « السلام الروماني » له شأن كبير في التاريخ : فهو مخيم في قرطاضة، وسيخيم في اليونان و في سورية ومصر ، وسيجمد العالم المتمدن ، ويحرك العوالم البربرية نحو سبعة قرون ( ١٤٦ ق.م. — ٤٧٦ م) أي من انهيار قرطاضة الى انهيار الدولة الرومانية تحت وطأة البرابرة .

بزوال قرطاضة ، لا تزول مدينة ، ولا عاصمة دولة ، ولا قاعدة امبراطورية فحسب ، بل يزول عالم حضاري انساني ، يوزع ويعلم أساليب الحياة الحضارية في جميع ميادينها الحياتية لشعوب بدائية ، لو تركت لنواميس التطور الاولى لمرت عليها الاف السنين قبل أن تصل الى المرحلة التي أوصلتها اليها الحضارة الكنعانية السورية — العربية خلال سبعة

قرون .

بزوال قرطاضة ، وتبعثر الكنعانيين في أبعاد أفريقيا ، حتى انحدرت منهم فئات ، ولا شك الى المناطق السوداء من افريقيا الغربية وضاعت هناك في عالم لم يكن قد وصل في تطوره حتى الى البدائية ... بذلك الزوال المفجع الرهيب ، يندثر القسم المتوسطي الغربي من الحضارة السورية المتوسطية ، ويتسلم قيادة الحضارة العالمية التي دشنها الصيدونيون في المتوسط الغربي حوالي ١١٤٠ ق.م. شعب روماني ، قدر بالغريزة أن يوحد بيئته الطبيعية ، وان تكون له قيادة قومية سياسية وعسكرية ، فأباد رواد الحضارة السوريين ، وتسلم ، مع السلوقيين ، قبل أن يتغلب عليهم في سنة ٦٤ ق.م. قيادة الحضارة العالمية ، فتراجعت هذه الحضارة الى نوع من البدائية شبه البربرية المنظمة ، ولو لم تفعل خميرة زينون الكنعاني الفضائلية في وجدان بعض الاباطرة ، لكانت تقلصت الحضارة السورية الرسولية المعلمة الى مؤسسات سياسية وعسكرية وطرقات معبدة لتسهيل التسلط الروماني على شعوب كانت قد أعطتها سورية خميرة الحضارة .

ولو لم تصل المبادىء المسيحية ، فيما بعد الى قاعدة الامبراطورية الرومانية فتخفف من سطوتها ، ولو لم تأت الرسالة الاسلامية فتبيد كل أثر استبدادي ظالم للسلطان البيزنطي في العالم العربي ، لكانت الحضارة اندثرت وحل محلها سلطان مستبد ، يعطل فعل الحضارة ، ويخضع الانسان لكيفياته القاهرة .

سنرى في الجزء الثاني من هذه الدراسة كيف ان المسيحية قد أضعفت الرومانية والبيزنطية وأعطت الانسان الحضاري أملا في المستقبل أفضل .

وسنرى في الجزء الثالث كيف ان الرسالة ــ النهضة الاسلامية قد طهرت العالم العربي من جبال زغروس الى الاطلسي من آثار البيزنطيين الذين وثنوا المسيحية ليحيوا نفسيتهم الطغيانية الظالمة .

## الاشارات

١ ــ ونحن نلاحظ ان كلمة « قرت » التي أصبحت في اللغة العربية « قرية » كانت تعني باللغة الكنعانية مدينة أو عاصمة . وكلمة « حدشت » التي أصبحت في اللغة العربية « حديثة » أي جديدة كانت تعني باللغة الكنعانية المعنى نفسه .

٢ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢١ .

٣ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٢٦ .

٤ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٢٧ .

٥ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٤٠ .

٦ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٤٦ .

٧ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٦٤ .

٨ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٦٤ .

٩ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٧٣ .

١٠ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٨٣ــ١٨٤ .

١١ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٨٠ .

١٢ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٨٥ .

١٣ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ١٨٦ .

١٤ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٠٦ .

١٥ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٠٧ .

١٦ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٠٧ .

١٧ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٠٨ــ٢٠٩ .

١٨ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٠٩ .

١٩ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٠٩ .

٢٠ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢١٠ .

٢١ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢١١ .

٢٢ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٥٣ .

٢٣ ــ فوستاف لوبون ، الحضارات الاولى .

٢٤ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢١٨ .

٢٥ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٢٢ .

٢٦ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٥٠ .

٢٧ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٥٤ .

٢٨ ــ الوزنة تساوي ٢ كلغ ذهبا أو فضة .

٢٩ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٦٧ .

٣٠ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٦٤ــ٢٦٥ .

٣١ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٥٦ــ٥٧ .

٣٢ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٧٦ــ٧٧ .

٣٣ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٢٧٣ .

٣٤ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٥١ .

٣٥ ــ نقول هذا مع كل احترامنا وتقديرنا لمحاولة الدكتور فيليب حتي كتابة تاريخ سورية وعالمها العربي ، التي كانت ولا شك قيمة ومشجعة لكل دارس مدقق لكي يتعمق في هذا الموضوع

ويصل الى حقائقه الاساسية التي تنير طريق نهوض هذا العالم العربي العظيم .

٣٦ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٨١ .
٣٧ ــ ملخص عن اكثر المؤرخين القدماء والمحدثين .
٣٨ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٠١ .
٣٩ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ٣١٦ .
٤٠ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٢٤ .
٤١ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٢٩ .
٤٢ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٠٤ .
٤٣ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٣٣ .
٤٤ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٠٦ .
٤٥ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٣١ .
٤٦ ــ اخذت مراحل معركة « كانيء » عن جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٤٣ــ٣٤٧ ، وعن ج. ب. بيكر ، هنيبعل ص ١٣٤ــ١٣٧ .
٤٧ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٣٧ .
٤٨ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٥٣ــ٣٥٤ .
٤٩ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٧١ .
٥٠ ــ مدينة يونانية في ايطاليا .
٥١ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٦١ .
٥٢ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٥٦ .
٥٣ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٥٧ .
٥٤ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٤٩ .
٥٥ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٥١ــ١٥٢ .
٥٦ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٥٢ــ١٥٣ .
٥٧ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٧٤ــ٣٧٥ .
٥٨ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ١٣٧ .
٥٩ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٨٠ .
٦٠ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٥٦ .
٦١ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٣٨ .
٦٢ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٨٤ .
٦٣ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٨٦ .
٦٤ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٣٩٦ــ٣٩٧ .
٦٥ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٢٩ .
٦٦ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٠٧ــ٤٠٨ .
٦٧ ــ جورج مصروعة ، هنيبعل ، ص ٥٦٨ــ٥٦٩ .
٦٨ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٥٣ .
٦٩ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٢٨ .
٧٠ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٢٨ .
٧١ ــ جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٢٩ .
٧٢ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٦١ .
٧٣ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٦٢ــ٢٦٣ .
٧٤ ــ ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٧٠ــ٢٧١ .

٧٥ — ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٧٦—٢٧٧—٢٧٨—٢٧٩ .
٧٦ — ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٨٤ .
٧٧ — ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٨٦ .
٧٨ — ج. ب. بيكر ، هنيبعل ، ص ٢٩٧—٣٠٣ .
٧٩ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٧٣ .
٨٠ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٧٧ .
٨١ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٧٨—٤٧٩ .
٨٢ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٧٩—٤٨٠ .
٨٣ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٨١ .
٨٤ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ٤٨٤ .
٨٥ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٩٣ .
٨٦ — جيرار ولتر ، تدمير قرطاضة ، ص ٤٩٥—٤٩٦ .

| | |
|---|---|
| **Gérard Walter** | — «La Destruction de Carthage» |
| | — «La Ruine de Byzance» |
| | — «La Chute de l'Empire Romain» |
| **G.P.Baker** | — «Annibal» |
| **A. Dupont-sommer** | — «Les Araméens» |
| **Pierre Hubac** | — «Carthage» |
| **Eugène Cavaignac** | — «Les Hittites» |
| **Jacques Pirenne** | — «Les Grands courants de l'Histoire Universelle» tome I, II, III, IV, V, VI, VII |
| | — «Civilisations Antiques» |
| | — «Histoire de la civilisation de l'Egypte ancienne» tome I et II |
| **Bertrand Russel** | — «Histoire de la Philosophie Occidentale» |
| **Sabatino Moscati** | — «Histoire et civilisation des peuples sémitiques» |
| **Arnold Toynbee** | — «L'Histoire» (un essai d'interprétation) |
| | — «La civilisation à l'Epreuve» |
| | — «Guerre et Civilisations» |
| | — «Hannibal's Legacy» tome I and II |
| **Arnold Toynbee and Edouard D. Myers** | — «Historical atlas and Gazeteer» A study of History-Volume XI |
| **Georges Radet** | — «Alexandre le Grand» |
| **F. Altheim** | — «Alexandre et l'Asie» |
| **Arthur Weigall** | — «Alexandre le Grand» |
| **Benoist Mechin** | — «Alexandre le Grand» ou le rêve dépassé |
| | — «Alexandre le Dieu» |
| **C.M.Bowra** | — «The Greek Experience» |
| **Jean Starcky** | — «Palmyre» |
| **Gerhard Herm** | — «Les Phéniciens» |
| **Ch. André Julien** | — «Histoire de l'Afrique du Nord» des origines à la conquête arabe (647 ap. J.C.) |
| **J.J. Berreby** | — «La Péninsule Arabique» |
| **Gaston Wiett** | — «Grandeur de l'Islam» |
| **l'Abbé P. Martin** | — «La Chaldée» |
| **Samuel Kramer** | — «L'Histoire commence à Sumer» |
| **Paul Goubert s.j.** | — «Byzance avant l'Islam» tome I - «Byzance et l'Orient» |
| **Roman Ghirshman** | — «Parthes et Sassanides» |
| **Charles Diehl** | — «Byzance: Grandeur et Décadence» |
| **Dr G. Contenau** | — «La civilisation Phénicienne» |
| | — «Le Déluge Babylonien» |
| **Steven Runeiman** | — «La civilisation Byzantine» (330-1453) |
| **T.E. Laurence** | — «Les Sept Piliers de la Sagesse» |

| | |
|---|---|
| **Maurice Gaudefroy Demonbynes** | — «Les Institutions Musulmanes» |
| **Piotrosky et Schultz** | — « Ourartou ,Néapolis des seytes, Kharezm» |
| **René Grousset** | — «L'Empire du Levant» |
| **René Grousset et Emile G. Léonard** | — «Histoire Universelle»<br>tome I-Des Origines à l'Islam<br>tome II-De l'Islam à la Réforme<br>tome III-De la Réforme à nos jours |
| **Emile Bréhier et Pierre-Maxime sehuhl** | — «Les Stoïciens» |
| **Winston S. Churchill** | — «Histoire»<br>tome I-La Naissance d'une Nation<br>tome II-Le Nouveau Monde<br>tome III-Les Temps de la Révolution |
| **St Augustin** | — «La Cité de Dieu»<br>— «Les Confessions» |
| **Philip K. Hitti** | — «History of Syria» (including Lebanon and Palestine)<br>— «History of Arabs» |
| **Oswald Spengler** | — «Le déclin de l'Occident» |

| | |
|---|---|
| انطون سعاده | - "نشوء الامم"<br>- "المحاضرات العشر"<br>- "شروح في العقيدة"<br>- سلسلة "النظام الجديد" |
| الدكتور فيليب حتي | - "خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الادنى"<br>- "لبنان في التاريخ" |
| يوسف الحكيم | - "سورية والعهد العثماني"<br>- "سورية والعهد الفيصلي" |
| كمال الصليبي | - "منطلق تاريخ لبنان"<br>- "تاريخ لبنان الحديث" |
| جورج مصروعة | - "هنيبعل" |
| اسد رستم | - "كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى" |
| المطران يوسف الدبس | - "تاريخ سورية" |
| جوستاف لوبون | - "حضارة بابل واشور"<br>ترجمة محمود خيرت المحامي |
| ابن خلدون | - "المقدمة" |